إنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ



تجديد نظرية الإسلام السياسيّة



تأصيل إسلامي لمبادىء الديمقراطية والشورى والمواطنة والحرية الفردية وحرية الاعتقاد وبحث في الجزية وقتل المرتد ورجم الزاني والخروج على الحاكم وما يجب تطبيقه من الشريعة الإسلامية في دولتنا الحديثة وفهم جديد للقضاء والقدر والخلق والأمر والإيمان بالغيب واللا إكراه في الدين.

تأليف الدكتور

محمّد كمال الشريف

"إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" هود 88

الميزان

تجديد نظرية الإسلام السياسية

تأليف الدكتور محمد كمال الشريف

تأصيل إسلامي لمبادىء الديمقراطية والشورى والمواطنة والحرية الفردية وحرية الاعتقاد وبحث في الجزية وقتل المرتد ورجم الزاني والخروج على الحاكم وما يجب تطبيقه من الشريعة الإسلامية في دولتنا الحديثة وفهم جديد للقضاء والقدر والخلق والأمر والإيمان بالغيب واللا إكراه في الدين.

طبعة أولى مُنَقَّحة 2016

ISBN: 978-0-9990298-0-0

الناشر: محمد كمال الشريف

drmkalsharief@gmail.com

الميزان

تجديد نظرية الإسلام السياسية

المحتويات

مقدمة	**15**
الفصل الأول: الأسس النفسية للحرية الفردية في الإسلام	**20**
الحرية والحياة	20
الغريزة	21
تطوير لا تطوّر	23
تطوير في علم الله	24
الناصية الخاطئة	26
المستخلف المبدع	26
آلات حية تتعلم	30
الكائن المفكر	31
الشعور المفكر واللا شعور الآلي	33
بين الروح والجسد	35
ثم أنشأناه خلقاً آخر	36
لسنا مجرد آلات حية	39
العقل يتبع القلب	40
الاقتناع بالمرغوب	41
الاستقراء والاستنتاج	42
الشك واليقين	45
الإيمان أيضاً علمي	47
قابل للتخيل لكنه مستحيل	48
الإيمان بالغيب	49
الإيمان والدوافع	50
الإيمان والانتماء	52

اختبار القابلية للهداية	53
الانتماء والعزة	54
الرجوع إلى الحق	55
الفطرة في اللاشعور	56
الكبر والكفر	59
خداع النفس والاهتداء	63
الحب أساس الإيمان	65
تأليف القلوب والإيمان	67
حرية رغم المعجزات	68
من شاء فليؤمن	70
الفصل الثاني: الأسس العقدية للحرية الفردية في الإسلام	**72**
تمهيد	72
القضاء والقدر والخلق والأمر: فهم جديد لنصوص قديمة	73
أسباب القلق النفسي	73
إذن الله مشيئة	74
لأفعالنا فاعلان	75
كل شيء بقدر الله	75
الخلق بالقَدَر	76
معنى خَلَق عند العرب	77
تفكير علمي وإيماني معاً	79
قَدَر وحرية	81
الخلق بالأمر	81
كلمات الله	82
اطمئنان بعد حَيْرة	83
القضاء من القدر	84

لكل خلق مادته	86
يؤخرهم إلى أجل مسمى	87
هي كفارة وليست عقوبة	89
التدخل المباشر	93
التدخل استجابة للدعاء	96
مصائب منجيات أو نافعات	98
دورنا في صنع الأقدار	102
فائدة الإيمان بالقدر	104
وهكذا يكون في إيماننا بالقدر	106
الرزق والأجل	107
ولا أبالي	110
الشفاعة يوم القيامة	116
وخلق لها أهلها	121
الفصل الثالث: دولة الكتاب والحكمة	**126**
عُطّلت الحدود فزادت أهميتها	126
قبل تحكيم الشريعة	128
أشكال التطبيق	130
مدنية بمرجعية إسلامية	131
الإسلاميون يكتشفون الديمقراطية	132
دولة إسلامية علمانية	133
يعلمهم الكتاب والحكمة	136
غاية الفروض والتحريمات	138
الحكمة مكمّلة للشريعة	140
ورثة الأنبياء صنفان	142
السلفية النّصيّة	147

الفصل الرابع: حرية الاعتقاد في النظام السياسي الإسلامي	**149**
الحق واحد لا يتعدد	149
الحماية من التشكيك	150
الحماية من التحريف	151
أشركوا بعد توحيد	153
النّاس	155
حرية الاعتقاد	160
لا مجاملة ولا مداهنة ولا عدوان ولا تمييز	161
المبادىء لا تُنْسَخ	162
الشبهات تدرأ الحدود	164
الفصل الخامس: المواطنة والعلاقة بغير المسلمين	**166**
طور العزة والغلبة	166
الجزية من قبل الإسلام	169
تصحيح التصورات	172
وهم صاغرون	174
نهاية الغلبة	177
أزمة ثقة	178
الشروط العمرية	178
خوف مبرر	182
وضع جديد وأحكام جديدة	184
من سياسة إلى دين	187
المواطنة والانتماء عند المسلم	190
أمة متحابة متماسكة رغم الاختلاف	195
الحب غير الولاء	196
المودة مع الكافر	198

السلام على الكافر	201
مواطنون لا ذميون	205
الفصل السادس: الحاكمية لله أم لسواه	**208**
تمهيد	208
قصة الحاكمية	211
لكن ما علاقة هذا كله بالحاكمية ؟	213
السوفرنتي في النظام السياسي الإسلامي	215
الحاكمية في القرآن	216
الحكم بمعنى قضاء البشر فيما بينهم	216
الحكم بمعنى قضاء الله يوم القيامة	219
الحكم بمعنى القضاء أي القدر المتعمد من الله	221
الحكم بمعنى التشريع والأحكام المشرعة	222
الحكم الذي يصدر عن القاضي	223
الحكم بمعنى المحاكمة العقلية المنطقية	224
الحكم بمعنى الحكمة	224
الإحكام لآيات القرآن	225
التحاكم بمعنى الاحتكام	225
الأئمة	226
هل الحاكمية في دولة المسلمين لله أم لسواه ؟	227
هل يحتاج إيماننا إلى مفهوم الحاكمية لإكماله ؟	231
الفصل السابع: الإسلام والديمقراطية	**232**
تعريف الديمقراطية	232
الاستقلالية المنقوصة	232
اللا عبودية حرية	233
فطرة الاستقلالية	235

الحرية والديمقراطية	237
لا إكراه في الدين	239
أمة بلغت رشدها	243
إذن ما الحل وما المخرج من هذا الاستعصاء	245
التعددية التشريعية	246
احترام مقدسات الآخرين	248
لكل مواطن طائفته	249
حقوق مدنية متساوية	251
السلطة الرابعة دينية	254
بين الشورى والديمقراطية	356
الفصل الثامن: الإصلاح وتغيير منكر المحكومين	**263**
المعروف والمنكر	263
تغيير المنكر بلا حكمة	266
القطعي مقدّم على الظني	269
ربنا لا يبالي بالجزئيات	268
تغيير المنكر بالقلب وقاية	269
من ابتلي فليستتر	276
تغيير المنكر باللسان	277
تغيير المنكر باليد	280
الحسبة	281
صلاحيات المحتسب	282
الإسلاميون وتحديات الربيع العربي	284
التزام لا إلزام	287
الحجاب	291
الموسيقى والفنون الأخرى	295

كرامة المواطن	296
الفصل التاسع: الإصلاح وتغيير منكر الحاكمين	**298**
إصلاح لا خروج	298
جهاد الكلمة وكفّ الأيدي	305
الإعلام سلاح السلمية	310
رخصة الدفاع ضد العدوان	312
دفاع لا هجوم	316
إخواننا بَغَوا علينا	323
من قبل أن تقدروا عليهم	325
الخروج المحرم	329
الدفاع المشروع	335
إهدار الدم حكم قضائي	339
الفصل العاشر: الحدود	**341**
الإسلام هو الحل	341
حد الردة	347
حد الحِرابة	348
حد السرقة	349
حد الزنا والجرائم الجنسية الأخرى	349
جلد لا رجم	349
هنا أيضاً القطعي مقدم على الظنّي	357
المبادىء	361
الجلد نَسَخَ الرجم	372
حدّ الخمر... فاجتنبوه	374
تفوّق الإسلام	379
تعزير السكران	386

الأدلة المستنبطة	391
الفصل الحادي عشر: الإرهاب الإكراهي	394
في البداية	394
داعش وانقسام الأمة	394
الأهداف خمسة	395
رَعَوْهم ثم عادَوْهم	395
الظن الخاطىء	396
لابد من أخذها بالاعتبار	397
دعاية مضادة غير مجدية	398
أمور واجبة وحقائق غائبة	399
الإنصاف	399
الوضوح	401
ليسوا مجانين ولا سايكوباثيين	404
بُغاة لا مجرمين	405
إكراهيون وإرهابيون	406
الإسلام المعتدل	407
إثراء لا إلغاء التعليم الديني	409
الفصل الثاني عشر: مقال الديمقراطية الإسلامية	410
الخاتمة	413
ملاحق كتاب الميزان	414
1 - وثيقة المدينة	414
2 - نظرات نفسية في حجاب المرأة المسلمة	419
3 - القيم في التربية:	426
أ - وضوح القيم في التربية	426

ب - القيم والاستخلاف في الأرض	427
ج - الخلافة في الأرض أصل كل القيم	429
د - القيم والكرامة والحياء	431
4 - مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر:	433
أ - النية والدافع النفسي	433
ب- فهو في سبيل الله	435
ج - خلفاء الله في أرضه	438
د- بل عباد مكرمون	440
هـ- بالتقوى يصير المباح عبادة	443

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: أحمد الله أن أعانني على إتمام هذا الكتاب ليصدر في وقته إن شاء الله ، إذ الأفكار الجديدة تؤثر في الواقع أشد وأسرع إن هي أتت في وقتها وأوانها. وأدعو المولى تعالى أن يكون كتابي هذا إضافة تنفع الناس ، وتمكث في الأرض ، ويُضاعَف لي الأجر والمثوبة من الرحمن.

بداية قد يتساءل بعضهم عن سبب تسميتي لهذا الكتاب «الميزان: تجديد نظرية الإسلام السياسية» لِمَ هو الميزان؟ والقصة بكل بساطة أنني أديت العمرة في شهر مايو أيار عام 2004 ، وألححت على ربي في طوافي أن يعينني على أن أترك علماً نافعاً في سبيله قبل أن أموت. بعدها بأسابيع قليلة جاءتني البشارة برؤيا رأتها أخت لي فاضلة ، هي المعالجة النفسية العراقية ، الدكتورة فائقة حبيب محمد ، كنت فيها أحمل ميزاناً ، والناس متجمعون من حولي ، فأسرعت هي لتهنئني ، وقد أوّلت الدكتورة فائقة الرؤيا بقولها لي: «إن شاء الله ستكتب ما ببالك وتضع لهذه الأمة ميزاناً».. تفاءلت بالرؤيا وبالتأويل من أخت صالحة ، أحسبها كذلك ولا أزكي على الله أحداً ، فأنا ممن يبنون على الرؤى المبشرة ، وبخاصة إن كان تأويلها واضحاً. وأصارحكم أني شعرت يومها أن كلمة ميزان للأمة أكبر بكثير مما كان لدي من أفكار ، حيث كنت أكتب مقالاً شهرياً مطولاً لمجلة الفرحة ، حول الحياة الزوجية ، من منظور نفسي إسلامي ، وكنت أنتظر أن يتجمع لدي منها ما يكفي لإصدار الكتاب الثالث من سلسلة «بصائر

نفسية إسـلامية» ، التي كان الكتاب الأول منها «سكينة الإيمـان» والثاني «تربية الطفل: رؤية نفسية إسلامية» وكلاهما متوفران على النت.

بعد هذه البشارة بأيام قليلة طرأ في حياتي طارىء مكّنني دون اختيار مني من أن أتفرَّغ للقراءة والبحث والتفكُّر ثلاث سنوات كاملات ، استعاد فيها ذهني نشاطه وحيويته وقدرته على الإبداع ، بعد إرهاق السنين الطويلة في العمل. في هذه الفترة والسنين التي بعدها ، فتح الله علي ببعض الأفكار البسيطة ، لكنها قد تحدث نقلة في عقلية المسلمين المعاصرين ، وأدعو الله أن تكون كما أحسبها.

في السنين الأخيرة توضحت في ذهني نظرية نفسية إسلامية ، عرضتها مختصرة ، في المؤتمر العالمي التاسع للطب النفسي ، الذي نظمته جامعة عين شمس في الإسكندرية في شهر مايو أيار 2013. كما توضح لي فهم للقضاء والقدر ، والخلق والأمر ، يجعل التفكير العلمي من مكونات تفكيرنا الإيماني ، فتتسع عقولنا وقلوبنا لحقائق الإيمان ولمكتشفات العلم ، ولا يبقى منها شيء متعارضاً مع إيماننا. أوروبا فصلت العلم عن الدين وحررته من سلطة الكنيسة ، فانطلقت محلقة في سماء العلم التجريبي والنظري والتقني ، لكن كان الثمن باهظاً ، فقد ضحى الأوربيون بالدين كي يفوزوا بالعلم.

نحن ولله الحمد في غنىً عن أن نفعل مثلهم ، إننا عندما نفهم القضاء والقدر كما جاء في الأحاديث الشريفة والآيات الكريمة ، ونفهم كيف يخلق الله بالقَدَر ، ويخلق بالأمر ، وأن الخلق في لغة العرب هو التقدير ، يتحد الإيمان بالعلم في عقولنا اتحاداً بكل معنى الكلمة ، ولا يبقى أي افتراق بينهما ، مما سيمكّن الأمة الإسلامية من التقدم في كل شيء إن شاء الله و"لا إله إلا الله" تسري في علومها سريان الروح بالجسد ، تحييه ولا تلغيه. ولن تدركوا أبعاد ما أقوله الآن عن الفهم الجديد للقضاء والقدر والخلق والأمر ، ما لم تقرؤوا الفصل الثاني من هذا الكتاب ، لتروا كيف أن عقيدتنا منسجمة تمام الانسجام ، ومتكاملة مع التفكير العلمي الذي

يدعونا إليه المفكرون العرب المعاصرون كي تنهض أمتنا وتتقدم ، لأنها لن تنهض ولن تتقدم ما لم يكن تفكيرنا علمياً. لا يمكننا الاستغناء عن ديننا كي ننهض ونتقدم ، فنحن بعد أن عرفناه لن تحركنا أية فكرة أخرى لنبذل وسعنا إلا إن كانت نابعة منه. الإنسان الذي عرف الإسلام لن ينبهر بأية دعوة أخرى بحيث تدفعه للعمل بكل طاقته ، لأن كل دعوة سواه ستبدو للمسلم أقل قيمة ، ولا تستحق أن يكرس حياته لها إلا إن هو تخلى عن إسلامه ، لكننا اليوم نستطيع أن نجمع في عقولنا العلم المعاصر القائم على التفكير العلمي التجريبي والإيمان بديننا فيتحدان ويتزاوجان بدل أن يتجاورا أو يتصارعا.

كنت أخطط في ذهني لكتاب رابع يتلو كتابي «مودة ورحمة: علم نفس الحب والجنس والزواج من منظور إسلامي» الذي لم يكتمل بعد ، ولم يصدر حتى الآن ، وكنت أنوي أن أعرض في الكتاب الرابع ما وصلت إليه من مفاهيم نفسية ودينية متكاملة مع بعضها بعضاً ، وتغطي مجالات الحياة الإنسانية كلها ، بما فيها السياسية. ما كنت أتوقع يوماً أنني سأكتب في صميم السياسة ، وأن أفكاري الجديدة سيضمها مؤلَّف سياسي. لكن الربيع العربي والثورة السورية ، وخشيتي على بلدي سورية من الحرب الطائفية والدمار والتقسيم ، كل ذلك دفعني إلى أن أكتب أول مقال سياسي في حياتي ، وذلك في أكتوبر تشرين الأول عام 2011 بعنوان «ما يحدث في سورية.. إلى أين» ، ثم شاء الله أن أكتب بعده مقالات متممة له حاولت فيها أن أساهم في ترشيد الثورة السورية ، وسعيت إلى المحافظة على سورية موحدة لكل السوريين.

ثم تحاورت مع بعض الإخوة والأصدقاء المهتمين بالشأن السوري في جدة ، واقترح علي الأخ والصديق الدكتور منذر دباس أن أكتب «تجديد نظرية الإسلام السياسية». وعدته خيراً يومها ، لكنني لم أكن أملك في ذهني تصوراً ، ولا في نفسي الثقة أنني أقدر أن أجدد نظرية الإسلام السياسية. وجلست الساعات الطوال كل يوم أبحث في النت عن كل بحث أو كتاب أو مقال له علاقة بالقضايا السياسية التي تشغل شعوبنا هذه الأيام ، مثل الحرية الفردية التي تشمل حرية الاعتقاد كما هي متاحة في المجتمعات الحديثة ، والديمقراطية والمواطنة

والعلمانية وعلاقة المسلمين بغير المسلمين الذين يشاركونهم الوطن. لقد أعانني ما قرأت على النت ، وما تصفحته من كتب وأبحاث ، على ترتيب أفكاري ، فاندمج في ذهني ما هو نفسي ، وما هو عقدي ، وما هو فقهي ، وما هو سياسي.. فأثمر ذلك كله فصول هذا الكتاب.

أضع اليوم الطبعة الأولى من كتابي هذا بين أيديكم ، وأنا آمل أن أضيف في الطبعة الثانية منه ، إن شاء الله ، فصولاً عن الإسلام وقضايا المرأة ، وحقوق الإنسان ، لكني حرصت على نشر كتابي هذا قبل أن أنجزها كي لا يتأخر صدوره ، حيث إن الحاجة إليه ماسّة ومستعجلة ، وقد مكنني فيه ربي من عرض تأصيل إسلامي غير متكلّف ، ولا يلوي أعناق النصوص ، للحرية الفردية ، وللمواطنة ، وللديمقراطية ، وللسلمية واللاعنف في عملية الإصلاح والتغيير الاجتماعي داخل المجتمع الواحد ، وكيفية تطبيق الحدود إذا عادت الشريعة إلى مكانتها ، وطُبقت كلها من جديد في البلدان الإسلامية التي عُطِّلت فيها إلا في الأحوال الشخصية. لقد أصّلت للمواطنة فقهياً ونفسياً ، حيث يكون غير المسلمين في أوطاننا مواطنين لا ذميين ، وحيث نعود إلى المبدأ الذي كدنا أن نضيعه وهو مبدأ «لا إكراه في الدين» ، لنفعّله ونعممه على جوانب الحياة الإنسانية كافة ، فيتطور فهمنا لديننا ، تطوراً يمكننا من أن نكون مؤمنين حق الإيمان ، ومعاصرين حق المعاصرة ، في الوقت ذاته ، أي تكون لنا حداثتنا الإسلامية.

في هذا الكتاب ، اقترحت سلطة رابعة دينية في الدولة الديمقراطية التي ننشدها ، ونريدها أن تكون دولة مواطنة وديمقراطية حقيقيتين ، دون اللجوء إلى العلمانية ، التي لا تنسجم مع ديننا على الإطلاق. لكن هذه السلطة الرابعة المستقلة عن باقي السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، لا تهيمن على غيرها من السلطات ، بل تعمل موازية لها بحيث يتعاون الجميع كل في مجاله.

وفيه رجعت إلى وثيقة المدينة ، التي وضعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لتكون أول دستور مكتوب في التاريخ ، يضمن تعايش الأمم التي يتكون منها مجتمع المدينة المنورة

يومها ، رغم اختلاف عقائد أهلها من مؤمنة ويهودية ومشركة ، ودعوت إلى الاقتداء بها لإنشاء دولنا الديمقراطية التعددية ، التي لا يدفع فيها الجزية أحد ، بل يكون فيها الجميع مواطنين متساوين بالحقوق والواجبات.

واقترحت فيه نمطاً من تطبيق الشريعة يعيد الاعتبار لحقيقتين ، الأولى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بُعث ليعلم الناس الكتاب والحكمة ، والثانية أن دين الإسلام كَمُل ، وهداية الله تمت ، قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أخبرنا ربنا في كتابه الكريم.

تصورات جديدة تحل كل الإشكالات التي تواجهنا ، وبخاصة بعد الربيع العربي ، ولا يمكن في هذه المقدمة حتى تلخيصها ، دون أن تتحول المقدمة نفسها إلى كتاب صغير ، لذا أكتفي بهذا التمهيد ، وأدعوكم إلى فصول كتاب «الميزان» ، وأنا متلهف لملاحظاتكم ، سواء منها اللغوية والمطبعية أو الفقهية والفكرية ، وأنا شاكر وممتن لكل من يجود علي برأيه مهما كان مخالفاً لي ، لأنني أتعلم من إخواني ومن الحوار معهم ، وأثبت هنا بريدي الإلكتروني ليتواصل معي من شاء منكم: drmkalsharief@gmail.com

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمد كمال محمود الشريف

نجران – المملكة العربية السعودية

20.16/01/05

الفصل الأول

الأسس النفسية للحرية الفردية في الإسلام

الحرية والحياة

لو تأملنا جميع الكائنات من حولنا فإننا نجد الجمادات والنباتات لا إرادة لها ولا حرية ، أما الحيوانات فلها إرادة غير متطورة وتقيدها الغرائز ، التي تجعل الحيوان يريد شيئاً معيناً لا سواه ويبذل ما يستطيع لفعله. لو تأملناها أكثر لوجدناها كلها إما تتحكم بها العوامل الفيزيائية والكيميائية أو الغرائز المركوزة فيها. الجمادات التي تتركب من ذرات تحتوي كل ذرة منها أجساماً سالبة الشحنة الكهربائية وأجساماً موجبة الشحنة الكهربائية تتحرك باستمرار كما تتحرك الكواكب في الأفلاك ، وهي دائماً خاضعة لقوانين الفيزياء والكيمياء خضوعاً مطلقاً ، كما أنها لا تعي وجودها بأي شكل من أشكال الوعي ، وليس لها غايات خاصة بها تسعى لتحقيقها.

أما النباتات فهي آلات حية تعمل ليل نهار وتمر من طور إلى طور في دورة متجددة ، لها غاية لا تسعى فيها من أجل ذاتها ، بل تعيش وتموت من أجل غيرها. الحيوانات كائنات تدرك ما حولها ولها إدراك محدود لذاتها ، وهي تعيش وتموت وتفعل ما تفعله في حياتها تقودها غرائز ولدت بها وجبلت عليها ليست شيئاً تعلمته أو اكتسبته.. الغرائز هي علم دون تعلم ، علم من أصل خلقة أجهزتها العصبية ، تثير لدى الحيوان الرغبة في فعل أمر معين على نحو معين ، كما لو كان الحيوان قد تعلمه وتدرب عليه ، وإضافة للمعرفة المبرمجة في دماغ الحيوان هنالك الرغبة في فعل هذا الأمر ، وليس عنده أي دافع لمقاومة هذه الرغبة ، أو طريقة الفعل ، بل هو ينهمك في الأفعال الغريزية انهماك المقبل والمتحمس والراغب بما تمليه عليه الغريزة من أفعال. والحيوان يعمل ليل نهار من أجل بقائه ومن أجل بقاء نوعه ، مع أنه لا يشعر لِمَ يفعل ذلك ، إنما الغاية من سلوكه غاية وضعها خالقه ، وجعل فيه من الغرائز ما يحققها.

الغريزة

هنالك منعكسات عصبية تلقائية تنظم بعض جوانب حياة الحيوان ، لكن الغريزة شيء أكثر من مجرد منعكسات آلية مبرمجة وفق نسق معين ثابت. إن أفضل تشبيه يساعد على فهم الغرائز هو تشبيهها بالفعل القهري compulsion الذي يعانيه مريض (القُهار) (الوسواس القهري) حيث تسيطر عليه رغبة ملحة في فعل شيء لا داعي له ، وكثيراً ما يكون سخيفاً محرجاً للمريض إن اطلع عليه الناس ، وإن لم يقم به المريض زاد توتره النفسي إلى حد مزعج ، يضطره إلى الاستجابة لهذه الرغبة الغريبة حتى يرتاح ، رغم أنه غير مقتنع بهذا الفعل أبداً ، وهو غالباً يستتر من الناس عندما يفعله. أحد مرضى (القُهار) الوسواس القهري الذين عالجتهم كان شاباً في الثلاثين من عمره وعاقلاً من جميع النواحي ، متزوجاً وله عمل منتظم ، أصابه المرض فأصبح يعاني من عدة أعراض (للقُهار) أي الوسواس القهري ، وكان من الأفعال القهرية التي يتوتر كثيراً إن لم يقم بها أنه كان كلما دخل إلى غرفة مثلاً عاد وخرج ، ثم يدخل مرة ثانية ، ثم يخرج ليدخل مرة ثالثة حتى يبلغ سبع مرات بعدها يستقر في الغرفة أو يقوم بما جاء من أجله.. لم يكن يعرف معنىً لضرورة أن يكون عدد المرات سبعاً ، كما كان يستسخف فعله ، لكن الرغبة التي تلح عليه كلما تكرر الموقف تسبب له توتراً لا يزول إلا عندما يؤدي الفعل القهري بالكيفية المطلوبة والعدد المحدد. رجل آخر كان كلما رأى ثقباً في جدار أو أثاث أو ثوب أو أي شيء ألحت عليه رغبة في أن يدخل أصبعه في الثقب الذي رآه ، مع أنه يجد الأمر غير منطقي ولا فائدة منه ، وذات ليلة اضطر للنوم في بيت صديق له ، وعندما استلقى على الفراش ونظر إلى سقف الغرفة رأى فيه ثقباً ، فجاءته الرغبة في أن يضع أصبعه فيه.. حاول أن يصرف النظر عن ذلك وأن يتناسى هذه الرغبة السخيفة وبخاصة أن الثقب بعيد المنال ، لكنه لم يستطع النوم حتى وضع قطع الأثاث فوق بعضها بعضاً وصعد عليها ليبلغ السقف ويدخل أصبعه فيه ، وبعدها استراح ونام حتى الصباح.

مرض القُهار أو الوسواس القهري له أشكال لا تحصى ، حيث تختلف أعراضه من مريض لآخر ، لكنها عند الجميع تشمل رغبة ملحة بفعل شيء لا طائل منه ومعاناة التوتر النفسي المزعج ما لم يستجب لهذه الرغبة. وهو مرض عضوي ناتج عن اضطراب في عمل الدماغ ، حيث لم ينفع في علاجه إلا الامتناع عن الاستجابة للرغبة الملحة وتحمل التوتر المزعج ومع الأيام

يهدأ التوتر وتختفي هذه الرغبة ، أو أن يتناول المريض أدوية معينة تقوي فعالية مادة السيروتونين في المخ بجرعات قصوى ولأسابيع عدة ، فتتحسن قدرة المريض على الامتناع عن أفعاله القهرية أو على الأقل الإقلال منها ، وعليه الاستمرار على العلاج مدة طويلة قد تكون مدى الحياة أحياناً.

والأفعال القهرية هذه تشبه الإدمان كثيراً ، حيث تتكون لدى الإنسان رغبة مكتسبة في فعل شيء ضار له غالباً ويتمنى لو يستطيع الامتناع عنه ، كالذي أدمن التدخين حتى أصابه احتشاء في عضلة قلبه ، وأمره الطبيب أن يمتنع نهائياً عن التدخين ليحمي قلبه من جلطات أخرى قد تكون قاتلة. ورغم خطورة الأمر نجد الكثير من المرضى يستمرون في التدخين لا لأنهم يريدون أن يموتوا إنما لأن رغبة وشهوة مكتسبة قد ترسخت عند المريض بحيث لا يرتاح منها إلا إن هو دخن. الفارق بين الإدمان والفعل القهري في مرض الوسواس القهري أن المدمن غالباً يدمن على شيء فيه متعة ولا يبدو للمدمن سخيفاً لا معنى له ولا فائدة منه ، إنما يدخن مدمن التبغ ليتمتع باللذة التي أدمن عليها ، وهو يتمنى لو كان بوسعه التدخين كما يشاء ليستزيد من المتعة التي يحصل عليها من التدخين دون أن يهدد صحته. هو ميال لفعل ما أدمن عليه لكن الضرر الناتج عنه يجعله يبذل ما يستطيع كي يمنع نفسه من الانغماس في تعاطي أو فعل ما هو مدمن عليه. بينما مريض القهار أو الوسواس القهري يقوم بالأفعال القهرية وهو نافر منها وكاره لها ويتمنى أن يتمكن من الامتناع عنها مع أن أغلبها لا يكون ضاراً ، اللهم إلا من حيث الوقت والجهد الضائعان في فعل ما لا جدوى منه ولا متعة فيه.

الرغبة الجنسية عند الإنسان غريزة تلح عليه إن رأى ما يثيرها ، لكنه يقاومها لأن سلوكه الجنسي يجب أن يكون بالحلال المشروع فقط ، وهنا النفس تميل إلى الشيء الذي تدعو هذه الرغبة لفعله ، وإن كرهته كان ذلك لأن إشباعه من الحلال متعذر وعدم إشباعه مزعج لنفسه ، أي هو مقتنع بالفعل الجنسي ولا يستسخفه بل يتمناه ، لكن خوفه من العواقب يجعله يمتنع حتى عن النظر إلى النساء كي لا يثير في نفسه تلك الرغبة.

الفعل الجنسي استجابة لشهوة طاغية ، وتناول شيء أدمن عليه الإنسان رغم رغبته القوية في الامتناع عنه ، واستجابة مريض القُهار (الوسواس القهري) للرغبة الملحة لديه في فعل شيء لا يريده ، كل ذلك يتم بشكل إرادي حيث يقرر الإنسان أن يفعل ما يشعر بالرغبة في فعله ليستريح ، وهو لو شاء أن يمتنع ويتحمل التوتر في المرحلة الأولى لاستطاع ، والدليل على

ذلك أن مريض القُهار (الوسواس القهري) يمارس طقوسه الغريبة في السر في أغلب الأحيان ، أي ينتظر حتى يخلو بنفسه ليؤديها دون أن يراه الناس. الأفعال القهرية فيها الرغبة الملحة لكن القيام بها فعل نابع من إرادة الاستسلام وإشباع هذه الرغبة من أجل الارتياح.

أغلب الظن أن غرائز الحيوان هي من هذه القبيل ، لكنه ليس لديه ما يدفعه للامتناع ومجاهدة نفسه ، بل قد يجد فيها متعة تجعله سعيداً وهو يقوم بها. الإنسان في تكوينه ووظائفه الحيوية يشبه الحيوانات إلى أبعد الحدود ، لكن الخالق خلقه لغاية عظيمة وأعطاه القدرة على التعلم بعد أن يخرج إلى الدنيا لا يعلم شيئاً ، ولم يتبق من الغرائز لديه إلا الشهوة الجنسية وحالات الإدمان والقُهار (الوسواس القهري). قال تعالى:

"وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{78}" النحل.

تطوير لا تطوّر

خلق الله الإنسان من الطين مباشرة ثم قال له كن فكان آدم بكلمة الله وأمره ، صحيح أن آدم خلق على غرار الحيوانات التي سبقته وعلى غرار البشر الذين سبقوه وكانوا أقرب في تكوينهم إلى الحيوانات ، وقد رأى الملائكة سلوكهم حيث سفك الدماء والإفساد في الطبيعة الرائعة ، فتعجبوا أن يجعل الله من هذه الكائنات البشرية البدائية خليفة له في الأرض. خلق الله آدم عليه السلام من تراب بقوله «كن» فكان ، مثلما كان عيسى عليه السلام يخلق (أي يشكّل) من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، طيراً حقيقياً من لحم ودم وله قلب يخفق ويمكنه التكاثر مثل باقي الطيور التي جاءت من أب وأم. قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام:

{وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} آل عمران49

لم يكن لآدم أب أو أم، ومن ضلعه، ولعلها خلية جذعية من نقي العظام من أحد أضلاع صدره أخذت وأجريت عليها هندسة وراثية بسيطة تم فيها حذف الصبغي y الذي يجعل المولود ذكراً وضوعف بدلاً عنه الصبغي x ثم نُشّطت الخلية لتنطلق في رحلة نمو وتطور مثلما يتطور الجنين في رحم أمه، واكتمل خلقها فكانت نسخة مؤنثة من آدم، أي تم استنساخ حواء من إحدى خلايا آدم كما يفعل البشر هذه الأيام، فكان لحواء أب خلقت منه، ولم يكن لها أم حملت بها وقدمت بييضتها لتتكون منها حواء، ولتجمع الجينات المورثة من الأم والأب فتأتي تشبه كلاً منهما في أشياء وتختلف عنه في أشياء. كانت جميع جينات حواء المورثة هي جينات آدم من دون مورثة الذكورة، وكل جنين يفتقد الصبغي y لا بد له من أن يتخلق أنثى، وحتى بوجود الصبغي y لكن مع عدم إحساس خلايا الجنين بهرمون التستوستيرون فإن الجنين يتخلق أنثى. إذن كانت حواء نسخة مؤنثة عن آدم، أي أنها خلقت في أحسن تقويم مثل آدم الذي خلقه الله بيديه جل في علاه ثم قال له كن فكان. ويقال إن يوسف الصديق أعطي شطر الحسن، وهذا يعني أن آدم ومثله حواء كانا أجمل منه مرتين. قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً{1}" النساء.

تطوير في علم الله

هذا المخلوق الذي كرمه الله وجعله في الأرض خليفة كان مطوراً عن أرقى الحيوانات بما فيها البشر البدائيين تطويراً عظيماً جداً، جعله قادراً على إدراك المعاني وعلى الترميز وتكوين المفاهيم والبيان عن نفسه بالكلام وغير الكلام. كما لو أن شركة صناعة السيارات التي تطور كل سنة موديلات سياراتها درجة فتكون السيارة الأحدث فيها ميزات التي قبلها مع زيادة في الخصائص والإمكانات، لو تخيلنا أن شركة كهذه فاجأت الدنيا بسيارة مطورة عن التي قبلها ألف مرة دون أن تنتج هذه الشركة الموديلات التي كانت ستنتجها مطورة قليلاً كل عام بحيث يتم التطوير درجة درجة وعلى مدى ألف عام. ستكون هذه السيارة العجيبة سيارة مثل

السيارات التي سبقتها في الوجود ، لكنها ستمتلك من المزايا والقدرات ما يتجاوز آخر موديل سبقها تجاوزاً لا يبقى معه أي مجال للمقارنة مع أن البنية الأساسية متشابهة ، نضرب هذا المثل لتقريب الأمر إلى الأفهام ولا ننسى أن نقول تأدباً مع ربنا (ولله المثل الأعلى).

كان في آدم صفات وقدرات لم تكن لدى الحيوانات السابقة عليه في الوجود ولو درجة بسيطة منها. كان التطوير نوعياً حيث ظهر مع آدم ما لم يكن فيمن قبله أبداً ودفعة واحدة دون كائنات يظهر فيها تدرج التطوير. خلق الله آدم وحواء وأعطاهما الحسن كله بينما لا يوجد حيوان أبشع من القرد الذي يدعي المكابرون أن الإنسان تطور منه. خُلق آدم بمشاعر وأحاسيس يعبر عنها بالكلمات ويعبر عنها بالضحك أو البكاء ، وليس هنالك حيوان واحد في الوجود يضحك أو يبكي أو يشعر بالعواطف التي نشعر بها ، والإنسان يضحك ويبكي منذ ولادته ، لكنه لا يمشي إلا بعد عمر ، والتطوريون يقولون إن ظهور قدرة الإنسان على الضحك والبكاء منذ ولادته تناقض قوانين التطور التي يؤمنون بها. أنا أضيف لقائمة ما يسير عكس قوانين التطور جمال الإنسان وانتقال الجمال عنده إلى الأنثى بينما في كل الحيوانات الذكر هو الأجمل ، وانتقال المسؤولية عن إطعام الذرية مما تصطاده الحيوانات إلى الذكور في بني آدم في حين أن الأنثى هي التي تعمل عند جميع الحيوانات وتصطاد لذكرها وصغارها ما يأكلونه. قال تعالى:

"ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{6} الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ{7} ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ{8} ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{9} وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ{10} قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ{11} وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ{12} وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{13} فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{14} إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ{15} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{16}" السجدة.

الناصية الخاطئة

وبالعودة إلى القدرات العقلية عند آدم وذريته التي لا تقارن بها قدرات الحيوانات أية مقارنة ، نرى أن مخ الإنسان فيه إضافات كبيرة في حجمها ليست لدى الحيوان ، واستئصالها أو تلفها لا يفقد الإنسان القدرة على الحركة وعلى القيام بجميع الوظائف البدنية التي يشترك فيها مع الحيوانات ، أهم جزء منها يكون في مقدم المخ أي في الجزء الأمامي منه الذي يسمى الجبهي ، حيث تكمن القدرة على ما يسمى (الوظائف العقلية التنفيذية) ، كإدراك المفاهيم المجردة والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد ، والحكمة في التصرف والقول ، واتخاذ القرارات. لذا توعد الله العصاة أنهم يوم القيامة يُسْفعون أي يُمْسكون ويجرون من نواصيهم ، وقال عن ناصية كل منهم ناصية كاذبة خاطئة ، لأن هذه الناصية "مقدم الرأس" بما فيها من أجزاء المخ هي التي قررت الكفر والعصيان.

قال تعالى: " كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ {15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ {16}" العلق.

المُسْتَخْلَفُ المبدع

لنتأمل قصة آدم عليه السلام مع الملائكة الذين رشحوا أنفسهم للخلافة في الأرض بدلاً عنه. الملائكة كائنات يخلقها الله بكلماته وهي من نور ولا تحتاج إلى طعام أو شراب تستمد منه الطاقة وينبني منه جسدها ، هذه الكائنات النورانية ليس في نفوسها أي ميل أو دافع لعصيان الله والفسوق عن أمره ، فهم يفعلون ما يؤمرون دون زيادة أو نقصان أو اجتهاد ، وهذا يعني أنهم لا ينسون شيئاً أبداً. ومع ذلك بدت المباراة بين آدم عليه السلام والملائكة التي أظهرت لهم أن آدم هو الأجدر بالقيام بدور خليفة الله في أرضه وكأنها اختبار ذاكرة فاز فيها آدم عليه السلام - الذي من طبعه أن ينسى - على الملائكة الذين لا ينسون أبداً. يقول تعالى:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{30} وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{31} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{32} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{33} " البقرة.

والتساؤل المشروع كيف يعلم ربنا الأسماء لآدم ولا يعلمها للملائكة ثم تكون معرفة آدم لها وجهل الملائكة بها حجة على أن آدم أجدر منهم بدور الخلافة ؟

لم تكن القضية قضية ذاكرة وقدرة على الحفظ ، وإلا لكان الأمر محسوماً لصالح الملائكة الذين ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولو كان النسيان ممكناً عندهم ، لما استطاعوا ذلك. إن التعليم من الله في القرآن يعني في بعض المواضع إعطاء القدرة على فعل أمر ما ، كقوله:

"الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4}" الرحمن.

وكلنا أتينا إلى الدنيا لا نقدر على أكثر من البكاء ، لكن بما ركبه الله في خَلقنا وخَلق أدمغتنا نحن مجهزون بالبنية اللازمة وبالبرامج التي نستطيع بها أن نكتسب اللغة عندما ينمو المخ لدينا ويتطور على مر الشهور والسنين ، فنتكلم ونبين عن أنفسنا. وهكذا كان تعليم ربنا لآدم الأسماء كلها تعليم إقدار لا تعليم تلقين. أيّ ذاكرة يمكن لها أن تتسع للأسماء كلها لو كان الأمر تلقيناً؟ لقد أعطى الله آدم القدرة على تسمية الأشياء ، وهكذا علمه الأسماء كلها.. والقدرة على تسمية الأشياء تحتاج إلى أجهزة وبرامج في المخ تقوم بها ، والله زود آدم وذريته من بعده بكل ما يلزمهم لتعلم البيان وتسمية الأشياء. وعلى المستوى العقلي تحتاج تسمية الأشياء إلى القدرة على إبداع المفاهيم والقدرة على الترميز ، أي أن يرمز بصوت أو خط لشيء من الأشياء ، وهذا الذي نفعله عندما نقول شجرة فنفهم ما تعني دون أن نذهب إلى الشجرة لنراها بأعيننا.

القدرة على الترميز وعلى إبداع المفاهيم هما أساس القدرة البشرية المذهلة على الإبداع والاكتشاف ، وهنا تفوق آدم على الملائكة في أنه قادر على الإبداع والاكتشاف ، بينما الملائكة

محدودون بما يُلقَّنوه من معلومات ويتقيدون حرفياً بما يؤمرون به دون ابتكار أو اجتهاد. وهذا الفرق بين دور الجندي الذي يفعل ما يؤمر بدقة وحرفية وبين دور الخليفة في الأرض الذي أعطي القدرة على الإبداع وأعطي الحرية لينظر الله إلى عمله ، قال تعالى:

"قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ{129}" الأعراف.

لِمَ كانت القدرة على تسمية الأشياء دليلاً على جدارة آدم من دون الملائكة بأن يكون هو وذريته خلائف لله في الأرض؟ حتى نعرف السبب علينا أن نحدد المقصود بقوله تعالى: خليفة. القرآن ميسر للذكر ونزل بلسان عربي مبين ويخاطب العقول جميعها بمفاهيم قادرة على إدراكها. إن أنت استخلفت شخصاً مكانك ما الذي تريد منه أن يفعله؟ بكل بساطة تريد منه أن يتصرف تماماً كما كنت ستتصرف أنت لو كنت حاضراً. أي يقوم بما تقوم به نيابة عنك. هذا عندما يستخلف أحدنا غيره على شأن من شؤونه في غيبته أو مرضه ، لكن الله حاضر لا يغيب وصمد لا يحتاج إلى سواه في شيء ، ومع ذلك أخفى ربنا نفسه عنا وترك لنا الآيات أي العلامات التي تدلنا عليه ، وتركنا فيما يبدو لنا وحدنا في الأرض نواجه كل أنواع التحديات وهو ينتظر منا أن نتصرف كما لو كان هو مكاننا. هذا استخلاف اختبار أي ابتلاء لا استخلاف استعانة أو غيبة. إذن الخلافة عن الله في أرضه هي بكل بساطة التخلق بأخلاقه والتشبه بصفاته وأفعاله ، وعندها نكون خلفاءه في الأرض ونحقق غاية وجودنا. أي إن ربنا رحيم وخلافتنا له هي ممارستنا للرحمة لنكون مثله رحماء ، وربنا عليم وخلافتنا له أن نتعلم لنكون علماء ، وربنا كريم وخلافتنا له أن نكون مثله كرماء ، وربنا قوي وخلافتنا له أن نكون مثله أقوياء ، وربنا بديع السماوات والأرض أي مبدعها وخلافتنا له هي في الإبداع والابتكار لكل جديد نافع ، وربنا منتقم وخلافتنا له أن ننتقم دون أن نظلم ، وربنا عادل لا يظلم وخلافتنا له هي أن نعدل ولا نظلم ، وربنا غفور وخلافتنا له أن نغفر لمن أساء إلينا كما نطمع أن يغفر هو لنا... صفات الكمال المطلق التي تلخصها أسماء الله الحسنى ، نحن مستخلفون في الأرض لنتمثلها ونحققها في أنفسنا في حدود حجمنا وطاقتنا وقدرتنا ونحن نردد مع كل حركة "الله أكبر". لذا كانت صفة واحدة لله لا تنبغي لغيره وهي العظمة والكبرياء محرمة علينا ولن ندخل الجنة ما لم نتب منها أو يغفرها لنا ربنا أولاً. قال تعالى بعد أن روى لنا نهاية قارون المستكبر:

"تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}" القصص.

خُلِقَ آدم وذريته وعندهم القدرة على هذه الخلافة عن الله في الأرض ، وأعطُوا في صميم خلقهم وتكوينهم القدرة على تحقيقها والدافع النفسي لتحقيقها. لذا كان الاختلاف الأكبر بين الإنسان والحيوان أن الحيوان لا يدرك إلا ما هو في مجال حواسه ، ولا يفهم للأشياء معنى ، بل يقوم بما يقوم به لأن الله رسم له طريق حياته نجداً واحداً لا نجدين منهما يختار.

الإنسان هو الكائن الوحيد على سطح الأرض القادر على إدراك المعاني والذي بمجرد أن يشبع ويدفأ ويأمن على نفسه يكون تحقيق المعاني هدفه الأول في الحياة. الإنسان يُمَعْنِن meaningize كل شيء ، أي يجعل لكل شيء في الحياة معنى ، فحتى الوظائف الحيوية الطبيعية كالجنس والتبول والتبرز شحنها بمعانٍ كثيرة فلا نجد ثقافة لا تكون المسبات والإهانات فيها متعلقة بها. الإنسان يعيش حياته كلها من أجل المعاني التي تتجلى في الأفكار والمشاعر والقيم. ولا يصل الإنسان إلى البلوغ العقلي إلا عندما يصبح قادراً على إدراك المعاني المجردة التي تعبر عنها اللغة بأسماء المصدر مثل عدل وإحسان وإخاء وحرية وكرامة وظلم و... وما شابه من مفاهيم مجردة تعبر عن المعاني والمُثل. هذا ما يميزنا عن الحيوان ويجعلنا جديرين بتكريم الله لنا واستخلافه إيانا في الأرض.

هذا الإنسان المستخلف وليس المُسْتَجْند الذي هو أرقى من جميع الحيوانات بما لا يوصف ، يتركز تفوقه وتقدمه عليهم في دماغه ، إذ ليس لأي جهاز أو عضو من أعضائنا أية ميزة على أعضاء الحيوانات ، وقد تتفوق علينا أحياناً. النقلة العجيبة في الخلق تركزت في الدماغ وفي القدرات العقلية التي أعطاها الله لنا. لقد حررنا من سلطان الغرائز التي تسيطر على جميع الحيوانات وجعلنا أحراراً نختار ما نعمله ونختار ما نؤمن به وما نشعر به من عواطف ومشاعر. فلنتأمل كيف يعمل الدماغ لدينا وكيف تَميّزنا عن الحيوان بالإرادة الحرة حتى في أن نصدق أمراً ما أو ننكره فلا نؤمن به رغم وجود الأدلة التي تناقض ما اخترناه من موقف وما ارتضيناه من اعتقاد.

آلات حية تتعلم

أدمغة الحيوانات أغلبها آلية لا تفكر بالمنطق العقلي الذي نعرفه ، بل تُسَيّرها البرامج العقلية الارتباطية التي خلقها الله فيها ، فما تتعلمه بعد ولادتها لا يتعلمه دماغها إلا عن طريق ارتباط الأشياء ببعضها بعضاً ، حتى لو لم يكن هنالك علاقة حقيقية بينها وهو ما ندعوه في علم النفس الإشراط conditioning وهو نوعان: الأول يكتسب به الكائن منعكسات لم تكن لديه من قبل ولا هي مما جبل عليه ويسمى الإشراط الكلاسيكي ، والثاني يكتسب فيه الكائن سلوكات مع الميل إليها أي ما يشبه الغرائز ويسمى الإشراط العملي أو الإجرائي. الحيوان يمكنه أن يتعلم أشياء مدهشة عن طريق الإشراط لكنه لا يفهم أبعادها ولا غاياتها ، فعلى سبيل المثال لا يعلم الأسد في السيرك لم يعطيه مدربه قطعة لحم كلما قفز عبر حلقة نار مشتعلة ، لقد ارتبط القفز عبر الحلقة المشتعلة بالحصول على لقمة من الطعام المفضل لديه فصار المخ لديه راغباً في تكرار هذا العمل كي يحصل على المزيد دون أن يدرك أية علاقة منطقية بين السلوك والمكافأة. ومثال آخر ، الطير الذي يدرب على أن ينقر على جهاز أمامه كلما أبصر شيئاً برتقالياً وذلك ليساعد فرق الإنقاذ في العثور على ركاب طائرة أو سفينة اضطروا للقفز إلى البحر وهم يلبسون ستر النجاة البرتقالية ، ويصعب على البشر رؤيتهم بسهولة من طائرة الإنقاذ لكن الطير نظره حاد ويرى بسرعة ما يمكن أن لا ننتبه له. الطائر يعمل ما نريد دون أن يدرك أبداً لم نريده أن يفعل ذلك ، فقد تعلم هذا السلوك عن طريق الإشراط لا عن طريق الفهم والاقتناع أي الاستبصار.

ليس هنالك حيوان قادر على التعلم بواسطة الفهم والاستبصار إلا القليل جداً مما لوحظ عند القردة. عقل الحيوان كله آلي لا يفكر بالمنطق ، مع أنه لديه شعور ووعي بنفسه وبما حوله ، لكنه لا يستطيع أن يفهم من ذلك كله إلا القليل القليل. ولنأخذ مثالاً الببغاء ، إنه قادر على أن يردد ما نقول بطريقة مذهلة ، لكنه أبداً لن يدرك معنى كلمة واحدة. هو ترداد آلي يعجبنا لكن لا معنى له عنده. ومثله الطفل المصاب بالذُّوات "بضم الذال المشددة" أو ما يسمى التوحد autism حيث يكون في بعض الحالات لديه قدرة طبيعية على الكلام لكنه كالببغاء لا يستطيع أن يتعلم أي معنى لهذا الكلام ولا أن يقول لأمه أريد أن أشرب مع أنه قادر على أن يردد أغنية أو سورة قرآنية. تستهويه أغاني الأطفال الراقصة كما في طيور الجنة ، لكنه

أبداً لا يعرف لم نتكلم ، فحتى اسمه لا يعني له شيئاً إلا أنه صوت من الأصوات قد يجعله يلتفت أحياناً ولا يلتفت أبداً في أغلب الأحيان حتى يشك الطبيب والوالدان هل هو أصم أم هو يسمع كما نسمع.

الكائن المفكر

الدماغ عند الإنسان لا يزال يحتوي على كل ما يحتويه دماغ أرقى الحيوانات تطوراً ، لكن عنده فوق ذلك زيادة هائلة مما لا يمتلك الحيوان شيئاً منه. وهذا يعني أنه لا يزال عند الإنسان دماغ آلي يعمل بالارتباطات لا بالأفكار والقناعات. هذا صحيح فالإنسان من الناحية الحيوية البدنية حيوان مركب من أعضاء وأجهزة حية تحتاج إلى جملة عصبية تنظم عملها وتجعل منها كائناً واحداً متكاملاً ، وهذا ما يقوم به الجزء المشترك بيننا وبين الحيوانات من الدماغ. هذا الجزء الآلي لا نشعر بعمله إنما نشعر بنتائج هذا العمل اللاشعوري ، فهو ينظم تنفسنا وهضمنا وخفقان قلوبنا وتوازن أبداننا من جميع النواحي الكيميائية والهرمونية والحركية وغير ذلك مما لا يمكن إحصاؤه هنا من أعمال لا بد منها كي نبقى على قيد الحياة ونتمتع بالعافية والقوة. وهذا الجزء اللاشعوري من الدماغ فيه تصنع المشاعر والعواطف وتقدم جاهزة للجزء الواعي المفكر ليعيشها ويعانيها أو يتمتع بها ، ومنه تأتي الشهوات ، وفيه يتشكل الإدمان ، وفيه تنشأ الرُّهابات phobia المختلفة حيث يخاف الإنسان شيئاً لا يخيف أحداً عادة ، ولا يحمل خطورة حقيقية أو ذات أهمية ، لكن الشخص يحس إن كان بقربه بالرعب الشديد المزلزل مع أنه يستسخف هذا الخوف المرضي الذي لديه.

الجزء الآلي من دماغنا موروث ومبرمج على كل ما عليه القيام به ولا يحتاج منا لأي تدخل أو مساعدة. ولو تدخلنا لأربكنا عمله. أما ما تميزنا به عن الحيوان من إضافات على الدماغ فهو جزء كبير جداً من أدمغتنا ، وهو الجزء الإرادي الواعي ويحكمه المنطق الذي يتفق عليه كل البشر.

يحوي هذا الجزء المفكر كل ما يتعلمه الإنسان من معلومات أو مهارات وذكريات وقناعات ، وهو يتحكم بمشاعرنا فيتبعه الجزء الآلي اللاشعوري ويصنع له مشاعر الحب إن كان الإنسان يريد أن يحب شخصاً أو شيئاً ، ويصنع له مشاعر الكراهية والعداوة إن كان لديه قناعات يقرر بسببها أن يبغض شخصاً معيناً ويعاديه.

كان وعينا سيغرق في طوفان المعلومات والمنبهات الحسية والذكريات لو كانت كل تلك الأشياء حاضرة في وعينا دفعة واحدة. وحتى نتفرغ للأفكار المهمة والمشاعر المؤثرة في حياتنا جعل الخالق دماغنا المفكر الواعي قادراً على تحويل الكثير مما يمكن أن يشغله إلى ما يشبه لاشعور مكتسب ، حيث تفقد الذكريات الكثير من التفاصيل ، لتندمج في شريط حياة الشخص ، مع أن الدماغ يحتفظ في مكان منه بذكرى كل المواقف التي مررنا بها ، فإذا ما نبهنا هذا المكان من الدماغ عاش الشخص ذلك الموقف وكأنه يقع الآن ، وأحس بالمشاعر نفسها التي شعر بها وقت حدوث هذا الموقف ، وهذا ما اكتشفه جراح كندي اسمه ويلدر بنفيلد Wilder Penfield عندما كانت علاجات مرض الصرع في أولها ولا تسيطر على المرض عند كل المرضى ، لذا كانوا يلجؤون لاستئصال المنطقة من المخ التي منها تنطلق موجة كهربائية تعم المخ كله وتسبب نوبة الصرع. كان لا بد حتى يتم تحديد منطلق نوبة الصرع لاستئصالها من أن تتم الجراحة بالتخدير الموضعي ، فيبقى المريض صاحياً ، ويفتح الطبيب الرأس ويكشف المخ وينبه أجزاء المخ المشكوك أنه منها تنبعث النوبة ، ينبهها بتيار كهربائي ضعيف جداً ، لعله يستثير المشاعر وربما الهلوسات التي تأتي قبل نوبة الصرع مباشرة ، فيقوم الجراح باستئصال هذا الجزء الصغير من المخ. لا تتعجبوا أن يتم ذلك والمريض صاحٍ ، لأن في الإنسان عضوين لا يشعران بالألم أبداً ، وهما الرحم والدماغ. المهم أخذ هذا الجراح ينبه نقطاً صغيرة في مخ المريض بالكهرباء ، فإذا بالمريض يعيش موقفاً كان قد مر به من سنين لم يكن يذكره ، بل وتغمره المشاعر نفسها التي كانت لديه وقت حدوث الموقف. تكرر ذلك كلما قام بتنبيه منطقة تستثير ذكرى غير الأولى ، وكأن هنالك تسجيل بالصوت والصورة والمشاعر لكل ما يمر به الإنسان في حياته ، هاماً كان أو غير هام. وجد بنفيلد النتائج نفسها مع كل المرضى ، فعلم أن ذلك شيء يشترك فيه الناس جميعهم.

المهم أننا لو كنا نستعمل هذه الذاكرة في حياتنا اليومية فإنه لن يبقى لدينا قدرة على أن نعيش واقعنا المستجد. نحن نستعمل ذاكرة أخرى يأخذ فيها الحدث المهم حيزاً صغيراً ، ويندمج في شريط الذاكرة اندماجاً لا يبقَ فيه أية بروزات أو حدود تفصل هذه الذكرى عن باقي الشريط ، ولعل حالات الارتجاع (الفلاشباك) التي يعاني منها المصابون بالهُوال (اضطراب الكرب التالي للصدمة النفسية) Post Traumatic Stress Disorder ، وهو المرض النفسي الذي يصيب كثيرين ممن مروا بمواقف شعروا فيها بالرعب الشديد

والهول ، لعلها ناتجة عن بقاء تسجيل الموقف قريباً من الوعي ولم ينجح المخ في دمج هذه الذكرى المرعبة في شريط حياة الشخص ، بعد أن ينسى الكثير من تفصيلاتها والمشاعر التي رافقتها ، لذا يحاول العلاج النفسي لهذه الحالات أن يساعد المريض على هضم الذكرى ودمجها في شريط حياته ، بدل أن تبقى بارزة وضاغطة على نفسه.

الشعور المفكر واللاشعور الآلي

نعود إلى الجزء المفكر الواعي من أدمغتنا الذي فيه نشعر بوجودنا وندرك الأشياء والأشخاص من حولنا ونفكر بمنطق ونحس أننا نفكر عندما نفكر. هذا الجزء يحول كل مهارة أتقنها وكل فكرة ترسخت لديه إلى فكرة أوتوماتيكية تحدث بسرعة ودون تفكير ، أي يتكون لدينا لاشعور مكتسب مفكر إضافة للاشعور الموروث الآلي. لقد أراد لنا ربنا أن نتمتع بوعينا لنعيش اللحظة التي نحن فيها بحلوها ومُرّها ، لذا أراح وعينا من القيام بعمليات عقلية شعورية كثيرة تشغله وتستهلك تركيزه وانتباهه. وجعل عقولنا لا تستطيع أن تفكر في اللحظة نفسها في أمرين لا علاقة لأحدهما بالآخر ، أي ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه كما عبرت عن ذلك هذه الآية الكريمة:

"مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ{4}" الأحزاب.

فما يتحول إلى أوتوماتيكي وسريع جداً وإلى حد كبير لاشعوري ، يبقى خاضعاً للإرادة ، ويتحمل الشخص مسؤولية ما يصدر عنه من تصرفات أو أفكار أو مشاعر. ولتقريب الفكرة من الأفهام نأخذ مثالاً الشخص الذي يتعلم قيادة السيارة لأول مرة في حياته. في البداية يحتاج أن يركز على ما يفعل وينتبه بكل ما يستطيع من قدرة على التركيز والانتباه ، ومع ذلك يبقى مرتبكاً وكثير الأخطاء. لكن درساً بعد درس تبدو قيادة السيارة أهون وأكثر متعة ، وبالمران الذي يكتسبه بعد أن يقود سيارته مرات عديدة تجده قادراً على أن يفعل أشياء كثيرة وهو يقود ولا يكاد يخطىء في شيء ، مع أنه يحس أنه يقود دون أن يفكر. التفكير لا بد منه لقيادة السيارة

لكن حتى يتفرغ الوعي للمستجدات تَحَوّل التفكير في القيادة إلى أوتوماتيكي ولاشعوري، ويبقى الشخص قادراً على أن يراقب نفسه ليرى كيف أنه يفكر وهو يقود السيارة.

في العلاج النفسي طريقتان للعلاج تحاولان الوصول إلى هذه العمليات العقلية التي أصبحت لاشعورية، لكنها ماتزال مؤثرة في وعينا وسلوكنا وأفكارنا ومشاعرنا.

الطريقة الأولى التي ابتكرها فرويد تحاول جعل المريض يفهم من الأفكار التي أصبحت لاشعورية من كثرة ما مر بها ما هو غير مناسب ويتسبب بالأعراض والحالة النفسية التي يعانيها، أي جعل المريض يدرك آليات الدفاع النفسي التي تعوّد اللجوء إليها ليفهم دورها في ما يعانيه نفسياً.

أما الطريقة الثانية للعلاج النفسي المتعلقة بالعمليات العقلية المفكرة التي من كثرة تكرارها صارت أتوماتيكية وسريعة جداً وإلى حد كبير لاشعورية، فهي العلاج السلوكي المعرفي الذي أثبتت الدراسات فائدته في كثير من الأمراض النفسية بعكس التحليل النفسي المكلف والمشكوك في فائدته.

في هذا الجزء من تفكيرنا الواعي الذي صار لا واعياً بدرجة كبيرة دون أن يصبح لا إرادياً، تتم عمليات خداع النفس التي يقع فيها أغلبنا إن لم نكن كلنا، والذي تدفعنا إليه مخاوفنا أو رغباتنا وشهواتنا أو كبرياؤنا أو عقدة النقص والدونية فينا أي أهواؤنا، فنصل إلى قناعات نعلم في أعماق عقولنا أنها قناعات تخالف الحقيقة والواقع، وعلى السطح نحس أننا وصلنا لهذه القناعات بالتفكير المنطقي أو العلمي أو الموضوعي أو الناقد أو غير ذلك من أنواع التفكير التي يحترمها الناس. ولخداع النفس دور كبير في الوصول إلى الكثير من القناعات والمعتقدات التي تؤثر أهواؤنا في موقفنا منها كالإيمان والكفر والاختلاف.

هذا الكائن المستخلف في الأرض لا تتحكم به الغرائز ولا يسيره اللاشعور كما ادعى فرويد ومن اتبعه. إنه كائن حر ذو إرادة طليقة يمارسها على كل المستويات وحتى الأدلة المتعددة لا تجعله يؤمن إن كان لا يريد أن يؤمن.

كيف ذلك؟

دماغ الإنسان ينتج المشاعر والأفكار والسلوك، وهو جزءان: مفكر وآلي. المفكر هو الجزء الواعي الذي يعمل وفق المنطق ومعه ما تحول منه إلى لاشعور مكتسب أوتوماتيكي. أما الآلي فمنه تأتي المشاعر والعواطف سواء التي استدعاها العقل المفكر أو تأتي دون إرادته عند المرض النفسي.

الوعي المفكريسميه القرآن والحديث الشريف «النفس»، كما يسمي الكائن البشري بكامله عندما تتحد الروح بالجسد نفساً. ولا غرابة أن يكون لكلمة واحدة في القرآن معنيان، وبخاصة أنهما متعلقان ببعضهما بشدة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه النووي في الأربعين نووية وغيره: «استفتِ قلبكَ: البرُّ ما اطمأنتْ إليهِ النفسُ، واطمأنّ إليهِ القلبُ، والإثمُ ما حاكَ في النفسِ وترددَ في الصدرِ، وإن أفتاكَ الناسُ وأفتوكَ»، وفي رواية أخرى عند المنذري وغيره: «البرُّ ما سكنت إليه النَّفسُ واطمأنَّ إليه القلبُ والإثمُ ما لم تسكُنْ إليه النَّفسُ ولم يطمِئنَّ إليه القلبُ وإن أفتاك المُفتون». ولنلاحظ هنا أنهما شيئان مستقلان الأول: النفس، أي العقل الواعي المفكر، والثاني: القلب الذي فيه العواطف والضمير وهو اللاشعور الموروث منه والمكتسب.

لكن قبل التعمق في هذه الأمور دعونا نبحث هل النفس هي الروح أم أن الجسد الحي مكون أساسي فيها؟.. لا شك عندنا أن كل إنسان لا يصير إنساناً إلا بعد نفخ الروح في جسده وأن الروح تنزع من هذا الجسد عند الموت.

بين الروح والجسد

الأديان كلها تؤمن بالروح وتؤمن أن الروح هي النفس البشرية أي هي الإنسان الذي أشير له عندما أقول: أنا، وتؤمن أن الروح هي التي تعقل وتفكر وتشعر، وما الجسد الحي إلا آلة تستخدمها الروح خلال حياتها في الأرض، لكن الروح هي كل شيء من ناحية الوظائف العقلية كلها.

العلم في الحضارة الغربية لم يتقدم إلا بعد أن تحرر من سلطان الكنيسة ، لذا نشأ معادياً للدين ، وهذا جعلهم ينكرون الروح ويؤمنون أن الإنسان ما هو إلا جسد حي متطور ، وحيوان نشأ لديه الشعور بنفسه وبما يحيط به ، لكنه لا يزال حيواناً ولاتزال الغرائز تسيره ، لكنه يخدع نفسه ويدعي المبررات العقلية التي دفعته لتصرفاته موهماً نفسه أنه كائن حر الإرادة.

علماء الحياة والطب والفيزيولوجيا لا يذكرون الروح أبداً بل يتهربون من ذكر أي شيء يفهم منه أنهم يؤمنون بوجودها ، لأن ذلك تخلف وتراجُع عن المنطق العلمي حسب الرأي السائد لديهم. وعلماء التحليل النفسي الذي بدأه فرويد هذه هي نظرتهم للإنسان ، وفلسفة العلاج عندهم تقوم على تبصير المريض بالحيل النفسية ، التي يمارسها دون أن يشعر ، ويخدع بها نفسه ، وعنها تنتج الأعراض المرضية. علماء المدرسة السلوكية في علم النفس تهربوا حتى من الحديث عن اللاشعور والغرائز ونظروا للإنسان على أنه آلة حية تتأثر بما تمر به من خبرات ، فيَقْوى ميلها لسلوك معين ويَقِلّ لسلوك آخر ، وهم في دراساتهم لا يأخذون في اعتبارهم إلا التنبيه الواقع على الكائن والاستجابة الصادرة عنه بفعل هذا التنبيه. ولا يهمهم ما يجري داخل رأس الكائن لأنهم لا يستطيعون دراسته بشكل مباشر.

ثم جاء علماء النفس الإنسانيون الذين رفعوا من تقديرهم للنفس البشرية حتى لتكاد تشبه إلهاً صغيراً ، ومع أنهم لا يؤمنون بالروح فإنهم أيضا لا يؤمنون بما يدعيه التحليليون أن الغرائز تسير الإنسان ، بل يؤمنون بإرادة حرة للإنسان ونزوع لديه إلى أمور لا توجد لدى الحيوان مثل الانتماء والحب وتحقيق الذات.

لقد تقدم العلم وصار واضحاً لنا أن أدوية معينة يمكنها أن تعالجنا من مزاج مرضي كالاكتئاب أو الهوس ، ويمكنها أن تخلّص المريض العقلي من أوهامه المرضية ، وهذا رسّخ في العلم المعاصر ، النظر إلى الإنسان على أنه جسد حي متطور جداً لحد الشعور بوجوده والتفكير بذاته ومستقبله. أما الأطباء النفسيون المسلمون فما زالوا مترددين هل الروح هي التي تفكر وتشعر وتتصرف ، وعندها يتناقضون مع المكتشفات الثابتة عن عمل الدماغ ودوره في توليد المشاعر والأفكار والتصرفات ، أم يَعْزون كل شيء للجسد الحي ، وعندها يتناقضون مع المسلّمات الدينية ، وكأنهم أنكروا الروح التي ذكرها ربنا ونبينا عليه الصلاة والسلام.

ثم أنشأناه خلقاً آخر

إن الاعتقاد أن الروح هي النفس وهي التي تعقل وتتصرف اعتقاد كان سائداً في جميع الأديان الكبرى قبل أن ينزل القرآن ، والسؤال هنا هل جاء في القرآن والحديث ما يؤكد هذا الاعتقاد السائد عند أغلب البشر ؟

إن الآيات والأحاديث لا تدعم صحة هذا الاعتقاد إنما هي تركز على الجسد الذي خلق من تراب تركيزاً شديداً كلما تحدثت عن الإنسان كنوع أو كشخص ، والذي أريد أن أقرره قبل أن أسرد الأدلة وحتى لا يضيع القارىء في خضم النقاش والشواهد الكثيرة أن القرآن الكريم والحديث الشريف عند الحديث عن نفخ الروح في الجنين يقول الله: ثم أنشأناه خلقاً آخر ، والإنشاء يشمل الجسد لأن الآيات التي قبلها تحكي عن خلق جسم الجنين في رحم أمه. إن نفخ الروح في الجنين الحي وعمره في رحم أمه مئة وعشرون يوماً يجعله خلقاً آخر ، أي لم يعد جسداً حياً حلت به نفس مكونة من روح ، لأنه لو كان الأمر مجرد سكن للروح في الجسد لما تغير إلى خلق آخر بمجرد نفخ الروح. روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: حدَّثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوقُ: «إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خلقة في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا نطفة ، ثم يكونُ عَلَقَةً مِثلَ ذلك ، ثم يكونُ مُضغَةً مِثلَ ذلك ، ثم يَبعَثُ اللهُ إليه ملكًا بأربعِ كلماتٍ ، فيكتُبُ عملَه ، وأجلَه ، ورزقَه ، وشقِيٌّ أم سعيدٌ ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ ، فإنَّ الرجلَ ليَعمَلُ بعملِ أهلِ النارِ ، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ ، فيَسبِقُ عليه الكتابُ فيَعمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ فيَدخُلُ الجنةَ. وإنَّ الرجلَ ليَعمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ ، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ ، فيَسبِقُ عليه الكتابُ ، فيَعمَلُ بعملِ أهلِ النارِ ، فيَدخُلُ النارَ».

وقال تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ{12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{13} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{14}" المؤمنون.

هذه الآية صريحة أن عقولنا غير قادرة على فهم أي شيء يخبرنا الله عن طبيعة الروح ودورها في تكوين أنفسنا البشرية ، لأن إيتاء الله العلم يعني إقدارنا على تعلمه ، وهو لم يعطنا القدرة على فهم كنه غير المادة التي خلقنا منها. لم يكن الصحابة يفهمون شيئاً من الآيات والأحاديث التي تتحدث عن خلق الجنين ، لكنهم نقلوها لنا بأمانة استطعنا في هذا العصر أن نفهم الكثير مما تحدثت عنه ، لكن لا أمل في أن يأتي يوم نفهم فيه أي شيء كان من الممكن أن يخبرنا الله إياه عندما سئل محمد صلى الله عليه وسلم عن الروح.

إذا علمنا أن الروح فوق إدراكنا ولن نفهم شيئاً عنها ، نعلم أن كل الادعاءات التي تتحدث عن الروح وكأنها شيء قابل للإدراك هي إدعاءات باطلة. أولها الادعاء أن الروح هي النفس التي تشعر وتفكر وتتصرف ، وثانيها الادعاء أن هنالك مُتَع روحية تقابل الشهوات البدنية ، وأن إضعاف الجسد يساعد الروح على السيطرة عليه والتسامي فوقه ، وغير ذلك مما يدعي كثيرون أنهم يعلمونه عن الروح. الروح من أمر ربي وما أوتينا من العلم إلا قليلاً ، ليست هي النفس وليست هي التي تتكلم أو تشعر أو تفكر إذاً لكان ربنا أخبرنا أشياء كثيرة عنها لأن ما ينسبونه للروح كله قابل للإدراك ، وما كان الله ليبخل علينا بأثارة من علم عن الروح تشبع فضولنا.

لستُ روحاً في جسد ، بل أنا الروح والجسد متحدان معاً ، وليس الذي أظنه الروح إلا ذاتي الواعية العاقلة التي تكونت من اتحاد روحي بجسدي اتحاداً يعجز عقلي عن فهمه أو تصوره. ليس جسدي شيئاً تابعاً لي أستخدمه وأتصارع معه عندما يلح علي بشهواته ورغباته التي يريد إشباعها ، بل جسدي هو أنا لكنني لست جسداً خالصاً ، فأنا "خلق آخر" ظهر لحظة اتحاد روحي بجسدي الحي ، أنا جزيء الماء الذي يظهر لحظة اتحاد ذرة أكسجين بذرتي هيدرجين ، فيختفي الأكسجين والهيدرجين ولا يبقى إلا الخلق الآخر أي الماء ، وإن كان جزيء الماء يبقى قابلاً لأن يتفكك ليعود الأكسجين ويعود الهيدرجين وينعدم جزيء الماء. وهكذا أنا قابل للتفكك والانعدام كنفس بشرية عندما تنزع روحي من جسدي ليعود الجسد مجرد جسد وتعود الروح مجرد روح ، ومتى شاء خالقي أعاد اتحاد روحي بجسدي لأعود للوجود ، أنا بذاتي ، لا نسخة عني ، فيما لو كنت مجرد جسد حي.

الروح تنزع عند الموت نزعاً يحتاج إلى ملائكة تقوم به ، وهو نزع ترافقه معاناة كبيرة يخففها ربنا على المؤمنين الصالحين ، أما الاعتقاد أن الروح تذهب وتعود كلما استسلمنا

للنوم، وكأن اتحادها بالجسد وانفكاكها عنه أمر بسيط وعادي يتم بكل يسر وسهولة، فيتعارض مع ما أخبرنا إياه ربنا. يحكي لنا الله عن نزع الروح عند الوفاة فيقول:

"فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ{83} وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ{84} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ{85} فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87}" الواقعة.

إنه نزع للروح يشبه الولادة التي قد تكون ميسرة ومع ذلك لا بد فيها من الآلام، أو تكون متعسرة تشتد فيها المعاناة كثيراً.

نحن نفوس بشرية ليست أرواحنا أكرم من أجسادنا، بل كلاهما لهما الأهمية ذاتها ومنهما أنشأنا الله، ولم يطلب منا تعذيب أحدهما لينطلق الآخر. كلها حالات للوعي ومشاعر يحس بها الروحانيون فيبنون عليها عقائد معقدة بتفصيلات كثيرة لا دليل عليها إلا إيمانهم بها.

لسنا مجرد آلات حية

ويبقى السؤال: إن كنا لا نستطيع أن ندرك شيئاً عن الروح، وكل ما يمكننا إدراكه هو جسدنا والظواهر العقلية التي نعيشها على الدوام من عواطف وأفكار وإرادات، فلِم أخبرنا الله عنها وأكد وجودها المرة تلو الأخرى؟

في زمن التقدم العلمي المذهل صار الإنسان يصنع آلات تفكر وتتجاوب معه وتعينه في حياته أو صناعاته، وصار واضحاً له أنه هو نفسه آلة حية تعمل بالكيمياء والكهرباء والميكانيك، يتم صنعها في الرحم وتنمو وتتطور على مر السنين ثم يأتي يوم تنتهي فيه. إن إدراك ذلك دون معرفة أننا خلقٌ آخر أكثر بكثير من مجرد آلات حية، يجعلنا نحتقر أنفسنا ونحس أننا أشياء صغيرة تافهة، لكن معرفتنا أننا لسنا مجرد أجساد حية، بل فينا روح من طبيعة غير المادة ومكرمة من رب العالمين الذي كثيراً ما يقول عنها: من روحي فينسبها لنفسه جل في علاه، تحمينا من أية مشاعر انعدام القيمة والقدر والكرامة كمخلوقات حية، وترفع تقديرنا لذاتنا، لأننا نعلم أننا أكثر من مجرد أجسام حية كأجسام الحيوانات. ومما يرفع قدر الذات عندنا أكثر، هو أن نعلم أن ربنا العظيم الأكبر، الذي ليس كمثله شيء، خلق آدم وخلقنا نحن مثل آدم على صورته أي صورة الرحمن، وإن كان في الحقيقة ليس كمثله شيء. إن

معرفة ذلك تكمل لوازم أدائنا لدور الخليفة عن الله في الأرض ، نتشبه بصفاته وأخلاقه قدر الإمكان.

مع ذلك عندما ندرس النفس البشرية ، نتناسى الروح ، ونبحث عن القوانين التي تنظم عمل هذه النفس ، سواء البدني أو العقلي ، ندرسها كما يفعل الدارسون الغربيون ، لأننا نعلم أن الروح موجودة لكن نعلم أيضاً أنها ليست مما يمكننا إدراكه أو دراسته ، ندرس كل النشاطات الحيوية والظواهر النفسية ونحاول فهم النفس الإنسانية ما استطعنا لنرى آيات الله التي وعدنا أن يرينا إياها في الآفاق وفي أنفسنا.

العقل يتبع القلب

نعود لنتأمل كيف يعمل دماغنا ، وكيف هو حر أن يؤمن إن شاء ، أو أن يكفر رغم وضوح الأدلة ، لأنه لا يريد أن يؤمن ، وبالتالي يستحق من آمن الثواب من رب العالمين ، لأنه آمن دون أن يكون عقله مجبراً على الإيمان ، ويستحق الكافر الذي بلغته دعوة الرسل العقاب ، لأنه رفض الإيمان ولم تكن مشكلته قلة الأدلة.

ما نقول عنه العقل إنما هو الجزء الواعي المفكر من أدمغتنا شاملاً ما حَوّلَه إلى عمليات عقلية لاشعورية ، لكنها تبقى إرادية مع أننا لا نكاد نشعر بها أبداً ، فأن تكون لاشعورية لا يحولها إلى لا إرادية. هذا العقل المفكر المنطقي يصل إلى الحقائق أولاً بإدراكها بالحواس كالبصر والسمع وغيرهما ، والأصل أننا نحس أن ما تدركه حواسنا موجود حقاً ، ثم يصل العقل إلى الحقائق بالطرق العقلية المنطقية ، وأهمها الاستنتاج والاستقراء.

عندما نفكر ينعكس ذلك في العضلات المغلفة للرأس ، ونحس أننا نفكر برؤوسنا ، وعندما تنبثق العواطف في أدمغتنا منطلقة من اللاشعور فإنها تنعكس في عضلات الصدر وعضلة القلب ، لذا ننسب العواطف دائماً لقلوبنا ، وننسب الارتياح لأمر ما إلى صدورنا التي انشرحت به. ولما كان الإيمان والكفر ليسا مجرد اقتناع عقلي ، بل قرار نتخذه بحسب ما في قلوبنا من المشاعر والأهواء ، فنقرر أن نقتنع بالإيمان أو أن لا نقتنع ، وبما أن القرآن نزل ليخاطب كل البشر على اختلاف أعمارهم وثقافتهم ، ولم ينزل كتاباً للفلاسفة والعلماء فقط ، فإن ربنا في القرآن ونبينا صلى الله عليه وسلم في الأحاديث يعزوان أعمال العقل كلها للقلوب التي في الصدور ، يقول تعالى:

" أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ{46}" الحج.

وتأكيد أنها التي في الصدور مقصود منه أن لا يأتي من يقول هي القلوب التي في الرؤوس ، إذ الدماغ أيضاً عضو داخلي وحيوي ولغةً: "قلب النخلة لبُّها". هنالك تعمد وإصرار على مخاطبة القلوب لا العقول ، القلب في القرآن هو عضو التفكير والشعور (قلوب يعقلون بها) وذلك من أجل إثارة الدافع النفسي للإيمان ، فيكون الخطاب هادياً لأكبر عدد ممن يبلغهم بلاغاً مبيناً. سأفصل فيما يلي إن شاء الله ما أجملته هنا لكن من المفيد أن تعرفوا هذا الإجمال من الآن.

الاقتناع بالمرغوب

يظن الكثيرون منا أن الإيمان والكفر مسألة اقتناع عقلي معرفي ، فمن بلغته الأفكار التي تدل على أن الدين المعروض عليه حق آمن واتبع هذا الدين ، ومن لم تبلغه المعطيات والأفكار والأدلة والبراهين البلاغ المبين لم يقتنع بالدين الذي ندعوه إليه وبقي كافراً. لو كان الأمر على هذا النحو فلن يكون من العدل تعذيب الكافر في جهنم لأنه كفر ، طالما أن العلة والمشكلة هي عجز الأدلة المقدمة له عن إقناعه ، ولو كانت أقوى لاقتنع وآمن. نعم لو قلت لك إن أربعة زائد أربعة يساوي ثمانية ، هل يكون لعقلك حرية أن يقبل هذا الإدعاء أو أن يرفضه ؟ عقولنا مضطرة إلى التصديق بكثير من الأمور لأنها عاجزة عن إنكارها ، أي الكفر بها. هنالك بدهيات ومسلمات لا يختلف عليها البشر ، بل يبنون عليها الكثير من الاستنتاجات اليقينية ، التي لا يقدرون على إنكارها حتى لو أرادوا ، إلا إن كانوا مجانين وعقولهم فقدت المنطق السليم. وعقول البشر يصعب عليها كثيراً أن تكابر وتنكر شيئاً تراه ، فسهل ربنا ذلك عليها عندما أرسل ملكين إلى بابل ، يعلمان الناس السحر ، ليكون عند من يريد أن ينكر حتى ما تراه عيناه ، قادراً على ذلك ، فيقول ما هذا إلى سحر ولا حقيقة له.

ربنا خلقنا أحراراً حتى في أن نقتنع بالإيمان الذي يدعونا إليه الرسول أو بأي دعوة تعرض علينا وفي أن نأبى أن نقتنع. إن رفض الدخول بدين ما لأسباب ظاهرة مع وجود القناعة العقلية ممكن لأننا أحرار فيما نعمل ، لكن الحرية التي منحنا الله إياها حرية حقيقية تمكننا إن كنا لا نريد أن نؤمن بشيء أن لا تقدر أي حجة على اجبار عقولنا على الاقتناع ، فلا يقتصر رفضنا

للأمر على مستوى السلوك الظاهري ، بل رفضنا هذا يمكّننا من أن لا نقتنع ، وأن لا تكون هنالك قوة في الأرض تجعلنا نقتنع. لكن كيف ذلك ؟

الاستقراء والاستنتاج

عندما نفكر ونستدل بشيء على غيره يكون ذلك وفق استراتيجيتين رئيسيتين ، الأولى **الاستنتاج deduction والثانية الاستقراء induction**. الاستنتاج هو استخلاص حقيقة من حقائق موجودة لدينا من قبل ، وما نصل إليه بالاستنتاج لا تستطيع عقولنا تخيل احتمالاً غيره ، فإما أن تكون الحقائق التي عندنا ومنها استنتجنا الحقيقة الجديدة التي نبحث عنها صادقة ، فيكون ما استنتجناه منها صادقاً ، وإما أن تكون كاذبة أو خاطئة ، فيكون ما استنتجناه منها خاطئاً أيضاً. أما في الاستقراء فإننا نبحث عن حقيقة نجهلها ، نستخلصها من عدة حقائق فردية عايناها ومررنا بها أو خَبِرناها ، بينها تشابه في ناحية معينة يقوي الاعتقاد لدينا أن الحقيقة التي نحاول الوصول إليها شيء محتمل بدرجة ما ، وكلما اقتربت درجة احتماله من المئة بالمئة كنا أقرب إلى اليقين بصحة ما وصلنا إليه.

بالأمثلة تتوضح المفاهيم. نبدأ بـ(الاستنتاج) ونأخذ عليه الأمثلة التالية:

- **كل الأسماك تسبح في الماء ، وبما أن القرش سمك ، فإن القرش يسبح في الماء.**
- **كل إنسان فانٍ ، وبما أن سقراط إنسان ، فإنه فانٍ.**
- **يمتلك سعيد يدين اثنتين وفي كل يد خمسة أصابع ، إذن يمتلك سعيد عشرة أصابع.**
- **جعل الله من الماء كل شيء حي ، وبما أن النمل كائن حي ، إذن النمل يحتوي على الماء.**
- **كل خمر حرام ، وكل مسكر خمر ، وبما أن النبيذ مسكر ، إذن النبيذ خمر ، وشربه حرام.**

- كل الفيلة حيوانات ثديية ، وبما أن الحيوان الذي أحضره أبرهة لهدم الكعبة فيل ، فإنه حيوان ثديي.
- الصحابي هو المسلم الذي التقى بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما أن عمار بن ياسر مسلم التقى به ، فهو صحابي.

نلاحظ في هذه الأمثلة كيف نستنتج معلومة جديدة نسميها في علم المنطق نتيجة ، من حيثيات موجودة لدينا من قبل ، نسميها مقدمات ، ونسمي العملية العقلية التي قمنا بها ونحن نستنتج المعلومة الجديدة القياس syllogism. وفقهاؤنا القدامى كانوا ماهرين باستخدام القياس للوصول إلى أحكام فقهية لأمور لم يرد بها نص. وفي جميع حالات الاستنتاج تكون النتيجة التي نصل إليها ملزمة لعقولنا التي لا تستطيع أن تتصور نتيجة غيرها ، ولذلك توصف نتائج الاستنتاج في علم المنطق بأنها ضرورية عقلاً. إن أي شيء نستدل عليه بطريق الاستنتاج تكون عقولنا مجبرة على تصديقه واعتقاده ، ما لم نكن نعاني مرضاً عقلياً أفقدنا المنطق العقلي المشترك مع جميع بني البشر.

أما الاستقراء ، فهو الاستدلال على احتمال صحة أمر ما ، بناء على أمور سبق لنا أن رأيناها تتكرر وفق نمط معين ، يجعلنا نفترض أن الأمر الذي نبحث عنه ، مماثل لهذا النمط. ونأخذ على الاستقراء هذه الأمثلة:

- كل يوم تشرق الشمس من جهة الشرق ، لذا هي ستشرق غداً من الشرق.
- كل قطع الخشب التي رميتها في النار ، أو شاهدت أحداً غيري يرميها ، احترقت ، وبما أن الكرسي الذي أجلس عليه مصنوع من الخشب ، فإنه سيحترق إن رميناه في النار.
- كل قضبان الحديد التي سخنتها زاد طولها وتمددت ، لذا سيتمدد هذا القضيب الحديدي الذي يحمله مساعدي عندما نسخنه ونرفع درجة حرارته.
- كل قضبان الحديد التي سخنتها أنا ، والتي سخنها غيري كثيرون ، تمددت بالحرارة ، إذن الحديد كله يتمدد بالحرارة.

- **كل إنسان حي قلبه ينبض ، إذن كل من توقف قلبه عن النبضان هو غير حي.**
- **كل قطع النحاس التي مررت أنا أو مرر غيري فيها الكهرباء نقلت الكهرباء ، إذن النحاس ناقل للكهرباء.**
- **كل شيء مركب نلاحظه في حياتنا له صانع صنعه ، إذن للكون خالق صنعه.**
- **لم يسبق لمحمد صلى الله عليه وسلم أن كذب في حياته ، إذن هو صادق في ادعائه النبوة.**

في الاستقراء ننطلق من حالات فردية لنستدل بها على وجود قانون طبيعي -مثل تمدد الحديد بالحرارة- لا يتخلف ، فلا نتوقع أننا سنصادف قضيب حديد لا يتمدد بالحرارة. أو نستدل بالاستقراء على شيء لم نره بعد كيف سيكون ، بناء على اضطراد حدوثه في جميع المرات السابقة على شكل معين ، مثل شروق الشمس غداً من المشرق. نحن عادة نعتبر كل أمر استقرأناه من أمثلة عديدة جداً ، وكان دائماً يقع على نحو معين ، نعتبره مؤكداً أنه دائماً سيحدث بهذه الطريقة ، لأننا كلنا مقتنعون أن هنالك نظاماً ثابتاً تحدث وفقه الأشياء المتماثلة في الطبيعة التي تشمل كل شيء ندركه. فنحن لا نتشكك في أن الحديد يتمدد بالحرارة ، مع أنه من الناحية العقلية البحتة ، لا شيء يضمن أن قطعة حديد معينة ستتمدد بالحرارة ، حتى لو رأينا جميع قطع الحديد في الدنيا تتمدد ، لأن عقولنا تتقبل أن نقول: وما المانع أن يكون هنالك حديد لا يتمدد بالحرارة؟. عقولنا مبرمجة على أن تبقى منفتحة لكل الاحتمالات الممكنة ، ومهما بلغت درجة احتمال شيء معين ، فإنه لا يصعب على عقولنا أن تتخيل احتمالاً آخر ، لكننا لا مصلحة لنا في أن نتبع هذا التخيل الذي احتماله ضئيل جداً ونترك الاحتمال الغالب جداً. لقد علمتنا خبرات الحياة أن كل شيء احتمال حدوثه يقترب من مئة بالمئة سيتكرر دائماً وفق هذا الاحتمال. فمع أنه عقلياً لا شيء يثبت يقيناً أن لمس أسلاك كهربائية حية ، يمر فيها تيار قوي جداً مميت للإنسان ، فإننا نحتاط ونتصرف على أن هذا الخطر حقيقي ، ولا نتجرأ أبداً على تحديه وتجربة الإمساك بأسلاك تمرر تياراً كهربائياً قوياً جداً دون عازل.

الشك واليقين

لكننا أحياناً نقع في المرض النفسي فنركز على الاحتمال الضئيل جداً الذي لا وجود له إلا في رؤوسنا وعقولنا ، فنتصرف على أنه واقع أو نعيش القلق والخوف من أن يكون وقع بالفعل. في مرض الوسواس القهري يعاني الكثير من المرضى من الشكوك الوسواسية التي تجعلهم يتأكدون مما شكوا فيه مرات لا تحصى. لو كان التأكد مرة واحدة يريحهم فهم ليسوا مرضى ، لكن المرضى يتأكدون المرة تلو الأخرى ويبقى لديهم الشك. على سبيل المثال يتوضأ المريض ، وفي نهاية وضوئه يشك: هل هو فعلاً قد غسل كل الأعضاء اللازم غسلها لصحة الوضوء ، ولا يرتاح حتى يعيد الوضوء ، لكنه بعد الإعادة يأتيه الشك ذاته فيعيد الوضوء ، لحد أن الوضوء لصلاة الظهر مثلاً يستغرق ساعة كاملة. سيدة مثقفة تعاني الوسواس القهري قالت: إن صلاة الظهر تحتاج إلى ساعة وربما ساعتين قبل أن تطمئن أنها قد أدتها بالشكل الصحيح ، فهي كلما قرأت الفاتحة وبدأت بقراءة آيات من القرآن بعدها ، أتاها شك أنها قد تكون أخطأت دون أن تنتبه في قراءة الفاتحة ، أو أن تكون أخطأت ونسيت أنها أخطأت ، وبما أنه لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب ، ولا اعتبار لهذه القراءة ما لم تكن صحيحة مئة بالمئة طالما أن المصلي شخص متعلم ، فإن أسلم شيء تعمله هو أن تعيد قراءة الفاتحة ، لكن المشكلة أنها تكرر الشك نفسه بعد كل إعادة. ليست مجنونة لأنها بالفعل سيدة عاقلة وتعمل صيدلانية وتجيد عملها ، ومع أن شكوكها يمكن أن تضحكنا ، فإنه لا أحد منا يقول إنها تشك في شيء مستحيل ، لأن عقولنا دائماً فيها فسحة للشك.

هنالك حالات نفسية أخرى يعتبر فيها المريض شكاً معيناً شيئاً يقينياً لا يمكن إقناعه بخطئه ، رغم كل الأدلة المقدمة له ، لأن عقله ومثله عقولنا كلنا تقول: إن ما يعتقده هذا المريض من أوهام نسميها (ضلالات delusions) ليس مستحيلاً من الناحية العقلية. أي العقل قادر على تخيل إمكانية حدوثها مع أنه مقتنع أنها غير صحيحة.

أذكر مريضاً أصيب بالاكتئاب الشديد عندما سافرت أسرته في الصيف وتركته لأنه لا يستطيع دخول الأرض المحتلة بسبب تعقيدات إسرائيل لعودة الفلسطينيين ، و مع أنه رجل وزوج وموظف حكومي ، كان من الواضح أنه ضعيف ومعتمد على زوجته كما يعتمد الطفل على أمه. وحتى نسرع شفاءه طلب شقيق زوجته منها أن تعود على أول رحلة ، وبالفعل عادت ،

لكن مريضنا رغم تحسنه عندما رآها ، قال: إنها ليست زوجتي ، إنها نسخة عنها ، ولم يسمح لها أن تقترب منه ، وبقي على ذلك الحال عدة أيام ثم تحسن ، وقد أخبرني بعد تحسنه أنه عندما رأى زوجته صار يسمع صوتاً في عقله يردد كلمة دبلجة.

مع أن شكه في أن زوجته هي زوجته نفسها يبدو مضحكاً لنا وسخيفاً ، لكن عقولنا لا تقول إن وهمه أن هذه التي أمامه نسخة مزيفة عنها شيء مستحيل. كلنا يرجع من عمله إلى بيته لتستقبله زوجته ولا يخطر في باله أنها ليست زوجته ، وإذا سألناه ما الذي يجعلك متأكداً أنها زوجتك وليست امرأة أخرى ؟ فإنه يبدأ بتعداد الأدلة على أنها هي زوجته التي تركها بالبيت في الصباح ، سيحدثنا عن ملامحها وصوتها وعن كل صغيرة تساعد في التأكد من أنها هي المرأة نفسها ، لكننا نتحداه أكثر ونقول له ما المانع أن يكون لزوجتك توأم حقيقي ، والتوائم الحقيقية متماثلة في الخلقة والصوت وغير ذلك إلى حد يجعل التمييز بين أختين توأمين حقيقيين ، أي تخلقتا من بييضة ملقحة واحدة ، أمراً صعباً والخطأ فيه وارد. سيجيب لكنني أعرف أنه ليس لزوجتي إخوة إناث ، فنرد بسؤاله: ألا يمكن أن تكون لها أخت توأم متماثل لكنها وأهلها أخفوا ذلك عنك. في الواقع ما نجادله به أمر مستبعد جداً جداً ، لكن يبقى ممكناً في العقل ، والعقل قادر على تخيله وتصور إمكان حدوثه مجرد تصور لا يأخذه على محمل الجد عادة.

كل يوم تقع حوادث سير يموت فيها أناس ويصاب فيها آخرون ولا شيء يقنع عقولنا أنه من المستحيل أن يقع لنا حادث سير ونحن ذاهبون إلى أعمالنا ، فالاحتمال قائم ، لكنه احتمال ضئيل نتغافل عنه ونتصرف على أنه غير موجود ، طالما أننا سنقود بحذر وانتباه ، وإلا لما تجرأ أحد على الخروج من بيته إلى عمله. حياتنا ملأى بالأمور المحتملة التي لا نأخذها بالاعتبار ، وكلها في أمور اعتمدنا فيها على الاستقراء ؛ لأننا غير قادرين على اعتماد طريقة الاستنتاج التي تعطينا اليقين عادة ، كما لا تفيدنا حواسنا في ذلك لأنها لا ترى أو تسمع ما لم يحدث بعد. عملياً نحن نتعامل مع أكثر الأمور التي نصل إليها بالاستقراء بحسب احتماليتها ، فكلما اقترب احتمال أمر ما من مئة بالمئة اعتبرناه يقينياً ، كما لو كنا وصلنا إليه عن طريق الاستنتاج أو عن طريق الحواس. لكن المشكلة هي عندما لا يكون الأمر على هوانا ، بل نرغب بعكسه وضده ، فإننا مهما ارتفع احتماله بحسب الاستقراء بحيث يكاد يكون مئة بالمئة ، فإن الذين يتبعون أهواءهم منا ، يتمسكون بذرة الشك التي لا يستطيع الاستقراء محوها من

خيالنا ، ويعتبرون هذا الاحتمال الذي تميل نفوسهم إليه هو الحق حتى وإن كان احتماله يقترب من الصفر. وهذا تماماً ما يحدث في الإيمان والكفر والخلاف.

الإيمان أيضاً علمي

يجادل الملحدون ويعيبون علينا أننا نؤمن بما لم تدركه حواسنا بينما هم علميون لا يؤمنون بشيء إلا بناء على مدركات الحواس ثم يأتي الاستقراء والاستنتاج ، ويقولون أرونا الله لنؤمن به. إنهم يوم القيامة يدعون أنهم تيقنوا أن لهم خالقاً أرسل الرسل وأمر ونهى ، ويطلبون العودة إلى الدنيا:

"وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ{12}" السجدة.

إنه باستثناء الرياضيات فإن أغلب العلوم تقوم على الاستقراء ، أي إننا لسنا أقل منهم تفكيراً علمياً عندما نؤمن بخالقنا دون أن نراه ، وسيأتي اليوم الذي سينكسون فيه رؤوسهم وقد أبصروا وسمعوا ما كانوا يكابرون وينكرون.

"…. أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ{12}" السجدة.

وأوضح مثال على ذلك أنه لا أحد يجرؤ على الادعاء أن ساعة جدار دقيقة لم يصنعها صانع. وفي هذا قال ربنا:

"أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ{35}" الطور.

طالما أننا كائنات عجيبة في دقتها وروعتها ، فهل أتينا إلى الوجود هكذا من غير شيء ، أي من غير خالق خلقنا ، أي صانع صنعنا ، كما صنع الساعاتي الساعة الدقيقة ؟ أم نحن خلقنا أنفسنا ؟ وبما أن الجواب على هذين الاحتمالين لا يكون إلا بالنفي بحسب العقل الإنساني والمنطق الذي يحكمه ، فإنه لا يبقى إلا الاحتمال الثالث ، وهو أنه لنا خالق خلقنا اسمه الله. تقدم العلم وصار من السفاهة الادعاء أننا خلقنا من غير شيء ، فأبدع الخيال الإنساني حكاية نشوء الحياة بمحض الصدفة ثم تطورها على مدى بلايين السنين ، إلى أن وصلت أرقى مستوياتها في الإنسان الكائن المخلوق في أحسن تقويم. هو تحايل وتمويه للقول إننا خلقنا بلا

خالق ، حيث البديل الذي خلقنا بادعائهم هو الصدفة والعشوائية ، إنه خالق لا يشعرون نحوه بأي امتنان ولا يستحق منهم أي عبادة ، وهؤلاء المستكبرون على طاعة الله يخرجون الله من الحسبان نهائياً. أنا طبيب وأعرف الكثير عن النفس البشرية من الناحيتين البدنية والنفسية ، لذا أقول وأنا على يقين: إن نشوء الحياة وتطورها حتى بلغت ما بلغته في عالم النبات والحيوان والإنسان بلا منشىء بل بفعل المصادفات هو المستحيل بعينه ، لكنهم طالما العقل البشري قادر على تخيل هذا الاحتمال المستحيل ، أي الذي قيمته الحقيقية صفر ، فإنهم يتمسكون به ، ويفسرون الحياة على أساسه ، ويشرحون صدورهم بالخرافة التي اخترعوها ، وهم يحسبون أنهم هم العلميون بينما نحن الذين نؤمن بالخالق الخرافيون. الاستقراء للكون وللأنفس يرينا من الآيات أي العلامات والدلائل على الخالق ما لا يحصى ، ومهما كانت النتيجة العقلية احتمالية وعلى مستوى العقل المجرد غير يقينية ، فإن هذا الاحتمال هو في الحقيقة مئة بالمئة أما احتمال عكسه فهو صفر بالتأكيد وإن كان العقل قادراً على تخيله.

قابل للتخيل لكنه مستحيل

من البدهي أن مجرد قدرتنا على تخيل شيء على نحو معين ، لا يعني بشكل من الأشكال أنه حق أو أنه موجود ، كما إن عَجْزنا عن تخيل شيء ما ، لا يعني أنه غير موجود. من منا قادر على أن يتخيل اللانهاية في الأعداد أو الأبعاد أو الأزمان؟ عقولنا لا يمكنها أن تتخيل إلا ما هو محدود له بداية وله نهاية ، ومع ذلك لم يظهر سفيه واحد ينكر اللانهاية في الرياضيات مثلاً. وهكذا الإيمان أن الله ليس له خالق ، شيء من الناحية العقلية غير ممكن ، لكنه حق ، لأن عقولنا مثل الكومبيوتر ، لها برامج تعمل بها ، وهي مبرمجة على أنه لا بد لكل مخلوق من خالق. إن عقولنا آلات حية عجيبة لكن لها حدود ، لذا لن تفهم شيئاً عن الروح لأنه (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً).

عن طريق الآيات المختلفة نصل إلى أنه لنا خالق خلقنا ، لكنه أخفى نفسه عنا ، فلا تدرك حواسنا شيئاً يجعلها تتيقن من وجوده ، ولا يظهر لنا من أفعاله ما يجعلنا عقلياً نصل إلى اليقين بوجوده. إن له حكمة في ذلك بحيث مهما كانت الآيات كثيرة وترفع احتمال وجوده إلى مئة بالمئة ، فإن قدرة عقولنا على تخيل احتمال آخر حتى لو مستحيلاً في الواقع ، تجعلنا أحراراً في أن نؤمن به أو أن نكفر. أي لا شيء يجبرعقولنا على الإيمان به والاعتراف بوجوده ، ما لم

نكن راغبين في ذلك ، وما لم نكن خالصين من الأهواء التي تجعلنا نكابر ونتمسك بمستحيل قابل للتخيل ونبني عليه نظريات علمية نقنع بها أنفسنا أننا على الحق ، أي نخدع أنفسنا ونوهمها أننا على الحق.

الإيمان بالغيب

ربنا أخفى نفسه وترك لنا الآيات التي تهدينا إليه لكنها لا تلزمنا بالاعتراف بوجوده وبفضله علينا وبرسله وكتبه ، وذلك ليكون إيماننا به بالغيب لا بالمشاهدة التي يطلبها المعاندون كي يؤمنوا. قال تعالى عن بني إسرائيل:

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{56}" البقرة.

وقال في سورة الإسراء:

"وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً{89} وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً{90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً{91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً{92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً{93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً{94} قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً{95} قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً{96}" الإسراء.

أخفى ربنا نفسه ليكون إيماننابه بمحض إرادتنا ومشيئتنا ، لأننا بذلك نبقى قادرين على أن نقنع أنفسنا أنه غير موجود ، أو أن رسولاً معيناً لا يعجبنا ، ليس مرسلاً منه ، أو حتى مذهب لا نحبه حتى لو كان هو الحق المبين. لذلك قلت ليس الإيمان تأثراً وانفعالاً ، أي ليس خضوع العقل أمام البراهين والأدلة بحيث لا مجال بعدها للعقل أن يقنع نفسه بغير ما أثبتته الأدلة ، بل هو فعل إرادي مئة بالمئة ، منسجم مع العقل السليم ، لأنه قائم على آيات الله في الأنفس

والآفاق ، هو يختلف عن إيمان الهندوسي مثلاً بآلهته ، حيث إيمانه إرادي أيضاً ، وليس خضوعاً عقلياً لأية أدلة أو براهين أو آيات ، إذ ليس هنالك ما يدل على صحة ما يؤمن به. هو يؤمن به إيماناً غيبياً وإرادياً لكن شتان بين إيمانه وإيماننا. نحن نصل إلى القناعة بصحة ديننا بالعقل الذي يقول لنا إن الاحتمال الأكبر الذي يكاد يكون يقيناً ، أي مئة بالمئة ، أن الله خالق كل شيء ، وأنه أرسل الرسل وأنزل الكتب.

نحن بإرادتنا نتيقن أنه الحق ، مع أن الاستقراء لا يُلزم عقولنا بالإيمان إلزاماً ، إنما نحن الذين نلتزم بالحق من تلقاء أنفسنا ، بينما غيرنا يجادل ويكابر ويتمسك باحتمال ، هو في الحقيقة غير موجود إلا في رأسه ، لأنه عنده من الدوافع النفسية والأهواء ما يدفعه لذلك.

يقول أبو ذر رضي لله عنه فيما رواه البخاري في صحيحه:

(سألتُ النبيَّ صلَّى للهُ عليه وسلَّم: ايُّ العملِ افضلُ ؟ قال: إيمانٌ باللهِ ، وجهادٌ في سبيلِه. قلتُ: فأيُّ الرقابِ افضلُ ؟ قال: أغلاها ثمنًا ، وأنفسُها عِندَ أهلِها ، قلت: فإن لم أفعَلْ ؟ قال: تُعينُ صانعاً ، أو تصنَعُ لأخرَقَ ، قال: فإن لم افعَلْ؟ قال: تدَعُ الناسَ من الشرِّ ، فإنها صدقةٌ تصدَّقُ بها على نفسِك).

إن الإيمان عمل بحد ذاته ، لكنه عمل قلبي وعقلي ، لأننا أحرار في الكثير مما نختاره في عقولنا ، وإرادتنا هي التي تختار ما تشاء ، وليس مجرد اقتناع لا إرادة لنا فيه.

الإيمان والدوافع

صحيح أن المعاند قد لا يشعر بالحق في قلبه ابداً ، لكن ليس ذلك لقلة المعروض أمامه من الأدلة والآيات ، إنما لأنه يكره هذا الحق ، وإذا حاول استشعاره ، أصبح صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، بينما ينشرح صدره وتطمئن نفسه بالكفر والعلم الزائف الذي يخدع به نفسه. ليس معذوراً أن صدره يضيق بالحق ، لأن ذلك ناتج عن اختياره للاستكبار على الله وعلى خلقه ، وهو الذي أورد نفسه هذا المورد بحمقه ، مع أنه لا يقل ذكاء ولا علماً عن الذين آمنوا وانشرحت صدورهم بالإيمان. قال تعالى في سورة الأنعام:

"فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ

يُؤْمِنُونَ{125} وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ{126}" الأنعام.

إذن يضيق صدره بالحق ، ويشرحه هو بالكفر. وتبدأ القضية عادة برفض واعٍ للإيمان بالله أو برسول معين ، لكن حتى يريح نفسه مما يسمى التناقض المعرفي cognitive dissonance حيث تنزعج نفسه من اجتماع المتناقضات فيها ، أي اجتماع معرفته أن هذا هو الحق ورفضه له ، فيقوم بخداع نفسه وتغيير المنظور ، ويأخذ بالاحتمال الضئيل جداً أن لا يكون ما يُدعى إليه هو الحق ، وينظر للقضية من خلال هذا المنظور وهذا الاحتمال ، فإذا بالأمور تبدو كما يحب ويهوى ، ويبدو في عين نفسه منسجماً مع العقل والعلم ومتحرراً من الخرافة ، فيفرح ، أي يتعالى ويختال ويفتخر بموقفه ، ويزدري ويحتقر المؤمنين ويراهم السفهاء ، وهكذا يزيغ في البداية وهو واع لذلك ، فيُزيغ الله قلبه ، فيقنع نفسه بالباطل مع أن الحق كان واضحاً له ، وقد تكون نفسه وصلت لحد التيقن من أن ذلك هو الحق لكنه يجحد عن سابق إصرار وتصميم ، فيتركه الله لنفسه تخدعه وتحتال عليه وتريه الباطل حقاً ، فينشرح صدره ويرتاح ، ويمعن في الضلال والجحود. قال تعالى عن قوم فرعون:

"وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{14} وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ{15}" النمل.

أما الذي لم يستكبر ، بل اعترف لصاحب الفضل بفضله وشكر له ذلك ، فإن الله ييسره لليسرى ، فينشرح صدره للحق ، ويسعد بنعمة الهداية ولا يضل ولا يشقى ، ويدخل في علاقة حب متبادل مع خالقه ، وفي علاقة إسلام القياد والطاعة لهذا الخالق العظيم ، ليقابله الله بأن يكون وليّه في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويعطيه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيه عذاب النار. قال تعالى:

"إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى{4} فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10}" الليل.

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، نحن في الدنيا أحرار لكننا محاسبون ، يكافئنا ربنا إن شكرنا نعمه ، ويعاقبنا إن كفرنا وأنكرناها أو حتى أنكرنا وجوده من أصله. ربنا يقول لنا: لا إكراه في الدين ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، لا ليعطينا الخيار دون أن تكون هنالك عاقبة لاختيارنا ، بل لأنه خلقنا لنكون خلفاء له في الأرض نفعل كما يفعل ، وهو "حُرّ" يفعل ما يشاء لأنه قادر على كل شيء ، أما نحن فلنا أن نفعل ما نشاء ضمن اختيارات محدودة ، إما شاكراً وإما كفوراً ، فنمارس حريتنا ونلتزم بالحق إن أحببنا ، أو نجحد ونكفر إن شئنا ، لكننا محاسبون على كل شيء في النهاية. قال تعالى:

"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً{2} إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً{3} إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً{4} إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً{5}" الإنسان.

ربنا يريد منا الالتزام ولا يريد إلزامنا بشيء إلزاماً فيه الإكراه والإجبار ، لأنه لا قيمة عنده لأية عبادة يقوم بها الإنسان مكرهاً ، إنه لا يقدر لحومها ولا دماءها إنما يقدر ويقيم ويثمّن التقوى التي تصدر عنها تلك الطاعات ، صحيح أن لكل طاعة نفعاً يعود على الفرد أو المجتمع أو كليهما ، لكن الطاعة تتجلى فيها تقوانا لله وبالتالي تكون نافعة لنا يوم القيامة. قال تعالى عن البُدْن التي تُذبح في الحج:

"لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ{37}" الحج.

الإيمان والانتماء

نعود إلى الإيمان والكفر والاختلاف ودور النفس وأهوائها فيها.

في القرآن الكريم آيات عديدة ترينا كيف أن الإيمان أو الكفر ليسا وليدي القناعة ، لأننا إن أردنا أن لا نقتنع ، فلن يقنعنا شيء ، ويتجلى ذلك في اختبار القابلية للهداية الذي طبقه سليمان على بلقيس ، وكذلك في مواجهة إبراهيم لقومه الذين آمنوا بآلهة مزيفة من أجل المودة بينهم ، أي الانتماء ، وفي بيان ربنا أن الناس يؤمنون بآلهة لا وجود لها ليكون لهم فيها العزة ، وكل هذا يختفي عندما يواجهون خطر الموت فيَدعون الله مخلصين له الدين.

اختبار القابلية للهداية

قبلت بلقيس دعوة سليمان لتزوره في القدس ، وبينما هي في طريقها إليه قال لأعوانه: من يأتيني بعرشها ؟ أي من اليمن إلى القدس. فقام الذي عنده علم من الكتاب بإحضار عرشها في طرفة عين. وعندما وصلت بلقيس أراد سليمان الحكيم أن يختبرها ، ليعلم هل هي من الذين يهتدون للحق ولا يستجيبون لأهوائهم ، التي تجعلهم ينحازون إلى الاحتمال المتخيل ليتهربوا من الحق ، فقال لمن عنده: نكّروا لها عرشها لننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. لم يكن سليمان الحكيم يريد اختبار ذاكرتها ، وهل كان يشك أحد أنها ستعرف عرشها عندما يعرض عليها ، وبخاصة أن أكثر شيئين كان يهتم بهما الملوك هما التاج والعرش ؟. كان يريد معرفة هل الكبرياء ستجعلها تنكر الحق فتكذب ، أم إنها متحررة من الكبرياء ، وقيمتها عند نفسها ليست قائمة على الأشياء التي تملكها ، لذلك ستقر بأن هذا العرش الموضوع في أحد أركان قصر سليمان وكأنه زائد عن الحاجة ، هو مماثل لعرشها. كان هذا الاعتراف مستحيلاً على ملك يكابر وينكر الحق ، لأنه في ذلك الزمان ، حيث تفصل سليمان عن بلاد بلقيس مسيرة شهور ، ما كان ليتخيل أن سليمان قادر على إحضار عرشها إلى قصره أو على معرفة شيء عنه ، وكان سيكذب ويدعي أن هذا العرش المعروض أمامه لا شيء مقارنة بعرشه الذي ليس له مثيل عند ملك من الملوك ، لكن بلقيس الإنسانة السوية ، التي لا تسمح للكبرياء أن تعميها عن الحق ، قالت على الفور ودون تردد عندما عرض عليها العرش وقيل لها: أهكذا عرشك ؟ قالت: كأنه هو ، فتبين لسليمان أنها تهتدي ، وأنها ليست من المكابرين المتبعين لأهوائهم على حساب الحقيقة. دعاها سليمان للإسلام لكنها لم تستجيب ، لا لأن ما دعاها إليه لم يكن مقنعاً لها بل لقد صدها ما كانت تعبد هي وقومها ، وأنها لم تكن تريد أن تفترق عنهم وتخرج منهم عندما تكفر بآلهتهم وتؤمن بالله الذي دعاها سليمان إليه. وكان لبلقيس جولة في قصور سليمان ، وأدخلوها مكانا بدا لها لجة ماء ، فشمرت عن ساقيها حتى لا يبتل ثوبها ، فقال لها سليمان أن لا داعي لذلك ، لأن الماء الذي تراه لم يكن ماء حقيقياً ، بل كان عملاً فنياً وصرحاً ممرداً من زجاج ، وفي هذه اللحظة أسلمت بلقيس مع سليمان لرب العالمين. لنقرأ حكايتها:

"قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ{38} قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ{39} قَالَ الَّذِي

عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ{40} قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ{41} فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ{42} وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ{43} قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{44}" النمل.

والسؤال هنا: ما علاقة الصرح الممرد من قوارير بصحة ما دعاها سليمان إليه أو كذبه وزيفه؟ لم يكن الأمر أمر معجزة من معجزات الرسل التي تتجاوز القوانين الطبيعية لتثبت للناس أن هذا الرسول على اتصال بمن هو فوق قوانين الطبيعة والقادر على أن يغير طبائع الأشياء متى شاء، بل كان مجرد بناء مصقول من زجاج، كان تحفة معمارية لا أكثر. كيف جعلها الصرح تدخل في الإسلام من فورها؟ كان الذي صدها عن الإسلام أنها كانت من قوم يعبدون غير الله، وكانت حريصة على أن تبقى واحدة منهم، وبخاصة أنها كانت ملكتهم، لكن عندما رأت أن تفوق سليمان الحضاري بلغ حداً لم تكن تتصوره، قررت أن تستغني عن قومها وأن تنضم إلى سليمان تعبد معه الله الذي خلقها، ولننتبه لقولها (مع سليمان). لقد تغلبت رغبتها في الالتحاق بسليمان على حرصها على بقائها في قومها، فعادت لتأخذ باعتبارها الاحتمال الأكبر الذي كانت تؤيده الأدلة على أن سليمان على الحق، وأزاحت من عقلها ذلك الاحتمال الضئيل الذي يستطيع عقلها أن يفترضه ويتخيله في أية قضية لم تجبره الحواس على التصديق بها، ولم يصل إليها عن طريق الاستنتاج الذي يضطر العقل إلى الإيمان بما نتج عنه اضطراراً شاء أم أبى، لأنه لا يستطيع إنكار النتيجة إلا إن كان مستعداً لأن يقال عنه مجنون.

الانتماء والعزة

"وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ{25}" العنكبوت.

أي أنهم كانوا يعبدون الأوثان لأن عبادتهم لها تشكل رابطاً يجمعهم ، مما يشبع لديهم الحاجة إلى الانتماء إلى قومهم. وتؤكد الآية التالية دافع الانتماء الذي يجعل الناس يؤمنون بما هو غير مقنع على الإطلاق ، لأن انتماءهم وارتباطهم بقومهم يجعلهم أعزة.

قال تعالى: "وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً{81} كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً{82}" مريم.

عندما انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه على قريش وفتحوا مكة ، صار العرب المترددون يدخلون في دين الله أفواجاً ، كان دخولهم في دين الله صادقاً ولم يكن نفاقاً ، وهذا ما تقوله سورة النصر:

"إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}" النصر.

ومرة أخرى نرى أن الإيمان ليس مجرد اقتناع ، بل هو موقف واتجاه attitude فيه القناعة العقلية والمشاعر القلبية والسلوك الناتج عنهما.

الرجوع إلى الحق

يخبرنا ربنا في القرآن عن الكفار المعاندين كيف يدعون الله مخلصين له الدين ، أي مؤمنين إيماناً صادقاً ، وذلك عندما يتعرضون للخطر ، ولا يبقى لهم مُنْجٍ إلا الله. قال تعالى:

"وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ{21} هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{22} فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{23}" يونس.

وفي هذا المعنى تُروى حكاية عن رابعة العدويَّة أن أحدهم قال لها: «إن فلاناً أقام ألف دليل على وجود الله»، فضحكت وقالت: «دليل واحد يكفي» قيل: «ما هو؟»، قالت: «لو كنتَ ماشياً وحدك في الصحراء، وزلّت قدمك فسقطت في بئر، لم تستطع الخروج منها، فماذا تصنع؟» قال: «أنادي يا (الله)»، قالت: «ذاك هو الدليل، إن لم يكن موجوداً فلم تناديه؟». وروي أن فخر الدين الرازي كان يمشي في طريق وخلفه تلاميذ له أكثر من مائة أو مائتين، فمروا على عجوز فاستغربته وقالت: (من هذا؟) قالوا: (هذا أبو عبد الله الرازي العالم الجليل يحفظ ألف دليل على وجود الله تعالى) قالت العجوز: (أفي الله شك؟)..

وصدق الله إذ يقول:

"قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{10}" إبراهيم.

أي إن كل البشر يدركون في أعماق نفوسهم أن الله موجود، لكن الأهواء تدفعهم إلى الجحود والإنكار، وعندما يقعون في خطر وجودي يتهدد حياتهم تختفي تلك الأهواء ولا يبقى منها شيء يصدهم عن الإيمان، فيؤمنون بإخلاص، وما أن ينجيهم الله ويستشعرون الأمان، حتى تعود إليهم أهواؤهم وينتكسوا إلى الكفر والعصيان.

الفطـرة في اللاشعـور

أخبرنا ربنا في القرآن الكريم عن حادثة مررنا كلنا بها تم فيها غرس الإيمان في أعماق قلوبنا، قال تعالى:

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ{172} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173}" الأعراف.

الذرية تأتي من الخصية والمبيض وكلاهما ليس في الظهر ، لكن علم الجنين في القرن العشرين اكتشف أن الخلايا التي تتحول إلى بييضات عند المرأة وإلى حيوانات منوية عند الرجل تتخلق على جانبي العمود الفقري ، ثم تنزل باتجاه البطن في الأسبوع الثامن والتاسع من حياة الجنين. أي ربنا أخذنا من ظهور آبائنا وأمهاتنا لما كانوا هم أجنة ولم تتخلق أعضاؤهم التخلق الكامل ، وبالتالي لم يكتسبوا أي سلوك يمكن أن ندعي أنه انتقل إلينا بعوامل الوراثة.. في تلك المرحلة المبكرة من حياة الآباء والأمهات أحيانا الله وأشهدنا على أنفسنا (ألست بربكم؟) فقلنا: (بلى شهدنا) وبيَّن ربنا لنا أنه أشهدنا على أنفسنا في تلك المرحلة ، لأنه يريد أن يقطع الطريق على من سيكفر ويفسق ثم يدعي أنه ورث الكفر والفسوق من والدين كافرين وبالتالي فهو معذور لأن الكفر كان في أصل تكوينه. ربنا ينفي أن نرث أي شيء من طباع والدِينا المكتسبة أو معتقداتهما ، وقد أثبت العلم المعاصر ذلك وصار واضحاً لنا أن الصفات المكتسبة لا تورث من جيل إلى آخر. وللنبي صلى الله عليه وسلم حديث يبين فيه ذلك سأرويه لكم إن شاء الله بعد أن أكمل هذه الفكرة. إذن ربنا أراد أن يفهمنا أننا لن نرث كفر آبائنا ولا إيمانهم ، وأراد أن يفهمنا أيضاً أن فطرة الإيمان به مغروسة في فطرتنا ، وأننا لسنا غافلين ، أي غير مبرمجين على هذا الإيمان ، أي إن الإيمان بالخالق العظيم شيء تعرفه نفوسنا وتتجاوب معه إن أردنا أن نؤمن.. قال تعالى:

"..... قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ{172}" الأعراف.

أي: كي لا تقولوا يوم القيامة إن تكوين عقولنا لم يكن فيه شيء عن الإيمان.

هذا الموقف والحوار مع رب العالمين طالما أن الله يقول إنه وقع فقد وقع حقاً دون شك ، لكننا لا نذكره أبداً.. فلم يا ترى؟ لو تركه الله في وعينا لاستحال على عقولنا أن تكفر إن هي شاءت أن تكفر ، وفي تلك الحالة لا يكون لنا أي فضل عندما نعترف بوجود الخالق بعد أن أشهدنا على أنفسنا أنه ربنا وشهدنا. لذلك تم نقل ذكرى موقف الإشهاد إلى اللاشعور حيث تكمن الفطرة التي فطرنا الله عليها. هي مركوزة في أعماق قلوبنا دون أن تكون ملزمة لعقولنا. قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ". والجذر من النبات كما نعلم كلنا ، هو الجزء الخفي ، لكنه

الحي والفعال ، من النبات ، وهكذا هو اللاشعور من عقل الإنسان. لقد جعل الله فطرة الإيمان أمانة عندنا مخبوءة في جذور قلوبنا ، نستطيع أن نجحدها وننكرها أو أن نُقِرّ بها ونؤديها غير منقوصة ، قال تعالى:

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{72}" الأحزاب.

الإنسان هو المخلوق الحي الوحيد على سطح الأرض القادر على أن يكذب وينكر أمانة أودعت عنده. اجتهد كثيرون لفهم المقصود بالأمانة في هذه الآية ، لكن أمرها بسيط إن أخذناها على ظاهرها وفسرنا الأمانة بالأمانة ، أي القدرة على إنكار ما استودعنا الله إياه من فطرة أو الإقرار والإيمان. أما حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الفطرة التي لا يشوهها أي سلوك مكتسب لوالدينا فقد رواه البخاري في صحيحه وجاء فيه: "ما من مولودٍ إلا يولَدُ على الفِطرَةِ ، فأبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه ، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جَمعاءَ ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدعاءَ". انظروا إلى المثال الذي جاء به ρ ليقرب إلى عقولنا كيف أن الصفات المكتسبة لا تُورّث للذرية ، فقال لو أنجبت شاة بتر مالكها أذنها ، فإن ما ستلده سيأتي بأذن غير مبتورة ، وهكذا كل مولود يولد على الفطرة الأصلية ، دون أن يكون ضحية سلوك والديه.

بقي أن نذكر موقفاً آخر قصه ربنا علينا في القرآن سيكون مع الكفار عندما يرون العذاب ويتوقعون أنهم ملاقوه ، قال تعالى:

"وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{27} بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{28}" الأنعام.

يطلب الكفار أن يُعْطَوا فرصة ثانية فيعودون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً. بالطبع طلبهم مرفوض ، لكن الذي يلفت النظر هو تأكيده سبحانه وتعالى أنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، فهم كاذبون لا أمل بصلاحهم. لكن هل هذا معقول أنهم بعد أن رأوا العذاب بأعينهم يعودون لما نهوا عنه ويضيعون الفرصة الثانية لو أعطيت لهم؟ لو ردهم الله إلى الدنيا فإنه لن يترك ذكرى هذا الموقف الذي تحدثنا عنه الآيات في وعيهم ، بل سينقله إلى اللاشعور تماماً

مثل موقف الإشهاد، وبذلك يكون عليهم أن يؤمنوا بالغيب كما آمنا، ويؤدوا الأمانة التي حملوها، وفي هذه الحالة لا غرابة أنهم سيعودون لما نهوا عنه، طالما لا يذكرون شيئاً من هذا الموقف الرهيب.

الكِبْـر والكفـر

يخبرنا الله في كتابه عن سبب كفر المعاندين عندما تبلغهم دعوة الحق أنه الكِبْر فيقول:

"إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ{56}" غافر.

أي ليست المشكلة معرفية أخفقت فيها الأدلة في إقناعهم، إنما هم رفضوا أن يقتنعوا، لأنهم مستكبرون على الله، أو على رسله، أو على المؤمنين. يقول تعالى:

"قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ{75} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ{76}" الأعراف.

وقال أيضاً:

"وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً{94} قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً{95}" الإسراء.

وقال: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{31}" الزخرف.

وقال ربنا وهو يكشف سبب كفر اليهود في المدينة بمحمد صلى الله عليه وسلم :

"وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ{89} بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ{90}" البقرة.

لم يكن كفرهم لأن الحق لم يستبن لهم ، إنما لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن منهم ، بل كان من العرب ، واليهود المستكبرون يأنفون أن يتبعوا رسولاً من أمة لا يحترمونها ، أو قل هم مستكبرون عليها. وقال تعالى:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{25} أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ{26} فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ{27}" هود.

وقال في سورة البقرة مبيناً أن الكِبْر كان سبب كفر إبليس ، الذي لم يكن في حاجة للإيمان بالاستقراء ، بل كان يشاهد المغيبات بأم عينيه:

"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{34}" البقرة.

خلاصة القول أن سبب كفر المعاندين ليس معرفياً وليس نقصاً في الأدلة التي بلغتهم ، ولا إخفاق الآيات التي جعلها الله في الأنفس والآفاق وأرسل الرسل بها ، لذلك لن يقبل منهم أي تحجج بعدم كفاية الأدلة يوم القيامة ، فالله يقول: إنه طالما كانت هذه الأدلة كافية لغيرهم ليهتدوا بها ، فإن ضلال هؤلاء كان من أنفسهم وباختيارهم ويحملون مسؤوليته وسيعاقبون عليه.

فقال تعالى:

"وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{16}" الشورى.

لقد اطلع المسلمون على الفلسفة اليونانية ، وأتقنوا المنطق الأرسطي ، وصاروا ماهرين جداً في القياس العقلي وفي جميع أشكال الاستنتاج ، وكلها تفيد علماً اضطرارياً لا يستطيع العقل إلا أن يقبل به ، فطالما كانت المقدمات صحيحة ، فلا مجال لأي درجة من الشك في صحة النتيجة. وبذل المسلمون وسعهم في توظيف هذا الفن العقلي لإثبات صحة الحقائق الدينية ، ولإقناع الناس بها ورد التشكيكات فيها ، وتوظيفه في خدمة اللغة العربية وتطوير علم

النحو الذي كان شكلاً لغوياً من المنطق. نتج عن ذلك الجهد الجبار إضافة لعلم النحو علمٌ آخر أسموه علم الكلام ، كله براهين وردود ، لإثبات صحة ما تعتقده كل فرقة من فرق المسلمين ، والجميع يشترك بالبراهين على وجود الخالق وصدق رسالة صلى الله عليه وسلم.

لم ينجح علم الكلام في المهمة التي من أجلها أنشىء ، ولم تنجح جهود الفلاسفة الأوربيين الذين جاؤوا بعد انتقال التقدم الثقافي من العالم الإسلامي والذين كانوا يؤمنون بالله ، لم تنجح براهينهم العقلية في إثبات وجود الخالق إثباتاً ملزماً للعقول بحيث لا تستطيع التشكك فيه أو تفنيده وإثبات عكسه. الجميع حاولوا أن يثبتوا بالبرهان العقلي الاستنتاجي قضية عقلية لا ينفع فيها إلا الاستقراء ، ولا ينجح الاستقراء في إقناع الناس بها ما لم يكونوا راغبين بها ، وليس لديهم أهواء تجعلهم يجحدونها ويكفرون بها ، هم لم ينجحوا بينما نجح القرآن الكريم في ذلك كله ، بقليل من الأدلة العقلية التي نجدها في آية هنا وآية هناك. القرآن لم يجعل اعتماده في إقناع الناس بوحدانية الله ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم على الأدلة العقلية الكثيرة ، بل كان القليل منها كافياً ، لأن الأدلة لم تقدم للعقل من دون شيء معها ، بل رافقها خطاب موجه للقلوب يخوفها ويرغبها ، ليخلق فيها الدافع النفسي لتقبل الحق وعدم المكابرة وخداع النفس باختيار الاحتمال الذي يبقى العقل قادراً على تصوره رغم عدم وجاهته.

ولنتأمل بعض النصوص القرآنية ، لنرى كيف خاطب القرآن القلوب وحرك مشاعرها ودوافعها أكثر بكثير من مخاطبته للعقول القائمة على المنطق المجرد من العواطف. ولنأخذ هذه الآيات الكريمة من سورة عبس كمثال على ما بيناه من منهجية القرآن في مخاطبة القلوب مع العقول. يقول تعالى:

"قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ{17} مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ{18} مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{19} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{20} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{21} ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ{22} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{23} فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32} فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ{33} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ{34} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{35} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{36} لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

يُغْنِيهِ{37} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ{38} ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ{39} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{40} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ{41} أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ{42}" عبس.

انظروا إلى الأدلة المتعددة التي توردها الآيات ثم تتبعها بترهيب وترغيب ، ترهيب من موقف مرعب يوم القيامة حين يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه.. ثم يتلوه الترغيب بذكر سعادة المؤمنين واستبشارهم في الموقف الرهيب ذاته ، بينما الكفرة الفجرة وجوههم عليها غبرة ترهقها قترة. تعرض الحقائق الإيمانية والأدلة العقلية الاستقرائية ممزوجة بما يرفع الدافعية لدى المتلقي لأن يتجرد عن الهوى ويأخذ الأمر بجدية ، فلا يخدع نفسه ولا ينكر الحق وهو يعلمه.

يتباهى الملحدون بأنهم هم العلميون ونحن الخرافيون ، وهم لا يعلمون أو لا يريدون أن يعلموا أننا نستدل على الخالق وعلى صحة رسالته بطريقة أكثر علمية من طريقتهم في إنكاره. إن العلوم جميعها باستثناء الرياضيات تقوم على الاستقراء ، أما الرياضيات فعلى الاستنتاج. أي جميع العلوم تقوم على الاحتمالات وغلبة الظن ، ولم تتقدم البشرية إلا عندما تحررت من أسر الفلسفة الاستنتاجية وانطلقت تستقرىء الكون والطبيعة ، لتكتشف القوانين التي تحكمهما ، ولتنجح في تسخيرهما لخيرها وخدمتها. الأوربيون ينسبون الفضل إلى "بيكُن" على أنه أول من لفت الأنظار لأهمية الاستقراء ، لكنهم يجهلون أنهم مع البشرية كلها مدينون للقرآن الكريم الذي شجع مراراً على استقراء الآيات في الأنفس والآفاق ليتبين لنا أنه الحق. ويتناسون أن الاستقراء كان دائماً الطريقة العقلية للاستدلال التي يتبعها كل البشر منذ آدم في حياتهم اليومية ، وإن كانوا لم يسموها باسم مميز لها. لقد حاول محمد باقر الصدر رحمه الله في كتابه "الأسس المنطقية للاستقراء" أن يتغلب بالرياضيات المعقدة جداً على ذرة الشك التي تبقى مهما عظم احتمال وجود الله ، وحاول رحمه الله أن يصل بالاحتمال إلى مئة بالمئة عن طريق معادلات رياضية استغرقت عشرات الصفحات. لقد فاته رحمه الله أن ذرة الشك هذه مقصودة ممن خلقنا وبرمج عقولنا ، لنقوم نحن بتجاوزها بقلوبنا تجاوزاً متعمداً ، فلا نلقِ بالاً لذرة الشك العقلي ، إنما نؤمن بالحق الذي جاءنا من ربنا ، تماماً كما لو أننا وصلنا إليه بالاستنتاج الرياضي أو غير الرياضي. إن هذه القفزة فوق ذرة الشك المتأصلة في تكوين العقل الإنساني عندما يقوم بالاستقراء ، هي الإيمان الذي نستحق عليه الأجر من الله. ولو لم توجد ذرة الشك العقلي هذه ، ما كان لنا فضل في إيماننا ، وما كنا نستحق من الله الشكر عليه والأجر.

خداع النفس والاهتداء

والسؤال الحاسم هو كيف نعرف إن كنا نخدع أنفسنا بخصوص قضية ما ، أم نحن نقر بالحق ونكون بذلك مهتدين ؟ هذه من المعضلات التي بحثها علم النفس المعرفي المعاصر ، وحلها بسيط وبدهي.

عندما يكون هنالك احتمالان متناقضان مثل: هل للكون والأحياء خالق أم هم ولدوا بالصدفة المحضة ؟ فإن من يأخذ بالاحتمال الأقوى هو المهتدي ، أما من يتمسك باحتمال ضئيل وعلى أساسه ينكر ما تقوم الدلائل على أنه الحق ، فهو الخادع لنفسه الرافض للهداية التي تقتضيها البداهة البشرية التي يقوم عليها تفكيرنا في كل شيء نستقرؤه في حياتنا اليومية.

إنه يتبنى ما يقول العقل والعلم إن الاحتمال الأكبر أنه باطل ، وينكر ما احتمال صحته هو الأكبر. عندما تكون احتمالية صحة الأمر أو عدم صحته متقاربتين وتكادان تكونان خمسين بالمئة لكل منهما ، في هذه الحال يصعب علينا تمييز الاهتداء عن خداع النفس ، لكن خلافنا مع الملحدين ليس من هذا النوع ، حيث الاحتمال العقلي أن الحياة ولدت صدفة ، وتطورت وارتقت بمزيد من الصدفة المحضة لتبلغ ذروتها في الإحكام والإتقان والروعة التي خلق الإنسان بها ، احتمال ذلك وارد من الناحية العقلية لأن العقل البشري قادر على تخيّله ، لكنه احتمال متناهٍ في الضآلة بحيث يكاد يكون صفراً بالمئة.

لو أجريت دراسة علمية ووصلت إلى نتائج احتمال صحتها خمسة وتسعون بالمئة ، واحتمال أن نتائجها وليدة الصدفة خمسة بالمئة ، فإن التفكير العلمي السليم الذي لا يختلف عليه عالمان ولا عاقلان ، هو اعتبار ما احتماله خمسة وتسعون بالمئة أو أكثر هو الصواب ، واهمال الاحتمال النقيض الذي لا يزيد عن خمسة بالمئة ، فنبني على ما غلب على ظننا أنه الصواب ، فنصنع بمقتضاه دواء جديداً ، ولا نعتبر وصف الطبيب له ليعالج به مريضاً ما ، خطأً طبيباً ، حتى لو نتج عن ذلك ضرر للمريض.

نحن المؤمنين أن لنا خالقاً خلقنا عن قصد وتعمد وعلم وقدرة لا متناهية على الإبداع ، نحن العلميون الذين يتبنون ما احتمال صحته هو الأغلب.. أما الذين يتبنون ما احتمال صحته ضئيل جداً لمجرد أن العقل الإنساني قادر على تخيله ، فهم الخرافيون اللاعلميون.

يحق للمؤمنين بالخالق أن يستعيدوا الثقة بأنفسهم فينتقلوا من موقف الضعيف المدافع عن صحة الاحتمال الذي تبناه ، إلى الهجوم وطلب الدليل من الذي يتبنى الاحتمال الضئيل جداً في فعل معرفي متعمد يناقض ما بني عليه العقل الإنساني من قواعد منطقية وعقلانية.. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين!.

الإنسان حر حتى بينه وبين نفسه أن يؤمن أو أن يكفر ، وعندما تكون الدوافع المضادة للإيمان بالله وبرسوله قوية جداً ، فإنه حتى المعجزات لا تعمل شيئاً ، كما أنها لم تنجح مع فرعون وقومه عندما أيد الله رسوله موسى بتسع آيات كلها معجزات ، ومن كثرة الآيات وصل القوم إلى اليقين أن ما يدعوهم موسى إليه هو الحق ومع ذلك جحدوا وأنكروا وكفروا. قال تعالى:

"وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{14}" النمل.

هنا لم يكن خداع النفس هو السائد بل كان الجحود والكفر بكل وعي وعلى العكس من كل القناعات العقلية ، لكن هذا الجحود لا بد عادة أن يتلوه خداع النفس الذي سماه ربنا زيغ القلب الذي يتلو زيغ النفس الواعية ، وهذا واضح في قصة بني إسرائيل الذين كذبوا موسى وهم يعلمون صدقه ثم خدعوا أنفسهم فأقنعوها أنه كاذب ، قال تعالى عنهم:

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{5}" الصف.

في خداع النفس يقوم الكائن البشري باختيار ما يؤمن به ، ويخدع الجزء الشعوري منه ليتقبل ما احتماله ضئيل ويرفض ما احتمال صحته هو الغالب. أي إن الإنسان يخدع جزءاً من نفسه مصمماً ليعمل وفق المنطق السليم الذي تتفق عليه عقول الجميع ، فتتبنى هذه النفس ما شاءت من الاحتمالات وتبرر ذلك للوعي المنطقي بمبررات تسكته وتريح الإنسان من أي تناقض معرفي سيزعجه لو لم يتم خداع الشعور الذي يميل بالفطرة إلى اعتقاد ما يغلب على ظنه وإهمال ما قل احتماله وتضاءل. بذلك يخدع الإنسان نفسه ، ويمارس أقصى درجات الحرية التي أعطاه الله القدرة عليها.

الحب أساس الإيمان

من يستعرض القرآن الكريم يجد الحب هو الأساس الذي يقوم عليه الإيمان وليس الاقتناع العقلي ، وهذا يؤكد حرية الإنسان حتى عقلياً في أن يؤمن أو يكفر ، فهو إن أحب الله أقر بوجوده وآمن بكتبه ورسله ، أما إن استحب غيره أي جعل غيره أحب إليه من الله ، أطاعه عقله وصور له أنه على حق ، فالله غير موجود أو من يدعي الرسالة كاذب.

قال تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ{165}" البقرة.

وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{54}" المائدة.

وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{23}" التوبة.

و قال: "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ{7}" الحجرات.

وفي سورة إبراهيم يقول ربنا:

"اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ{2} الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ{3}" إبراهيم.

وقال في سورة النحل:

"مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{107} أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ{108}" النحل.

وقال في سورة فصلت:

"وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{17}" فصلت.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُعَبِّر عن الإيمان بالحب عندما شهد لأحد صحابته، فقد روى البخاري في صحيحه أن رجلاً على عهدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كان اسمُه عبدَ اللهِ، وكانَ يُلَقَّبُ حِمَاراً، وكان يُضحِكُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم قدْ جلَدَه في الشَّرابِ، فأُتيَ بهِ يومًا فأمَرَ بِهِ فجُلِدَ، فقال رجلٌ مِنَ القَومِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، ما أكثَرَ ما يُؤتَى بِهِ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "لا تَلْعَنُوه، فواللهِ ما عَلِمْتُ إلَّا أنه يُحِبُّ اللهَ ورسولَه".

إذن الحب هو الدافع الأول للإيمان، الحب لله والحب للمؤمنين والحب للآخرة الباقية أكثر من الدنيا الزائلة. وهنا ندرك الحكمة من تخصيص جزء من الزكاة لتأليف قلوب غير المؤمنين، أي لكسب حبهم للمؤمنين، فيدفعهم هذا الحب إلى أن يروا الحق الذي في الإسلام، وتدفعهم إلى الرغبة في الانتماء إلى جماعة المؤمنين والانضمام إليها، وليس المال الذي يعطى لهؤلاء ثمناً لإيمانهم، فالله لا يريد منافقين مرتزقة، بل الهدف هو تأليف قلوبهم أي كسب محبتهم لنا، ونحن نعلم أن العطاء دون مقابل يستثير الامتنان والحب في القلوب السوية الكريمة لا القلوب الفاسدة اللئيمة، وهذا هو الهدف عادة من التهادي بين الناس، يقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

فالحب يولد في القلوب بفعل شيئين ، أولهما الإعجاب وثانيهما الامتنان ، والمؤمنون الذين يعيشون حياة اجتماعية وأخلاقية تستثير إعجاب الآخرين بهم ، فإذا أحسنوا لهذا الآخر بإهدائه من مال الزكاة ، ولم يطالبوه بشيء مقابله ، فإن دوافع الحب تكون قوية لدى هذا الذي يتألفون قلبه ، وهذا في الغالب يقود إلى إيمانه إيماناً صادقاً ، ويكون بذلك إنقاذ له من النار. ولا يقتصر تأليف قلوب غير المسلمين حال ضعف المسلمين وحاجتهم لكسب ود الآخرين ، إنما تأليف القلوب يعطي أفضل النتائج عندما يكون المسلمون أقوياء ومستغنين عن غيرهم ، وهذا يعني أن تأليف القلوب يبقى من مصارف الزكاة إلى يوم القيامة.

تأليف القلوب والإيمان

كل ما سبق يرينا أن الطريق إلى هداية الناس وإدخالهم في الإسلام يمر من قلوبهم دون أن يكون خالياً من المنطق العقلي ، وإنما تبدأ الدعوة الناجحة إلى الله بتأليف قلوب المقصرين في دينهم أو غير المسلمين ، تأليفاً ليس بالضرورة بالمال ، بل بالاحترام والحب وحسن الخلق والإكرام وعدم التمييز ضدهم على أساس الدين ، ولا بأس مع ذلك من تقديم الهدايا لهم وقبولها منهم ضمن إمكاناتنا المالية دون أن يشكل ذلك عبئاً علينا أو عليهم. والذي يجعل قلوبهم مفتوحة لدعوتنا ، إدراكُهم أننا ندعوهم إلى الله حباً بهم وحرصاً عليهم ، وليس لكسب لنا شخصي أو سياسي أو غير ذلك ، وإذا ما شعروا أنهم إن آمنوا فسيحتلون المكانة التي يستحقونها بخصالهم التي يتميزون بها ، وسيحظون بالتقدير الذي هم جديرون به ، مما يقوي عندهم الدافع للانضمام إلى أمة الإسلام ، وكل هذا يكون في أعلى درجاته عندما تكون أمة الإسلام عزيزة ومتقدمة.

ليس الإيمان والكفر مسألة قناعة عقلية ، بل هما نتاج دوافع نفسية بحتة ، وربنا يبين لنا كيف أنه قادر على أن يهدي الناس جميعاً دون إكراه لو شاء ، وكيف أن الناس جميعهم قابلون للكفر إن كانت الفتنة في أشد درجاتها ، وذلك حين يقول:

"وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ{33}" الزخرف.

أي: لو أعطى الله للكافرين في الدنيا كل ما يمكن أن نتخيله من النعيم والزخرف والرفاهية لأدى ذلك لأن يكون الناس أمة واحدة كلها كافرة ، حيث سيحرص البشر كلهم على الحصول على هذه النعم والمتع ، فتتغلب الدوافع إلى الكفر على الدوافع إلى الإيمان في نفوسهم ، فتزيغ قلوبهم عن الحق ، وينساقون مع الهوى فيضلون جميعهم. والله يقول إن النفوس مفطورة على حب الشهوات والافتتان بها:

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ{14}" آل عمران.

وبالطريقة نفسها يمكن أن يهدي الله الناس جميعاً ، لكنه يريد منا الإيمان الذي يكون بمحض حريتنا ، حيث تبقى الدواعي إلى الإيمان والكفر متساوية ، كي يظهر موقفنا الحقيقي من ربنا ، هل نشكر أم نكفر دون إغراء لا يقاوم لا بالإيمان ولا بالكفر ، لا بفتنتهم بالعطاء غير المحدود لكل من يكفر ، ولا ترهيبهم بالعذاب يرونه واقعاً عليهم ما لم يؤمنوا ، وعندها لا يكون إيمانهم بالغيب ، إذ يصبح عسيراً على عقولهم أن تخدع نفسها وتشرح صدورهم بالكفر ، وهذا كان حال فرعون الذي آمن وهو يغرق فلم ينفعه إيمانه بعد أن فات الأوان ، وكذلك كل الأمم التي عذبها الله في الدنيا بسبب فسوقها وكفرها ، إلا أمة واحدة هي أمة يونس التي آمنت بعد أن رأت العذاب فكشفه الله عنها. يقول تعالى:

"فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ{98} وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ{99}" يونس.

حرية رغم المعجزات

ويبقى السؤال: أليس في المعجزات التي يأتي بها الرسل إكراه لعقول الناس على الإيمان ، إذ كيف يكفرون بعد أن يروا معجزة رسولهم ؟ هذا صحيح والإيمان بعد رؤية معجزة لا يكون إيماناً بالغيب حقيقة ، لأننا لا يشترط أن نرى الله بأعيننا ، المهم أن نرى أفعاله التي تدل عليه متجاوزة طبائع الأشياء ومتمردة على القوانين الطبيعية. وهنا تتجلى حكمة ربنا في إنزال

ملائكة يعلمون الناس السحر الذي يتم فيه تجاوز القوانين الطبيعية تجاوزاً ظاهرياً، حيث يستطيع السحر أن يخلق صورة تراها عقولنا وتصورها آلات التصوير لأشياء لا وجود حقيقياً لها، وبانتشار السحر في الأرض لم تعد معجزات الرسل قاهرة للعقول، بل يبقى للعقول حريتها، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فالذي لا يريد أن يؤمن يقول عن المعجزة إنها سحر لا أكثر، وإنها لا تثبت شيئاً مما يدعيه الرسول صلى الله عليه وسلم. لكن سحرة فرعون الذين كانوا منيعين على السحر، ولا يستطيع ساحر أن يوهمهم بشيء، ما كانت لهم حرية عقلية، وما كان لهم بد من أن يؤمنوا بالله عندما رأوا عصا موسى تتحول إلى أفعى حية حقيقية تلقف وتأكل ما صنعوا من السحر، بينما انطلى سحرهم على موسى وأوجس خيفة عندما رأى حبالهم وعصيهم تنقلب حيات وأفاعي تسعى أمامه.

لذا قال ربنا عن السحرة عندما رأوا معجزة موسى وتيقنوا أنها معجزة حقيقية (وألقي السحرة سجداً) أي كأنهم ما كان لهم أن يفعلوا غير ذلك، أي السجود لله، وكان إيمان السحرة وثباتهم عليه رغم العذاب والموت الذي توعدهم به فرعون دليلاً للناس الذين يشاهدون المباراة بين موسى والسحرة، كان ذلك هو المعجزة التي تُطمئن من يريد الإيمان، إلى أن موسى رسول الله حقاً، ويبقى للمكابر أن يقول ويقنع نفسه أن الأمر كان مؤامرة، اتفق فيها موسى كبير السحرة مع السحرة، كي يُخرجوا الناس من دين آبائهم، وهكذا يبقى المجال لخداع النفس مفتوحاً ويبقى الإيمان اختيارياً مئة بالمئة، اي كانت معجزة موسى مُلزمة لعقول السحرة دون باقي الناس الذين شاهدوها.

قال تعالى: "قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى{65} قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى{66} فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى{67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى{68} وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى{69} فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى{70} قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى{71}"طه.

وقال عن السحر ومن أين جاء:

"وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{102}" البقرة.

ويخبرنا ربنا أن الكفار المعاندين لن يؤمنوا حتى لو فتح الله لهم باباً من السماء يصعدون فيه ، فسيقولون ما هذا إلا سحر أو سُكْر.

"لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{13} وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{14} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{15}" الحجر.

حرص ما بعده حرص على بقاء الناس أحراراً في أن يؤمنوا أو أن يكفروا وعلى أن يبقى إيمانهم بالغيب ، وإن كان سبحانه قد قبل إيمان بعض من فقدوا كثيراً من قدرتهم العقلية على الكفر ، مثل قوم يونس وسحرة فرعون ، أومثلهم المشركون العرب الذين بقوا على الكفر إلى أواخر حياة محمد صلى الله عليه وسلم فأمر الله بقتالهم وقتلهم ما لم يؤمنوا ، وبالمقابل هو لن يحتسب الكفر على أي مكره طالما كان قلبه مطمئناً بالإيمان مهما صدر منه من أقوال أو أفعال كفرية.

من شاء فليؤمن

الإنسان خلق للخلافة في الأرض وهو أهل لها من جميع النواحي وبخاصة الناحية العقلية والنفسية ، وأساس هذه الأهلية حريته العقلية في أن يؤمن أو أن يكفر ، وفي أن يطيع الله أو أن يعصيه ، لكنه محاسب يوم القيامة عن ذلك: إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر. الإنسان مأمور بالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر ، لكن له الحرية أن يؤمن أو أن لا

يؤمن ، وهو الذي يختار متى يؤمن إن كان ما يزال حياً ، وله الحرية أن يلتزم بما يشاء من أوامر رب العالمين ، إلا الأمور التي إن لم يلتزم بها تسببت بالضرر للمجتمع ، فيجبره المجتمع على التقيد بها إن كان يريد البقاء في هذا المجتمع واحداً منه ، وإلا فليخرج منه وليفعل بعيداً عنه ما يشاء ، لكنه محاسب يوم القيامة عن كل شيء طالما فعله بحرية ودون إكراه. يقول تعالى:

"لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{256}"البقرة.

وقال في سورة الكهف:

"وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً{29} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً{30} أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً{31}" الكهف.

ولنتأمل كيف توعد الله من يكفر مباشرة عندما أعطاه الخيار ، وكيف أكثر في وصف ما أعده لمن يؤمن من خير يوم القيامة... هي حرية لا تنفك عن المسؤولية ، كما لا ينفك وجها عملة واحدة عن بعضهما.

الفصل الثاني

الأسس العقدية للحرية الفردية في الإسلام

تمهيد

هذه صفحات كتبتها لأضيفها إلى كتابي سكينة الإيمان ضمن ما أريد أن أضيفه للكتاب لإصدار الطبعة الثانية منه. يبدو أن الله مقدر أن يصدر هذا الكتاب قبل الطبعة الثانية من سكينة الإيمان. وهذا الفصل تناولت فيه قضايا عقدية لها علاقة بنفسية المؤمن، وأهمها القضاء والقدر والخلق والأمر والتوكل والابتلاء. وفقني الله سبحانه وتعالى إلى فهم القضاء والقدر كما جاء في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة عندما تؤخذ مجتمعة، فوجدته تصوراً إيمانياً إلى أبعد حد، وعلمياً يستوعب كل علومنا المعاصرة استيعاب اتحاد واندماج وانسجام، ما أظن أنه خطر ببال أحد من قبل. ابن رشد رحمه الله دعا إلى فصل الفلسفة أي علوم ذلك العصر عن الدين، بحيث يتم بحث كل منهما في إطاره الخاص به وفق مسلماته، دون خلط أو مقارنة أو تطبيق أحدهما على الآخر. كانت فكرة رائعة ساعدت على انطلاق العلوم وبخاصة في أوربا التي أكملت المشوار الحضاري لأمتنا. لكنني اليوم أدعو إلى زواج العلم والدين واتحادهما في عقولنا وقلوبنا، فلا تعارض من أي نوع بين ثوابتهما، وحتى نظرية التطور إن صح شيء منها فيمكن للإسلام استيعابه ولن يخرج عن دائرة الخلق بالقَدَر، بل سيكون آية أخرى على عظمة خالقنا الذي قال:

"مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ{28}" لقمان.

هذا الفصل يساعد كثيراً على استكمال الصورة التي بدأنا نتبينها في الفصل الأول للإنسان كخليفة في الأرض مكرم من خالقه، وحر مسؤول مطلوب منه الإيمان بالله وطاعته بالغيب دون إكراه، ليستحق على ذلك رضوان الله وجنة عرضها السماوات والأرض.

والآن إلى الفصل الثاني من الميزان:

القضاء والقدر والخلق والأمر:

فهم جديد لنصوص قديمة

أسباب القلق النفسي

"تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{1} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً{2}"الفرقان.

إن من الأسباب المهمة للقلق النفسي عند الإنسان ظنه أن المصائب تقع عليه بشكل عشوائي ، وأنه لا يحميه منها إلا حذره واحتياطه ، وهو مع ذلك يبقى قلقاً ، لأنه مهما احتاط ، فإنه لا يعرف من أين تأتيه المصائب أحياناً....

كما أنه لا غنى للإنسان ، عن الكثير من الأعمال اليومية التي تنطوي على شيء من الخطورة حتى لو كان قليلاً ، فالذي يخرج من بيته إلى عمله معرض لحوادث السير ولحوادث العمل وغيرها من المخاطر ، والمرأة التي تطهو الطعام لأسرتها معرضة للحريق وغيره من المخاطر.

أما المؤمن ، فيحميه إيمانه بقضاء الله وقدره من هذا النوع من القلق ، إذ لا يكتمل الإيمان ما لم تكتمل أركانه كلها ، ومنها الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

فكل ما يجري في الكون ، حتى لو كان ناتجاً عن فعل القوانين الطبيعية المتفاعلة مع الصدفة ، أو عن فعل كائنات لها بعض الحرية ، وتساهم في إحداث ما يحدث في هذا الكون ، إن ذلك كله يجري بقدر الله تعالى ، الذي خلق القوانين الطبيعية ، والذي منح الحرية

والإرادة ، والقدرة لبعض مخلوقاته ، وهو يعلم كل شيء ، ويعلم ما سيحدث في المستقبل ، وهو قادر على كل شيء ، وقادر على التدخل ومنع حدوث ما يريد له ألا يحدث ، أو تغيير مسار الأحداث بالاتجاه الذي يشاؤه سبحانه وتعالى ، أو أن يأذن بحدوث ما علم أنه سيحدث ، دون أن يتدخل فيه.

وفي جميع الأحوال ، لا يحدث في الكون شيء صغير أو كبير ، إلا بعلمه وإذنه فيكون من قدره ، أو بعلمه ومشيئته المتعمدة فيكون من قضائه.

إذْنُ الله مشيئة

والإذن نوع من المشيئة ، حتى لو لم يتدخل الرب في مسار الأحداث ، بل كانت نتاج الصدفة ، والعشوائية والاحتمالات ، أو بفعل القوانين الطبيعية ، أو بفعل إنسان عاقل يتمتع بقدر من الحرية والإرادة.

طالما أذن ربنا بحدوث أشياء معينة ، وهو عالم بها قبل أن تحدث ، وقادر على منع حدوثها ، فإنها لم تقع إلا بقَدَره ومشيئته.

لقد ظن كثير من الناس ، أن القدر يعني: أن الله يتدخل في كل صغيرة وكبيرة ، ويسيّر الأمور بتعمد ، ليحدث ما يريده هو ، وكأن الله يجبر الأشياء والأشخاص على فعل ما يشاؤه ولو ضد إرادتهم ، أو هو يجعل الأشياء تبدو وكأنها تحدث بقوانين طبيعية أو بالمصادفة ، وبحسب قوانين الاحتمالات ، أو بفعل الإنسان صاحب الإرادة الحرة. لكن ذلك كله مظهر خارجي ، بينما الحقيقة: أن الله دفع الأشياء لتقع كما أراد لها. وهذا فهم خاطئ للقدر.

وقد جاء الاختلاط في فهم القدر ، من عدم الانتباه إلى أن مشيئة الله نوعان:

الأول: مشيئة التعمد والقصد.

والثاني: مشيئة الإذن بوقوع الحدث ، مع القدرة على منعه ، والعلم المسبق به.

ليست إذاً الموافقة على الفعل والرضا به ، بل هي تركه يقع ، والامتناع عن التدخل فيه ، مع القدرة على ذلك والعلم أنه سيقع قبل أن يقع.

إذن العلم المسبق بما سيقع وتركه يقع ، أي الإذن بوقوعه ، هو نوع من المشيئة التي لا تتنافى مع حقيقة أننا نفعل ما نفعل في الحياة بإرادتنا الحرة التي وهبنا الله إياها ، وأن ما يحدث في الطبيعة بمقتضى الصدفة والاحتمالات ، أو بحسب القوانين الطبيعية التي اكتشف العلم المعاصر الكثير منها ، إنما هو قدر لله تعالى.

أي: نحن نريد ، ونختار بحرية ، والله عالم بما سنقدم عليه ، وقادر على التدخل فيه ، لكنه يتركه يقع ، فنكون نحن المسؤولين عنه ، والفاعلين له. ويكون الله هو الذي قدره ، لأننا لم نفعل شيئاً إلا بقدره ، وبالتالي يكون ما وقع وجرى على أيدينا فعلاً لله أيضاً. فهو قد استخدمنا ، وبأيدينا جرت أقداره ، وهو في الوقت ذاته لم يفرض وقوع شيء ضد إرادتنا وحريتنا ، وبالتالي نحن مسؤولون عما فعلنا ولو كنا فعلناه بقدر الله.

لأفعالنا فاعلان

أي: ما نفعله نحن البشر له فاعلان:

الأول: هو نحن الذين نفعل الشيء بحرية وإرادة ، ونكون مسؤولين عنه.

والثاني: هو الله الذي علم من قبل ما سنفعل ، وهو القادر على منعنا من فعله ، لكنه لم يمنعنا ، بل تركنا نفعله ، ففعلناه بعلمه وإذنه ، أي: بقدره. وكل ما يقع بقدره ، إنما هو من فعله ، دون أن يقلل ذلك من مسؤوليتنا عما فعلناه ، ودون أن يقيد حريتنا فيما نفعل.

وكما يبدو لنا فإن الأصل أن الله يأذن للأحداث أن تقع ، ولا يتدخل فيها ، إلا في حالات محددة.

كل شيء بقدر الله

كل ما يقع في الوجود ، يقع بقدره.. عن طاوس أنه قال: أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شي بقدر ، قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"كل شيء بقدر حتى العَجْزُ والكَيْسُ أو الكَيْسُ والعجز". (رواه مسلم).**

كل حركة لكل ذرة ، أو ما هو أصغر منها ، أو ما هو أكبر ، وكل اهتزاز لورقة على شجرة ، أو لجناح طائر ، أو دورة لجهاز صنعه إنسان ، أو فعل إرادي قام به كائن عاقل ، كلها لا تقع إلا إن كان الله قدر وقوعها ، وهذا لا يعني أن الله قد تعمد حدوث كل هذه الأشياء على كيفية معينة ، إنما يعني أن الله علم بها من قبل ، وقدر على منعها ، لكنه أذن بحدوثها فحدثت ، وبالتالي أصبحت من قدره ، قال تعالى:

"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{96}" الصافات.

وعن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله كل صانع وصنعته" (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبدالله أبو الحسين بن الكردي وهو ثقة كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد).

أي: أن الله يخلق النجّار ، ويخلق السرير الذي يصنعه النجار ، دون أن نبخس النجار دوره ككائن ذي إرادة حرة ، قام بصنع السرير بإرادته الحرة ومهارته وجهده ، فهو صانع السرير ، والله صانعه هو وسريره.

أي: إن للسرير صانِعَيْن ، أو قل خالِقَيْن: النجّار ، ورب العالمين ، الذي خلق النجار ، وقدر الأقدار ، فقطع النجار الأشجار ، وصنع سريراً من أخشابها.

وهو خالقنا وخالق أعمالنا بالقدر لا بالتعمد لها ، إذ نحن الفاعلون لها ، نعملها بعلمه وإذنه ، سواء منها ما يحب من الخير ، أو ما يبغض من الشر ، وكونه خالقنا وخالق ما نعمل لا يعفينا من المسؤولية عن أعمالنا ، لأنه خالق كل شيء يقع بقدره ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بقدره ، ولا يلزم أن يتعمده حتى يقع بقدره ، بل يعلمه قبل أن يقع ، ويأذن به - وهو الذي على كل شيء قدير- فيكون من قدره ، ومخلوقاً له.

الخلق بالقَدَر

ربنا يخلق كل شيء بقدر.

"إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ{49}" القمر.

والخلق: هو التقدير ،كما يقول صاحب لسان العرب ، وليس الإيجاد من العدم كما يظن أكثرنا ، والنجار لم يتعلم صنعته إلا بقدر الله ، ولم يتحرك حركة إلا وهي من قدر الله ، وبالتالي فإن ما ينتج عن عمله ، إنما هو من صنع الله خالق كل شيء.

ويجب أن لا نتشنج ونتزعج من القول: إن النجار خلق السرير ، لأن الخلق من الناحية اللغوية ، لا يعني إيجاد الشيء من العدم كما يظن كثيرون ، بل هو الصنع والتقدير ، وإعادة تشكيل ما هو موجود. مثلما خلق الله آدم عليه السلام من قبضة من طين لازب ، حملها جبريل إليه من الأرض. وكما خلق عيسى عليه السلام من الطين طيوراً نفخ فيها ، فكانت طيوراً حية ، كباقي الطيور التي خلقها ربنا سبحانه وتعالى.

يقول تعالى على لسان عيسى عليه السلام ، وهو يُذكّر بني إسرائيل بمعجزاته:

"وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{49}" آل عمران.

فطيور عيسى عليه السلام لها خالقان: عيسى عليه السلام ، ورب العالمين. وكل ما نفعله ، أو نصنعه له صانعان وفاعلان: نحن ورب العالمين ، تبارك ربنا أحسن الخالقين ، قال تعالى:

"ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{14}" المؤمنون.

معنى خَلَق عند العرب

ولنتأمل بعض ما جاء في لسان العرب حول مادة خلق ، قال ابن منظور:

(خلق: الله تعالى وتقدَّس الخالِقُ والخَلاَّقُ ، وفي التنزيل: هو الله الخالِق البارئ المصوِّر ؛ وفيه: بلى وهو الخَلاَّق العَليم ؛ وإنما قُدّم أَوَّل وَهْلة لأَنه من أَسماء الله جل وعز... الأَزهري: ومن صفات الله تعالى الخالق والخلاَّق ، ولا تجوز هذه الصفة بالأَلف واللام لغير الله

عز وجل ، وهو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة ، وأصل الخلق التقدير ، فهو باعْتبار تقدير ما منه وجُودُها ، وبالاعتبار للإِيجادِ على وَفْقِ التقدير خالقٌ. والخَلْقُ في كلام العرب: ابتِداع الشيء على مِثال لم يُسبق إليه: وكل شيء خلَقه الله فهو مُبْتَدِئه على غير مثال سُبق إليه: ألا له الخَلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين. قال أبو بكر بن الأنباري: الخلق في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإنْشاء على مثال أبْدعَه ، والآخر التقدير ؛ وقال في قوله تعالى: فتبارك الله أحسنُ الخالقين ، معناه أحسن المُقدِّرين ؛ وكذلك قوله تعالى: وتَخْلقُون إفْكاً ؛ أي تُقدِّرون كذباً. وقوله تعالى: أنّي أَخْلُق لكم من الطين ، خَلْقه ؛ تقديره ، ولم يُرِدْ أنه يُحدِث معدوماً... ابن سيده: خَلَق الله الشيء يَخلُقه خلقاً أحدثه بعد أن لم يكن ، والخَلْقُ يكون المصدر ويكون المَخْلُوقَ ؛ وقوله عز وجل: يخلُقكم في بطون أُمهاتكم خَلْقاً من بعد خَلق في ظُلمات ثلاث ؛ أي يخلُقكم نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عِظاماً ثم يَكسُو العِظام لحماً ثم يُصوّر ويَنفُخ فيه الرُّوح ، فذلك معنى خَلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث في البَطن والرَّحِم والمَشِيمةِ ،..... والخِلْقةُ: الفِطْرة. أبو زيد: إنه لكريم الطَّبِيعة والخَلِيقةِ والسَّلِيقةِ بمعنى واحد... والخُلُق الخَلِيقة أعني الطَّبِيعة. وفي التنزيل: وإنك لَعلَى خُلُق عظيم ، والجمع أَخْلاق ، لا يُكسّر على غير ذلك. والخُلْق والخُلُق: السَّجِيّة...... والخَلْق: التقدير ؛ وخلَق الأدِيمَ يَخْلُقه خَلْقاً: قدَّره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه مَزادةً أَو قِربة أَو خُفّاً ؛ قال زهير يمدح رجلاً:

ولأَنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ ، وبعضُ القومِ يَخْلُقُ ، ثم لا يَفْري

يقول: أَنت إِذا قدَّرت أَمراً قطعته وأَمضيتَه ، وغيرُك يُقدِّر ما لا يَقطعه ، لأَنه ليس بماضي العَزْم ، وأَنتَ مَضّاء على ما عزمت عليه ؛..... وفي حديث أُخت أُمَيَّةَ بن أَبي الصَّلْت قالت: فدخَلَ عليَّ وأَنا أَخلُقُ أَدِيماً أَي أُقَدِّره لأَقْطَعه. وقال الحجاج: ما خَلَقْتُ إلاَّ فَرَيْتُ ، ولا وَعَدْتُ إلاَّ وَفَيْتُ...... والخَلْقُ: الكذب. وخلَق الكذبَ والإفْكَ يخلُقه وتخَلَّقه واخْتَلَقَه وافْتراه: ابتدَعه ؛ ومنه قوله تعالى:

"إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{17}" العنكبوت.

ويقال: هذه قصيدة مَخْلوقة أَي مَنْحولة إِلى غير قائلها ؛ ومنه قوله تعالى: "إِنْ هذا إِلا خَلْقُ الأَوَّلين ، فمعناه كَذِبُ الأَولين ، وخُلُق الأَوَّلين قيل: شِيمةُ الأَولين ، وقيل: عادةُ الأَوَّلين ؛ ومَن قرأَ خَلْق الأَوَّلين فمعناه افْتِراءُ الأَوَّلين ؛ قال الفراء: من قرأَ خَلْقُ الأَوَّلين أَراد اختِلاقهم وكذبهم ، ومن قرأَ خُلُق الأَولين ، وهو أَحبُّ إِليَّ ، الفراء: أَراد عادة الأَولين ؛ قال: والعرب تقول حدَّثنا فلان بأَحاديث الخَلْق ، وهي الخُرافات من الأَحاديث المُفْتَعَلةِ ؛ وكذلك قوله: إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاق ؛ وقيل في قوله تعالى إِن هذا إِلاَّ اختِلاق أَي تَخَرُّص. وفي حديث أَبي طالب: إِنْ هذا إِلا اختلاق أَي كذب ، وهو افْتِعال من الخَلْق والإِبْداع كأَنَّ الكاذب تخلَّق قوله ، وأَصل الخَلق التقدير قبل القطع. الليث: رجل خالِقٌ أَي صانع ، وهُنَّ الخالقاتُ للنساء......" (انتهى).

يخلق الله ما يخلق بالقدر ، فتكون كل بذرة حملتها الريح ، فوقعت في التراب ، وصادف التراب مطراً أنبتها ، يكون خالقها وزارعها هو الله ، لأنها زرعت بقدره ، ونبتت بقدره ، دون أن يشترط لهذا القدر أن يكون قدراً متعمداًص ، بل هو قدر العلم والقدرة والإذن.

إنه عَلِم ما سيقع للبذرة المعينة ، وقَدَر على تغيير مصيرها ، لكنه أذن لها أن تقع في التراب ، وتنبت لتثمر وفق ما وضع فيها من برمجة مخزونة في الجينيات (المورثات).

تفكير علمي وإيماني معاً

العقيدة الصحيحة في القدر ، ليست الاعتقاد أن الله وضع خطة لحياة فرد معين ، فهي تسير وفق ما تعمده رب العالمين لهذا الشخص أو الشيء. إنما هي الإيمان أن كل شيء في الوجود ، من أي نوع ، وبأي سبب ، وبأي مقدار ، إنما يقع بقدر الله ، لأن الله علم بوقوعه قبل أن يقع ، ولو شاء له ألا يقع ، لكان من المستحيل له أن يقع ، وهو لا يقع إلاّ بإذن الله.

وهذا يعني أن الإيمان بوجود قوانين طبيعية ، وطبائع للأشياء ، تجعلها تتصرف بشكل محدد ، ومحتم في المواقف المختلفة ، كأن يتمدد الحديد كلما ارتفعت حرارته ، ويتقلص كلما برد وهبطت حرارته ، وكذلك الإيمان أن الكثير من الأشياء تقع بالمصادفة وفق قوانين

الاحتمالات ، والإيمان أن من الكائنات من هو حر ، وله إرادة حرة حرية حقيقية ، وتفعل ما تفعل بكامل حريتها ، الإيمان بذلك كله ، كل ذلك لا يناقض الإيمان بالقدر في العقيدة الإسلامية ، لأن الله جعل للأشياء طبائع ، وقوانين تحكمها.

"قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{50}" طه.

وتركها تتفاعل في الزمان والمكان ، لينتج عنها ما يمكن أن ينتج ، بحسب طبائعها ، وبحسب القوانين الفيزيائية والكيميائية ، وغير ذلك من قوانين طبيعية تحكمها ، دون أن يعني ذلك أن ما يحدث لها خارج من دائرة قدر الله ، بل كل شيء يقع إنما يقع بقدره ، حتى لو لم يتدخل فيه ، ولم يفرض عليه مساراً معيناً ، بل تركه يقع بحسب إرادة حرة لكائن حي ، أو بحسب قانون طبيعي ، أو بحسب صدفة من الصدف.

نعم هنالك صدفة ، وقوانين احتمالات ، يمكننا بها أن نتوقع ما سينتج عن صدفة معينة ، وهنالك قوانين ثابتة في الطبيعة ، وطبائع للأشياء ، تتحكم في نتيجة تفاعلها مع بعضها بعضاً. لكن رغم هذا كله ، فإن كل شيء يقع من الأشياء أو الأشخاص أو يقع لهم ، إنما هو قدر لله تعالى. كل شيء يحدث لأي شيء ، وبفعل أي شيء ، إنما هو قدر لله تعالى ، فهو الذي لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء:

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{3}" سبأ.

وهو الذي على كل شيء قدير ، وهو الذي لا يقع شيء إلا بإذنه وعلمه ، وبالتالي بقدره.

إن التفكير العلمي المعاصر ، الذي نما عند الغربيين بعيداً عن الإيمان ، لا يتعارض مع إيماننا بالقدر ، كما بينه لنا ربنا ورسولنا ، بل نبحث في الكون من حولنا كما يبحثون ، ونحاول معرفة طبائع الأشياء ، والقوانين الطبيعية التي تحكمها ، لنتمكن من تسخيرها ، ونحن نؤمن أن الله الذي خلق الأشياء ، وجعلها بالخصائص والطبائع التي هي عليها ، ما يزال مسيطراً عليها سيطرة علم وإحاطة بها كلها ، فلا يعزب عن علمه شيء صغير أو كبير ، ومسيطر عليها سيطرة قدرة وقهر وتحكم ، فلا يقع فيها شيء على الإطلاق إلا بإذنه.

لكن حكمته اقتضت أن يأذن بوقوع كل ما نراه يقع ، دون أن يعفينا من مسؤولية ما نقوم به ، فنكون مستحقين للثواب أو للعقاب ، لأن خالقنا لم يجبرنا ولم يُكرهنا على شيء ، وإن كان كل شيء فعلناه قدراً له ، لأن كل شيء يقع من جماد أو حيوان أو إنسان أو ملاك ، أو جان أو أي كائن أو مخلوق ، لا يقع إلا أن يقدره الله.. وحتى يقدره الله ، يكفي أن يعلم به ، وهو بكل شيء عليم ، وأن يأذن بوقوعه ، مع قدرته على منع حدوثه ، وهو على كل شيء قدير ، وهذا ينطبق على كل شيء وقع أو سيقع في الوجود ، وما وقع علمنا أنه هو قدر الله ، أما ما لم يقع حتى الآن ، فلا نتأكد أن الله قدره حتى يقع فنحن لا نعلم الغيب وإن كنا نجزم أن ما سيقع لن يقع إلا بقدر الله.

قَدَر وحرية

يختلف الإيمان بالقدر في الإسلام عن باقي الأديان ، بوضوحه وشموله وعدم تناقضه مع الإيمان بالحرية والإرادة الإنسانية ، أو الإيمان بالقوانين الطبيعية ، ودور المصادفات العشوائية في حدوث ما يحدث ، وفي تَوَلّد شيء من شيء.

فالمسلم الذي يؤمن أن القدر خيره وشره من الله تعالى ، يستطيع أن يؤمن بحرية الإنسان ، وبجبرية الأشياء وبالمصادفة ، وغير ذلك من مكتشفات العلم المعاصر. وهكذا يجمع المسلم ، بين عقيدته التي تنسب كل فعل للخالق سبحانه وتعالى ، والاعتقاد بالقوانين الطبيعية ، والنظريات العلمية التي تركز في بحثها على الفاعل المنظور ، وتترك الحديث عن الفاعل الأكبر المقدر لكل ما يقع ، للدين والإيمان.

يستطيع المسلم المعاصر ، بفضل عقيدة القدر الواضحة لديه ، أن يكون مؤمناً عميق الإيمان ، وعلمياً وعقلياً إلى أبعد الحدود في الوقت ذاته.

الخلق بالأمر

بقي أن لله سبحانه وتعالى طريقة ثانية يخلق بها الأشياء متجاوزاً فيها القوانين الطبيعية والصدفة وطبائع الأشياء ، ولا يحتاج خلق الأشياء بواسطتها إلى أقدار ، يقود أحدها إلى الآخر ، حتى ينتج ما قدر الله خلقه. فالخلق يكون عادة بالقدر كما قال تعالى:

"إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ{49}" القمر.

والطريقة الثانية: هي إيجاد ما يريد الله إيجاده وخلقه بالأمر أي بكلمة "كُنْ" فيكون. فهو إن أراد شيئاً معيناً ، لن تؤدي إليه الأحداث الطبيعية ، يقول الله له "كن" ، فيكون على الفور ، لا يتأخر ولا حتى جزءاً من ثانية. لذلك قال تعالى:

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{54}" الأعراف.

وعلماؤنا قديماً ، ظنوا أن المقصود هنا "الأمر الشرعي" ، لكن تدبر الآيات المختلفة ، يبين لنا بوضوح أن الأمر هو الوسيلة الثانية لإيجاد الموجودات بطريقة المعجزات التي لا تلتزم القوانين الطبيعية.

"قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ{69}" الأنبياء.

ومتى كانت النار برداً وسلاماً على كائن حي من لحم ودم ؟.

وبالأمر تتحول المادة غير المتشكلة إلى بنيان ، تسري فيه الحياة ، كما تحولت قبضة الطين التي سواها ربنا بيديه تمثالاً من صلصال كالفخار ، ولما نفخ فيها من روحه ، تحول الصلصال إلى خلايا متنوعة الأشكال ، والوظائف ، منتظمة في بنيان ليس هنالك أحسن منه ، فكان إنساناً كامل الخلقة سوياً ، جمع كل صفات الكمال البشري في أحسن تقويم.

لم تمر الذرات والجزيئات بمراحل وأطوار ما بين الطين اللازب الذي تُرك حتى يجف ، ثم بأمر الله ، وبكلمة "كن" ، كان آدم جسداً حياً ،كما لو كان قد حملت به أم في رحمها تسعة أشهر ، بل كان أكمل خلقاً وأقوم.

كلمـات الله

ما يَبْرَؤُه الله بكلمة "كن" ، يكون كلمةَ الله ، لأنه جاء إلى الوجود بكلمة الله. كما كان عيسى ابن مريم ، كلمة الله ألقاها إلى مريم ، لأن الحيوان المنوي الذي لقح بييضة مريم ، لم يتكون في خصية رجل ، بل خلقه الله من التراب ابتداء بكلمة "كن" ، فكان هذا الحيوان المنوي ، الذي لا تراه إلا المجاهر شديدة التكبير ، كان كلمةَ الله ، التي تجسدت خلقاً لا يقل

روعة عما يخلق ربنا بالقدر، بطريقة الخلق المألوفة لنا عبر الأسباب والمسببات وفق القوانين الطبيعية.

عيسى عليه السلام هو الحيوان المنوي المخلوق بكلمة الله، المتحد مع بييضة مريم المخلوقة بالقدر، ثم حملت به مريم، وتخلق في رحمها، كما يتخلق كل جنين بشري، حتى حانت ساعة ولادته، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة: "فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً{23}" مريم.

وكلمات الله أي: مخلوقاته التي أوجدها بالكلمة، هي غير كلماته التي حملت إلينا المعاني التي أوحاها وأرسلها إلى العباد لهدايتهم "كالقرآن الكريم". ففي القرآن كلمات الله، وفي الكون كلمات أخرى له، هي كل كائن، أو شيء، خلقه الله، وبرأه بقولة "كن".

ولعل أهم هذه الكلمات، التي لا تعد ولا تحصى، ملائكته الكرام، الذين لم تحمل بهم أنثى، وليس لهم آباء، إنما يخلقهم مولاهم بالأمر، وبقولة "كن"، فيكونون.

لقد اختلطت الأمور على كثيرين عندما تُذكر الكلمة في كتاب مقدس سماوي، فقد يكون المقصود بها جبريل، وقد يكون المقصود غيره.

وفي القرآن الكريم، كان عيسى عليه السلام هو الكلمة التي ألقاها إلى مريم، أي: الحيوان المنوي المخلوق بكلمة الله، والذي نفخه الملك في رحم العذراء الطاهرة مريم، وبذلك نفهم كيف تُلقى كلمة من كلمات الله إلى مريم. "أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ". الخلق وفق القوانين الطبيعية، وطبائع الأشياء، وبفعل الفاعلين، من مخلوقات الله ذات الإرادة.. والأمر، لا ينتظر تفاعلات الكيمياء، ولا تبدلات الفيزياء، بل يكون الانتقال من نوع من الوجود، إلى نوع آخر، بطريقة نعجز حتى عن فهمها وتخيلها.

اطمئنان بعد حَيْرة

احتار إبراهيم في كيفية إحياء الله للموتى، فدعاه:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{260}" البقرة.

كان يريد أن يرى الكيفية ليهدأ باله ، ويطمئن قلبه المعذب بحيرته ، فأمره الله أن يذبح أربعة طيور ، ويوزع لحومها على أربعة جبال ، ثم يدعو الطيور إليه ، فإذا هي حية مقبلة عليه.

ويبقى السؤال: هل رأى إبراهيم عليه السلام من الكيفية التي يحيي الله بها الموتى ما يريح فؤاده من فضوله وتساؤلاته ؟. قطع لحم مقطعة ، اجتمعت ، والتحمت ، وعادت طيوراً ، تخفق بأجنحتها.

إن ما يبرؤه الله بكلمته وأمره ، يبقى فوق قدرتنا على الفهم ، لأن عقولنا مبرمجة على أن لكل شيء سبباً ، والأمر يتجاوز الأسباب.

القضاء من القدر

إن ما يبرؤه الله بكلمته ، مخلوق من مخلوقات الله ، مع أنه لم يخلق عبر الأقدار التي تخلق بها الأحياء والأشياء الأخرى... الخلق بالأمر وبالكلمة ، نوع من الخلق ، وهو أيضاً من قدر الله ، لكن الكلمة التي تصفه وصفاً أدق أنه: قضاء الله.

القضاء من القدر... لكن القضاء ،كما هو حكم القاضي الذي يقضي فيه على المختصمين لديه ، هو حكم يأتي من فوق ومن أعلى. إنها الإرادة النافذة للخالق ، عندما يتعمد أن يوجد شيئاً فيوجده بأمره ، لا أنه ينتظره ليحدث بالأقدار التي يأذن بها وفق القوانين الطبيعية التي سنها لمخلوقاته.

وقد التبس القضاء في أذهان الكثير من الناس فظنوا القدر كله قضاء ، وظنوا أن كل ما قدره الله إنما هو بتعمد منه ، فوسعوا بذلك دائرة القضاء حتى شمل القدر كله ، وصار من الصعب تصور اجتماع القدر مع حرية الإنسان في العمل ومسؤوليته عن أعماله ، القضاء هو ما تعمده الخالق من أقدار وهو جزء من القدر لا القدر كله.

عندما يتعمد ربنا شيئاً على نحو معين ، فإنه يقضي أن يكون كذلك... تأمل قصة خلق الكون... لقد خلق الله الكون بكلمة "كن" ، فكان الكون ، وإن صحت نظرية الانفجار العظيم ،

فإن الكون كله ظهر إلى الوجود ، في جزء صغير جداً جداً من الثانية ، وانطلاقاً من كمية مكثفة من المادة ذات حجم صغير جداً... ربما كانت كذلك ، وانفجرت تلك الكتلة ، وتبعثرت أجزاؤها ، كواكب ، وشموساً ، وأقماراً ، وغباراً كونياً ، وحجارة سابحة في الفضاء ، إلى غير ذلك ، وعلى الأغلب ، كان ذلك أمراً عشوائياً ، لا يبالي ربنا هل كانت شموسه أكثر أو أقل من عدد معين ، لكنه متحكم بكل شيء ، وكل ما تكوّن رغم العشوائية ، إنما تكوّن بعلمه وإذنه ، أي: بقدره.

لكن المولى أراد أن تكون السماوات سبع سماوات لا أكثر ولا أقل ، فقال:

"فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{12}" فصلت.

قال: فقضاهن سبع سماوات ولم يقل: فقدرهن سبع سماوات ، مع أن قضاء الله ، إنما هو بعض قدره ، لكن عنصر القصد والتعمد الموجود فيه ، يجعله قضاء وحكماً ، لا مجرد علم وإذن ، مع القدرة على التدخل ، دون ممارسة لهذه القدرة ، كما هو حال أغلب الأقدار.

وهكذا عندما عصت بعض الأقوام ، وفسقت عن أمر ربها ، أخذها الله بقضائه ، أي: بأمره. حيث كانت أدوات العقاب غير عادية ، وغير متوقعة ، من خلال الأقدار عادة ، بل هو أمر من الله. ولنتأمل هذه الآيات الكريمة:

"حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ{40}" هود.

"وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ{58}" هود.

"فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ{66}" هود.

"فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ{82}" هود.

"فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ{27}"المؤمنون.

هو قضاء ، وهو حكم ، وهو أخذ ربك.

لكل خلق مادته

ومع أن الله على كل شيء قدير فإن كل ما أخبرنا أنه خلقه سواء بالقدر أو بالأمر خلقه من مادة أولية تم منها بناؤه وصنعه ، فالإنسان من تراب الأرض ، ومثله جميع الكائنات الحية من نبات وحيوان ، أما الملائكة فمن نور ، والجان من مارِج من نار. وهذا التأكيد على المادة الأولية للخلق يتمشى مع المنطق العلمي ، وإن كنا نؤمن أن الله قادر على إيجاد الأشياء من العدم ، لأنه على كل شيء قدير ، لكنه أخبرنا أن كل مخلوقاته كانت من مادة أولية سبقتها في الوجود ، وبذلك يكون الخلق ، بشكليه ، الخلق بالقدر ، والخلق بالأمر ، شيئاً غير الإيجاد من العدم ، الذي لم يخبرنا ربنا عنه ومتى كان وكيف كان ، بل أخبرنا عن خلقه الكائنات والأشياء من مادة أولية سبق له أن أوجدها ، ولا أعرف الكلمة الصحيحة المعبرة عن الإيجاد من العدم ، لأن الخلق غير الإيجاد من العدم كما رأينا. ولعل الباحثين يهتدون إليها لنعبر بها عن أمر سبق الخلق ، وهو إيجاد المادة التي منها تخلق المخلوقات .

ومما يؤكد اشتمال القضاء على الأمر ، تعبير القرآن الكريم عن الأمر بالقضاء ، كما في قوله سبحانه وتعالى:

"وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً{23}" الإسراء.

فالقضاء هنا أمر محض.

وقد يشكل على بعضهم أن الله قال :

"قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{51}" التوبة.

فيظننون أن ما كتبه الله لنا إنما كتبه تعمداً وقضاء ، وهذا غير صحيح ، فربنا قال: ما كتب الله لنا ولم يقل علينا ، ولعل ذلك ليبعد شبهة الإجبار في الأقدار ، لأن الكتابة علينا قد تأتي بمعنى الفرض علينا كما كتب علينا الصيام والقتال ، لكن كتابة ما يصيبنا من خير وشر ، هي مجرد كتابة مثل الكتابة بالقلم لما علم الله أنه سيأذن بوقوعه من الأقدار ، لا كتابة الفرض والقضاء إلا في بعض الأمور كالأجل وما شابه مما يأمر به الله أمر تعمد ، ويتبين لنا هذا المعنى واضحاً في قوله تعالى:

"مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{22}" الحديد.

يؤخرهم إلى أجل مسمى

ويبقى في النفس خوف من عقاب الله على ما تقع فيه من المعاصي، إذ يظن الكثيرون ، أن الله يعاقب على الذنوب في الدنيا ، وأن ما يحل بنا من مصائب ، إنما هي انتقام من الله وعقوبة ، فيظن المبتلى ، أن الله غاضب عليه وناقم ، ويتعمد أذيته ، عقاباً له على ما وقع فيه من ذنوب. بينما الواقع مليء بأصحاب الكبائر ، بل بالملحدين المحاربين لدين الله ، وهم ينعمون بالعيش الرغيد ، والعافية ، وكل ما تتمناه النفس البشرية من النعم الدنيوية.

لنتأمل هذه الآيات الكريمة:

"وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ{61}" النحل.

"وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً{58}" الكهف.

" وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً{45}" فاطر.

"لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{68}" الأنفال.

"وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{53} " العنكبوت.

لو كان الله يؤاخذ الناس في الدنيا لما ترك على الأرض لا بشراً ولا حيواناً ، ذلك أن أخذه شديد.. قال تعالى:

"وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ{102}" هود.

والقرآن الكريم يحكي لنا حكاية عقاب فوري وقع على فئة من قوم موسى عليه السلام أساؤوا الأدب بحق رب العالمين فأخذتهم صاعقة محتهم من على وجه الأرض في طرفة عين:

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{55}" البقرة.

لقد أزالهم الله من الوجود عقاباً على كلمة بينما نرى الآن من يبلغ به سوء الأدب أن يسب الله بأعلى صوته إذا غضب ولا يقع عليه أي عقاب ، لأن المؤاخذة في الدنيا هي الاستثناء لا القاعدة ، أما القاعدة فهي الإمهال حتى الموت. ولولا الإمهال لاستوت المعصية الصغيرة مع الكبيرة لأن في كليهما عصيان لله الكبير المتعال ، لكن مع الإمهال صار ممكناً التمييز بين الكبائر والسيئات حيث الأمر متروك للملائكة تكتب كل ذنب بحسبه بينما الحساب والمؤاخذة مؤجلان لما بعد الموت.

وحتى هؤلاء الذين أخذتهم الصاعقةجرى عليهم الإمهال حتى الأجل ، فقد بعثهم الله بعد موتهم ليستفيدوا من الإمهال لعلهم يستغفرون فيغفر لهم ، قال تعالى عنهم:

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{56}" البقرة.

وقد آخذ ربنا أمماً سابقة عاندت وعصت رسل الله وفسقت واستكبرت ، فانتقم ربنا منهم بعد صبر طويل عليهم وبعد استنفاد كل المحاولات لهدايتهم ، لكنهم أصروا على استكبارهم على الله ورسله وعلى المؤمنين ، فكان انتقام الله منهم ماحقاً ساحقاً لا يذر منهم أحداً ، وكان انتقاماً بأمر الله الذي لا ينتظر العوامل الطبيعية والكوارث التي يمكن أن تتسبب

بها ، بل جاء أمر الله فأغرقهم أو أرسل عليهم أعاصير أبادتهم أو غير ذلك من وسائل الإهلاك الاستثنائية قال تعالى:

"فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{40}" العنكبوت.

أما ما نراه من كوارث طبيعية فهي مما جرت به الأقدار الطبيعية وفق القوانين الطبيعية التي طبع الله مخلوقاته عليها ، ووقوعها مستقل عن معاصي البشر لله ، لكن الله قادر على تلطيفها أو تلطيف آثارها على الأمم الخيرة ، تعجيلاً منه للمكافأة لهم على أعمالهم الصالحة ، أما إن كثرت معاصيهم فإنه يترك المصائب تقع عليهم لعلهم يتضرعون ، أو يصبرون فيكفر عنهم بصبرهم ما ارتكبوه من الذنوب والمعاصي.

إذن ربنا الحليم الصبور العفو الغفور الغفار الرحمن الرحيم ، أمهلنا حتى نموت ، وأعطانا فرصة لنستغفر فيغفر لنا ، ولا يكون هنالك ما يوجب العقوبة. أو نعمل الصالحات فتمحو الحسنات السيئات ، ولا يكون علينا عقوبة. أو تصيبنا مصائب الحياة ، التي لم يتعمد هو إنزالها فينا ، إنما هي من طبيعة الحياة ، كالمرض والموت والخسارة والألم وغير ذلك من الكوارث الطبيعية ، أو التي يرتكبها أناس ، أضلهم الشيطان ، فيعتدون على غيرهم ، ويتسببون في أذاهم ، أو تقع بالخطأ والنسيان.... فيصبر المؤمن ولا يتذمر ، بل يحمد الله على ما قدر عليه من مصيبة ، فيرضى الله عنه ، لأنه رضي بقضائه وقدره وصبر على بلوائه ، فيكافئه بأن يحتسب المصيبة عقوبة للمؤمن على معاصيه ، فيمحو عنه معاصيه ، مع أنه لم يستغفر لها ، بل هو صبر على ما ابتلاه به ربه من مرض أو فقد أو ألم أو غير ذلك.

هي كفارة وليست عقوبة

إن معاقبة الله في الدنيا ليست متعمدة ، إنما هي المصائب التي هي من أصل الحياة الدنيا ، يعتبرها ربنا عقوبة للمؤمن ، لا لأنه مستعجل على العقوبة ، بل هي المحاباة للمؤمن الحبيب لربه الغفور الرحيم ، الذي يثيبه على الصبر ، ويكفر عنه بصبره الخطايا. لكن الله يقول:

"وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ{30}" الشورى.

هذه الآية تقول: إن الله قدر المصائب في حياة الناس عموماً ، وأذن بوقوعها- دون أن يتعمدها- لأنهم خطاؤون ، والمصائب نافعة لهم ، لتكفير خطاياهم ، وإن كان يعفو عن الكثير من ذنوبهم دون عقاب.

والذي يُفهم من هذه الآية الكريمة ، أنه لو كان البشر كالملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، لوقاهم الله المصائب ، ومنع حدوثها ، ولم يقدرها عليهم.

إن الله يختبرنا بالشر ، أي: الضُّرّ ، كما يختبرنا بالخير ، أي: النفع.

"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ{35}" الأنبياء.

وهو يريد منا الصبر على الشر ، أي: على المصائب ، والشكر على الخير ، أي: على العطاء والفضل ، فإن فعلنا ذلك كفر بالمصائب ذنوبنا ، وزادنا بالشكر عطاء وفضلاً، فصار واحدنا يمشي ، وليس عليه خطيئة ، من كثرة الابتلاء.

عن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ قال صلى الله عليه وسلم:

"الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة". رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم في مستدركه وقال حديث صحيح على شرط مسلم ورواه أحمد في مسنده.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة".** رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح.

إن معاقبة الله للمؤمن الصابر في الدنيا ، ليست من قبيل المؤاخذة ، لأن أخذ الله شديد ، إنما هي منحة ، وإكرام للمؤمن الصابر ، لا ينالها المؤمن الساخط ، إذ لا تحتسب له المصيبة عقوبة ، كما لا ينالها الكافر وهو أولى بسخط الله وعقابه ، لكن كما قلنا ، ربنا لم يعجل لنا العقوبة ، بل أمهلنا حتى نموت. والمتأمل يجد: أن احتساب المصيبة عقوبة للمؤمن الصابر ، هي من قبيل الحب له والرحمة به والعطاء ، لا من قبيل المؤاخذة والعقوبة والانتقام.

أما قوله تعالى: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{41}" الروم.

المقصود هنا ما يفسده الناس من البيئة ، في البر والبحر ، بل هم وصلوا في إفسادهم إلى الجو ، وإلى طبقة الأوزون ، وغيرها ، مما يهدد البشرية بأن تذوق بعض ما صنعت من احتباس حراري ، وما يمكن أن يجره من مصائب. إنهم سيذوقون بعض الذي عملوا ، لأن الذي يخالف القوانين الطبيعية في البيئة أو في نفسه ، تقع عليه عقوبة ملازمة لفعله ، هي ناتجة عن فعله ذاته ، وليست عقوبة مرسلة من الله ، ولا متعمدة منه... إنها طبيعة الأشياء ، فالمدخن القابل لسرطان القصبات ، يصيبه هذا السرطان ، وقد يقضي عليه ، لا لأن الله غضب فأنزل غضبه ونقمته على هذا المدخن ، بل لأن النتيجة ملازمة للفعل ، ويكون سرطانه ابتلاء ، فإن كان مؤمناً صابراً ، احتسب الله ذلك له كفارة لذنوبه كلها... وقد يدخن آخر لديه مناعة أكثر مما دخن الأول دون أن يصيبه السرطان .

هنالك بعض الأعمال التي نهى الله عنها ، أو أعطانا الحكمة ، كي ننهى أنفسنا عنها. فإن وقعنا فيها ، نالنا وبال ما صنعنا على الفور في الدنيا ، لأن هذا الوبال ، هو من العواقب الطبيعية ، لما وقعنا فيه ، وليس عقوبة من الله معجلة.

إن تسونامي وغيره من الكوارث الطبيعية ناتجة على الأغلب من أنواع الإفساد البيئي ، الذي أوقعه البشر في البر والبحر. وقد أخطأ من قال إن تسونامي كان عقاباً لأهل إقليم آتشه الإندونيسي ، حيث كانت الخسائر البشرية على أشدها ، لأن منهم من ارتكب بعض المعاصي على الشواطئ ، بينما شواطئ العري الكامل في أماكن عديدة في بلدان أخرى لم يصبها شيء ، وجهل هذا الذي فسر الأمر على أنه عقاب من الله لأهل هذا الإقليم أن هذا الإقليم كان مسرح

معارك كثيرة بين بعض أهله والحكومة الاتحادية الإندونيسية لأنهم يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية في هذا الإقليم ، وهو ما تحقق لهم بعد مصيبة تسونامي.

وبالمقابل فإن الله برحمته ، يعجل بعض المثوبة في الدنيا للمؤمن الصالح ، ويدخر له في الآخرة ما لا عين رأت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال هود عليه السلام لقومه: "وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ{52}" هود.

ويحكي نوح عليه السلام عن دعوته لقومه فيقول:

"قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً{5} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً{6} وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً{7} ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً{8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً{9} فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً{10} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً{11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً{12} مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً{13}"نوح.

وقال تعالى: "وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً{16}"الجن.

"وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{41}" النحل.

"مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{97}" النحل.

"وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ{66}" المائدة.

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{96}" الأعراف.

"وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ{30}" النحل.

"قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ{10}" الزمر.

"وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{122}" النحل.

"وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{201}" البقرة.

"فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{148}" آل عمران.

التدخل المباشر

ويبقى السؤال: ألا يتدخل ربنا في حياتنا أبداً؟.

بل هو يتدخل، وما أكثر ما يتدخل، لكنه يتدخل دوماً ليسوق لنا الخير، أو ليخفف عنا بعض ما قدر علينا من مصائب، فيصيبنا بمصيبة صغيرة، ليصرف بها عنا مصيبة أكبر أو يكافئنا، فيسوق لنا خيراً، ما كان ليسوقه، لو لم يكن عنا راضياً.

ولو تأملنا قصة موسى عليه السلام، مع الرجل الذي آتاه الله من لدنه علماً، والذي يعتقد أن اسمه " الخضر"، فإننا نستطيع أن نفهم طبيعة التدخل الرباني في أقدارنا. لقد جسد الخضر، القضاء أي قدر الله المتعمد الذي يقع، دون ذنب من البشر، أو دون مبرر مفهوم. فقد ركب موسى عليه السلام والخضر في سفينة، فقام الخضر بخرقها، وإحداث ثقب فيها، ليجعلها سفينة معيبة.. لم يجد موسى عليه السلام مبرراً لهذا الفعل، لكن الخضر أخبره في النهاية، أن السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، وأراد الخضر أن يعيبها، لينقذها من أن يصادرها ملك كان يأخذ كل سفينة سليمة غصباً.

وما فعل الخضر ذلك عن أمره، بل هو أمر الله، فالله قدر على هؤلاء المساكين مصيبة صغيرة، وهي أن تُخرق سفينتهم وتُثقب، لا لذنب فعلوه، بل رحمة بهم، لأن هذا الخرق جعل

فيها عيباً ، فلا يأخذها الملك الغاصب ، وتبقى لأصحابها المساكين ، ويستطيعون إصلاحها ، بعد أن نجاها الله من المصادرة رحمة بهم.

ثم يسير موسى عليه السلام مع الخضر ، فيجدا غلاماً فيقتله الخضر ، دون مبرر ظاهر ، ويغضب موسى عليه السلام مرة أخرى ، لأنه لا يعلم الغيب ، لكن الخضر يبين له في نهاية الرحلة أن الغلام كان أبواه مؤمنين ، أما هو فعلم الله أنه لو عاش حتى يكبر ، لكان كافراً طاغياً ، ومرهقاً لأبويه ، فأراد رب العالمين أن يريح هذين الأبوين المؤمنين من طغيان ابنهما وكفره ، فقدر موته وهو غلام ، ولعله يدخل الجنة مع أبويه ، لأن الغلام مرفوع عنه القلم ، ثم قدر الله أن يرزقهما غيره ، ذرية تكون خيراً منه ، تتبعهما بإيمان. إنها مصيبة ترد مصيبة أكبر ، جائزة من الرحمن ، لأبوين مؤمنين ، متوكلين عليه ، يختار لهما ما هو خير وأحسن لهما ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ثم يسير موسى عليه السلام والخضر ، ويدخلان قرية أهلها لئام ، يرفضون أن يضيّفوهما ، وفي قرية اللئام ، يرى الخضر جداراً يريد أن ينقض ، أي: إنه جدار متهالك ، يكاد أن يقع وينهار ، فيشمر الخضر عن ساعدي الجد ، ويقيم الجدار ، فيثبت دعاماته ويقويه فلا يقع ، بل يقوم متماسكاً ، يستطيع الصمود السنين الطويلة. لم يتقاضَ الخضر أجراً على ما فعل ، فعجب موسى عليه السلام ، واستغرب من الرجل ، أن يبذل الجهد الكبير ليقيم جداراً بلا مقابل لقرية أهلها لئام لم يضيفوه ، وهو المسافر الجائع المتعب ، فبين له الخضر ، أن الجدار كان لغلامين يتيمين في قرية اللئام ، وكان تحته كنز للغلامين ، ولما كان أبوهما المتوفى صالحاً ، أراد رب العالمين ، أن يكبر الغلامان ، ويستخرجا كنزهما بنفسيهما ، أما لو انهار الجدار ، لانكشف الكنز ، ولنهبه أهل القرية اللئام ، ولم يعطوا منه الغلامين شيئاً. نعمة هبطت على أهل القرية اللئام ، رجل ساذج يبني جدارهم دون مقابل ، لكنهم يجهلون أن الله حرمهم بذلك من الكنز ، وادخره للغلامين إكراماً لأبيهما الصالح. إنه تدخل مباشر من رب العالمين في الأقدار ، جزاء لصلاح رجل مؤمن ، توفي وترك غلامين يتيمين.

ومما تجب ملاحظته في هذه القصة أن الخضر نسب إلى نفسه إرادة الأفعال الضارة ، ونسب إلى الله إرادة الأفعال النافعة ، ثم قال: وما فعلته عن أمري. نجده ينسب لنفسه إرادة أن يعيب السفينة ، وينسب لنفسه ولله معاً الخشية من أن يرهق الغلام أبويه طغياناً وكفراً وإرادة أن يبدلهما ربهما خيراً منه لأن الأمر يتضمن فعلاً ضاراً وآخر نافعاً هما قتل الغلام

وإعطاء والديه خيراً منه. أما إقامة الجدار للغلامين اليتيمين فهو عمل نافع نسب الخضر إرادته لله وحده ، وهذا كله تأدباً مع الله مع أن الخضر لم يفعل من ذلك شيئاً عن أمره هو بل عن أمر الله وحده.

قال تعالى: "فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً{65} قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً{66} قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً{67} وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً{68} قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً{69} قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً{70} فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً{71} قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً{72} قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً{73} فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً{74} قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً{75} قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً{76} فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً{77} قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً{78} أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً{79} وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً{80} فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً{81} وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً{82}" الكهف.

التدخل استجابة للدعاء

وربنا يتدخل في الأقدار حين ندعوه ، ونلح عليه في الدعاء ، ويريد أن يعجل لنا ما دعوناه من أجله. ربنا قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، لكن الإنسان يدعو أشكالاً وألواناً ، وقد يدعو يطلب شيئاً فيه شر له.

"وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً{11}" الإسراء.

"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{216}" البقرة.

وقد يدعو الله يطلب خيراً ، لكن ربنا يريد أن يعطيه ما هو خير منه ، وقد يدعو الله يطلب منه أمراً لا يتحقق إلا بمعجزة ، وربنا في جميع هذه الحالات يجيب الدعاء ، ويلبي النداء ، لكنه رحمة بعبده لا يعطيه ما سأل ، بل يدخر له ثواب الدعاء ، لأن الدعاء مخ العبادة ، أو قد يعطيه من الخير ما يعادل ما دعاه له ، لكنه لا يهمل دعاءه ، لأنه وعد الإجابة ، ووعده حق.

أما إن دعا المؤمن ، يسأل الله خيراً ، لا يحتاج إلى معجزة ، وهو خير مؤكد ، فإن الله يعجل له ذلك ، ويسوق له الخير الذي سأله ، لكنه يسوقه له من خلال الأقدار والأسباب ، وقد يكون ذلك بعد حين ، والشيطان يقول للمؤمن: إن ما طلبت من الله كان سيأتيك ، سواء دعوت ، أم لم تدع ، وهذا إضلال من الشيطان ، لأننا لا نعلم الأقدار كيف كانت لو لم ندع الله.

وعلينا الثقة أن دعاءنا مجاب في جميع الأحوال ، وإن كانت إجابته لا تعني أن يعطينا ما طلبناه منه ، لأن ذلك يسمى تعجيل الدعاء ، وتعجيل الدعاء له شرطان حتى يقع.

أولهما: أن يكون ما تطلبه خيراً ، ليس فيه ضرر (إثم) لأحد.."عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء" رواه مسلم.

وثانيهما: أن يكون مما تجري به الأقدار عادة ، لا مما يحتاج إلى معجزة ليقع ، لأن الله خلق كل شيء بالقَدر ، وإن كان إذا أراد شيئاً قال له: "كن" ، فيكون ، لكنه لا يجيب الدعاء "بكن فيكون" إلا في حالات خاصة ، وهي غالباً للأنبياء والرسل....

"قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ{69}" الأنبياء.

"فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ{63}" الشعراء.

"وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{60}" البقرة.

لكن تأمل موسى عليه السلام عندما فر من مصر إلى مدين ودعا:

"رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" القصص 21 .

"وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ{23} فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ{24} فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{25} قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ{26} قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{27} قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ{28}" القصص.

أقدار عادية.. فقد سقى للمرأتين قطيعهما ثم آوى إلى الظل ودعا ربه:

"رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" .

فكان الجواب على الفور.. فجاءته إحداهما تدعوه ليجزيه أبوها أجر سقايته لهما ، ثم لتطلب من أبيها أن يوظفه ، أي "فرصة عمل" وهو في أمس الحاجة إليها.

ويعرض الأب الحكيم على موسى عليه السلام أن يزوجه ابنته المعجبة به ، مقابل أن يعمل لديه بأجر ثماني سنوات... ليس في هذا معجزات ، لكنها الأقدار ، ساقها الله لموسى فآواه وزوجه وآنسه ، ورزقه وكفاه ، وأغناه بفضله عما سواه.

وهكذا تقع أقدار طيبة في حياتنا ، قد تكون متعمدة من الله رحمة بنا ، ومكافأة دنيوية على عمل صالح تقبله منا.

مصائب منجيات أو نافعات

إن الله لا يتعمد أن يصيبنا بمصيبة على سبيل الانتقام والعقوبة. فالمصائب إما أنها من الأقدار المتوقعة بطبيعة الحياة ، والعوامل الطبيعية والبشرية. أو هي متعمدة منه يرد الله بها عنا ما هو أكبر ، أو يسوق لنا من خلالها خيراً عظيماً.

لنتأمل قصة يوسف عليه السلام... طفل صغير أحبه أبوه أكثر من إخوته ، لِما رأى فيه من صفات أعجبته ، وبشرت بمستقبله العظيم في الصالحين ، رأى الطفل رؤيا مبشرة له بمكانة عالية بين الناس ، فخاف أبوه عليه من إخوته أن تدعوهم غيرتهم منه وحسدهم له إلى إيذائه ، وبالفعل حدث ما كان يخشاه الأب النبي الكريم يعقوب.

فقد أُلقيَ يوسف عليه السلام في بئر على طريق القوافل المسافرة ، واستخرجه بعض المسافرين إلى مصر ، وباعوه عبداً بثمن بخس قليل ، لكن الله قدر أن يشتري يوسف عليه السلام عزيز مصر ، وأن يربيه كما لو كان ابنه ، فعلى ما يبدو ، كان الرجل لا ولد له.

كبر يوسف عليه السلام ، وكان وسيماً وسامة تفوق الوصف ، فحاولت زوجة العزيز ومعها صديقاتها زوجات رجالات الدولة ، أن يُغوين يوسف ، ليرتكب الفاحشة معهن ، استجابة لشهواتهن ، فعصمه الله ، واتهمته زوجة العزيز أنه حاول اغتصابها ، لكن الله برأه.

وتضايق يوسف عليه السلام من ملاحقة النسوة له ، فدعا ربه ليصرف عنه كيدهن ، فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن.

لكن أمراً غريباً وقع ، فقد قرر العزيز ، ومن معه من رجالات الدولة ، أن يسجنوا يوسف عليه السلام حتى حين ، لتقع أقدار كانت بالغة الأثر في حياة يوسف عليه السلام ، وأبويه ، وإخوته.

فقد دخل مع يوسف عليه السلام السجن فتيان ، رأى أحدهما في المنام نفسه يعصر خمراً ، وكان ساقي الملك ، ورأى الثاني في المنام نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، وكان خباز الملك. وكان يوسف يتنبأ بالطعام الذي سيأتيهم هم وباقي المساجين ، قبل أن يأتيهم ، وكان قادراً على تأويل الرؤى ، فلجأ إليه الفتيان فدعاهما إلى الله الواحد الأحد ، ثم أول لهما رؤيتيهما: خباز الملك يُصلب ، وتأكل الطير من رأسه. أما ساقي الملك ، فينجو ، ويرضى عنه مالكه ، ويعود إلى خدمته كسابق عهده.

لم يفت يوسف عليه السلام أن يغتنم الفرص ، فقال لساقي الملك: "اذكرني عند ربك". أي: عند مالكك ، والرب هو المالك والراعي ، لكن ساقي الملك ، نسي أن يخبر الملك عن يوسف عليه السلام ، ومرت بضع سنين ، ويوسف عليه السلام في السجن ، نسيه من أودعوه فيه ظلماً ، ونسيه ساقي الملك.

لكن الله لم ينسه ، وقد كان بشره عندما ألقاه إخوته في البئر ، بأنه سيأتي يوم ، ينبئ يوسف عليه السلام إخوته بفعلتهم هذه ، ويعاتبهم عليها ، فهو عائد إليهم لا محالة ، وبقي يوسف عليه السلام صابراً في السجن ، حتى صحا الملك يوماً من نومه ، وقد رأى في منامه ، سبع بقرات سمان ، وسبع بقرات عجاف ضامرات ، يأكلن البقرات السبع السمان ، ورأى سبع سنبلات خضر ، وسبع سنبلات يابسات...

كانت رؤيا عجيبة مليئة بالمعنى ، لكن لم يعرف تأويلها أحد.

هنالك تذكر ساقي الملك يوسف عليه السلام الذي كان يعبر الرؤيا في السجن ، ويتنبأ بالطعام قبل أن يأتي ، فحدث الساقي الملك عن يوسف عليه السلام ، فأرسله الملك إليه يسأله عن تأويل رؤياه ، فقال يوسف عليه السلام:

"قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ{47} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا

تُحْصِنُونَ{48} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ{49}" يوسف.

أي تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله ، إلاّ قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع سنوات شداد ، يأكلن ما قدمتم لهن مما ادخرتم من حبوب ، إلا قليلاً مما تحافظون عليه جيداً ، ليكون بذاراً للسنة التي بعدها ، حيث فيها يغاث الناس بالمطر الكثير والماء الوفير ، فتثمر أشجارهم ، ويعصرون ثمارها ، كما اعتادوا من قبل.

أعجب الملك كثيراً بهذا التأويل ، الذي استخلص المعنى من رؤياه التي عجز الحكماء عن فهمها ، ومعرفة ما ترمز إليه ، فقال: ائتوني بيوسف أستخلصه لنفسي. ويذهب الداعي إلى السجن ، يدعو يوسف عليه السلام ليكون جليس الملك ومستشاره ، فيأبى يوسف أن يستجيب لدعوة الملك ، قبل أن يتحقق الملك مما اتهم به يوسف عليه السلام ، وتتأكد براءته.. وهكذا كان. خرج يوسف عليه السلام من سجنه ليصبح عزيز مصر ، وليتولى خزائنها في السنين المعطاء والسنين العجاف ، وليتولى تنفيذ ما نصحت به رؤيا الملك ، وليأتي إخوة يوسف عليه السلام من فلسطين ، يطلبون أن يشتروا بعض الطعام ، إذ السنين العجاف كانت على المنطقة كلها ، ويعرفهم يوسف عليه السلام ، دون أن يعرفوه ، ويحتال ليجعلهم يحضروا له أخاه الحبيب إليه ، الذي من أمه وأبيه ، بينما كان البقية من أم أخرى ، ثم يعرفهم بنفسه ، ويدعوهم مع والديه لترك البادية ، والاستقرار في مصر ، حيث تكاثر أولاد يعقوب (إسرائيل) ، أي: يوسف وإخوته ، إلى أن صاروا شعباً كبيراً على مدى القرون.

والشاهد في القصة ، أن الله قدر ربما متعمداً ، أن يسجن يوسف عليه السلام ، وأن يدخل السجن معه ساقي الملك وخبازه ، فيصلب الخباز وينجو الساقي بعد أن عرف يوسف عليه السلام ، وخبر مقدرته العجيبة على تأويل الرؤى ، ويعود إلى عمله عند الملك ، وتمضي سنون عدة ، ليرى الملك رؤياه التي لا يعبرها إلا يوسف عليه السلام.

وينتقل يوسف عليه السلام من عبد مملوك متهم ومسجون ، ولا ناصر له إلا الله ، إلى عزيز مصر ، المسؤول عن خزائنها في أشد وأصعب أوقاتها ، ولتتحقق رؤيا يوسف عليه السلام التي رآها وهو صغير ، وليتغير التاريخ تغيراً كبيراً .

ترى لو لم يدخل يوسف عليه السلام السجن، هل كان ما حدث سيحدث؟. في الغالب، كان سينفَد صبرُ الرجال الذين علموا أن زوجاتهم مفتونات بيوسف ويراودنه عن نفسه، وقد يقوم أحدهم بقتله للتخلص منه، فهو مجرد عبد مملوك، وهم علية القوم.. لكن الله ألهمهم أن يسجنوه، فحماه من شرهم ومن كيد نسائهم، وقدر له اللقاء بساقي الملك، كي يقع ما وقع، عندما يرى الملك رؤياه، إلى آخر الأقدار التي وقعت، وقادت إلى أن يأتي اليوم الذي يسجد فيه أبواه وجميع إخوته له، "سجود التحية". فهو عزيز مصر، وهم أجانب ضيوف، وقد كان كريماً معهم ومتسامحاً مع إساءتهم إليه.

هكذا يقود كل قدر إلى قدر آخر، والله لا يتدخل ليعوق ما نعمل، أو يحبط ما نجهد له، لأنه لا يتعمد معاقبتنا، ولا الانتقام منا مهما عملنا.

بينما مكافأته لنا منها ما هو معجل في الدنيا، فيسوقه الله لنا من خلال الأقدار، وقد يلزم أن يقدر الله على أحدنا محنة لتكون سبباً لمنحة وعطاء. لكن علينا أن لا ننسى الدعاء، وبخاصة دعوة المظلوم، إذ وعد ربنا بنصرتها والاستجابة لها، ولو بعد حين. وقد يعجل ربنا دعوة مظلوم على ظالمه، فيبتليه بما دعا المظلوم به، استجابة للمظلوم، لا تعجيلاً للعقوبة من الله.

والنتيجة واحدة: وهي أن تقود معصية، وهي ظلم الناس إلى عقوبة دنيوية، لكن ربنا لا يعاقب في الدنيا على المعاصي في حقه، لأنه أمهل الناس حتى يموتوا، أما إن ظلم الناس بعضهم بعضاً، فقد يلجأ المظلوم إلى الدعاء على الظالم، وتقع المصائب على الظالم بدعاء المظلوم. وإن كان ربنا كثيراً ما شجع المظلومين على المغفرة، ووعدهم أن يعوضهم عما ظُلموه.

ثم إن هنالك الدعاء بالخير، الذي يعجل ربنا ما فيه خيرنا، وذلك من خلال الأقدار، ويكون تدخل ربنا للخير والعطاء، ولو مر ذلك بمرحلة مصيبة تقود إلى نعمة، أو فيها خير كثير هي بحد ذاتها. كما سجن يوسف بضع سنين ظلماً كما وجدنا، فكان سجنه حماية له، وإيصالاً له إلى الملك، وإلى المنصب السامي.

ربنا لا يقدّر ما فيه معاندة لجهودنا، إلاّ إن كنا ظالمين لأحد، واستجاب فينا دعوة مظلوم، وقد يكون لعقوق الوالدين بعض الأثر. أما ما عدا ذلك، فلا يتدخل ربنا في الأقدار إلاّ

لخيرنا. ولتعودوا إلى تأمل حكاية موسى عليه السلام مع الخضر الذي جسدت أفعاله تدخل الخالق في الأقدار لحكمة يراها ، لكنها كلها تدخلات لخير العباد.

دورنا في صنع الأقدار

إن الإيمان الصحيح بالقدر ، يجعل المؤمن فاعلاً في الحياة ، يبذل وسعه وجهده لتنجح مساعيه ، وهو يحس كما يقال في علم النفس: أن مركز التأثير في حياته ، إنما هو داخله ، فهو يعلم أن ما يفعله في الحياة كله من قدر الله ، وأنه لو شاء الله أن لا يفعل ما فعله ، لكان مستحيلاً عليه أن يفعله ، وبالتالي فإن المؤمن يدافع القدر الذي لا يحبه ، بقدر يحبه ، أي: يسعى ويأخذ بالأسباب ، وهو يعلم أن قدر الله لن يكون منيعاً على الأقدار الأخرى التي تدافعه. إذ قدر الله ، لا يتمرد على القوانين الطبيعية إلاّ عندما تكون معجزة ، أو أمراً أمر فيه ربنا بمحو أمة فسقت عن أمر ربها ، وأهانت رسولها ، واستنفدت جميع الفرص التي أتاحها لها الحليم الرحيم... وهذا النوع من الأخذ انقضى مع انتهاء الرسل ، وختمهم بخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

أقدار الله من حولنا لا تخرج على قوانين الله وسننه في مخلوقاته ، فموقع الشيء أو الكائن في الزمان والمكان ، يحدد قدره بحسب هذا الموقع ، وبحسب سنن الله في النفوس ، وفي الطبيعة. وطالما أن كل ما يقع لا يقع إلاّ بعلم العليم ، وإذْنِ الذي على كل شيء قدير ، فإن كل ما يقع في الوجود قدر لله.

والذي يمرض ويبحث عن الطبيب الماهر أملاً في الدواء المناسب ، لا يكون معانداً لقدر الله ، فوقوعه في المرض ، يعني أن الله قدر عليه المرض ، وإذا وصل إلى الطبيب الماهر ، فوصف له الدواء المناسب ، وكان الشفاء بإذن الله ، فهذا يعني أن الله قدر له الشفاء ، مثلما قدر عليه المرض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل داء دواء. فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل".(صحيح مسلم)

عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال: يا رسول الله أرأيت دواء نتدواى به ورُقىً نسترقي بها وأشياء نفعلها هل ترد من قدر الله قال: "يا كعب بل هي من قدر الله" (رواه الحاكم والترمذي والطبراني)

فالعقيم الذي لا ينجب ، ليس عقيماً إلاّ بقدر الله ، لكن ذلك لا يعني أن يستسلم لهذا القدر ، ولا يبحث عن وسيلة لينجب ما يرغب فيه من ذرية ، بحجة أن سعيه وراء العلاج معاكسة لقدر الله. إن كل ما نمر به في حياتنا هو قدر لله ، فكلما عطشنا ، فإننا نعطش بقدر الله ، وكلما جعنا ، فإننا نجوع بقدر الله. فهل يعني ذلك أن لا نأكل ، ولا نشرب حتى لا نعاكس قدر الله ؟. لو شربنا ، فسنشرب بقدر الله ، ولو أكلنا ، فسنأكل بقدر الله ، ولو امتنعنا عن الطعام والشراب ، فسنمتنع بقدر الله ، لأن كل ما يقع في الوجود لا يقع إلاّ بقدر الله.

نحن نسعى إلى الشفاء من العقم بكل ما يتيسر لنا من وسائل مشروعة ، وإن كان الله يريدنا أن لا ننجب ، فإن جهودنا لن تأتي بنتيجة ، لكن ما أدرانا ما هي إرادة الله لنا ، ألا يمكن أنه يريدنا أن ننجب أطفالنا بالأنبوب ، أو غيره من الوسائل.

إذاً: نسعى لتغيير القدر الذي لا يعجبنا ، ونفر من قدر الله إلى قدر الله. كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. عندما كان في طريقه إلى الشام ، قيل له إن وباء حل فيها ، فرجع عمر ولم يدخلها فقال له الصحابي الذي يرافقه وكان أبا عبيدة بن الجراح: " أفراراً من قدر الله ؟".

فعلمه عمر درساً رائعاً في القدر ، إذ أجابه أنه يفر من قدر الله إلى قدر الله. وبين له أنه لو كان هنالك واد له جانبان أحدهما معشب ، والآخر لا زرع فيه ، فإنه إن رعا غنمه في الجانب المعشب ، رعاها بقدر الله ، وإن رعاها في الجانب المجدب الذي لا زرع فيه ، رعاها بقدر الله.
روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشأم ، حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد ، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم ، فاختلفوا ، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ، ولا نرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى أن تُقْدِمَهُمْ على هذا الوباء ، فقال: ارتفعوا عني ، ثم قال: ادع لي الأنصار ، فدعوتهم فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال: ارتفعوا عني ، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم ، فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقْدِمَهُمْ على هذا الوباء ، فنادى عمر في

الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ فأَصْبِحُوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان ، إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغيّباً في بعض حاجته ، فقال: إن عندي في هذا علماً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه" ويقصد بذلك الطاعون أي الوباء. قال: فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف.

وطالما أن كل ما نفعله نفعله بقدر الله ، فلم لا نحرص على ما ينفعنا ، ونجتهد في الأخذ بأسباب النجاح في شؤون الدنيا والآخرة ، ولا نجعل من إيماننا بالقدر خيره وشره من الله تعالى سبباً للعجز والاستسلام لأقدار يصنعها غيرنا ، ويأذن الله بوقوعها ، ولا نعمل شيئاً إلاّ أن نستسلم ، ونترك غيرنا يتحكم بحياتنا.

إننا إن فهمنا القدر الفهم الصحيح ، انطلقنا في الكون نسخره لنا ، ونؤدي دور الخلافة في الأرض ، التي خلقنا الله لها ، نصنع الأقدار ، ونعلم أننا نصنعها بعلمه وإذنه جل في علاه ، ولا نقف مجرد متلقين للأقدار ، ومنفعلين بها بسلبية وعجز ، ونظن أن ذلك مقتضى إيماننا بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكَيْس ، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل". رواه أحمد وأبو داود وغيرهما وقال صلى الله عليه وسلم: "الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله". رواه الترمذي وحسنه والحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط البخاري.

فائدة الإيمان بالقدر

طالما أن أفعالنا تصنع الكثير من الأقدار ، فلم ننسبها إلى الله تعالى ؟.

ننسبها إلى الله لنتواضع ولا يصيبنا الكبر والغرور عندما نحقق إنجازاً ، فنحن نعترف أنه ليس الأمر مجرد علم عندنا ومهارة و"شطارة" ، إذ علمُنا لا يفيدنا بشيء ، ما لم يقدر الله لنا الظروف المناسبة لنحقق ما حققناه ، وما لم يمنحنا ربنا القدرة والعافية والعلم والمهارة ، لنحقق ما حققناه.. فالله محيط بنا ، ونحن كل لحظة وفي كل موقف تحت رحمته ولطفه ، ولن نفعل شيئاً إذا شاء الله أن لا نفعله. لكن رجلاً جاحداً لفضل الله عليه قال عن ماله الكثير: إنما أوتيته على علم عندي. قال تعالى:

"إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{78}" القصص.

إن إيماننا بالقدر ، يقينا من الفرح الذي هو الاختيال ، والفخر ، والتعالي عند النجاح ، وهو الفرح المحرم ، بخلاف الفرح المباح بمعنى السرور والغبطة والسعادة ، وهو المعنى الشائع في هذا الزمان لكلمة فرح. وإيماننا بالقدر يحمينا أيضاً من اليأس والقنوط عند المصائب. قال تعالى:

"مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{23}" الحديد.

إن الإيمان أن كل ما وقع ما كان ليقع لولا أن الله قدره وكتبه يريح النفس عند المصائب ، ويزيل عن المصائب صفة العشوائية الظاهرة لنا ، فمع أن كثيراً من المصائب لا يتعمدها الله ، لكنها ليست خارجة عن إحاطته ، وقدرته ، وتحكمه.

إذ لا شيء في الكون ، خارج عن سيطرته.

وهكذا يكون في إيماننا بالقدر:

أولاً: معرفة قَدْرِ الله تعالى، وأنه غالب على أمره، وقاهر فوق عباده، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

وثانياً: راحة وسكينة عند المصائب، وعند النعم، فلا نخرج عن شعورنا أننا لسنا وحدنا في هذا الكون، بل نحن خلفاء لرب العالمين، الذي استخلفنا في الأرض، واستعمرنا فيها، وهو الفاعل لكل ما نفعله.

"فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{17}" الأنفال.

وهذا يعني أنك وإن كنت الذي رماهم بسهامه وأرداهم فإن الرامي الحقيقي لهم وقاتلهم هو الله الذي قدر على يديك رميهم وقتلهم، كما لو أعطاك رجل مالاً أنت في أمس الحاجة إليه فإنه يؤجر على عطائه لك لكن يبقى المعطي الحقيقي لك هو الله الذي قدر عطاء الرجل لك ذاك المال، ويبقى الذي رزقك هو الله رغم أن الرجل سيؤجر على ما فعل، فهو قد أعطاك ولكنه ما كان له أن يعطيك لو لم يُقَدِّر الله ذلك:

"وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30}" الإنسان.

بينما فعل الله لا يتوقف على مشيئة أحد سواه، لذا كان الله هو الفاعل الحقيقي، رغم أن البشر أيضاً هم فاعلون، ويؤجرون أو يعاقبون على ما يفعلون.. والله هو الخالق لما نصنع ونخترع، لأن ما صنعناه، وما اخترعناه، إنما صنعناه، واخترعناه بقَدَر الله، والله يخلق بالقَدَر، ولسنا إلاّ جزءاً من قَدَره المحيط بنا، وبالتالي يكون الله خالق كل شيء، بما في ذلك أفعالنا التي نفعلها خيرها وشرها، ونكون نحن أيضاً فاعلين لأفعالنا، ونستحق عليها المثوبة أو العقوبة، لأن الله لم يجبرنا عليها، بل كانت أقداره من حيث إنه علم بها قبل أن تقع، وأذن لها أن تقع، وهو القادر على الحيلولة دون أن تقع... تقدير تجتمع فيه مشيئة الله غير المباشرة التي هي إذنه، مع إرادتنا الحرة المباشرة، فينسب الفعل لنا وله في الوقت ذاته، ونستحق عليه المثوبة أو العقوبة، ويستحق هو الحمد على ما وفقنا فيه إلى الخير، ولا لوم إلاّ علينا فيما

أسأنا فيه ، فهو لم يجبرنا عليه ، إنما تركنا نفعل ما شئنا ، لا لأنه تعمد أن نقع فيما وقعنا فيه ، بل هو أذن به ، لأنه يريد أن يمتحننا ، ويرى أينا أحسن عملاً .

قال صلى الله عليه وسلم: "الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء". وفي حديث بشار: "لينظر كيف تعملون". (صحيح مسلم).

الـرزق والأجـل

ورغم أن أغلب الأقدار في حياتنا ، وفي الطبيعة من حولنا تقع بإذن الله وعلمه ، فتكون أقداراً منه دون أن يتعمدها ، فإنه جل جلاله احتفظ بأهم أمرين تقلق النفوس البشرية عليهما ، وهما الأجل والرزق.

فهو يحدد الأجل والرزق ، عندما يكون الجنين في بطن أمه ، فيقضي ربنا أجله ورزقه بما شاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً فصورها ، وخلق سمعها ، وبصرها ، وجلدها ، ولحمها ، وعظامها ، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى ؟ ، فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول: يا رب أجله ؟ ، فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول: يا رب رزقه ؟ ، فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص" (رواه مسلم في صحيحه).

وروى مسلم أيضاً في صحيحه ، أن أم حبيبة زوج النبي محمد صلى الله عليه وسلم قالت: "اللهم أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "قد سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودات ، وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئاً قبل حله ، أو يؤخر شيئاً عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار ، أو عذاب في القبر ، كان خيراً وأفضلٍ" (صحيح مسلم).

أي: أن عمر الإنسان قد حدده ربنا ، ولن يتقدم أو يتأخر بفعل الدعاء ، أو غيره من الأسباب ، لذا كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، يطلب من الله العافية مدى الحياة ولا يطلب طول العمر. فقد كان يقول صلى الله عليه وسلم: "اللهم أمتعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني" أي: أن أموت قبل أن تموت أعضائي" كما روى الحاكم في مستدركه وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وقد كنت أتساءل عن معنى: "واجعله الوارث مني" ، فتبين لي معناها عندما درسنا في كلية الطب ، كيف تنقل الأعضاء من شخص مات لتوه ، ولم تمت أعضاؤه بعد ، كالكلية والكبد وغيرهما إلى شخص مريض ، ليتعافى بها.

والذي نفهمه من أن الآجال مضروبة وثابتة ، أن الإنسان مهما اعتنى بصحته ، فإنه باعتنائه بها ، يمكن أن ينعم بالعافية والقوة ، ربما طيلة حياته. لكنه لن يتمكن من إطالة حياته ، إذ للموت أسباب عديدة ، منها الحوادث والجرائم ، والكوارث الطبيعية.

وعندما يحدد ربنا الأجل ، فإنه يضمن أن لا يموت أحد قبل أن يستوفي أجله.

ولذلك جعل الله الملائكة التي تكتب أعمالنا ، حافظين لنا من الموت ، بأمر الله ، حتى يحين الأجل.

"وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12}" الانفطار.

"لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ{11}" الرعد.

وكذلك الرزق ، أراد ربنا أن نعلق قلوبنا به وحده فيما يخص الرزق والأجل ، كي ننعم بالشعور بالأمان في هذه الحياة ، ولا نذل لأحد غير الله ، إذ لا أحد يملك من آجالنا أو أرزاقنا شيئاً.

والمتأمل للواقع يجد: أن آجال الناس تطول ، عندما تتقدم الرعاية الصحية في بلد من البلدان ، وأرزاقهم تزيد عندما تكون هنالك تنمية وعدالة في المجتمع ، وكل ذلك يقع بقدر الله ، والله في أقداره لا يحرص على إحباط جهودنا الخيرة ، ولا يعاكس السنن التي وضعها لتحكم مسار مخلوقاته كلها.

ولكن فيما يخص فرداً من الأفراد ، فإن عمره بيد الله مباشرة ، بغض النظر عن كل النواميس والقوانين.

أي: لو اجتمع أطباء العالم ، على العناية بشخص معين ، فإنهم قد ينجحون في تحسين صحته ، ونوعية حياته ، لكنهم لن يؤخروا أجله لحظة ، إذ كما قلنا: للموت أسباب تقهر العافية البدنية ، وإن قدرها الله على شخص ، فسيموت وهو في أوج عافيته.

وهذا يعني أن لا يغتر الإنسان بصحته ، ولا بتقدم الطب ، لأنه لو قدر الله موته في ساعة معينة ، فإنه سيموت ، مهما توافر له من عناية ورعاية.

وبالمقابل ، عندما نخطط للمجتمع ، نخطط بكل عناية ، وحرص ، واهتمام ، كما لو أن جهدنا هو الذي على أساسه تتحدد أعمار الناس ، فنحمل المسؤولية عن حياة الناس ، ولا نهمل ونقول: هي آجال مضروبة ، لأن الله لم يطلع أحداً على أجله ، أو أجل غيره ، وقد جعل الله لكل شيء سبباً.

وكونه حدد عمراً لإنسان معين ، أن يعيش مدة معينة ، ثم جاء من قتله ، وتسبب في موته ، فإن تحديد الله لأجله ، لا يعفي قاتله من المسؤولية ، ولا يقبل منه حجة أن المقتول إنما مات بأجله. إذ إن الله لم يكلف القاتل بإنفاذ مشيئته في أن يموت المقتول في الوقت الذي مات فيه.

نعم علم ربنا أن قاتلاً سيقتله في لحظة معينة ، فجعل أجله تلك اللحظة ، لكنه سيعاقب القاتل ، لأنه قتله بمحض إرادته الحرة.... أما القول أن المقتول مات بأجله ، إنما هو لتتعزى نفوس محبيه عند موته. ولنعلم جميعاً ، أنه لا شيء مفلت من تحكم ربنا فيه ، وأن الله حافظنا من الموت حتى ساعة الأجل التي كتبها هو، وليس لغيره قدرة على تعديلها. فمهما حاول أحد أن يقتله ، أو حاول هو أن يقتل نفسه ، فإنه لن يموت إلاّ بأجله ، ولن يموت إلاّ بإذن الله.

"وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ{145}" آل عمران.

ولا أبالي

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر"**. قال الألباني في "السلسلة الصحيحة": رواه أحمد وابن سعد في "الطبقات" وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم وقال الحاكم: "صحيح" ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

وقد مرض رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه أصحابه يعودونه، فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا عبد الله...؟ قال:... **سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة بيمينه فقال: هذه لهذه ولا أبالي وقبض قبضة أخرى، يعني: بيده الأخرى، فقال: هذه لهذه ولا أبالي"فلا أدري في أي القبضتين أنا"**. قال الألباني في "السلسلة الصحيحة": رواه أحمد وإسناده صحيح.

صحابي كريم يصيبه القلق خشية أن يكون في القبضة التي إلى النار.. وكثير من المؤمنين يصيبهم القلق عندما يسمعون قوله صلى الله عليه وسلم: **"سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عملُه". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة"**. رواه البخاري في صحيحه.

وقال صلى الله عليه وسلم: **"لن ينجي أحداً منكم عمله". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا"**. رواه البخاري في صحيحه.

قد يتسرب القلق إلى نفس المؤمن عند سماعه لهذه الأحاديث إن ظن أن الله يقبض قبضة عشوائية من البشر ليدخلهم الجنة أو النار أو إن ظن أن رحمة الله يوم القيامة من نصيب بعضهم دون غيرهم من المؤمنين، أو ظن أن العمل لا وزن له وأن دخول الجنة الذي يكون

برحمة الله لا يؤخذ عمل المؤمن فيه بالحسبان. إن الاطلاع على بعض النصوص دون باقي النصوص قد يؤدي إلى إساءة الفهم وإلى القلق والخوف.

ولنتأمل هذا الحديث:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: خرج من عندي خليلي جبريل آنفاً فقال: يا محمد والذي بعثك بالحق إن لله عبداً من عبيده عبد الله تعالى خمس مائة سنة على رأس جبل في البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية وأخرج الله تعالى له عيناً عذبة بعرض الأصبع تبض بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل وشجرة رمان تخرج له كل ليلة رمانة فتغذيه يومه فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته فسأل ربه عز وجل عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء يفسده عليه سبيلاً حتى بعثه وهو ساجد، قال ففعل، فنحن نمر عليه إذا هبطنا، وإذا عرجنا، فنجد له في العلم، أنه يبعث يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيقول له الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي.. فيقول: رب بل بعملي، فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: يا رب بل بعملي، فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: رب بل بعملي، فيقول الله عز وجل للملائكة: قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله.. فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمس مائة سنة وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه، فيقول أدخلوا عبدي النار.. قال: فيجر إلى النار فينادي: رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه.. فيوقف بين يديه، فيقول: يا عبدي من خلقك ولم تك شيئًا؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: كان ذلك من قِبَلك أو برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك، فيقول: من قواك لعبادة خمس مائة عام؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج مرة في السنة، وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلت ذلك بك؟ فيقول: أنت يا رب، فقال الله عز وجل: فذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة، أدخلوا عبدي

الجنة ، فنعم العبد كنت يا عبدي ، فيدخله الله الجنة ، قال جبريل عليه السلام: إنما الأشياء برحمة الله تعالى يا محمد".. رواه الحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

هذا الحديث الشريف يوضح لنا بجلاء كيف أن عمل المؤمن لا ينجيه ما لم يتغمده الله برحمته فيسقط عنه ما له عليه من شكر النعم التي آتاه الله إياها في الدنيا ، وعندما يعفيه من هذا الشكر المستحق له على المؤمن ، يبقى عمله الصالح زيادة تحتسب له ، وتوازن أي عمل غير صالح ارتكبه ، فإذا رجحت حسناته ، دخل الجنة برحمة الله وبعمله ، إذ لو رجحت سيئاته لاستحق النار ، وبذلك يكون عمله الصالح هو الذي أنجاه من العذاب ، لكن بعد رحمة الله له ، التي تجلت في إسقاط كل الديون المستحقة عليه ، مقابل النعم التي متعه الله بها في الدنيا ، وكان يراها أمراً مفروغاً منه ، وكأنها لا تستوجب شكراً ولا حمداً.

والحديث يبين لنا أن رحمة الله هي لكل مؤمن ، إلا من يرفضها ويصر على دخول الجنة بعمله وحده ، اغتراراً بعمله وظناً منه أن عمله كان كافياً ، وأنه قد عمل الذي عليه تجاه خالقه العظيم. إن نعم الله علينا لا يوفيها شكرها ما نتمكن من عمله من الصالحات في عمرنا القصير وجهدنا القليل ، قال تعالى:

"قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ{17} مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ{18} مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{19} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{20} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{21} ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ{22} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{23}" عبس.

إذن مهما عملنا من الصالحات فسنبقى مقصرين في حق مولانا ، ولا نستغني عن رحمته ، التي لولاها لن يكفينا عملنا للنجاة من النار ، كما لا غنى لنا عن العمل الصالح ، الذي ما لم يرجح ويغلب معاصينا فلن نستحق الجنة.. إنها أعمالنا الصالحة ، هي التي تنجينا إن تغمدنا الله برحمته وأعفانا مما له علينا من شكر مستحق على نعمه علينا في الدنيا ، وبذلك ندخل الجنة برحمة الله وبعملنا الصالح مجتمعين ، لأنه بدون رحمة الله لن ينفعنا عملنا وبدون عمل صالح يرجح ذنوبنا ومعاصينا قد نكون من أهل النار والعياذ بالله.

ولنتأمل هذه الآيات الكريمة التي تبين أهمية العمل الصالح للنجاة يوم القيامة ودخول الجنة:

"لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{123} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{124}" النساء.

"لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{127}" الأنعام.

"وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{43}" الأعراف.

"فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ{94}" الأنبياء.

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ{7}" العنكبوت.

"فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{17}" السجدة.

"أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{19}" السجدة.

"وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{39}" الصافات.

"وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ{70}" الزمر.

"مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ{40}" غافر.

"وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{72}" الزخرف.

"أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{14}" الأحقاف.

"أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ{16}" الأحقاف.

"وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{19}" الأحقاف.

"كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{19}" الطور.

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ{21}" الطور.

"وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى{31}" النجم.

"وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ{10} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ{11} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{12} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{13} وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{14} عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ{15} مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ{16} يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ{17} بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ{18} لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ{19} وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ{20} وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ{21} وَحُورٌ عِينٌ{22} كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ{23} جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{24}" الواقعة.

"كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{43}" المرسلات.

"فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{24} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{25}" الانشقاق.

"فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}" الزلزلة.

وبعد أن يرحم الله عباده ، ويسقط عنهم ما له عليهم من شكر على نعمه عليهم التي لا تعد ولا تحصى ، توضع أعمالهم في الميزان ، ويدخل الجنة كل من زادت حسناته على سيئاته من المؤمنين الذين لم يكن في إيمانهم أي شرك ، أما من أشرك مع الله إلهاً آخر فلا يقبل منه أي عمل صالح مهما عظم ولا بد له من دخول النار.

قال تعالى: "وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{65}" الزمر.

وقال: "ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{88}"الأنعام.

وقال: "إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً{48}" النساء.

وقال: "إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{116}" النساء.

وقال: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ{72}" المائدة.

والله لا يقبل عملاً صالحاً إلا من مؤمن ، قال تعالى:

"وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{147}" الأعراف.

وهكذا يدخل النار كل مشرك وكل ملحد منكر للخالق واليوم الآخر ، ولا ينجو منها إلا من آمن بالله واليوم الآخر ، إيماناً لا شرك فيه ، وعمل من الصالحات ما يدخله الجنة ، قال تعالى:

"وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{124}" النساء.

وقال: "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{97}" النحل.

وقال: "وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً{19}" الإسراء.

وقال: "مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ{40}" غافر.

ويبقى المؤمنون الذين تعادلت حسناتهم وسيئاتهم ، والأمل بالله أن يرحمهم ويدخلهم الجنة دون عذاب.

أما المؤمنون الذين زادت سيئاتهم على حسناتهم فيدخلون النار ، ما لم يغفر الله لهم ، وأشد الخطر يكون على من كان للناس عليه حقوق ، حيث أكل مال هذا ، وضرب هذا ، واغتاب هذا ، وغير ذلك من أشكال العدوان على الناس ، أو الغُلول وأكل مال الأمة دون حق ، فيكون عليه يوم القيامة أن يعيد الحقوق إلى أصحابها - يوم لا درهم ولا دينار - فيؤخذ من حسناته حتى إذا نفدت طرح عليه من سيئاتهم فيفلس ويدخل النار ، والله قد يغفر ما له على العبد الذي مات لا يشرك بالله شيئاً ، لكن الناس يريدون حقوقهم ، ولن يتنازلوا عنها وهم في أمس الحاجة إليها ، وهكذا يمكن لمن مات موحداً لله أن يستحق النار ويدخلها ، حتى لو غفر الله له ما ارتكب من معاص لم يعتدِ فيها على أحد من الناس.

الشفاعة يوم القيامة

وهنا تأتي شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لتنقذ هؤلاء الذين أهلكتهم ذنوبهم وتخرجهم من النار على دفعات ، فلا يترك محمد صلى الله عليه وسلم في النار مؤمناً إيماناً صحيحاً لا شرك فيه ولو كان إيمانه هذا لا يعادل إلا ذرة طالما هو إيمان خالص من الشرك بالله. وعذاب المؤمنين أصحاب الكبائر وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لهم وخروجهم من النار كل ذلك يتم خلال يوم القيامة وقبل انقضائه ، ولكن ذلك لا يعني أنهم سيعذبون ساعات قليلة ، لأن يوم القيامة ليس كأيامنا في الدنيا ، بل هو يعدل خمسين ألف سنة ، قال تعالى عنه:

"تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ{4}" المعارج.

لذا لا يستهينن أحد بهذا العذاب فقد يمتد عشرات الآلاف من السنين ويبقى في يوم القيامة.

قال صلى الله عليه وسلم: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي". رواه أبو داود وابن ماجة والبيهقي والترمذي والحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين.

وبعد أن يشفع محمد صلى الله عليه وسلم لكل من كان في قلبه ذرة من إيمان مقبول عند الله لخلوه من الشرك ، وقبل انقضاء يوم القيامة ، يقبض ربنا قبضة من أهل النار الذين لم يقبل منهم أي عمل صالح لأنهم أشركوا مع الله غيره ، فيخرجهم من النار ويلقيهم في نهر في أفواه الجنة ، لتتعافى أجسادهم من آثار العذاب الذي كانوا فيه ، ثم يدخلهم الجنة برحمته.. ويبقى في النار كل معاند جاحد محارب لله ورسله والمؤمنين.

ولا يظنن أحد أن قبضة الله هذه عشوائية لأنه حكيم ، ولا بد أن هذه القبضة تنتقي خيار أهل النار الذين استحقوها لوقوعهم في الشرك ضلالاً وحمقاً ، فالشرك يهلك صاحبه مهما حسنت نواياه ، لأن الله قضى أن من يشرك به يدخل النار ولا تشمله شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم أبداً ، وهو جل جلاله لا يبالي من سيدخل النار بموجب قضائه هذا.

ومع أن الله سيشفع للطيبين من أهل النار الذين لم تشملهم شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم قبل انقضاء يوم القيامة ، فإن ذلك لا يعني أن مدة عذابهم ستكون مقاربة لمدة عذاب المؤمنين أصحاب الكبائر ، فقد يكون الفرق بين شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم للمؤمنين من أهل النار وشفاعة الله لمن يشاء ممن بقي فيها ، آلاف أو عشرات الآلاف من السنين ، إضافة لكون شدة العذاب في النار درجات متفاوتة. نسأل الله أن ينجينا منها... وأغلب ظني أن الله يشفع لمن شاء من أهل النار قرب نهاية يوم القيامة أي بعد ما يقرب من خمسين ألف سنة من العذاب ، ومع انقضاء يوم القيامة الذي امتد خمسين ألف سنة ، لا يبقى أي أمل لمن في النار في الخروج منها ويكون جميع أهل الجنة قد استقروا فيها .

ولنتأمل هذه الأحاديث الشريفة التي منها تعلمنا ما قلناه:

روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من

مكاننا ، فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربنا. فيقول: لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ويقول: ائتوا نوحاً ، أول رسول بعثه الله ، فيأتونه فيقول: لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً ، فيأتونه فيقول: لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا موسى الذي كلمه الله ، فيأتونه فيقول: لست هناكم ، فيذكر خطيئته ، ائتوا عيسى فيأتونه فيقول: لست هناكم ، ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني ، فأستأذن على ربي ، فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعني ما شاء الله ، ثم يقال لي: ارفع رأسك: سل تُعطه ، وقل يُسمع ، واشفع تُشَفَّع ، فأرفع رأسي ، فأحمد ربي بتحميد يعلمني ، ثم أشفع فيحد لي حداً ، ثم أخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجداً مثله في الثالثة ، أو الرابعة ، حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن". وكان قتادة يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود.

وروى البخاري أيضاً في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك ، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء ، لتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال: فيقول: لست هناكم ، قال: ويذكر خطيئته التي أصاب ، أكله من الشجرة وقد نهي عنها ، ولكن ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض.. فيأتون نوحا فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب ، سؤاله ربه بغير علم ، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن.. قال: فيأتون إبراهيم فيقول: إني لست هناكم ، ويذكر ثلاث كلمات كذبهن ، ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا.. قال: فيأتون موسى فيقول: إني لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب ، قتله النفس ، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته.. قال: فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غفر الله له

ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فيأتوني.. فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول: ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعط.. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ، فيحد لي حداً فأخرج فأدخلهم الجنة قال قتادة وسمعته أيضاً يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعط.. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه.. قال: ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأدخلهم الجنة.. قال: قتادة وسمعته يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت له ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعطه ، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ، قال: ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرج فأدخلهم الجنة ، قال: قتادة وقد سمعته يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود.. قال: ثم تلا هذه الآية: "عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً".. قال: وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال: "هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً". قلنا: لا ، قال: "فإنكم لا تضارُّون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارُّون في رؤيتهما". ثم قال: "ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله ، من بر أو فاجر ، وغُبَّرات من أهل الكتاب ، ثم يؤتى بجهنم تُعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون ؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال: كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ قالوا: نريد أن

تسقينا ، فيقال: اشربوا ، فيتساقطون في جهنم. ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال: كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا ، فيقال: اشربوا ، فيتساقطون ، حتى يبقى من كان يعبد الله ، من بر أو فاجر ، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منَّا إليه اليوم ، وإنا سمعنا مناديا ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا ، قال: فيأتيهم الجبَّار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فيقول: أنا ربكم ، فيقولون: أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه ، فيقولون: الساق ، فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة ، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً ، ثم يؤتى بالجسر فيُجعل بين ظهري جهنم". قلنا: يا رسول الله ، وما الجسر؟ قال: "مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ ، عليه خطاطيف وكلاليب ، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفة ، تكون بنجد ، يقال لها: السعدان ، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلَّم وناج مخدوش ، ومكدوس في نار جهنم ، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً ، فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم مِنَ المؤمن يومئذ للجبار ، وإذا رأوا أنهم قد نجوا ، في إخوانهم ، يقولون: ربنا إخواننا ، كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا ، فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرِّم الله صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيُخرجون من عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيُخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيُخرجون من عرفوا". قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤوا: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها}. (فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج أقواماً قد امتُحِشوا ، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له: ماء الحياة ، فينبتون في حافتيه كما

تنبت الحبَّة في حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، إلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض ، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فيجعل في رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه".

وقال صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي مناد: يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: "وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة - وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا- وهم لا يؤمنون". رواه البخاري ومسلم وهذه رواية البخاري.

وخلق لها أهلها

إن فهم الدين فهماً جيداً يريح النفس من أي قلق يسببه الفهم الناقص.. ولو فهم المؤمن قول النبي صلى الله عليه وسلم إن ما كتبه الله بعلمه المسبق اليقيني من أن فلاناً من الناس سيكون من أهل النار حتى لو عمل من الصالحات الكثير ، لو فهم ذلك دون أخذ باقي حقائق الإيمان في الاعتبار لظن أن الله يكره بعض الناس على فعل ما يوجب لهم النار كي يتحقق ما كتبه من قبل أنهم من أهل النار ، وهذا مستحيل أن يقع من الرحمن الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرماً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربعة: برزقه وأجله ، وشقي أو سعيد ، فوالله إن أحدكم - أو: الرجل- يعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ،

حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها". قال آدم: "إلا ذراع". رواه البخاري ومسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة". رواه مسلم.

وروى مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة ، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار. وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة" قال فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نمكث على كتابنا ، وندع العمل؟ فقال "من كان من أهل السعادة ، فسيصير إلى عمل أهل السعادة. ومن كان من أهل الشقاوة ، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة" فقال "اعملوا فكل ميسر. أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة. وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة". ثم قرأ:

"فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10}" الليل.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر". قال الألباني: في "السلسلة الصحيحة". رواه أحمد وابن سعد في "الطبقات"، وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم وقال الحاكم: "صحيح" ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا.

إذن هي كتابة علم مسبق يقيني لا كتابة إكراه وإجبار ، ويبقى الإنسان هو من يختار أي طريق سيسلك إلى الله: طريق الهدى والرشاد أو طريق الضلال والعصيان ، والله ييسره لما اختار ولا يجبره على شيء. والله علم منذ خلق آدم مَنْ مِنْ ذريته سيدخل الجنة برحمة الله وعمله الصالح ، ومن منهم سيدخل النار بعمله الطالح وعدل رب العالمين ، فعبر الحديث عن

ذلك بأنها قبضة قبضها ربنا ، وقال إلى الجنة وقبضة قبضها وقال إلى النار ، أي يدخل أهل الجنة الجنة بقدر الله ، ويدخل أهل النار النار بقدره أيضاً ، دون أن يعني ذلك أي إكراه لمخلوق على شيء ، فالله علم ما سيفعله الناس من خير وشر وتركهم يفعلونه وهو القادر على منعهم لو شاء ، وبذلك يكون عملهم للخير وللشر بقدر الله وباختيارهم الحر الذي يستحقون عليه الجزاء ، خيراً على الخير وعذاباً على الشر. والمخيف في الأمر قوله تعالى "ولا أبالي" حيث سيعاقب الله كل من أشرك به أو جحده طالما كانت آياته كافية لغيرهم الذين استجابوا لله فآمنوا به وأطاعوه. ويحاسب كل من عصاه وتحتسب المعصية على مرتكبها مهما بدت صغيرة أو غير مهمة لمن وقع فيها ، وليس هنالك محاباة لأحد إلا جزاء له على عمل صالح أحبه الله من أجله ، لذا على المؤمن الحذَر وأن لا يستهين بالمعاصي ، فهي تسجل عليه ، وسيسأل عنها يوم القيامة ، وهو معرض لأن يعاقب عليها ، فالملائكة يكتبون كل عمل نعمله ، ولا يهمهم ما إن كنا نرى ما نقع فيه من معصية شيئاً سيئاً حقاً يستوجب التحريم أو لا نرى ذلك ، إذ طالما حرمه الله فنحن متعبدون باجتنابه وعدم الوقوع فيه. لقد وضع ربنا المعايير للعمل الصالح والعمل الطالح ، لذا قد نستغرب عظم الأجر على عمل بسيط صالح وعظم الوعيد على عمل طالح لا نلق له بالاً ، وربنا لا يبالي من سيكون الفائز برضاه وجنته ومن سيستحق ناره وعذابه ، وهذا مدعاة لنا لأخذ الأمر بجدية لأنه في الحقيقة جد لا هزل فيه.

وقد روى مسلم في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها ذات مرة: "أو لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار. فخلق لهذه أهلاً ، ولهذه أهلاً". وفي رواية ثانية لمسلم يقول صلى الله عليه وسلم: قال "... ، يا عائشة! إن الله خلق للجنة أهلاً. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلاً. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم".

ولا يعني ذلك أن الله خلق النار ثم خلق لها أناساً مفطورين على الكفر كي يكونوا أهلها ، بل هم أناس يخلقهم الله بقدره ، ويختارون طريق النار وأهلها بإرادتهم دون تدخل من الخالق ، وهو لا يتعمد خلقهم بالذات كي يملأ النار بهم. فالله خلق آدم بيده وكان لا بد أن يكون المخلوق هو آدم بالذات ، وكذلك حواء التي كانت نسخة مؤنثة من آدم ، خلقها الله من ضلع آدم ، وما كان لأنثى غيرها أن تكون المخلوقة بدلاً عنها ، لكن ذرية آدم يخلقها الله بقدره ،

حيث يلتقي حيوان منوي من رجل ، ببييضة من امرأة ، وتتكون نطفة أمشاج ، يكون منها رجل أو امرأة جديدان ، وإن لقّح هذه البييضة حيوان منوي آخر من الأب نفسه يكون المتكون شخصاً آخر ، لأن كل حيوان منوي يحوي مورثات (جينات) مختلفة عما يحويه الحيوان المنوي الآخر. وإذا علمنا أن الرجل يقذف عشرات الملايين من الحيوانات المنوية في الجماع الواحد ، وكلها مختلفة عن بعضها بعضاً ، تبين لنا أن هنالك عشرات الملايين من الاحتمالات في الجنين الذي سيتكون لو حصل حمل في ذلك الجماع ، كل جنين منها غير الآخر ، أما لو حصل الحمل في جماع آخر ، فهنالك عشرات الملايين أخرى من الأجنة المحتملة ، وكذلك لو كان الجماع في شهر آخر ، فاختلفت البييضة ، وباختلافها تختلف الأجنة المحتملة ، وأياً كان الجنين المتكون ، فإنه يتكون بعلم الله وإذنه ، أي بقدره ، ويكون مخلوقاً لله ، مع أنه لم يتعمده ، وهكذا يكون الله هو الذي خلق أهل الجنة ، وخلق أهل النار الذين علم مسبقاً أنهم سيكونون أهلها ، لكنه خلقهم جميعهم على فطرة الإسلام ، واختاروا هم بحرية تامة طريق الهداية ، أو طريق الغواية ، فاستحقوا الجنة أو النار. ولعل الله يتدخل في اختيار الجنين الذي سيتكون لأبوين معينين من الأجنة المحتملة منهما ، إن هما أكثرا الدعاء له يطلبان منه ذرية صالحة ، فيختار لهما الصالح من ذريتهما ، لكن حاشاه يتعمد خلق من يعلمه من أهل النار إن هو خلقه ، مع أنه لن يدخله النار إلا بذنوبه التي ارتكبها بحرية تامة ، فالله هو الرحمن الرحيم ، والذين يأتون إلى الدنيا وكان خيراً لهم أن لا يأتوا ، إنما يأتي بهم حظهم السيئ ، ويهلكهم عملهم وطغيانهم.

أما يوم القيامة ، وبعد أن يدخل جميع أهل الجنة الجنة ، ويبقى في النار من استحق الخلود فيها ، يبقى في الجنة متسع ، فيخلق الله خلقاً يسكنون فيه ، أما النار التي تقول هل من مزيد فيضع ربنا فيها قدمه ليسكتها وتكتفي بمن فيها.

قال صلى الله عليه وسلم: "لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد ، حتى يضع فيها رب العزة ، تبارك وتعالى. قدمه. فتقول: قط قط ، وعزتك. ويزوي بعضها إلى بعض". (رواه مسلم).

وقال أيضاً: "لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه. فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط. بعزتك وكرمك. ولا يزال في

الجنة فضل حتى يُنشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة" أي الزائد منها. (رواه مسلم).

وقال: "يبقى من الجنة ما شاء الله أن يبقى. ثم ينشئ الله تعالى لها خلقاً مما يشاء". (رواه مسلم).

وقال صلى الله عليه وسلم: "تحاجت الجنة والنار. فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم؟ قال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي. ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله، تبارك وتعالى، رجله. تقول: قط قط قط. فهنالك تمتلئ. ويزوي بعضها إلى بعض. ولا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً". (رواه مسلم).

وهذا هو شأن الرحمن يخلق للجنة خلقاً، يملؤونها، ويتمتعون فيها، مع أنهم لم يعملوا شيئاً ليستحقوها، أما النار فلا يدخُلها إلا من استحقها بذنوبه الكبيرة.

الفصل الثالث

دولة الكتاب والحكمة

عُطّلت الحدود فزادت أهميتها

نَعِمَ المسلمون بالعيش تحت حكم الشريعة الإسلامية قروناً عديدة إلى أن جاء زمان جهلوا فيه دينهم ودنياهم ، فتسلط عليهم أعداؤهم واستعمروا بلدانهم وعطلوا حكم الشريعة فيها ، باستثناء قوانين الأحوال الشخصية. لكن المسلمين بدؤوا بالنهوض والصحو من سباتهم ، فأخذوا يصححون عقيدتهم ويخلصونها مما علق بها من مفاهيم فيها شبهة شرك ، وفي الوقت نفسه بدأ احتكاك المسلمين بالثقافة الغربية الناهضة ، وبدأ اقتباسهم منهم وإقبالهم على العلوم الحديثة. الأمم لا تنهض بسنة أو سنتين بل تحتاج إلى عدة أجيال وأحياناً لعدة قرون كي تستكمل نهضتها ويقظتها. في عام 1924 والمسلمون المهتمون بأمر الأمة مندفعون يعملون بجد وحماس من أجل نهوض بلدانهم وتقدمها العلمي والديني بعد أن صار كثير من المسلمين لا يصلون إلا عندما يتقدم بهم العمر ، بل منهم كثيرون تنقضي أعمارهم ويرحلون عن الدنيا وهم تاركون للصلاة ، لا لأنهم جاحدون لها بل لأنهم جهلوا أهميتها وخطورة تركها ، جاءهم خبر نزل عليهم كالصاعقة. لقد سقطت الخلافة العثمانية وألغيت نهائياً بعد قرون من العزة ، كانت فيها هي الرمز لجميع مسلمي العالم الإسلامي السنيين. شعر الإسلاميون – وهكذا صاروا يُدْعون – بإحساس يشبه اليتم بعد فقد الأب الذي الذي كانوا يباهون به رغم عيوبه الكثيرة. منذ ذلك اليوم أصبح تحكيم الشريعة واستعادة الخلافة الإسلامية أولى أولوياتهم.

ومع أن الأحاديث الشريفة تصف ترك الصلاة بالكفر فإن ترك الحكم بما أنزل الله الموصوف في القرآن بالكفر أيضاً ، استقطب اهتمام الإسلاميين أكثر. وكلما زاد الوعي بسوء حالنا تعلقنا أكثر بأمل أن تخلصنا الشريعة إن حكّمناها وترتقي بنا إلى حياة أفضل ، وصار شعار "الإسلام هو الحل" كثيراً ما يرفع والإسلاميون واثقون من أنه شعار صادق إلى أبعد حد. كما كثر اهتمام المفكرين الإسلاميين بالأمر وتأصيله فظهرت مفاهيم مثل "الحاكمية"

حيث رأى المتحمسون للدولة الإسلامية أن الحاكمية لا تنبغي إلا لله ، وأن جعلها للأمة نوع من الكفر والتعدي على حقوق الله ، وبالغ بعض المفكرين الإسلاميين مثل المرحوم سيد قطب حتى جعلوا من يُشَرّع للناس متألهاً ومن يطيع شرعاً غير شرع الله مشركاً ، ولم يميزوا بين خضوع الإنسان للقوانين المفروضة عليه في المجتمع الذي يعيش فيه ، وبين طاعته للشرع مع إيمانه أن ما يمنعه هذا الشرع حرام لا يحل له ، وأن ما يمنحه له هذا الشرع حلال له ، وأنه مأجور من الله على طاعته لشرعه بخلاف القوانين التي لا يراها ديناً ولا يرى الالتزام بها عبادة ، إنما هو إما خاضع لها مكره عليها ، وإما متمسك بها عن هوى في نفسه لأنها تعطيه مكتسبات ليست من حقه ، كما لو ملكته البيت الذي هو مستأجره. وهكذا ظهرت جماعات جهادية تكفر الشعوب المسلمة وتستحل قتالها ، وقتل كل من يلزم قتله منها ، ظناً منهم أن كل مشرك إلى يوم الدين لا يَعصم دمه إلا إيمانه بلا إله إلا الله إيماناً لا تشوبه شائبة من شرك.

لقد انشغل الإسلاميون الجهاديون والسياسيون وحتى الدعويون التربويون بهمّ إقامة دولة إسلامية تحكمها الشريعة وتقيم الحدود وتحارب الفساد الأخلاقي والفكري القادم من الحضارة الغربية. الجهاديون والسياسيون الإسلاميون كان من الطبيعي تركيزهم على هذه القضية ، لكن الصراع الدائم بين هذه التيارات وحكومات البلدان الإسلامية وضع جميع الإسلاميين ، حتى الدعاة المسالمين ، في دائرة الاتهام والشك والملاحقة وتقييد الحريات والتحركات ، مما استنزف الجهد والأعمار بين من يُقتل ومن يُسجن ومن يهاجر لينجو من السجن أو القتل ، فلم ينعم الإسلاميون في أكثر البلدان الإسلامية بفترات استقرار وراحة تسمح لهم بتطوير فكرهم ليتماشى مع العصر ويسمح لهم بالبناء الحضاري الإسلامي ، وإن كانت بعض البنوك الإسلامية قد أنشئت ونشطت في بعض البلدان ، لكن جو التوتر والملاحقة واضطرار أكثر الجماعات الإسلامية للعمل السري ، حرم الأمة من أن تركز نخبتها الإسلامية على النهوض بفكرها وبالجوانب الاجتماعية والتربوية القائمة على الإسلام. مما جعل الإسلاميين يركزون جهودهم على محاولة إقامة دولة إسلامية تحكم بالشريعة ويتوقعون أن كل المشكلات ستنحل بمجرد إقامتها ، وفات الكثير منهم أن إقامة الدولة الإسلامية يجب أن يسبقها أسلمة للمجتمع ، بتقوية انتماء المسلمين لدينهم ، وتقوية إيمانهم به ، وتربيتهم بحيث يتخلقون بأخلاقه ، وبناء ما أمكن من مؤسسات المجتمع المدني بروح إسلامية ، ليتمكن الناس أن يعيشوا حياة متكاملة قريبة من الحياة الإسلامية المنشودة ، وعندما ننجح في أسلمة

المجتمعات ثقافياً وحضارياً واقتصادياً وفنياً تكون الأسلمة السياسية تحصيل حاصل ، وهيّن تحقيقها لأن كل أسسها قائمة.

قبل تحكيم الشريعة

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته أن عرى الإسلام ستنحل وتُنْتَقَض عروة عروة ، وبالتأكيد تنفك أضعف العرى أولاً ولا تنفك أقوى العرى إلا بعد أن تكون كل العرى الأخرى قد انفكت. قال صلى الله عليه وسلم: "لتنقض عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة " (رواه المنذري في الترغيب والترهيب والهيثمي في مجمع الزوائد ورواه غيرهما). عروة الحكم هي أقل العرى متانة وأول عرى الإسلام انتقاضاً وانفكاكاً ، أما عروة الصلاة فهي الأمتن على الإطلاق وهي آخر عروة من عرى الإسلام انتقاضا ، وقد حصل انتقاض عرى الإسلام كلها تقريباً ، إذ باستثناء بلدان محدودة كالسعودية والخليج ، فقد ترك أغلب المسلمين الصلاة التي هي عمود الدين. وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم ترك الصلاة بالكفر ، لأنه من أعظم الذنوب ، تماماً مثلما هو ترك الحكم بما أنزل الله ؛ لكن ترك الصلاة إثمه على الأفراد ، وترك الحكم بما أنزل الله إثمه على الحكام. المنطق أننا إذا أردنا أن نعقد عرى الإسلام من جديد أن نبدأ بالعروة الأقوى التي صمدت حتى النهاية ألا وهي الصلاة ، وأن نترك الحكم إلى المراحل الأخيرة بعد أن يكون المجتمع قد تأسلم ، ولا إثم علينا في تأخير الحكم بالشريعة وإقامة الدولة الإسلامية إلى أن يتأسلم المجتمع. تأملوا هذه الآية الكريمة:

"الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{41}" الحج.

ومكناهم في الأرض أي أقمنا لهم دولتهم ، قال السعدي في تفسيرها (في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان):

"إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ" الحج: ٤١

أي: ملّكناهم إياها ، وجعلناهم المتسلطين عليها ، من غير منازع ينازعهم ، ولا معارض.

هذه الآية الكريمة تبين لنا الأولويات التي لم تتغير قبل التمكين وبعده: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم يضاف عليها بعد التمكين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ونستدل على أولويات ما قبل التمكين أي مرحلة "كفوا أيديكم" من هذه الآية الكريمة:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً{77}" النساء.

هذا لا يقلل من أهمية الحكم بما أنزل الله ، لكنه واضح أنه يأتي بعد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه الأسس الثلاثة تهيىء المجتمع للحكم بما أنزل الله. وعندها لا نتوقع أن يقاوم الناس تحكيم الشريعة ، وعندها أيضا يَزَعُ الله بالسلطان ما لايزع بالقرآن كما ثبت عن عثمان رضي الله عنه قوله: "إنَّ اللهَ يَزَعُ بالسلطانِ ما لا يزعُ بالقرآنِ" ، ويزع يعني يمنع ويردع. المشكلة أن كثيراً من الإسلاميين يظنون هذا القول يعني تفوق السلطان على القرآن في منع الناس من المنكرات ، مما يبرر أن تكون الأولوية لإقامة الدولة الإسلامية من ناحية السلطة وتحكيم الشريعة ، لا لأسلمة المجتمع على كافة الأصعدة أولاً. الله يزع بالسلطان تلك الأقلية من الناس الذين لا حياء عندهم ولا ضمير ، المتمردين على القيم وعلى المجتمع ، لأنهم لن يردعهم الإيمان ، ولا يرتدعون إلا بالخوف من العقوبة. هؤلاء قد لا يصلون إلى عشرة بالمائة إذا ما أخذنا باعتبارنا نسبة حدوث اضطرابات الشخصية والإدمانات وغير ذلك ، أما الأغلبية من الناس فيزعهم القرآن الذين ينهى عن الفحشاء والمنكر مثلما تنهى الصلاة بل هو أكبر نهياً ، وكما قلت ربنا يريدنا أن نلتزم بأحكامه وفرائضه ومحرماته ، لا أن يُلْزِمنا بها ونحن كارهون. وواضح أن البدء يكون بأسلمة المجتمع وتربيته على التقوى وإزالة الدواعي للمعصية ، وتوفير الدواعي والمعينات على الطاعة ، فالزنا على سبيل المثال لا يطهر منه المجتمع بجلد الزناة ، فالجلد لا يكون إلا للمجاهرين الذين يعترفون بالزنا أو يقومون به دون أي تحرز بحيث يتمكن أربعة رجال عدول من رؤية العملية الجنسية بشكل لا يدع مجالاً للشك أن الزنا وقع فعلاً. الجلد يجبر الناس على أن يستتروا إن وقعوا في الفاحشة لكنه لا يمنع ولا يردع الناس ما لم تنههم التقوى والصلاة والقرآن ، وما لم يكن الزواج ميسوراً للشباب ، لأنه

الأغض للبصر والأحصن للفرج ، فلم يحرم ربنا الربا قبل أن يحل البيع والتجارة ، أي قبل أن يمتنع الناس عن المعصية لا بد من تأمين البديل الحلال لإشباع حاجاتهم الفطرية.

أشكال التطبيق

تركيز أغلب الإسلاميين على الحكم بما أنزل الله وإقامة الدولة الإسلامية جعلهم العدو الأول للحكام في الغالبية العظمى من بلدان العالم الإسلامي ، وجعل مكانهم الطبيعي السجون ، لكن الحال بدأ يتغير في السنوات القليلة الماضية بفعل الثورات التي شهدتها عدة بلدان إسلامية ، حيث انتقل إسلاميون فيها من السجون إلى كراسي الحكم. وإن كانت سلطتهم الحقيقية أقل بكثير مما يبدو ظاهراً ، لأن عناصر القوة في تلك المجتمعات ما زالت بأيدي الذين كانوا يمسكون بها قبل الثورات. والإسلاميون الذين شاركوا في الحكم بعد الثورات مربكون وربما متحيرون. قواعدهم تطالبهم بتحكيم الشريعة ومجتمعاتهم متخوفة من أن تُحكم على الطريقة الطالبانية أو الإيرانية الإسلامية ، حيث تقيد الحريات الشخصية ويجبر الناس على الالتزام بما ليسوا مستعدين له. والمشكلة أكبر حيث توجد طوائف غير مسلمة أو علمانية وربما ملحدة. ثم هنالك ما يسمى المجتمع الدولي ، أي الدول الاستعمارية المهيمنة ، الذي لا يسمح بإقامة أي دول جديدة على الطراز الطالباني أو الإيراني. وكذلك هذه المجتمعات غير مستعدة لأن يطبق عليها نموذج الدولة الإسلامية السعودية ، حيث يعاني الناس الكثير من القيود على حرياتهم الشخصية الناتجة في الحقيقة عن الطبيعة القبلية التي تسيطر فيها التقاليد على المجتمع السعودي أكثر منها قيود تفرضها الدولة ، بل الناس هم الذين يقيدون أنفسهم ، لكن الناظر من بعيد يظن أن القيود مفروضة عليهم من الدولة باسم الإسلام ، لذا ليس للنموذج السعودي للدولة الإسلامية شعبية لدى المسلمين في البلدان الإسلامية الأخرى.

منذ عام 2002 ميلادي ظهر نموذج للدولة التي ليست إسلامية إنما يقودها إسلاميون ، يسخرون أمانتهم وإخلاصهم لبناء الاقتصاد ورفع مستوى الرفاهية والأمان ، دون أي تحكيم للشريعة ، لأن الدولة علمانية ، ولن تسمح لهم أن يحكموا إلا على هذا الشرط ، أقصد تركيا بعد أن تسلم إدارة الدولة فيها حزب العدالة والتنمية. المتخوفون من الدولة الإسلامية الذين ينظرون إلى الأغلبيات التي حصل عليها الإسلاميون بالديمقراطية يتمنون لو يحذو الإسلاميون في بلدان الربيع العربي حذو الإسلاميين الأتراك ، فيؤسسوا دولاً علمانية يحكمها إسلاميون ولا

يحكمها الإسلام. لكن ما اعتبر نجاحاً كبيراً للإسلاميين الأتراك، يعتبر إخفاقاً عظيماً لأي فئة من الإسلاميين تحاول تقليده في بلدان الربيع العربي، إذ لا الجماهير ولا قواعد الجماعات الإسلامية تقبل بالتراجع إلى دولة علمانية وهم الآن ينعمون بدول نصف علمانية، ما يزال للإسلام فيها تأثيره في الحياة العامة وإن كان تأثيراً محدوداً.

الأكثرية في بلداننا الإسلامية تدين بالإسلام، لكنها لا تريد دولة تكون فيها الكلمة الأولى والأخيرة لعلماء الدين، يفتون في كل شأن من شؤون الدولة، ويتدخلون في كل قرار، بحكم أنهم أقدر الناس على معرفة الحلال والحرام. هذه الأكثرية عندها عواطف إسلامية، لكنها اعتادت على الحرية الاجتماعية منذ جاء الاستعمار الأوربي، الذي عطل الشريعة وغير في العادات والتقاليد لمصلحة المزيد من الحريات الشخصية، وإن لم يكن هنالك حريات تعبير أو سياسة موازية.

مدنية بمرجعية إسلامية

في وجه الهجوم على المشروع الإسلامي باتهامه أنه يسعى لإقامة دولة دينية يبذل الإسلاميون وُسعهم لإقناع مجتمعاتهم أن الدولة الإسلامية لم تكن دينية في يوم من الأيام، وأنهم إنما يسعون إلى دولة مدنية بمرجعية إسلامية، أي دولة تُحكّم الشريعة الإسلامية، لكن الحكام فيها ليسوا موكلين من رب العالمين ليسوسوا الناس باسمه وبسلطانه، الحكام في الدولة الإسلامية المنشودة موكلون من قبل الأمة، وهي التي تختارهم وتكلفهم كي يحكموها بشرع الله. الأمة لها الحق أن تختار الحاكم، لكن لا خيار لها فيما يتعلق بالقوانين التي ستخضع لها، فالأمر محسوم، لأن الحاكمية لله والإسلام هو مصدر التشريع، والفقهاء جاهزون لاستنباط أحكام شرعية لكل ما يستجد من قضايا ومشكلات. الإسلاميون يسمونها دولة مدنية لأن السياسيين فيها ليسوا علماء الدين، وليس لهم أية شرعية استثنائية مستمدة من الاعتقاد أنهم مفوضون من الخالق، هم وكلاء عن الأمة، لكنهم والأمة معهم لا خيار لهم إلا الخضوع للشريعة، والفقهاء ليسوا هم الحكام لكن هم الذين يشرفون على كل شيء ويراقبون تطبيق هؤلاء الحكام للشريعة، وهم الذين يجيزون ما أصدره الحكام المدنيون من أحكام وقوانين إن كانت متفقة مع الشريعة، ويستنبطون أحكاماً جديدة انطلاقاً من النصوص التي عندهم، وفيما

لا نص فيه ، فإنهم يقيسون الأمر المستجد على أمر يشترك معه بعلة التحريم أو الفرضية ، فيصلون إلى حكم لكل مستجد ، حتى لو لم تكن هنالك نصوص من القرآن أو الحديث.

الدولة المدنية بالمرجعية الإسلامية ليست دولة دينية ، كالدولة الدينية التي حكمت أوربا قروناً ، ثم نجح الناس هناك في التمرد عليها ، وإقامة دول علمانية مؤسسة على المواطنة ، فيها يتساوى الجميع بالحقوق والواجبات مؤمنين كانوا أو ملحدين ، مسيحيين كانوا أو يهوداً ، رجالاً كانوا أو نساء ، دولاً تم فيها حصر الدين في الحياة الشخصية ، وتم فيها عزله عن كل ما يمت للدولة بصلة ، حتى إن المدارس الحكومية لا تدرس الدين لتلاميذها.

الإسلاميون يكتشفون الديمقراطية

بعد أن أدرك الإسلاميون في بلادنا أنهم غير قادرين على مغالبة المجتمع الدولي لإنشاء دول إسلامية كما يحلمون عن طريق القوة والغلبة والاستيلاء على السلطة لا حباً بالسلطة ، بل استكمالاً لإقامتهم لدين الله الإسلام الذي يرونه ديناً ودولة ، يبقى تطبيقه ناقصاً ما لم تقم له دولة تحكم بشريعته ، أخذ الإسلاميون يقبلون الديمقراطية ويطالبون بها ، لثقتهم بأنها الطريق التي يمكن أن توصلهم لأسلمة دولهم من خلال صناديق الاقتراع ، طالما أن أغلبية الناس في بلادهم مسلمون. رفعوا لواء الديمقراطية وأعلنوا قبولهم بما تأتي به الديمقراطية ، لكن المتخوفين من الدولة الإسلامية على كافة طوائفهم لم يقبلوا الدعوة إلى الديمقراطية دون علمانية ، لأنهم يخافون من استبداد الأغلبية التي ستستطيع عن طريق صناديق الاقتراع أن تفرض وجهة نظرها على الجميع.

التحدي الآن هو إيجاد شكل للدولة تكون فيها إسلامية ومدنية أي علمانية في الوقت نفسه ، أي دولة تجمع المتناقضات في بنيانها والفلسفة التي تقوم عليه ، لأن الدولة المدنية طالما ستطبق الشريعة على مواطنيها فلن تكون إلا شكلاً مقنعاً من الدولة الدينية ، إلا إن كان المقصود بالدولة المدنية أن تكون دولة نصف علمانية ، لكنها لا تعادي الأديان ولاتقصيها إقصاء تاماً عن كل ما يمت للدولة بصلة ، أي تبقى الأديان في المناهج الدراسية وتبقى قوانين الأحوال الشخصية مستمدة من من الأديان ، أي باختصار بقاء الحال على ما هو عليه الآن. هذا الشكل للدولة يقضي على آمال الإسلاميين في تطبيق الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية ، وهم

ليسوا مستعدين لهذا الخيار حتى إن قبلوا تأجيل تحقيق حلمهم حتى حين ، أو رضوا بالتدرج البطيء في تطبيق الشريعة.

دولة إسلامية علمانية

السؤال الآن هل يتسع الإسلام لتصور للدولة يكون إسلامياً وعلمانياً في الوقت نفسه؟ وجوابي هو نعم بكل تأكيد. لكن كيف ؟

لنرجع إلى القرآن الكريم لنتبين لم أرسل الله الرسل في أقوامهم وختم بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً للبشرية كلها. يقول تعالى:

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{25}" الحديد.

ليقوم الناس بالقِسْط أي بالعدل. هذا هو الهدف من إرسال الرسل جميعهم بالبينات والكتب المنزلة والموازين التي تمكن الناس من تحقيق القِسْط والعدل ، لأنه لا بد من أجل الوصول إلى العدل من معايير نهتدي بها.

حتى يتحقق الهدف الأكبر من إرسال الرسل وهو قيام الناس بالقسط والعدل أرسل الله الرسل ليعلموا البشرية شيئين لا غنى لها عنهما كي تقوم بالقسط ، هما الكتاب والحكمة ، ولنتأمل هذه الآيات الكريمة:

"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{231}" البقرة.

"وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{48}" آل عمران.

"لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ{164}" آل عمران.

"أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{54}" النساء.

"وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{113}" النساء.

"إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{110}" المائدة.

"وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً{34}" الأحزاب.

"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{2}" الجمعة.

"الكتاب" هو الكتاب ، أي ما أنزله الله على رسله من كتب هداية للبشرية ، فيها ما لم تكن قادرة على الوصول إليه وحدها ، مثل الغيبيات كلها ، والفرائض والمحرمات ، وقصص من قبلنا ، وأخبار يوم القيامة ، والجنة والنار وغير ذلك.

لكن ما المقصود بـ"الحكمة" في هذه الآيات ؟ بعض فقهائنا القدامى صرف معناها عن ظاهره وقال: إن كان الكتاب الذي بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليعلمنا إياه هو القرآن

الكريم فلابد أن تكون الحكمة هي السنة المطهرة. من حيث المبدأ هذا ممكن ، لكنه تأويل لكلمة الحكمة وصرف لها عن ظاهرها لا داعي ولا مبرر له. قال تعالى:

"الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{1} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{2}" يوسف.

وقال أيضاً: "حم{1} وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ{2} إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{3}" الزخرف.

أي القرآن عربي مبين لنفهمه كما تفهم اللغة العربية ، حيث المعنى الظاهر هو الأصل ما لم يقم دليل قوي على أن المقصود شيء آخر.. وهذا يعني أن الحكمة المذكورة في الآيات السابقة هي بكل بساطة الحكمة ، أي كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: (الحِكْمَة: فعل ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي) ، أي هي العلم والخبرة التي يكتسبها الإنسان ، أي إنسان ، إن توافر له حد أدنى من الذكاء ومن العلم والخبرة الحياتية أو المهنية ، فيصبح حكيماً إما بشكل عام بما يخص الحياة الإنسانية ، وإما حكيماً في مجال ما ، فالطبيب من قديم الزمان يسمى الحكيم ، جاء في لسان العرب: "يقال الحكيم: الذي يحكم الأشياء ويتقنها ، وقيل الحكيم ذو الحكمة ، والحكمة: "عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم" ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها ، حكيم".

وحتى نتأكد أن كلمة حكمة في القرآن الكريم تعني المعرفة ، علينا أن نتفكر في معناها في الأحاديث الشريف:

روى البخاري في صحيحه هذه الأحاديث التي ذكرت فيها الحكمة:

"لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالًا ؛ فسلَّطَ على هَلَكَتِه في الحقِّ ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحكمةَ ؛ فهو يَقضي بها ويُعلمُها".

"الفخرُ والخُيَلاءُ في الفَدَّادينَ أهلِ الوبَرِ ، والسكينةُ في أهلِ الغنَمِ ، والإيمانُ يَمانٍ ، والحكمةُ يَمانيةٌ".

"أتاكم أهلُ اليمنِ ، هم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوبًا ، الإيمانُ يَمانٌ والحكمةُ يمانيةٌ ، والفخرُ والخُيَلاءُ في أصحابِ الإبلِ ، والسَّكينةُ والوقارُ في أهلِ الغنمِ".

"فُرِجَ سَقْفِي وأنا بمكةَ ، فنزلَ جبريلُ عليه السلام ، ففَرَجَ صدري ، ثم غسَلَهُ بماءِ زمزمَ ، ثم جاء بِطَسْتٍ من ذهبٍ ، ممتلئٍ حكمةً وإيمانًا ، فأفْرَغَهَا في صدري ثم أطبَقَهُ ، ثم أخذَ بيدي فعَرَجَ إلى السماءِ الدنيا ، قال جبريلُ لخازنِ السماءِ الدنيا: افتحْ ، قال: من هذا ؟ قال: جبريلُ".

"إن من الشعر حكمة".

واضح أن الحكمة في هذه الأحاديث الشريفة الصحيحة لا يقصد بها السنة ، بل يقصد بها الحكمة كما يفهمها العربي عندما يسمعها.

يعلمهم الكتاب والحكمة

مالذي نستخلصه من فهم كلمة الحكمة في القرآن الكريم على ظاهرها ؟

نستخلص أن الرسل يقومون بدور مزدوج هو أولاً تعليم الناس الكتاب المنزل وكل ما يتعلق به ، أي كل ما هو دين ما كان للناس أن يصلوا لمعرفته وحدهم مهما طال الزمان بهم ، وثانياً تعليم الناس قدراً من الحكمة ، أي كيف يكون التفكير السليم المتعقل في أي شأن من شؤون الحياة ، وإعطاؤهم نصائح تنفعهم في معاشهم. وما ينضوي تحت عنوان الحكمة مما يعلمه الرسل لأقوامهم كلها أمور كان من الممكن للبشرية أن تكتشفها في يوم من الأيام ، لكن الرسل يعطون البشرية جرعة جاهزة منها ، توفر عليها الكلفة التي تنتج عن التجربة والخطأ إلى أن تكتشف الصواب فيها. وبالتالي ، إن الرسل يعلمون أقوامهم ما هو دين ، ويعلمونهم أيضاً ما ليس ديناً ، إنما هو حكمة دنيوية نافعة. وعلى البشرية أن تتمسك بما هو دين لا تغير فيه ولا تبدل ، وتكون كل بدعة فيه ضلالة مردودة وغير متقبلة من المولى بل هي في النار. أما شق الحكمة مما علمه الرسل لأقوامهم ، فعلى البشرية أن تنتفع به وتبني عليه لتصل إلى المزيد من الحكمة التي تنفعها في معاشها ، وفي مجال الحكمة تكون البدعة هداية لا ضلالة ، وممدوحة لا مرذولة ، وتسمى الإبداع. وقد تكون البدعة هي تطبيق الحكمة في قضية تعبدية مثل جمع الناس لصلاة التراويح جماعة وعندها تكون "نعم البدعة هي".

وهذا يعني أنه ليس كل ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم هو دين مفروض علينا نأثم بمخالفته ويتوجب علينا تنفيذه والتقيد التام به ، فالرسول صلى الله عليه وسلم عندما يأمر أصحابه أن يطفئوا السراج إذا ناموا ، ويحذرهم أن الفأرة قد تصدمه وتقلبه فيشتعل حريق خطير وهم نائمون ، ما كان يشرع لهم ديناً بالمعنى الحرفي للدين ، إنما كان يقدم لهم شيئاً من الحكمة المفيدة لهم ، ويعلمهم كيف يفكرون التفكير السليم بأمور معاشهم.. وذات مرة أخطأ صلى الله عليه وسلم عندما أبدى رأيه في تأبير النخل (أي تلقيحه) حتى يثمر ، وكان رأيه أن التأبير غير لازم ، فعمل الصحابة برأيه ، وتركوا تأبير النخل فلم يثمر ، فأخبرهم بعدها أن ما يحدثهم به عن الله حق هو معصوم فيه من الخطأ ، حيث قال فيما رواه مسلم في صحيحه: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل". وفي رواية أخرى أنه قال: "إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر". أما أمور دنياهم فهم أعلم بها منه كما قال في رواية ثالثة: "عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مرَّ بقومٍ يُلقِّحون. فقال "لو لم تفعلوا لصلَح" قال فخرج شِيصًا. فمرَّ بهم فقال: "ما لنخلِكم؟" قالوا: قلتَ كذا وكذا. قال: "أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم". (مسلم).

ما يفرضه رب العالمين أو يحرمه على لسان رسوله مما هو من قبيل الحكمة التي كنا سنصل إليها بأنفسنا يوماً ما ، بمجرد أن يفرضه أو أن يحرمه يتحول إلى دين وينضوي تحت عنوان الكتاب مع أنه في الأصل من الحكمة ، ويصبح عملنا بمقتضاه عبادة نؤجر عليها كما نأثم إن قصرنا فيها. وأعطي بعض الأمثلة.

قبل سنوات دخلت أوربا وأمريكا في أزمة اقتصادية خطيرة هددت اقتصاداتهم تهديداً حقيقياً ذكرهم بالأزمة التي مرت بها أمريكا في الثلاثينيات من القرن العشرين. كانوا حكماء ولم يترددوا في فعل ما يخرجهم من هذه الأزمة الجديدة ، فقاموا بشيئين هما عندنا في ديننا منذ أربعة عشر قرناً هما الزكاة وتحريم الربا. هم لم يحرموا الربا بالمعنى الحرفي للكلمة ، لكنهم خفضوا الفائدة على القروض المصرفية إلى الصفر أو إلى نصف بالمئة فقط ، وأخذت حكوماتهم تضخ السيولة المالية في المجتمع لتبقى القدرة الشرائية عند الناس محافظة على مستوىً جيد ،

بحيث لا يحصل كساد يؤدي إلى إفلاس المصانع والشركات وانهيار الاقتصاد. إن خفض الفائدة وضخ الأموال هما تماماً ما يحصن الاقتصاد الإسلامي من أمثال هذه الأزمات الاقتصادية الهائلة ، فالزكاة تضخ كل سنة اثنين ونصف من السيولة لتصل إلى الفقراء فيشترون بها ما يحتاجون إليه من سلع وخدمات ، فتتنشط التجارات والصناعات ، وهي على صغر نسبتها تكفي ، لأنها تتم بصورة دائمة ولا تنتظر حتى تقع الأزمة الاقتصادية ، إنها إجراء وقائي تتضافر مع تحريم الربا لتحصن الاقتصاد الإسلامي من الأزمات ، ويقال: درهم وقاية خير من قنطار علاج. هذا يعني أن البشرية قادرة على اكتشاف أضرار الربا وفوائد الصدقات حتى لو لم ينزل بهما قرآن يتلى ووحي يوحى. نعم هذا صحيح لكن الله الذي يحب المؤمنين ويحرص عليهم لم ينتظرهم ليكتشفوا ذلك بأنفسهم ويمروا بالأزمات العديدة قبل أن يصلوا لهذه الحقائق ، بل وفر علينا المعاناة والخسارة وحمانا من أن "نتعلم من كيسنا" كما يقال ففرض الزكاة وحرم الربا وجعل طاعتنا له في ذلك عبادة يعطينا عليها الأجر العظيم مع أنهما لمصلحتنا ولتحسين دنيانا.

غاية الفروض والتحريمات

عندما يفرض ربنا علينا شيئاً أو يحرم شيئاً آخر ، يكون القصد منه اختبار طاعتنا له ، كي يثيب الطائع ويعاقب من يفسق عن أمره ويعصيه ، لكن ربنا الرحمن الرحيم لم يحرم علينا إلا ما يضرنا ، ولم يفرض علينا إلا ما ينفعنا. قال تعالى:

"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{157}" الأعراف.

نحن أصحاب مصلحة دنيوية في أن نحرم على أنفسنا ما يضرنا وفي أن نفرض عليها ما ينفعنا ، ومع ذلك جعل ربنا لنا الثواب على فعل ما ينفعنا وعلى اجتناب ما يضرنا.

الأمر أكثر وضوحاً في هذه الآية الكريمة:

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ{219}" البقرة.

هذه الآية التي هي أصل من أصول الإسلام ، لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه. لنتأمل قوله تعالى: "وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا" لنرى الإثم ضداً للنفع ، مع أن النفع ضد الضرر ، وهذا يعني أن الإثم في ديننا والضرر شيء واحد ، أي لم يؤثِّم ربنا شيئاً إلا وهو ضار لنا ، ولم يحرم علينا شيئاً نفعه أكبر من ضرره. هذه ميزة لديننا يحق لنا أن نباهي بها ونبرزها ، لتعلم البشرية كيف يضمن الإسلام سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة ، وكيف يزاوج بين الدنيا والآخرة ، بحيث تصبح حياة المؤمن كلها عبادة ، له بها أجر بمجرد أن يتقي الله فيها باجتنابه ما حرم عليه مما يضره ويؤذيه.

هذه الآية لم تحرِّم الخمر والقمار ، مع أنها بينت أن أضرارهما أكثر من منافعهما ، لذا استمر كثيرون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعاطي الخمر ولعب القمار رغم الآية الكريمة لأنهم كانوا مدمنين ، والمدمن يجد صعوبة في الإقلاع عما أدمن عليه ، وقد مضى زمن ليس بالقصير قبل أن تنزل آية أخرى تحرم الخمر والميسر بشكل نهائي وقاطع.

لكن من رحمة ربنا ولثقته بنا وبحكمتنا ، لم يُكثر علينا من الفرائض والتحريمات ، بل سكت عن الكثير من الأمور ، وتركها لنا ولحكمتنا.. أي الكثير من الأمور بقيت معلقة في مرحلة "وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا" ، حيث تفرض علينا عقولنا بما جبلت عليه من حكمة أن نبتعد عنها ، دون أن يكون وقوعنا فيها مدعاة للعقاب في الآخرة ، إذ تكفينا العقوبة الحتمية التي تقع علينا عندما نرتكب تلك الأمور التي ضرُّها أكبر من نفعها ، فالذي يدخن التبغ من أجل المتعة ، عقوبته حتمية من خلال الضرر الصحي الذي يصيبه نتيجة التدخين ، دون أن يكون للتدخين حكم شرعي من تحليل وتحريم.

نعود إلى قوله تعالى: "وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا" لنتبين هذا الأصل العظيم من أصول ديننا الذي لم ينتبه له القدماء ، وهو مجيء لفظ إثمهما كضد لنفعهما ، أي جاء لفظ الإثم مكان لفظ الضر ، حيث الضر هو الذي ضد النفع ، وهذا يعني أن الإثم والضّر يحل كل منهما محل الآخر في الإسلام ، وبالتالي لم يحرم علينا ربنا إلا ما هو ضار لنا ، ولا يمكن أن يحرم علينا شيئاً

نفعه أكبر من ضره. وهكذا نجد الإسلام دين الفطرة والعقل والمنفعة ، بخلاف باقي الأديان التي قد تمتحن الناس بتحريمها عليهم بعض ما ينفعهم ، أو بفرضها عليهم بعض ما يضرهم.

ولا عجب إن لم نجد في القرآن والحديث الشريف مفهومي الخير والشر كمفهومين مطلقين ، كما هو الحال في الأديان والمعتقدات الأخرى. لا شيء هو خير أو شر بشكل مطلق ، بل هنالك ما هو خير لنا من حيث غلبة المنفعة لنا فيه على المضرة ، وهنالك ما هو شر لنا من حيث غلبة الضرر فيه لنا على النفع. هنالك خير وشر بالنسبة لنا نحن البشر حيث الخير هو النفع ، وحيث الشر هو الضرر ، أما بالنسبة إلى الله فالأمور كلها متساوية ، لأنه لا شيء قادر على نفعه ، ولا شيء قادر على ضُرِه ، فهو الصمد الغني القدير.

الحكمة مُكَمِّلة للشريعة

يقول ابن حجر في فتح الباري: وأخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» وله شاهد من حديث سلمان أخرجه الترمذي ، وآخر من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود. وقد روي معنى هذا الحديث مرفوعاً من وجوه أخر ، أخرجه البزار في مسنده والحاكم من حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: "ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا هذه الآية":

"وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً{64}" مريم.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ، وقال البزار: إسناده صالح.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: "الحَلالُ بَيِّنٌ ، وَالحَرامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كثيرٌ منَ الناسِ. فمنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ استَبْرَأ لِدِينهِ وعِرْضِه ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ: كراعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أنْ يُواقِعَه. ألا وإنَّ لِكلِّ مَلكٍ حِمى ، ألا إنَّ حِمَى اللهِ فِي أرضِهِ مَحارِمُه. ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ

الجَسدُ كلُّه ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله ، ألا وهِيَ القَلْبُ". وقال أيضاً: "الحلالُ بيّنٌ ، والحرامَ بينٌ وبينهما أمورٌ مُشتبهة. فمَن تركَ ما شُبِّهَ عليهِ منَ الإثمِ كان لِما استبانَ أتْرَكَ ومنِ اجْترأَ على ما يَشُكُّ فيه منَ الإثمِ أوْشَك أن يُواقِعَ ما استبانَ. والمعاصِي حمى الله ، مَن يَرْتعْ حَولَ الحِمى يُوشِكُ أن يُواقِعَه".

وقال تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{3}" المائدة.

أي الدين كامل بما هو بَيّنٌ من حرام وما هو بين من حلال بموجب النصوص القرآنية والحديثية قطعية الثبوت وقطعية الدلالة ، وما سوى ذلك لا داعيَ للبحث عن حكم شرعي له ، إنما هو مما سكت الله عنه رحمة بنا ، وتركه لحكمتنا وعقولنا التي ركب فيها حبنا لما هو نافع وكرهنا لما هو ضار ، وهذا ما يجب أن نتقيد به إن أمكننا أن نقيم دولة إسلامية. أي ندعو الناس إلى الحلال البَيّن ، وننهاهم عن الحرام البَيّن ، ولا نقحم الدين فيما سوى ذلك من أمور مستجدة أو قديمة سكت عنها الشرع وتركها لنا نختار فيها الخير ونتجنب الشر.

واكتمال الدين قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يعني اكتمال الأحكام أما النعمة التي تمت فهي الهداية ، فقد جاء قوله تعالى: "أكملت لكم دينكم" في سياق بين أحكام شرعية سبقته وأحكام شرعية أعقبته ، وكل ذلك في الآية نفسها ، ولهذا دلالته ولا شك. قال ابن منظور في لسان العرب: {الديان: من أسماء الله عز وجل ، معناه الحكم القاضي. وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، فقال: كان ديان هذه الأمة بعد نبيها أي قاضيها وحاكمها. والديان: القهار... وقيل: الحاكم والقاضي ، وهو فعال من دان الناس أي قهرهم على الطاعة. يقال: دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا. وفي حديث أبي طالب: قال له ، عليه السلام: أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب أي تطيعهم وتخضع لهم... والدين الحساب ، ومنه قوله تعالى:

مالك يوم الدين ، وقيل: معناه مالك يوم الجزاء. وقوله تعالى: ذلك الدين القيم ، أي ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي. والدين الطاعة. وقد دنته ودنت له أي أطعته... والجمع الأديان يقال: دان بكذا بديانة ، وتدين به فهو دين ومتدين. ودينت الرجل تديينا إذا وكلته إلى دينه. والدين: الإسلام ، وقد دنت به.... وفي الحديث: الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ، قال أبوعبيد: قوله دان نفسه أي أذلها واستعبدها ، وقيل: حاسبها... وفي التنزيل العزيز: ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، قال قتادة: في قضاء الملك... ودنته أدينه دينا: سسته. ودنته: ملكته. ودينته أي ملكته. ودينته القوم: وليته سياستهم.... والدين: الحال. قال النضربن شميل: سألت أعرابياً عن شيء فقال: لو لقيتني على دين غير هذه لأخبرتك. الدين ما يتدين به الرجل. والدين: السلطان. والدين: الورع. والدين: القهر. والدين: المعصية. والدين: الطاعة. وفي حديث الخوارج: يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، يريد أن دخولهم في الإسلام ثم خروجهم منه لم يتمسكوا منه بشيء كالسهم الذي يدخل في الرمية ثم نفذ فيها وخرج منها ولم يعلق به منها شيء ،قال الخطابي: يعني قوله ، صلى الله عليه وسلم ، يمرقون من الدين ، أراد بالدين الطاعة أي أنهم يخرجون من طاعة الإمام المفترض الطاعة وينسلخون منها.... وللدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله مقالة مفصلة عن معنى كلمة دين موجودة على هذا الرابط:

http://www.qaradawi.net/library/77/3892.html

جاء فيها: فإذا قلنا: (دانه دِينًا) عنينا بذلك أنه مَلَكه ، وحَكَمَه ، وساسه ، ودبره ، وقهره ، وحاسبه ، وقضى في شأنه ، وجازاه ، وكافأه. فالدِّين في هذا الاستعمال يدور على معنى المُلك والتصرف بما هو من شأن الملوك ؛ من السياسة والتدبير ، والحكم والقهر ، والمحاسبة والمجازاة. ومن ذلك: "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4}" الفاتحة ، أي يوم المحاسبة والجزاء. وفي الحديث: "الكَيِّسُ من دان نفسه" ، أي حَكَمَها وضَبَطَها. و(الديَّان) الحَكَم القاضي.

ورثة الأنبياء صنفان

روى الترمذي في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيه عِلْماً سَلَكَ الله له طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لتَضَعُ أَجْنَحِتَهَا رِضًى لِطَالِبِ العِلْمِ ، وَإِنَّ العَالِمِ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّمَواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ حَتَّى

الْحِيتَانُ في المَاءِ ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ". (صححه الألباني).

وهكذا يكون علماء الدين ورثة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أمور الكتاب ، ويكون علماء الدنيا من طب ونفس واجتماع واقتصاد وسياسة وغيرها من العلوم ورثة للنبي صلى الله عليه وسلم في أمور الحكمة. رسالته تألفت من الكتاب والحكمة ، وورثته صنفان: الأول يرث دوره في تبليغ الكتاب ، والثاني يرث دوره في النهوض بحياة الأمة وقدراتها في مجال الحكمة.

صحيح أن هنالك الكثير من أمور الحكمة صارت من الكتاب عندما فرضها أو حرمها الله ورسوله بشكل بيّن كالخمر والميسر والربا ، لكن باقي الأمور الحياتية التي لم يرد فيها نص (آية أو حديث شريف) قطعي الثبوت قطعي الدلالة تبقى في دائرة العفو المتروك لعقولنا وحكمتنا وعلمنا واكتشافنا ، دون تحليل أو تحريم. أي ما ثبت بالدليل القطعي أنه فرض أو أنه محرم هو الذي نأثم إن خالفناه أما ما سوى ذلك فعقوبتنا عليه تكمن في العاقبة غير السارة لأفعالنا غير المناسبة ، ولا دور لعلماء الشريعة في الإفتاء فيها. وسيكون على علماء الدين القيام بما يسمى "تحقيق المناط" مثل التأكد من أن عملية مالية مستجدة ، ليست صورة من صور الربا المحرم ، كالتَّوَرُّق الذي تمارسه المصارف الإسلامية ، ومثل التأكد هل المسابقات التي تجريها بعض الجهات عن طريق قيام الناس بالاتصال الهاتفي بها اتصالاً يكلفهم أضعاف الكلفة الحقيقية ، وتستوفي هذه الجهة الجزء الأكبر من هذه الرسوم ، بعد أن تقتطع شركة الهاتف رسوم الاتصال وعمولتها على تحصيل الأموال التي تذهب إلى الجهة المنظمة لهذه المسابقة ، والتي في النهاية ، تجري سحباً أو قرعة ، ليفوز أحد الذين اتصلوا بجائزة كبيرة ، واضح أنها تكون من المال الذي جمعته هذه الجهة من المتصلين ، ليبقى لها ربح كبير ، فيبحث العلماء هل هذه المسابقة صورة من صور الميسر والقمار المحرم أم لا. سيسهر العلماء على تطبيق الشريعة كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يقوم الفقهاء بتوسيعها لتغطي كل شأن من شؤون الحياة وتعطيه حكماً شرعيا يكون بالضرورة حكماً اجتهادياً ، يغلب أن يختلف فيه الفقهاء وتتعدد أحكامهم تعدداً يحير الناس هل الأمر حلال أم حرام.

وهذا يعني أن دور علماء الدين في الدولة الإسلامية يجب أن يبقى محصوراً في تعليم الناس دينهم وحثهم على الالتزام بما ثبت أنه حلال بَيّن أو حرام بين ، دون أن يبحثوا عن حكم شرعي لكل أمر. فالخمر والميسر بين الله أن أضرارهما أكبر من منافعهما ، لكنه تركهما دون حكم شرعي يحرّمهما فترة من الزمن ، ريثما تم إعداد الناس لتحريمهما ،لأنهما مما تدمن النفوس عليه من عادات ، يصعب عليها تركه بمجرد أمر ينزل حتى لو كان من رب العالمين.

وأعطي مثالاً التدخين مرة أخرى ، حيث يكون دور علماء الدين بخصوصه هو نصح الناس وتوعيتهم ، لا البحث عن حكم شرعي بتصنيف التدخين على أنه حرام يأثم من يقع فيه إثماً دينياً. هذه ليست دعوة إلى التدخين ، لكنها دعوة لحصر دور علماء الدين ودور الشريعة الإسلامية في ما ثبت تحريمه أو فرضيته ثبوتاً قاطعاً ، دون أن نقيس ما يستجد على ما ذكر في القرآن والحديث ، بل نتركه خارج دائرة الحلال والحرام ، أي خارج دائرة الدين ، لنكون نحن أعلم بأمور دنيانا. وهذا يعني تحرر الدولة الإسلامية من هيمنة علماء الدين عليها ، ومن تدخلهم في كل صغيرة وكبيرة فيها ، بحجة أنهم هم من يعلم حكم الشرع فيها ، وهذا يجعلها فعلاً دولة مدنية تُحَكّم ثوابت الشريعة ، وتترك الخلافيات كلها ، ولا تبحث عن أحكام شرعية للمستجدات ، بل تبحث في نفعها وضررها.

لكن ذلك لا يعني أن المباحات التي هي أكثر قضايا حياتنا تقع خارج دائرة العبادة لله أو العصيان والفسق ، لكن ذلك لا يكون بالعمل ذاته بل بما يرافقه من تقوى الله أو على الضد من إرادة العلو والفساد في الأرض ، وهذا لخصه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **"إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (متفق عليه).**

ربنا لا يقبل عملاً صالحاً من مشرك **"وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{65}" الزمر.**

ولا يقبل عملاً من موحد أو مشرك عمله من أجل الرياء والسمعة والعلو في الأرض ، أو دفعته إلى عمله رغبة في الفساد في الأرض وتحدٍّ للخالق ، أما المؤمن إيماناً خالصاً بالله واليوم

الآخر فإن كل عمله عبادة طالما كان متحرراً من دافع العلو في الأرض أو الفساد فيها ، وهكذا يصبح نومه عبادة وأكله عبادة واستمتاعه الجنسي عبادة ، رغم أنها كلها في الأصل مباحات.

ربنا يقول: "تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}" القصص.

وهذا يعني أننا لسنا في حاجة إلى استحضار نية مشروعة عند فعل الخير المباح ، إنما مجرد خلو قلوبنا من إرادة العلو في الأرض أو الفساد فيها ، يضمن أن دوافعنا مقبولة من الله ، ويجعل عملنا عبادة يؤجر عليها المؤمن. فإن رأينا من يحتاج العون وأعناه دون أن نستحضر نية العبادة ، يكون عوننا له مقبولاً من الله ، شريطة ألا تصاحبه نية العلو أو الفساد في الأرض. وبالمثل فإن الإنسان سيحاسب عن أي عمل عمله وهو حريص على الإفساد في الأرض أو العلو والاستكبار فيها ، حتى لو كان في الأصل من المباحات.. أي إن من يدخن تكون عقوبته ما يصيبه من أضرار بسبب التدخين ، أما إن أراد العلو في الأرض أو الفساد فإن تدخينه يصبح معصية يأثم عليها إضافة للأضرار الصحية التي ستصيبه جراء التدخين ، ومع ذلك يبقى حكم التدخين بحد ذاته أنه مباح.

والحرص على الحلال وتجنب الحرام في أعمالنا المباحة يجعل هذه المباحات عبادة نؤجر عليها لما امتزج بها من تقوى الله ، مع أن العمل بحد ذاته مباحٌ لا أجر على فعله ، ولا إثم في تركه. فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان". (رواه الطبراني).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه أنّ ناسا قالوا: "يا رسول الله! ذهب أهل الدُثور بالأجور" وأهل الدّثور هم أهل الأموال.. فالصحابة الفقراء هنا أحسوا أنّ الأثرياء من المؤمنين قد سبقوهم في الأجر حيث ينفقون من أموالهم في سبيل الله ، والفقراء لا يجدون ما ينفقونه مثلهم... قال هؤلاء الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدّقون بفضول

أموالهم". فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: "أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون به ؟! إنّ بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة".

فدهش الصحابة لقوله صلى الله عليه وسلم: "وفي بضع أحدكم صدقة" فلم يكن يخطر ببالهم أنّ تمتّع الإنسان بمتعة ما يكون له به أجر ، فكيف بالمتعة الجنسية التي يعنيها النبي ρ بقوله في بضع أحدكم ، هنا علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم كيف تقاس الأمور ، ويحكم عليها ، وبيّن لهم أن مجرد اجتناب المؤمن لما حرم الله ، وحرصه على الحلال يجعل استمتاعه عبادة مأجورة.

ولمزيد من توضيح هذه الفكرة أضفت إلى ملاحق هذا الكتاب بحثاً بعنوان "مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر" مأخوذاً من كتابي "سكينة الإيمان" الذي نشرته دار ابن كثير في دمشق وبيروت عام 1996 ،

لقد استفادت الأمة من إحياء فكر ابن تيمية وابن القيم كثيراً ، لكنها حتى الآن لم تنتفع بفكر ابن حزم إلا قليلاً. إن قيام الفقهاء باستنباط أحكام فقهية لكل ما يستجد في حياة الناس شيء لم يأمر به الله في كتابه ، ولم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفه ، إنما كان اجتهاداً منهم ، أدى إلى تقييد المؤمن وجعله جندياً لله ينفذ أوامره الحرفية ولا يبدع في شيء ، لأن ما يصل إليه الفقهاء بالقياس أو غيره من آليات الاجتهاد الفقهي ، يعتبره الفقهاء تشريعاً من الله ، له نفس قدسية الأحكام التي أنزلها الله واضحة بينة في كتابه الكريم ، فيضطر المؤمن إلى تكييف حياته بحسب هذه الاجتهادات. أسلافنا كانوا يرون الملائكة أفضل الخلق عبادة لله ، لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وظنوا أن خالقنا يريد منا أن نعبده كما تعبده الملائكة ، ونسوا أن الله خلقنا لنكون خلفاءه في الأرض ، نعبد الله بطريقة مختلفة عن طريقة الجندي ، لأن الخليفة أعلى قدراً ومكانة من الجندي ، ألم يكرم الله آدم وأمر ملائكته أن يسجدوا له سجود التحية عندما خلقه ؟. الخليفة له صلاحيات يتصرف بموجبها كما كان من استخلفه سيتصرف. الخلافة في الأرض نوع من الرئاسة والقيادة ، لأنها خلافة للعظيم ، القاهر فوق عباده ، القوي العليم.

الإسلام دين مكون من عقيدة تلخصها أركان الإيمان ، ومن منهج للعبادة تلخصه أركان الإسلام ، ومن شريعة اكتملت قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا داعي لإضافة أي شيء عليها ، إنما هي الحكمة نعرف بها ما ينفعنا وما يضرنا ، فنكثر من النافع ونتجنب الضار.

الإسلام دين يحتوي شريعة ، ويحتاج الناس إلى دولة تقوم على شؤونهم وتحكم فيهم بما حكم به الله من أحكام أنزلها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويترك مجالاً واسعاً جداً للبشر ينظمون شؤونهم التي سكت عنها رب العالمين ، وتركها لحكمتهم وفطرتهم ، فهم مفطورون على حب الخير وكراهية الشر ، وقد وهب الله لهم عقولاً يحب أن يراهم يُعملونها ، ويهتدون بها إلى الصواب في كل المستجدات التي لم يأت لها حكم في القرآن أو السنة.

السلفية النّصّيّة

إننا في هذا العصر بحاجة إلى سلفية جديدة أبلغ من السلفية الحالية ، سلفية نَصّيّة (نسبة إلى نَصّ) تأخذ مباشرة من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف الصحيح ، وتستأنس بفهم المسلمين السابقين ، لكنها تمارس حقها في فهم هذه النصوص التي بَلَغَتها ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع ، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه. عن نفيع بن الحارث الثقفي أبو بكرة رضي الله عنه قال: "خطَبَنَا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومَ النحرِ ، قالَ: أتَدْرونَ أيُّ يومٍ هذَا. قلنَا: اللهُ ورسولُهُ أعْلَمُ ، فسَكَتَ حتى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسمِهِ ، قالَ: أَلَيسَ يومَ النَّحرِ. قلنَا: بلَى ، قالَ: أيُّ شهرٍ هذَا. قلنَا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ ، فسَكَتَ حتى ظنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسمِهِ ، فقالَ: أليسَ ذو الحجةِ. قلنَا: بلى ، قالَ: أيُّ بلدٍ هذَا. قلنَا: اللهُ ورسولُهُ أعْلمُ ، فسكتَ حتى ظنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيه بغيرِ اسمِهِ ، قالَ: أليستْ بالبَلْدَةِ الحرامِ . قلنَا: بلَى ، قالَ : فإنَّ دماءَكُمْ وأموالَكُم عليكُمْ حرَامٌ ، كحُرْمَةِ يومِكُمْ هذَا ، في شهرِكُم هذَا ، في بلَدِكُم هذَا ، إلى يومِ تلقَونَ ربَّكُم ، ألا هَلْ بَلَّغتُ. قالوا: نعمْ ، قالَ: اللهمَّ اشهَدْ ، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الغائِبَ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَى من سَامِعٍ ، فلا تَرْجِعوا بعدِي كفارًا ، يضربُ بعضُكُم رقابَ بعضٍ".

نأخذ من ابن حزم امتناعه عن القياس ، وامتناعه عن البحث عن أحكام لِما سكت عنه ربنا ، وما لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم واستجد بعده ، لكن لا نأخذ منه الظاهرية

المفرطة في الحرفية ، بل نتعلم من فقهائنا الآخرين منهجهم في فهم النصوص واستنباط الأحكام منها ، فنعود بديننا إلى بساطته ويسره ، ونستعيد ما تركه الله لنا لنتصرف فيه بحكمتنا ومكتشفات علومنا التي علمناها ربنا.

هذه السلفية النّصّيّة ، هي عودة بالإسلام إلى ما كان عليه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي ما نحن بحاجة إليه لننطلق في عصر العلم والإبداع. على الأقل يمكن أن نؤسس دولتنا الإسلامية المنشودة على أساس هذه السلفية الخالصة ، فنكون كما كان الصحابة ، لا مصدر للتشريع عندهم إلا الكتاب والسنة ، وما تبقى فهو للحكمة البشرية.

أعتقد أن الدولة الإسلامية هي دولة مدنية بكل معنى الكلمة لكن تطبق الأمة فيها وبمحض إرادتها واختيارها ما هو ثابت من شرع الله ، ويقوم حكماء الأمة من جميع التخصصات العلمية بتنظيم حياة الناس فيها بحسب أحدث ما توصلت إليه العلوم.

الفصل الرابع

حرية الاعتقاد في النظام السياسي الإسلامي

الحق واحد لا يتعدد

لا يكون المعتقد ديناً بحق إلا إن اعتبره المؤمن به الحق واعتبر ما بعده هو الضلال. الأديان تهدف إلى خلاص الإنسان وسعادته الأبدية ، لذا لا مجال للخطأ فيها ، فالأمر خطير ، ولابد من التأكد أننا على الحق وعلى الصراط الذي سيبلغنا النجاة. لا يكون المؤمن مؤمناً إن هو اعتبر عقيدته وجهة نظر تحتمل الصواب وتحتمل الخطأ. لا إيمان مع الشك. ولا مناص من احتكار الحقيقة الدينية حتى يكون اعتقادنا إيماناً ويكون معتقدنا ديناً.

وطالما كنت أنا على الحق ، والحق واحد لا يتعدد ، فإن كل ما يخالف عقيدتي مخالفة في ناحية جوهرية هو ضلال ، ومن يؤمن به ولا يؤمن بما أؤمن به أنا هو ضال كافر.

الإسلام دين كامل واثق من نفسه أنه الحق وكل ما خالفه باطل ، ومع ذلك كان أول دين من هذا الوزن يعلنها صريحة لا لبس فيها: "لا إكراه في الدين".

"لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{256}" البقرة.

وقال أيضاً: "وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً{29} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً{30} أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً{31}" الكهف.

وهكذا كان... لا إكراه في الدين.. إنما هي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والترغيب بما عند الله من نعيم ، والترهيب مما عنده من جحيم.

بقي محمد صلى الله عليه وسلم يدعو أهل مكة ثلاث عشر سنة ومع ذلك لم يصل عدد المسلمين الذين هاجروا معه إلى المدينة إلى المئة. لكن الله فتح قلوب اليثربيين للإسلام وكثر بينهم من آمن ، فهاجر الرسول وأصحابه من مكة إلى يثرب وأسسوا أول قاعدة للإسلام ، منها تنطلق الدعوة وفيها يجد المؤمنون ملاذاً من أي اضطهاد.

كان مايزال الكثير من أهل المدينة مشركين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام ، وكان في المدينة أيضاً قبائل يهودية استوطنتها بعد رحلة بحث عن وطن جديد طويلة بعد أن دمر الرومان القدس عام سبعين للميلاد. كان اليهود يعلمون من نبوءات كتابهم المقدس أنه قد آن الأوان لأن يبعث نبي جديد ، وما كانوا يتصورونه إلا من اليهود ، فهم متعودون أن يأتيهم النبي بعد النبي ، لكن أملهم خاب عندما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن منهم. ومما زاد حسرتهم حسرة أنه هاجر إلى مدينتهم وأنشأ فيها دولته وأخذ يبث منها دعوته. كرهوا النبي والدين الجديد ، وامتلأت نفوسهم حسداً لأهل المدينة من العرب الذين سبقوا إلى الإيمان بالنبي الجديد. أسلم سيدهم وابن سيدهم وعالمهم وابن عالمهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، فانقلبوا عليه بحيث ما عاد يجرؤ أحد من يهود المدينة على أن يسلم مثله ، إلا بضع منافقين منهم ادعو الإسلام لغاية في نفوسهم. وقد كان لموقفهم المعادي لكل من تسول له نفسه من اليهود أن يسلم أثراً كبيراً في صرف اليهود عن الإسلام ، حتى أنه صلى الله عليه وسلم قال:

"لو آمَنَ بي عَشرةٌ منَ اليهودِ لآمنَ بيَ اليهودِ" (رواه البخاري).

الحماية من التشكيك

كانت عداوة اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم وللدين الجديد شديدة بحيث وظّفوا مكرهم لمحاربته ، وتفتق ذهنهم الخبيث عن حيلة ماكرة لتشكيك الناس بالدين الجديد ، فاتفقوا على أن يتظاهر بعضهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم ما يلبثوا أن يكفروا به ليوهموا الناس أنهم لو وجدوه نبياً حقاً لما تركوه ، فيتشكك الناس به وبدعوته ، وقد يرتد بعض من قد آمن من غير اليهود. لكن ربنا كشف للمؤمنين مكرهم وأنزل قرآناً يفضحهم ، قال تعالى:

"وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{72}" آل عمران.

فكان لابد من حماية المؤمنين من كيدهم وصدر الأمر النبوي: "من بدَّلَ دينَهُ فاقتُلوهُ" (البخاري) كي لا يدخل في الإسلام إلا الجادين ، فلا يُتّخذ الدخول في الإسلام والخروج منه لعبة ومكيدة ضد الإسلام. ما كان هذا الأمر النبوي إلغاء لما قررته الآية الكريمة من أنه لا إكراه في الدين ، فالمبادىء العظيمة لا تراجع عنها ، لكن لا بأس بأمر سياسي ، لظرف معين ، لحماية الدين وحماية المؤمنين من التشكيك ، وبخاصة أن الدعوة مازالت ناشئة وفي أول انتشارها وكان من الممكن لأي شيء أن يؤثر فيها. لم يصدر الأمر النبوي بإكراه أحد على الإسلام ، واستمر مبدأ لا إكراه في الدين هو الأصل ، وكان الأمر بقتل من يرتد استثناءً موقوتاً ، ريثما تقوى دعوة الإسلام ، ولا يعود لارتداد أحد عنه أي أثر في المؤمنين.

الحماية من التحريف

مرت السنون وفتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً:

"إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}" النصر.

واقتربت مهمة محمد صلى الله عليه وسلم من تمامها ، لكن ما زالت قبائل كثيرة رافضة للدخول في الإسلام ، وقابلة لأن تنقلب على دولة المسلمين ، وتنقض عليها في أي وقت ، فقد أخبر الله نبيه والمؤمنين ، أن أشد الناس عداوة لهم اليهود والمشركون ، قال تعالى:

"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{82}" المائدة.

وكان ربنا قد تعهد بحفظ الذكر من التحريف:

"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{9}" الحجر.

وكان لابد من تهيئة أسباب الحفظ للقرآن الكريم وللدين كله من التشويه والتحريف ، إذ لم يعوِّد ربنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته أن يحلّ مشكلاتهم بالمعجزات ، بل كان عليهم دائماً إعداد الأسباب ما استطاعوا ، ثم يكون عونه لهم ، وكلنا يذكر هجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، ويذكر ما مر به المسلمون في غزوة الأحزاب وكيف حفروا الخندق بسواعدهم ، ويذكر جيش العسرة وغزوة تبوك ، والمشقة التي لقيها المسلمون ، كي يرهبوا الروم ، فلا يجرؤون على غزو المسلمين.... أمثلة كثيرة كان ربنا يعد هذه الأمة لتعتمد على نفسها وجهدها وتتوكل على الله ، لا أن تعتمد على المعجزات كبني إسرائيل ، الذين أنجاهم الله بمعجزة ، فلما أمرهم بالقتال ، قالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. كان لابد من تهيئة الظروف لحفظ الذكر والدين كله من التحريف ، فكان لابد من أن تقوم للإسلام دولة قوية ، تصمد أمام التحديات ، وتذود عن هذا الدين ، ريثما يترسخ في الأرض كما أنزله الله ، دون تحريف أو تبديل. كلنا يعرف كيف حُرّفت دعوة عيسى عليه السلام ، حتى أصبحت تثليثاً وتأليهاً لعيسى وأمه ، لأنها لم تكن لها دولة تحميها.

كان لابد للإسلام من قاعدة قوية آمنة ، ينطلق منها إلى أرجاء الأرض ، لا يقدر أحد أن يعبث به أو يختطفه ليحرفه ، فأمر ربنا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يستثنوا مشركي العرب من "لا إكراه في الدين" ، وأن يعطوهم إنذاراً ومهلة أربعة أشهر ، كي يؤمنوا خلالها ، وإلا فهي الحرب والقتل الذي لا نجاة منه إلا بالإسلام أو الرحيل عن أرض العرب ، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بإخراج المشركين من أرض العرب ، إذ قال قبيل وفاته: "أخرجوا المشركينَ من جزيرةِ العربِ" (البخاري).

كانت آية السيف التي أمرت بقتال من لا يُسلم من المشركين العرب في بداية آخر سورة نزلت من القرآن الكريم ، حيث قال تعالى:

"بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ{1} فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ{2} وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{3} إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ

إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{4} فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5} وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ{6}" التوبة.

أما غير المشركين العرب كاليهود والنصارى فقد نزل الأمر بقتالهم إن أصروا على الكفر ، حتى التغلب عليهم ، بحيث يعطوا الجزية وهم صاغرون. قال تعالى:

"قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{29}" التوبة.

لا إكراه لهم في الدين إنما هي مغالبتهم حتى يتم التغلب عليهم ، فتتوجب عليهم الجزية للمسلمين المنتصرين ، فقد كان العرف في ذلك الزمان ، أن تدفع الأمة المغلوبة الجزية للأمة الغالبة طالما بقيت الغالبة غالبة.

أشركوا بعد توحيد

هنالك إشكالات تحتاج إلى حل قبل أن نقبل هذا الفهم لما جرى ، والذي يعني أن مبدأ لا إكراه في الدين مايزال سارياً ، فلا يُقتل من يبدل دينه بعد أن ترسخ الإسلام في الأرض ، ولم يبق هنالك أي خطر من المشككين أو المرتدين.

حل هذه الإشكالات يكون أولاً في أن نفهم أن اسم المشركين في القرآن الكريم يعني مشركي العرب حصراً ، وأن نقر أن الإسلام انتشر بين المعاندين منهم بحد السيف ، وأن آية السيف نزلت فيهم وحدهم من دون الناس. كان القرآن الكريم ينزل منجماً بضع آيات في كل مناسبة مع أن الله أنزله في ليلة القدر دفعة واحدة إلى اللوح المحفوظ في السماء الدنيا ، لذلك كان جبريل يحدد لمحمد صلى الله عليه وسلم موضع كل آية يتنزل عليه بها ، ولم تنزل الآيات والسور بالترتيب التي هي عليه في المصحف الذي بين أيدينا. ولما كان القرآن الكريم ينزل منجماً بحسب المناسبات والأحداث فإنه كان يتحدث عن المشكلات التي تواجه المؤمنين

وعن الناس الذين يتعامل معهم المؤمنون ويتصارعون أو يتعاونون. كان الناس الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم أغلبهم مشركون وبعضهم يهود او نصارى. ومع أن اليهود الذين قالوا عزير بن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح بن الله ، هم بحسب تعريف المشرك مشركون من نوع آخر ، لكنهم مشركون مثل مشركي العرب الذي كانوا يعبدون مع الله آلهة تقربهم إلى الله زلفاً. ومع ذلك دعي اليهود والنصارى في القرآن الكريم أهل الكتاب ، ولم يُدْعَوا مشركين ولا مرة واحدة مع أن الله قال في القرآن أنهم يشركون به:

"وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{30}" التوبة.

سبحانه عما يشركون أي أهل الكتاب ، ومع ذلك هم غير داخلين على الإطلاق تحت مسمى مشركين في القرآن الكريم. وكذلك الأمر بالنسبة للمجوس الذين ذكروا في القرآن ولم يدخلوا في مسمى المشركين مع أنهم مشركون يعبدون إلهين اثنين.

كان ذلك ضرورياً حتى لا تلتبس الأمور على المسلمين الذين كان الوحي ينزل بتعليماته لهم على شكل آيات كل حين. ولا يستقيم المعنى في جميع السياقات القرآنية التي يذكر فيها المشركون إلا إذا فهمنا أن المشركين الذين يتكلم عنهم القرآن هم المشركون العرب المعاصرون للرسول صلى الله عليه وسلم ، والذين تارة يسمون المشركين وتارة يقول الله عنهم "الذين أشركوا" ، أي أشركوا بعد توحيد ، فقد كان العرب على دين إبراهيم وإسماعيل الحنيف أمة موحِّدة لله ، لكن مع القرون والجهل أشركوا مع الله غيره ، يتوجهون لهم بالعبادة والدعاء ليقربوهم من الله زلفاً كما كانوا يظنون ، مع أنهم بقوا على إيمانهم أن الخالق هو الله:

"وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ{61} اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{62} وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{63}" العنكبوت.

"وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ{87}" الزخرف.

أي لم يكن قوم محمد صلى الله عليه وسلم وثنيين لا يعرفون الله سبحانه وتعالى ، بل هم أمة موحدة أشركت ولم يبق موحداً منها إلا أفراداً قلائل كان يقال لهم الأحناف ، لأنهم ما زالوا موحدين على دين إبراهيم الحنيف. هنالك شعوب وثنية لا تعرف الله ، إنما مبلغ علمها آلهة يعبدونها وينسبون الخلق والرزق لها ، وهم أكثر جهلاً وبعداً عن الحق من مشركي العرب.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المشركين في القرآن هم حصراً مشركو العرب الذين بعث فيهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الصحابة لم يجبروا أحداً من العالمين غيرهم ، مهما كان شركه بيناً ، على الإسلام بحد السيف ، بل طبقوا على جميع الأديان في البلدان التي فتحوها مبدأ لا إكراه في الدين ، فالمجوس حتى الآن هنالك أقلية صغيرة منهم على دينها ، أما الهندوس فما زالوا الأكثرية في بلد حكمها المسلمون مئات السنين. لم يخطىء الصحابة ومن أتى بعدهم الفهم ، ولم يطبقوا آية السيف على أحد خارج جزيرة العرب ، بينما أخطأ الفهم لهذا الحكم كثير من شباب الإسلام في هذا الزمان ، فاستحلوا قتل من يعتبرونه مشركاً ، ولم يروا لدمه عصمة ما لم يسلم.

المشركون العرب في عصر الرسالة أكرهوا على الإسلام إن كانوا راغبين في البقاء في أرض العرب ، وكان ذلك لضرورة خاصة ، وهي حماية الذّكر أي القرآن وحماية الدين عموماً من التبديل والتحريف ، وكان في ذلك خير عظيم لمشركي العرب ، فقد أكرهوا على الإسلام ، وقبل الله إيمانهم مع أنه كان بالإكراه ، فكانوا كالطفل المريض الذي يجبره والداه على تناول الدواء ليتعافى مما أصابه. يبدو لي ذلك نوعاً من المحاباة لهؤلاء القوم ، أنقذتهم من النار وأبعدتهم عن الشرك ، وأسعدتهم بكل ما يأتي به الإيمان الخالص من سعادة وهداية.

النّـــاس

أما الإشكال الثاني فهو قوله صلى الله عليه وسلم: "أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا اللهُ. فإذا قالوا: لا إله إلا اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دماءَهم وأموالَهم إلا بحَقِّها. وحسابُهُم على اللهِ." (متفق عليه)

لذلك قاتل المسلمون القبائل العربية التي بقيت على شركها حتى أسلمت ، وقاتلوا من ارتد منهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من منع الزكاة دون أن يرتد ، وكان قتال

المرتدين ومانعي الزكاة بمثابة استمرار واستكمال للوضع الاستثنائي الذي وضعهم الله فيه ، وبقيت البشرية كلها معصومة الدم بمجرد أن تدفع الجزية إن لم تكن راغبة في دخول الإسلام ، كلهم دون استثناء ، أهل الكتاب والمجوس والهندوس والبوذيون وغيرهم من عباد الأصنام ، فلم يستحل الصحابة والفاتحون المسلمون من بعد مشركي العرب زمن النبوة دم رجل واحد لم يقاتلهم ولم يمتنع عن دفع الجزية وهو قادر عليها.

الصحابة والمسلمون من بعدهم لم يعمموا ، ولم يفهموا من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس" أننا مأمورون أن نقاتل كل مشرك في البشرية ، حتى يؤمن ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، وأن كل مشرك في أي زمان ومكان دمه حلال طالما لم يؤمن بالإسلام. نحن في هذا العصر من أشكلت عليهم الأمور ، وضِعْنا في عموم اللفظ ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يخاطب أصحابه يومها ، بل كان يخاطب البشرية كلها إلا أصحابه ، وظننا بالتالي أنه يجب علينا أن نفهم كلمة الناس في حديثه الشريف على أنها تعني كل البشرية في كل زمان ومكان ، كما نفهم كلمة الناس في قوله تعالى:

"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6}" الناس.

وكما قال الفقهاء "العبرة بعموم اللفظ" فإننا عممنا ، وظننا أننا مأمورون أن نقاتل كل مشرك على سطح الأرض ، الآن ، وفي قادم الزمان ، حتى يسلم ، وإلا قتلناه وتقربنا إلى الله بقتله. نعم كان قتل المشرك العربي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يصر على شركه عبادة وقربة إلى الله وتنفيذا لأمره :

"وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ{6}" التوبة.

ومع عودة الأمة إلى دينها ، ظهر شباب إسلامي متحمس ، أحيا فريضة الجهاد ، لكن على أساس فهم خاطىء لأمر الله لرسوله أن يقاتل الناس ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، وأمره للمؤمنين في هذه الآية الكريمة أن يقتلوا المشركين ، إلا إن هم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة. لا لوم على شباب مخلص يريد أن يجاهد في سبيل الله كما جاهد الصحابة لا تأخذه في الله لومة

لائم، لكن اللوم على الفقهاء الذين لم يبحثوا الأمر بالجدية الكافية ليبينوا لهذا الشباب المجاهد حقيقة الحكم الشرعي، وحدود ما أحل الله وحرم من دماء المشركين والكفار عموماً.

عندما يقول ربنا: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1}" فإنه يعني رب البشرية كلها في كل زمان ومكان، لكن كلمة الناس في القرآن الكريم لا تعني دائماً البشرية كلها. ولنتأمل هذه الآيات:

"الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173}" آل عمران.

"ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{199}" البقرة.

"يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ{46}"يوسف.

"ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ{49}" يوسف.

"قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ{116}" الأعراف.

"وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً{106}" الإسراء.

"قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى{59}" طه.

"قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ{60} قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ{61}" الأنبياء.

"وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ{16}" النمل.

"وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ

مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً{37}" الأحزاب.

"يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً{63}" الأحزاب.

"وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{20}" الفتح.

هذه مواضع في القرآن الكريم وردت فيها كلمة الناس دون أن تعني البشرية كلها ، ولنتأمل أول آية منها :

"الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173}" آل عمران.

هذه الآية الكريمة تحكي ما حدث بعيد غزوة أحد مباشرة. في هذه الغزوة حقق المشركون ما يشبه الانتصار حيث كانت خسائر المسلمين البشرية كبيرة ، وبينما كان المسلمون يلملمون جراحهم أتاهم من يحذرهم ويقول لهم إن المشركين لم يذهبوا ، بل هم يستعدون للانقضاض عليكم لإفنائكم.. فزاد ذلك المؤمنين إيماناً ، وأخذوا يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل ، فهداهم الله إلى التصرف الأمثل وهو عدم انتظار المشركين ، بل ملاحقتهم واستعجال اللقاء بهم ، فأخاف ذلك المشركين الذين فضلوا الرحيل متجنبين اللقاء بالمسلمين وهم سعيدون بما حققوه من إصابات في جيش المسلمين كانت تعويضاً لهم عما أصابهم في غزوة بدر. الشاهد في هذه الآية أن كلمة الناس فيها لا تعني كل البشرية على الإطلاق ، فالذين جاؤوا إلى المسلمين يحذرونهم كانوا بالتأكيد أفراداً قلائل قال عنهم الله "الناس" وكذلك الناس الذين جمعوا للمؤمنين كانوا جيش المشركين ولم يكونوا البشرية كلها.

ولنتأمل هذا الحديث الشريف وكيف وردت فيه كلمة الناس مراراً وهي لا تعني أبداً البشرية كلها ، إنما تستعمل كلمة الناس مثلما نستعملها هذه الأيام في أحاديثنا ونحن نقصد بعض البشر وليس كلهم ، لكنهم البشر الذين هم الناس بالنسبة لنا ، أي ناسنا نحن ، أو قومنا نحن ، كلهم أو بعضهم. تقول عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري في صحيحه عنها:

"أن أبا بكرٍ- رضي الله عنه - أقبلَ على فَرَسٍ مِن مَسْكَنِه بالسُّنْحِ ، حتى نزلَ فدخلَ المسجدَ ، فلم يُكلِّمْ الناسَ حتى دخلَ على عائشةَ ، فتَيَمَّمَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو مَغْشِيٌّ بثوبِ حِبَرَةٍ ، فكشفَ عن وجهِه ، ثم أكبَّ عليه فقبَّلَه وبكى ، ثم قال: بأبي أنت وأمي! والله لا يَجمَعُ اللهُ عليك مَوْتَتَيْنِ ، أما الموتةَ التي كُتِبَتْ عليك فقد مِتَّها. قال الزهريُّ: حدَّثَني أبو سَلَمَةَ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ: أن أبا بكرٍ خرجَ وعمرَ بنَ الخطابِ يُكلِّمُ الناسَ ، فقال: اجلسْ يا عمرُ ، فأبى عمرُ أن يَجلِسَ ، فأقبلَ الناسُ إليه وتركوا عمرَ ، فقال أبو بكرٍ: أما بعدُ ، فمَن كان منكم يَعبُدُ محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن محمدًا قد ماتَ ، ومَن كان منكم يَعبد اللهَ فإن اللهَ حيٌّ لا يموتُ. قال اللهُ: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل - إلى قوله - الشاكرين." وقال: واللهِ لكأنَّ الناسَ لم يَعلَموا أن اللهَ أنزلَ هذه الآيةَ حتى تلاها أبو بكرٍ ، فتلقاها منه الناسُ كلُّهم ، فما أسمعَ بشرًا مِن الناسِ إلا يَتلوها. فأخبرني سعيدُ بنُ المُسَيِّبِ: أن عمرَ قال: واللهِ ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ تلاها فعَقِرْتُ ، حتى ما تُقِلْني رجلايَ ، وحتى أَهْوَيتُ إلى الأرضِ حينَ سمعتُه تلاها ، علمت أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد مات.".. ومن شاء منكم فليفتح الموسوعة الحديثية في موقع dorar.net أو موقع Islamweb.net أو غيرهما من المواقع ، ويكتب كلمة ناس في مستطيل البحث ، ويبحث عن الأحاديث التي وردت فيها كلمة ناس ، ليرى بوضوح كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته يستعملون كلمة ناس ويقصدون بها ناسهم وقومهم كلهم أو بعضهم بحسب السياق. مئات الأحاديث الشريفة إن لم تكن آلاف تبين ما ذهبت إليه.

هذا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: "أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا اللهُ. فإذا قالوا: لا إله إلا اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دماءَهم وأموالَهم إلا بحَقِّها. وحسابُهُم على اللهِ.." (متفق عليه) لم يكن يعني أنه أمر أن يقاتل البشرية ليجبر كل كافر فيها أو مشرك على لا إله إلا الله ، بل كان يعني أن الله أمره أن يقاتل الكفار من قومه الذين كانوا ما يزالون على الشرك ، وأن لا يقبل منهم إلا الإيمان وإلا فليرحلوا عن أرض العرب. وبكل بساطة لم يكن يعني كل الناس ، لأنه أمر أن يقبل من أهل الكتاب الجزية إن هم أصروا على

كفرهم وهم من الناس. بل كانت الجزية تقبل من كل كافر يتغلب عليه المسلمون ويصر على البقاء على دينه مهما كان دينه ، وحتى لو كان مشركاً بيّن الشرك ، طالما أنه ليس من المشركين العرب زمن النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا بالنسبة له ولأصحابه هم الناس.

الأحاديث الشريفة كلها كانت موجهة لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعابير يفهمونها ، ولم تكن نصوصاً دستورية كل كلمة فيها تعني أقصى ما يمكنها أن تحمله من المعنى ، ولو كانت أحاديثه نصوصاً دوّنها مخاطباً بها البشرية لكان احتاط للأمر ، ولمَا قال: "أمرت أن أقاتل الناس" وهو يعني المشركين من قومه ، ولكان وضح كلامه بما يكفي ، كي لا يكون هنالك أي لبس على السامع أو القارئ. إن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله كانت تتم في سياق تاريخي يجب أن تفهم في إطاره دون أن يعني أنها ليست مصدر تشريع لنا ولكل المسلمين إلى يوم القيامة. وحتى القرآن الكريم فيه الكثير من الآيات التي يجب أن تفهم حسب السياق التاريخي لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وقت نزول القرآن ، وبعد فهمها في سياقها نستنبط منها ما نعممه على جميع الأمم والعصور.

حـرية الاعتقـاد

لا إكراه في الدين في الإسلام ، لا عند الدخول فيه ، ولا عند الخروج منه ، ولا عند الانتقال من طائفة إلى أخرى ، ولا حد للردة ولا استباحة لدم أحد من الناس بسبب اختلافنا معه في المعتقد ، ولا تتدخل الدولة المسلمة في عقائد الناس لتحاول بالإكراه دفعهم إلى دين معين أو مذهب محدد. الناس أحرار ولكنهم مسؤولون يوم القيامة ، والاختلافات بين البشر هي الأصل ولا نحلّ المشكلة بأن نقول: "إن أدياننا وجهات نظر وآراء نسبية لا مبرر لأن نتقاتل من أجلها" بل الحل هو أن يؤمن كل منا بدينه ومذهبه ويراه الحق وما بعده باطل ، ولنصنف بعضنا ككفار ومؤمنين ، لأن الحقيقة هي أننا كلنا كفار ومؤمنون في الوقت نفسه.. ولا يمكن اعتبار أتباع الأديان المختلفة كلهم مؤمنين ، وهم متناقضون في معتقداتهم. الدولة لا تصنف أحداً على أنه كافر لأن الدولة لا دين لها ، أما الناس فلابد أن يصنفوا بعضهم كفاراً ومؤمنين ، لكن مع الاعتراف للجميع بحقه في الاختيار والبقاء على دينه الذي هو من منظوري كفر وضلال أو التحول عنه إلى دين آخر ، حقه في حرية الاعتقاد دون أي تمييز ضده من أي شكل من الأشكال ، ودون أن أجامله على حساب ديني الذي أؤمن أنه الحق وإلا ما اتبعته. إن المختلف

عني الذي لم يخرج عن دائرة الإسلام رغم الانحراف الذي يبدو لي في معتقداته أو ممارساته ، فإنه يبقى أخي في الإسلام ، وإن كان اختلافه يخرجه من ملة الإسلام ، أو كان بالأصل لم يدخله ، فإنني أقول له "لكم دينكم ولي دين" ، ولن يفسد ذلك للود قضية. ألست أؤمن أن من يدعي لله ولداً هو كافر بلا شك ومشرك بلا خلاف ؟ ومع ذلك أباح لي ربي أن أتزوج مسيحية تعبد عيسى على أنه ابن الله ، وأن أبتغي منها الولد.. وهل نتصور زواجاً بلا حب ، والله قد جعل بين الأزواج مودة ورحمة ؟ إن اعتباري لك كافراً هو مجرد تحديد لموقعك بالنسبة إلي ، كما لو كنت أقول فلان على يميني وعلان على يساري ، إذ لا يمكن أن يكون الشخص نفسه على يميني وعلى يساري في الوقت نفسه ، لكن تحديد موقعه ككافر بالنسبة لي لا يعني العداء والازدراء ولا استباحة الدماء أو الأموال أو الأعراض. لك كل الحق أن تعتبرني كافراً إن لم تعجبك عقيدتي لكن ذلك لا يعطيك الحق في أن تعاديني أو أن تضطهدني ولا أن تقتلني. قال تعالى:

"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} " الكافرون.

لا مجاملة ولا مداهنة ولا عدوان ولا تمييز

حرية الاعتقاد في الدولة المسلمة مكفولة ومصانة إلى أبعد الحدود ، وكذلك الانتقال من دين إلى دين ، أو من مذهب إلى مذهب. فإن كان ديننا هو الحق ومذهبنا هو الصواب فلن يضرنا من يتركنا وينضم إلى دين أو مذهب آخر ، وثقوا أنه لن يغادركم إلا أراذلكم ، وبالمقابل عندما نحمي حرية الاعتقاد في مجتمعاتنا فإن بعضاً من خيرة أتباع الأديان أو المذاهب الأخرى سينتقلون إلينا ويؤمنون بالحق الذي معنا ، وعندها تكون الصفقة رابحة ، إذ بحرية الاعتقاد نتخلص من حثالتنا ونكسب خيرتهم. لأن حرية الاعتقاد لن تكون ذات اتجاه واحد ، بل هي في الاتجاهين ، وهي حرية للمسلم أن يرتد عن الإسلام إن شاء ، وحرية للمسيحي واليهودي والهندوسي وغيرهم أن يدخل في دين الله دون أن يتعرض لأي أذى من أتباع دينه. إن غياب هذه الحرية الصريحة في المجتمع المصري أعطت الأقباط حقاً ولو أنه غير مكتوب في الدستور أو القانون في أن يمارسوا ما استطاعوا من ضغوط على من يتحول إلى الإسلام منهم ، مما جعلنا نسمع قصص اضطهاد مأساوية وقعت على نساء أسلمن ، وليس الحل أن نستعمل عضلاتنا

ونحرق كنائسهم ، بل أن نعلن حرية الاعتقاد للجميع ونحميها بكل طاقاتنا ، فلا نضطهد من يتنصر ولا يضطهدون من يُسلم ، وسنكون والله نحن الرابحين.

لا تخافوا من أن الإسلام بلا حد ردة ولا استباحة لدم من يشرك سيكون مهدداً في وجوده ، بل سيكون بذلك قادراً على أن ينفي خبثه وشوائبه. روى البخاري في صحيحه أن أعرابيًا بايعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصابَ الأعْرابيَّ وعْكٌ بالمدينَةِ ، فأتى الأعرابيُّ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ اللهِ ، أقِلْني بَيْعَتي ، فأبَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءه فقال: أقِلْني بَيْعَتي ، فأبَى ، ثم جاءه فقال: أقِلْني بَيْعَتي ، فأبَى ، فخرجَ الأعرابيُّ ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إنما المدينة كالكير ، تَنْفي خَبَثَها ويَنْصَعُ طيبُها".

ها هو الأعرابي يرتد عن الإسلام ويكتفي النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يتعاون معه ولا يبارك ردته ، لكنه يصر عليها ويغادر المدينة مرتداً ، فيُعلّم الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يروا الجانب الإيجابي فيما حصل ، وهو أنه خير لهم ، حيث تخلصوا من بعض خبثهم برحيل هذا المرتد ، وبذلك يكون ارتداده كسباً للمسلمين وجماعتهم لا خسارة.

المبادىء لا تُنْسَخ

والإشكال الثالث هو الرأي الفقهي أن آية السيف نسخت آية لا إكراه في الدين ، وبالتالي ألغي حكمها ولم يبق لها فعالية إلا أنها تتلى ويتعبد بتلاوتها ، وأنها للتاريخ تحكي كيف تدرجت أحكام الإسلام أو تغيرت حسب المرحلة وحسب المصلحة.

النسخ في القرآن مختلف عليه عند علماء الأمة ، والآراء حوله تتراوح بين نفي حدوثه وتفسير كلمة آية في آية ما ننسخ بأنها الآية التي يؤيد الله بها رسوله أي المعجزة ، إلى الإفراط في إدعاء حدوث النسخ لعدد كبير من آيات القرآن الكريم. وبالنسبة لحرية الاعتقاد في المجتمع المسلم فإن من يصر على حد الردة وعلى وجوب إكراه الناس على الإيمان والصلاة والزكاة وغيرهما من العبادات يصر على أن آية السيف نسخت آية لا إكراه في الدين. وبالمقابل من يريد أن يثبت أن في الإسلام حرية اعتقاد ينفي النسخ من أساسه.

قال تعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{106}" البقرة.

هذه الآية الكريمة إن أخذت على ظاهرها وهذا هو الأصل في فهم النصوص ما لم يقم دليل قوي على تأويلها، فإنها تثبت إمكانية نسخ بعض آيات القرآن الكريم، لكنها تعلمنا القاعدة المتبعة في نسخ آية قرآنية، وهي أنه لا تنسخ آية قرآنية إلا بآية قرآنية خير منها أو مثلها، أي لا يمكن أن تنسخ آية قرآنية بحديث شريف حتى ولو كان متواتراً، ولا يمكن أن ينسخ إجماع أو غيره من مصادر التشريع آية قرآنية. ولا يصح إدعاء النسخ لآية قرآنية إلا بوجود الآية التي نسختها. وليس كل تناقض بين آيتين نسخ من اللاحقة للتي سبقتها ونزلت قبلها، بل قد يكون تخصيصاً، أو كما قلنا عن المشركين العرب استثناء، لا يبطل القاعدة أبداً. لذلك يجب عدم ادعاء النسخ إلا إن كنا متأكدين منه، لأنه سيعطل آية كريمة والحكم الذي جاءت به. وهنا يجدر التنبيه إلى أن النسخ إن حدث فإنه لا يكون إلا في الأحكام، فالعقائد أو الأخبار مثلاً لا تقبل النسخ، لأنها حق لا يتغير، وهذا يقوي موقف من يقول إن آية السيف لم تنسخ آية لا إكراه في الدين، لأنها أتت بصيغة الخبر الذي يمكن استنتاج حكم منه، ولا شيء يمنع أن يكون الخبر والحكم كلاهما مقصودين من الآية الكريمة في الوقت نفسه.

ولنأخذ مثالاً واضحاً على نسخ آية كريمة بآية كريمة. كتب الله صيام رمضان على المؤمنين، أما من كان منهم مريضاً أو على سفر فيفطر ويصوم بدلاً عما أفطر في قادم الأيام، لكن مراعاة لأن من المؤمنين من لم يكن متعوداً على الصيام جعل الله لهم الخيار، فالذي يطيق الصيام، أي يقدر عليه، يصوم أو يتصدق بفدية طعام مسكين عن كل يوم من رمضان لا يصومه، ورغبهم بالصوم بأنه خير لهم. لنتأمل الآيتين التين نزلتا تأمران بما ذكرت، قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{183} أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{184}" البقرة.

وفي عام قادم فرض الله الصيام على المؤمنين دون رخصة الفطر للقادرين عليه ، فلم يعد يقبل منهم الفدية ، بل كان عليهم أن يصوموا ما لم يكونوا مرضى أو على سفر ، قال تعالى في الآية التي تتلو الآيتين السابقتين مباشرة:

"شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{185}" البقرة.

هذا نسخ واضح لرخصة منحها الله للمؤمنين ريثما يتعودون على الصيام ، فلما تعودوا نُسخت الرخصة وفُرضت العزيمة. هكذا يكون النسخ واضحاً لا لبس فيه ، نسخ الله آية فأتى بآية مثلها. وأمثال هذا النسخ النموذجي قليلة ، أما الأمثلة الكثيرة التي يعتقد بعض فقهائنا أنه تم فيها نسخ آيات من القرآن الكريم فهي ليست نسخاً حقيقياً بل متوهماً ، حيث يجد الفقيه أهون الطرق للخروج من التعارض ، أن يفترض وجود نسخ دون أن يكون عنده دليل قوي ، إلا قدرة فرضية النسخ على حل الإشكال وإزالة التعارض.

الشبهات تدرأ الحدود

أنا أعلم أن وجهة النظر التي أقدمها اليوم لن يتقبلها الكثير من المسلمين ، لحرصهم على دينهم من أن يحرف أو ينتقص ، وليس لحرصهم على إراقة الدماء ، لكن الذي أنبه إليه أن وجهة النظر هذه إن لم تكن صواباً فإنها على الأقل محتملة وقد تكون صواباً ، إذ لا يمكن البرهنة على أنها خاطئة بالتأكيد ، وهي بهذا شبهة لا يمكن قبل دحضها بشكل قطعي تطبيق حد القتل على مرتد أو مشرك ، لأنه لئن كان الأصل في ديننا في كل شيء الإباحة فإن الأصل في الدماء والفروج الحرمة ، فلا تستحل إلا بثبوت حكم استحلالها ثبوتاً قطعياً. لأن من يتم إعدامه لا يمكننا أن نعيده للحياة إن تبين لنا أننا كنا مخطئين في إعدامه.

وقد روى السيوطي وصحح ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:

ادرؤوا الحدودَ عنِ المسلمينَ ما استطعتمْ ، فإنْ وجدتُّم للمسلمِ مخرجًا فخلُّوا سبيلَه ، فإنَّ الإمامَ لأنْ يخطئَ في العفوِ خيرٌ منْ أنْ يخطئَ في العقوبةِ".

كما روى الألباني في إرواء الغليل وصحح ، عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "ادرؤوا الجَلْدَ والقتلَ على المسلمينَ ما استطعتُمْ".

وروى الزرقاني عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: "ادرؤوا الحدودَ بالشُّبهاتِ" (قال عنه: صحيح موقوفاً وحسن لغيره مرفوعاً).

إن العقوبات تُدرأ بالشبهات حتى لو لم يكن هنالك نص يأمر بذلك ، لأن هذا ما تعمله محاكم الدنيا كلها ، التي تحرص على العدل ، من كل الأديان وفي كل البلدان.

وعلينا أن لا نتحرج ، إذ لو كان ربنا يريد منا قتل كل مشركي الأرض ما لم يؤمنوا ، ويريد منا إعدام المرتد في جميع الأحوال ، لكان بين ذلك بياناً لا شك فيه ، أليس الحلال بيّناً والحرام بيّناً كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ؟.

يشكل تمسكنا بحد الردة الذي في حقيقته ليس بحد عقبة كبيرة في طريق تحكيم الشريعة في هذا العصر ، ولو كان حداً ثابتاً بشكل قطعي لقلنا لا حول ولا قوة إلا بالله كما قال تعالى:

"قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ{81} سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ{82}" الزخرف.

إننا نطيع الله ولا تأخذنا في طاعته لومة لائم ، لكن الأمر ليس قطعياً ، وهو في هذا الزمان ضار لنا ولقضيتنا ، ونستطيع فقهياً التخلص منه بلا حرج ، فلم نتمسك به ؟ وهل نحن أحرص على دين الله من الله نفسه ؟

إن حداً للردة يأمر بقتل المرتد لجدير أن يأتي في آية كريمة كما جاء أمر الله بإكراه المشركين العرب على الإيمان في آيات بينات محكمات ، أما ما يسمى حد الردة فإنه لا ذكر له في القرآن الكريم لا من قريب ولا من بعيد.

الفصل الخامس

المواطنة والعلاقة بغير المسلمين

طور العزة والغلبة

من الإشكاليات الكبرى التي تواجه الإسلاميين مفهومهم للمواطنة، وطبيعة علاقتهم بغير المسلمين أو العلمانيين أو المخالفين في المذهب، فيما لو قامت لهم دولة إسلامية كما يتمنون. أكثرنا لا يعرف من التاريخ الإسلامي إلا مظاهر العزة والغلبة والذمي الذي يدفع الجزية والخراج ولا يُقبل جندياً في الجيش الإسلامي ولا يعهد إليه بأي منصب مهم في الدولة. لقد مات النبي صلى الله عليه وسلم وترك دولة إسلامية قوية إلى حد أن أمرهم الله أن ينذروا مشركي العرب أربعة أشهر بعدها يُقاتَلون أو يخرجون من أرض العرب ما لم يؤمنوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. ومع ذلك واجهت هذه الدولة مخاطر هائلة عندما استغل كثير من قبائل العرب التي لم يستقر الإسلام في قلوب أبنائها بعد، استغلوا غياب الرسول صلى الله عليه وسلم عن المشهد بوفاته، فارتدوا عن الإسلام إلى شركهم القديم أو امتنعوا عن دفع الزكاة ومنهم من ادعى النبوة. جاهدهم المسلمون باستماتة وأخضعوهم من جديد للإسلام، وخلال سنوات قليلة ترسخ وجود الإسلام في أرض العرب واشتد عود دولته وأخذت تتوسع كي تنشر الإسلام في الشعوب المجاورة.

لقد أمر ربنا الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يكملوا مدة عهودهم مع أي قبيلة مشركة إلى مدتها إن كانت ملتزمة به، لكن لا يُجدد ولا يُمدد. أما الذين لم يكن بينهم وبين المسلمين عهد، فقد أمهلهم الله أربعة أشهر كي يدخلوا في الإسلام أو يرحلوا من أرض العرب وإلا يُقتلون. أما الكفار من أهل الكتاب فيُقاتَلون إن لم يدخلوا في الإسلام حتى يهزمهم المسلمون ويفرضوا عليهم الجزية. قال تعالى في سورة التوبة:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{28}

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{29}" التوبة.

أي لو كان هنالك من أهل الكتاب مؤمنون بالله واليوم الآخر بلا شرك بالله ، أي كانوا على الكلمة السواء التي أمرنا ربنا أن ندعوهم إليها فإن هؤلاء لا يقاتَلون ولا تُفرض عليهم جزية.

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{64}" آل عمران.

لم يكن القتال متوجباً إن قبل أهل الكتاب الإسلام أو قبلوا أن يعطوا الجزية دون حرب ، بل بموجب صلح يكتب بينهم وبين المسلمين ، ويكون من شروط هذا الصلح أن يكونوا صاغرين ، أي خاضعين للمسلمين ، ومن لوازم خضوعهم وصَغارهم هذا أنه يحق للمسلمين أن يبعثوا الدعاة إليهم وأن تكون الحرية كاملة لمن أراد أن يدخل في الإسلام منهم ، فلا يؤذونه ولا حتى بكلمة. قال ابن منظور في لسان العرب عن جذر (ص غ ر): (الليث: يقال صَغُر فلان يصغر صغرا وصغارا ، فهو صاغر إذا رضي بالضيم وأقر به. قال الله تعالى: حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ؛ أي أذلاء. والمصغوراء: الصغار. وقوله عز وجل : سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله ؛ أي هم وإن كانوا أكابر في الدنيا فسيصيبهم صغار عند الله أي مذلة. وقال الشافعي رحمه الله في قوله عز وجل: عن يد وهم صاغرون ؛ أي يجري عليهم حكم المسلمين. والصغار: مصدر الصغير في القدر. والصاغر: الراضي بالذل والضيم ، والجمع صغرة. وقد صغر صغرا وصغرا وصغارا وصغارة ، وأصغره: جعله صاغرا. وتصاغرت إليه نفسه: صغرت وتحاقرت ذلا ومهانة). وكانت الجزية تسقط على الفور إن دخل من يدفعها في الإسلام. وقد استفاد أهل نجران الذين كانوا نصارى من التصالح مع المسلمين قبل أن تتوجه جيوشهم لغزوهم في بلادهم ، إنما أرسل النجرانيون وفداً منهم تحاور مع النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعاهم للإسلام فلم يقبلوه وقبلوا الجزية والتبعية لدولة المسلمين ، فأرسل النبي أحد صحابته عاملاً على نجران ، ولم يفرض عليهم غير الجزية ، أي بقيت ملكيتهم لأرضهم لهم ، ولم تعتبر غنيمة للمسلمين يدفعون الخراج كراءً لها. قال ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح لمن

بدل دين المسيح: "وأما النصارى فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصارى ، فقدم عليه وفدهم ستون راكبا وناظرهم في مسجده ، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران ، ولما ظهرت حجته عليهم ، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم ، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة ، فقال تعالى:

"فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ{61}" آل عمران.

فلما دعاهم إلى المباهلة طالبوا أن يمهلهم حتى يَشْتَوِروا ، فاشتوروا ، فقال بعضهم لبعض: تعلمون أنه نبي ، وأنه ما باهل قوم نبياً إلا نزل بهم العذاب. فاستعفوا من المباهلة ، فصالحوه ، وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون ، لما خافوا من دعائه عليهم ، لعلمهم أنه نبي ، فدخلوا تحت حكمه ، كما يدخل أهل الذمة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله ، وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهم أول من أدى الجزية من النصارى .

واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصاري ، وكتب له كتابا مشهورا ، يذكر فيه شرائع الدين ، فكانوا في ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو ابن حزم الأنصاري رضي الله عنه ، وقصتهم مشهورة متواترة ، نقلها أهل السير ، وأهل الحديث ، وأهل الفقه ، وأصل حديثهم معروف في الصحاح ، والسنن ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى".

أما كفار أهل الكتاب الذين يرفضون الإسلام ، ويرفضون الخضوع للمسلمين وأن يعطوا الجزية وهم صاغرون ، فيقاتلهم المسلمون.. فإن نصرهم الله عليهم طُبقت عليهم الأعراف التي كانت متبعة في ذلك العصر على من يُهزم في حرب ويدخل أعداؤه دياره. كانت الجزية أول ما يفرض وكانت كل أموالهم وعقاراتهم غنيمة وملكاً للجيش الذي قاتلهم وانتصر عليهم ، ويمكن أن تسبى ذراريهم ونساؤهم ويتحولون إلى عبيد يتم توزيعهم على المحاربين كجزء من الغنائم.

لم تكن الأعراف الدولية في القديم تبقي أية حقوق للشعوب المغلوبة بالحرب ، إلا ما يجود به عدوهم الذي تغلب عليهم. وهذا يعني أن من يقبل بدفع الجزية وبفتح دياره للإسلام صلحاً دون حرب يكون موفقاً حتى لو كان صاغراً ، لأنهم عندها لا يغرمون إلا الجزية والخضوع والتبعية لدولة الإسلام ، وشتان بين حالهم وحال الذين يستكبرون ويغترون بقوتهم فيختارون

القتال على أمل الانتصار على الفاتحين المسلمين ، لأنهم كانوا قلما ينتصرون ، فقد فتح المسلمون كل البقاع التي تسمى الوطن العربي والأندلس وبلاد الفرس والترك والهنود خلال عقود قليلة.

الجزية من قبل الإسلام

قوانين الحروب التي كانت متبعة في ذلك الزمان كانت قاسية جداً على الأمة المهزومة ، ومن شاء فليقرأ ما جاء في العهد القديم عما كان يفعله بنو إسرائيل بالأمم التي ينتصرون عليها ، وبالمقارنة بها يمكننا أن ندرك مدى رحمة المسلمين كفاتحين منتصرين بالأمم التي غلبوها وفتحوا بلادها.

لقد أذن ربنا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في عهده ومن بعده أن يتمتعوا بما يغنمونه بالقتال أو الفيء الذي يغنمونه دون قتال ، لكنه فرض خمس الفيء لله والرسول ، أما غنائم القتال فقد كانت كلها للمقاتلين كما هو العرف عند شعوب ذلك العصر ، وبخاصة أنه كان المقاتلون ينفقون على أنفسهم ويشترون السلاح والدابة التي يركبونها من مالهم الخاص ، ولم تكن لهم مرتبات منتظمة. كان لهذا الإذن دور كبير في تقوية المسلمين ، مما مكنهم من فتح المزيد من البلدان ونشر الإسلام في أصقاع واسعة.

فرض الجزية والخراج واسترقاق النساء والأطفال والأسرى من الأمة المهزومة أمور كانت البشرية تمارسها قبل الإسلام بأحقاب طويلة ولم تكن مما أضافه الإسلام ، تماماً مثل الرق الذي كان منتشراً على نطاق واسع جداً في جميع بلدان العالم القديم ، ومع أن الإسلام يسعى إلى تحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، فإنه لم يبطل الرق بل نظم العلاقة بين العبد وسيده ، وحض على حسن معاملة العبيد وعلى إعتاقهم. لا أحد يلوم الإسلام على الرق الذي استمر قروناً بعد مجيئه ، لكن لأن الناس يجهلون أن الجزية وباقي ما يقع على الأمم المغلوبة عسكرياً كانت موجودة من قبل الإسلام ، فإنهم بالنسبة للجزية فريقان ، الأول المسيحيون الذين كان أجدادهم ذميين يدفعون الجزية ، والثاني هم الإسلاميون الذين يريدون تطبيق الإسلام بكل تفصيلاته. كلا الفريقين يظن أن الجزية على أهل الكتاب كانت مما جاء به الإسلام من تشريعات ، فيكره المسيحيون الإسلام لأنهم يظنون أنه تعمد التمييز ضدهم ، أما الإسلاميون فيظنون أن عليهم إن أقاموا الدولة الإسلامية أن يفرضوا الجزية على كل مسيحي

يعيش بينهم إن أصر على البقاء على دينه. هم لا يريدون ذلك من أجل المال وبخاصة أن الجزية التي كانت الدولة الإسلامية تستوفيها من الذميين لم تكن مبلغاً كبيراً على الشخص، ولم تكن تفرض إلا على الرجل القادر على القتال والمقتدر مالياً؛ إنما هم أي الإسلاميون يريدون أن يطبقوا دينهم كاملاً غير منقوص ولا يبالون إن أعجب ذلك الآخرين أو أزعجهم.

لم تكن الجزية على المسيحيين واليهود وغيرهم إضافة إسلامية مع أنها مذكورة في القرآن الكريم. لنتأمل الآية الكريمة مرة أخرى:

"قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{29}" التوبة.

لاحظوا كيف أن الجزية أتت في الآية معرفة بأل التعريف، وهذا يوحي أنها كانت معروفة للمخاطبين بالآية. كما إننا نجد ذكرها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة قبل نزول أية تشريعات وذلك في حديث حسنه الترمذي ورواه ابن حبان في صحيحه وقال عنه ابن كثير وأحمد شاكر: إسناده صحيح، وهو التالي:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "مَرِضَ أبو طالبٍ فجاءته قريشٌ، وجاءه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وعند أبي طالبٍ مَجْلِسُ رجلٍ، فقام أبو جهلٍ كي يَمْنَعَه، قال: وشَكَوْهُ إلى أبي طالبٍ فقال: يا ابنَ أَخِي ما تريدُ من قومِكَ؟ قال: أُريدُ منهم كلمةً تَدِينُ لهم بها العربُ، وتُؤَدِّي إليهم العَجَمُ الجِزْيَةَ، قال: كلمةً واحدةً؟ قال: كلمةً واحدةً، فقال: يا عَمِّ قولوا: لا إله إلا اللهُ. فقالوا: إلهًا واحدًا؟ "مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ{7}"ص.

قال: فنزل فيهم القرآنُ: "ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ{1} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ{2} كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ{3} وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ{4} أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ{5} وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ{6} مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ{7}" ص.

لم تكن الجزية اختراعاً محمدياً. فالجزية مذكورة في الكتاب المقدس وكان بنو إسرائيل يستوفونها من الشعوب التي غلبوها بالقتال.

جاء في سفر صموئيل الثاني الإصحاح الثامن عن نبي الله داود عليه السلام: "(1) وَبَعْدَ ذلِكَ ضَرَبَ دَاوُدُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَذَلَّلَهُمْ، وَأَخَذَ دَاوُدُ «زِمَامَ الْقَصَبَةِ» مِنْ يَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. (2) وَضَرَبَ الْمُوآبِيِّينَ وَقَاسَهُمْ بِالْحَبْلِ. أَضْجَعَهُمْ عَلَى الأَرْضِ، فَقَاسَ بِحَبْلَيْنِ لِلْقَتْلِ وَبِحَبْل لِلاسْتِحْيَاءِ. وَصَارَ الْمُوآبِيُّونَ عَبِيدًا لِدَاوُدَ يُقَدِّمُونَ هَدَايَا".

وبحسب شرح الكتاب المقدس - العهد القديم - للقس أنطونيوس فكري، فإن المقصود بالهدايا في هذا النص هي الجزية، وإليكم ما قاله في تفسير هاتين الآيتين: "داود النبي ضد الأمم الوثنية التي انجرفت تمامًا في الرجاسات مع عنف وقسوة ووحشية تشير لجهاد المؤمن ضد الخطية بكل رجاساتها وعنفها. ونجد داود هنا منتصرًا دائمًا فإذا كان هناك سلام بين الإنسان والله، ينجح الإنسان في كل طرقه. أخذ داود زمام القصبة= بالمقارنة مع المكان الموازي في (ايه 1: 18) نجد أن داود "أخذ جَت وكل قراها" وذلك لأن جت هي قصبة الفلسطينيين وزمام دولتهم وكانت جت لها قلعة محصنة عالية على تل تشرف منه على دان وعلى يهوذا ومن هنا تضرب إسرائيل وتذلهم. لذلك كانت جت هي أهم مدنهم. وكلمة زمام القصبة جاءت في الترجمة العبرية "لجام الأمة" فكأن من يسكن جت يمسك بلجام إسرائيل ويحرك إسرائيل كيفما شاء، فأمسك داود بهذا اللجام ليتحكم في الفلسطينيين فقد صارت هذه القلعة في يده (لو 11 : 22) وفي أية (2) نجد داود يضرب موآب ولقد سبق أن استودع داود والديه لدى ملك موآب راجع (1صم 3: 4، 22) فلماذا حدثت هذه الحرب؟ هناك احتمالان: 1- أن موآب كان يساند داود لمّا كان داود ضد شاول أمّا وقد وصار داود ملكًا فقد حاربه موآب. 2- ويقول اليهود أن داود كان عنيفًا مع موآب لأنهم قتلوا أباه وأمه اللذين تركهما عندهم في سلام. وداود ضرب موآب **وصار موآب يدفع الجزية لإسرائيل** حتى زمن موت أخاب حيث ثار موآب ضد إسرائيل وعصاه (2مل 3: 3،

4). وكانت ضربة داود ضدهم شديدة قاس حبلين للقتل أي أجلسهم على الأرض وقاس الثلثين منهم بحبل فكانوا للموت وبحبل للإستحياء = أي الثلث أبقى عليهم. وهؤلاء الذين قاسهم داود كانوا هم الأسرى فهو قتل الثلثين من الأسرى وأبقى الثلث".

تصحيح التصورات

يمكنكم أن تكتبوا في غوغل كلمة tribute التي تعني الجزية بالإنكليزية لتروا كيف أنها كانت معروفة وشائعة عند الأمم القديمة. أنا لا أحاول أن أبرىء الإسلام من الجزية فقد ذكرت صريحة في القرآن الكريم ، لكنني أريد أن أبين للمسلمين قبل غيرهم أمرين بخصوص الجزية:

الأول: أنها ليست فريضة إسلامية لا نستطيع إلا أن نطلبها من أهل الكتاب لمجرد أنهم أهل الكتاب ، ومخطىء من يعتقد أنها فريضة عليهم تقابل فريضة الزكاة على المسلمين. القرآن فرضها على كفار أهل الكتاب الذين يرفضون الإسلام ويختارون الحرب إذا ما تغلب عليهم المسلمون ، ذكرها ليبين لنا أن لأهل الكتاب أن يختاروا بين الإسلام أو الجزية إذ لا يجوز إكراههم على الإسلام كما أكره مشركو العرب زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. وبالتالي ليس عدم أخذنا لها من المسيحيين الذين يشاركوننا أوطاننا تنازلاً عن شيء أصيل في ديننا لأننا ضعفاء في هذا العصر. ومع أن الجزية ذكرت في القرآن الكريم متعلقة بأهل الكتاب فإنه صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن المجوس فيما رواه الشوكاني في السيل الجرار وصححه الألباني: "أنه قال في المجوسِ سُنّوا بهم سنةَ أهلِ الكتابِ". لذا قبلها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل الشعوب التي فتحوا بلادها على اختلاف أديانها ، وكلهم بمنظور الإسلام مشركون ، لكن الصحابة لم يطبقوا عليهم حكم المشركين العرب الذين لم يُقبل منهم إلا الإسلام أو القتال والقتل للمقاتلين فيهم إن أظهر الله المسلمين عليهم. كان المشركون العرب استثناء من مبدأ "لا إكراه في الدين"، وكان أهل الكتاب مثالاً لهذا المبدأ الذي يسري على البشرية كلها ما عدا المشركين العرب في أرض العرب في عصر الرسالة.

والأمر الثاني الذي أريد أن أبينه أن الجزية كانت استحقاقاً للمسلمين نتيجة تغلبهم على الأمم الأخرى ، وبقيت مضروبة عليها إلى أن جاء الاستعمار الأوربي ، فجرد المسلمين من حقوق

الغالب التي كانوا يتمتعون بها ، حيث كان أهل البلاد الأصليين الذين لم يدخلوا في الإسلام ذميين عليهم بعض القيود وعليهم الجزية وعلى أراضيهم الصالحة للزراعة الخراج ، وهو أجرة هذه الأرض التي انتقلت ملكيتها إلى المسلمين بمجرد دخولهم تلك البلاد بالقتال والغلبة ، وكل أملاك الدولة المغلوبة تؤول للمسلمين. نعم بمجرد أن فتح المسلمون قطراً من الأقطار عَنْوَةً أي: بقوة السلاح ، فإن كل أرض ذلك القطر أصبحت ملكاً للفاتحين ودولتهم. وبحسب الأعراف التي ورثها الإسلام كانت هذه الأراضي الزراعية توزع على المقاتلين الذين خاضوا معارك فتح هذا القطر على اعتبار أنها من الغنائم ، لكن عمر بن الخطاب غيّر هذا العرف ولم يوزع أرض السواد في العراق ، ومن بعدها أراضي كل البلاد التي فتحها المسلمون على المقاتلين ، بل اعتبرها فيئاً ملكيته للأمة الإسلامية كلها بكافة أجيالها ، وأذن لأصحابها السابقين أن يزرعوها على أن يدفعوا نسبة مما تنتجه من خيرات كأجرة مستحقة عليهم لبيت مال المسلمين كانت تسمى الخَراج. تأملوا ما قاله ابن القيم في كتابه الرائع "أحكام أهل الذمة": "وَلِلْإِمَامِ تَرْكُ الْخَرَاجِ وَإِسْقَاطُهُ عَنْ بَعْضِ مَنْ هُوَ عَلَيْهِ ، وَتَخْفِيفُهُ عَنْهُ بِحَسَبِ النَّظَرِ وَالْمَصْلَحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ فِي الْجِزْيَةِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْجِزْيَةَ الْمَقْصُودُ بِهَا إِذْلَالُ الْكَافِرِ وَصَغَارُهُ ، وَهِيَ عِوَضٌ عَنْ حَقْنِ دَمِهِ وَلَمْ يُمَكِّنْهُ اللَّهُ مِنَ الْإِقَامَةِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِالْجِزْيَةِ إِعْزَازًا لِلْإِسْلَامِ وَإِذْلَالًا لِلْكُفْرِ. وَأَمَّا الْخَرَاجُ فَهُوَ أُجْرَةُ الْأَرْضِ وَحَقٌّ مِنْ حُقُوقِهَا ، وَإِنَّمَا وُضِعَ بِالِاجْتِهَادِ فَإِسْقَاطُهُ كُلُّهُ بِمَنْزِلَةِ إِسْقَاطِ الْإِمَامِ أُجْرَةَ الدَّارِ وَالْحَانُوتِ عَنِ الْمُكْتَرِي".

وقد جاء في موطأ مالك ما يلي: "سُئِلَ مَالِكٌ عَنْ إِمَامٍ قَبِلَ الْجِزْيَةَ مِنْ قَوْمٍ ، فَكَانُوا يُعْطُونَهَا: أَرَأَيْتَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ أَتَكُونُ لَهُ أَرْضُهُ ، أَوْ تَكُونُ لِلْمُسْلِمِينَ وَيَكُونُ لَهُمْ مَالُهُ؟ فَقَالَ مَالِكٌ: ذلِكَ يَخْتَلِفُ ، أَمَّا أَهْلُ الصُّلْحِ ، فَإِنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ فَهُوَ أَحَقُّ بِأَرْضِهِ وَمَالِهِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْعَنْوَةِ الَّذِينَ أُخِذُوا عَنْوَةً فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ أَرْضَهُ وَمَالَهُ لِلْمُسْلِمِينَ. لأَنَّ أَهْلَ الْعَنْوَةِ قَدْ غُلِبُوا عَلَى بِلاَدِهِمْ وَصَارَتْ فَيْئاً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا أَهْلُ الصُّلْحِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ مَنَعُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ حَتَّى صَالَحُوا عَلَيْهَا ، فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلاَّ مَا صَالَحُوا عَلَيْهِ".

وهم صاغرون

ويبدو لي أن الحكمة من قوله تعالى:

"... حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{29}" التوبة.

هي شيئان: الأول هو في أمره المسلمين أن يأخذوا الجزية ممن يرفض الدخول في الإسلام من غير مشركي العرب وقتها ، وبذلك ما عاد للمسلمين أن يتنازلوا عن الجزية وقد أمرهم الله بأخذها ، وهذا يضمن أن الجزية ستفرض على غير المسلمين من الأمم المغلوبة ، مع اشتراط أنها لا تؤخذ إلا من الرجال الأصحاء القادرين مالياً ، وتستثنى بعض الفئات منهم كالرهبان ، أي كان مقصوداً أن يدفعها كل من يبقى خارج الإسلام من هذه الشعوب ، في إطار من عدل الإسلام ورحمة المسلمين بغيرهم ، وقد كانت الجزية مبلغاً صغيراً بمقاييس ذلك الزمان ، والحكمة كامنة في فرضها وفي قلة مقدارها ، لأنها بهذا الشكل تدفع من فُرضت عليه إلى الدخول في الإسلام ، الذي كان يلغيها عنه ويضمه إلى أمة المسلمين الغالبة ، مع أنه أحد المغلوبين ، وقد بينت دراسات علم النفس أن الحافز الضئيل يجعل من يستجيبون له يغيرون قناعاتهم ، لا أن يغيروا سلوكهم للحصول عليه مع بقاء قناعاتهم على حالها ، بينما لو كان الحافز كبيراً ومغرياً فإنه يدفع الناس إلى النفاق والتظاهر بالتغيير كي يحصلوا على هذا الحافز وهم لا يجدون أي خجل أن يعترفوا لأنفسهم أنهم منافقون من أجل شيء ثمين ، أما أن يعترفوا لأنفسهم أنهم نافقوا من أجل مبلغ ضئيل فيتعارض مع احترامهم لأنفسهم لذلك تقوم أنفسهم بتغيير منظورها للأمر ، وتنظر لما يطلب منها من جوانبه الإيجابية ، وتؤمن به إيماناً ، كي تحصل على الحافز الضئيل دون خسارة احترام الذات. لذا أعتقد أن الجزية التي كانت مبلغاً صغيراً سنوياً دفعت أعداداً كبيرة جداً ممن فرضت عليهم إلى الدخول في الإسلام إيماناً به ، فكان فيها خير عظيم لهم ، مع أن دخولهم في الإسلام كان يحرم المسلمين من الجزية التي كانوا يستوفونها منهم. وبرأيي أن من يقول إن الجزية فرضت على أهل الذمة لأنهم لم يكونوا يقاتلون مع المسلمين ولأن المسلمين كانوا مسؤولين عن حمايتهم مخطىء في هذا الفهم للجزية ، مع أن المسلمين الذين فتحوا حمص وعاهدوا أهلها أن يحموهم وكان على أهلها أن يدفعوا الجزية ، عندما شعر المسلمون أنهم لن يكونوا قادرين على حماية المدينة أمام جيش الروم العظيم الذي بلغهم أنه كان متجهاً إليهم أعادوا ما أخذوه من جزية من أهل حمص. كانت

حماية الذميين مسؤولية المسلمين لا لأن الذميين كانوا غير راغبين في المشاركة في الجيش وفي حماية البلاد ، بل لأن المسلمين ما كانوا يثقون بغير المسلمين ، وما كانوا يقبلون كافراً في جيشهم الذي يقوم بالجهاد في سبيل الله وهو عبادة ، ومن جهة أخرى كان الذميون أبناء أمم قهرها المسلمون وغنموا كل أرضها وحولوا أهلها الذين لم يدخلوا في الإسلام إلى نوع من المواطنين درجة ثانية ، وأناس كهؤلاء لا يؤمن شرهم وعداؤهم ولا يصح إدخالهم في جيوش المسلمين. أي كان الذميون أبناء مستعمرات متمسكين بهويتهم وهوية أجدادهم المتجلية في دين آبائهم وأجدادهم ويغلب أنهم لن يكونوا سعداء بوضعهم كذميين في بلادهم ، ولا شيء يضمن ولاءهم وإخلاصهم لو شاركوا في الجيش والقتال ، لأنهم بشر ولا يتوقع منهم غير هذا.

والحكمة الثانية في قوله تعالى: "حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" هي في قوله: "صَاغِرُونَ"... وهي كلمة تصدم من يعرف القرآن جيداً ، حيث تسوده مشاعر الرحمة وتكريم الإنسان بغض النظر عن دينه ، ويحارب أي استكبار لدى المؤمنين على غيرهم ، والله يقول عندما يدعوا الناس للإيمان:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً{1}" النساء.

أي يلفت أنظار المؤمنين وغير المؤمنين أنهم إخوة انحدروا من نفس واحدة هي آدم التي خلقها الله وخلق منها زوجها حواء وبث منهما البشرية برجالها ونسائها ، وعندما غضب موسى عليه السلام من الإسرائيلي الذي ورطه بقتل مصري دون تعمد ذات يوم ، هاجمه الإسرائيلي الذي خاف منه أن يقتله قائلاً:

"فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ{19}" القصص.

أي إن الرغبة في أن يكون جباراً في الأرض يقهر أهلها أمر ذميم وعلى النقيض من الإصلاح الذي يسعى إليه الصالحون من رسل ومؤمنين. كما لم تأت آية واحدة تبيح التكبر على

الكفار ولا حديث شريف ، إنما كان التكبر مذموماً دائماً دون تحديد دين من يقع التكبر عليه ، لذا كلمة (صاغرون) كانت مقصودة لغاية نبيلة وهي إفهام المؤمنين أن الجزية بحد ذاتها ليست هي الهدف ، إنما الهدف إخضاع الذين يرفضون الهداية ووضعهم في موضع الأذل والأصغر ، وهذا ما فهمه ابن القيم كما تجدون في الفقرة التي استشهدت بها قبل قليل من كتابه أحكام أهل الذمة حيث بيّن أن للحاكم المسلم أن يسقط الخراج عن الذميين لكن ليس له أن يسقط الجزية عنهم: "وَلِلْإِمَامِ تَرْكُ الْخَرَاجِ وَإِسْقَاطُهُ عَنْ بَعْضِ مَنْ هُوَ عَلَيْهِ ، وَتَخْفِيفُهُ عَنْهُ بِحَسَبِ النَّظَرِ وَالْمَصْلَحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ فِي الْجِزْيَةِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْجِزْيَةَ الْمَقْصُودُ بِهَا إِذْلَالُ الْكَافِرِ وَصَغَارُهُ ، وَهِيَ عِوَضٌ عَنْ حَقْنِ دَمِهِ وَلَمْ يُمَكِّنْهُ اللَّهُ مِنَ الْإِقَامَةِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِالْجِزْيَةِ إِعْزَازًا لِلْإِسْلَامِ وَإِذْلَالًا لِلْكُفْرِ".

ولكم أن تتخيلوا مقدار الاستفزاز الذي أحدثته كلمة (صاغرون) في نفوس أهل الذمة ، وكيف أنها دفعت كثيرين منهم إلى الإيمان والتحول إلى الإسلام تحولاً صادقاً. لقد شكلت مثل الجزية حافزاً ضئيلاً ، إذ ليس كثيراً على المؤمن بدينه أن يتحمل هذه الإهانة الصغيرة في سبيل دينه الذي يؤمن به ، لذا لم تكن نفوس الذين استفزتهم هذه الكلمة لتقر بأنها ستغير دينها بسبب كلمة ، وبالتالي لم تكن نفوسهم تتقبل أن تنافق وتتظاهر بالإسلام لمجرد أن يخرجوا من الوصف بالصغار أمام أمة فاتحة غالبة ، إنما كان المقبول من هذه النفوس هو أن تغير منظورها الذي تنظر منه إلى الإسلام ، فترى الحق الذي فيه ، وتؤمن به وتتخلص دفعة واحدة من الجزية ومن الصغار ، وبذلك كان في كلمة (صاغرون) خير عظيم للذميين وتحقيق لهدف الإسلام الأول وهو هداية الناس إلى الدين الحق.

بعض إخوتنا المسيحيين وبخاصة العرب يتهمون الإسلام بالتمييز العنصري الذي كان بادياً في الجزية وفي كلمة (صاغرون) ويعتبرون المسلمين الحاليين غزاة ويحلمون بتحرير البلاد منهم. هم لا ينتبهون إلى أن الإسلام فتح الباب أمام الجميع لينتقلوا من حالة الذمي إلى حالة الغالب والمنتصر بمجرد دخوله في الإسلام ، بينما العنصريون ما كانوا يسمحون للأسود الذي تنصر وصار أخوهم في الدين أن يدخل كنائسهم. وينسى هؤلاء أن الذين يعتبرونهم غزاة ويحلمون أن يحرروا البلاد منهم هم مثلهم أصحاب البلاد الأصليين لكنهم اهتدوا إلى الحق فأسلموا ولهم حق أصلي في هذه البلاد لا يقل عن حق المسيحيين أو أتباع الديانات الأخرى

من سكان هذه البلاد الأصليين. لم يكن وضع المغلوب الصاغر لعنة على الذمي لا تنفك ، إذ كان يستطيع تغيير هذا الوضع إلى وضع المواطن من الدرجة الأولى بمجرد أن يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

علينا أن نذكر أن الذمي تسقط عنه الجزية بمجرد إسلامه لكن أرضه التي يزرعها ويدفع خراجها تبقى كما هي ملكاً لأمة المسلمين وعليه دفع خراجها حتى لو كان مسلماً ، وهذا يؤكد أن الشعوب المغلوبة كانت تخسر ملكية أرضها كلها: الأرض التي تسمى أملاكاً عامة أي التي هي ملك الدولة أصلاً والأرض المملوكة للأفراد ، وهذا مختلف عما هو ممارس في عصرنا في حال احتلال دولة لدولة أخرى. ومرة أخرى أؤكد أن الإسلام لم يأت بهذه التشريعات بل كانت سائدة ومتعارف عليها عند البشرية قبل الإسلام وجاء الإسلام وأذن للمسلمين أن ينتفعوا بها.

نهاية الغلبة

لقد جاء الاستعمار الأوربي وأصبحنا أمماً مغلوبة بقوة السلاح ، لكننا كنا محظوظين أكثر من سكان البلاد التي فتحها أجدادنا ، إذ لم تنتقل ملكية أراضينا للمستعمرين ، بل اقتصر حق الغزاة على التصرف بالأراضي العامة التي ليس لها مالك محدد ، أما الأفراد فقد بقيت أراضيهم ملكاً لهم ، وهذا لا يعني أن الاستعمار الأوربي لم ينهب ثرواتنا ويقسم بلداننا وينشىء دولاً جديدة لا تقوم على أساس الجغرافية الطبيعية والبشرية ، بل حدودها خطوط مستقيمة رسموها بالمسطرة. المهم فقدنا نحن المسلمين امتيازاتنا كأمة غالبة ، وبالوقت ذاته تحرر المسيحيون واليهود وغيرهم من الكفار الذين يعيشون بيننا من كونهم ذميين عليهم الجزية وقيود أخرى بموجب المعاهدات التي كانت بين أجدادهم المغلوبين وأجدادنا الفاتحين المنتصرين.

وضع جديد محزن للمسلمين في بلادنا لا شك ، لكن هكذا هي الدنيا تؤخذ غلاباً. فكما خسر سكان هذه البلاد الكثير عندما تغلب عليهم المسلمون ، فقد خسرنا نحن امتيازاتنا لما تغلب علينا الأوربيون. يمكننا أن نقول إن فقدنا لهذه الامتيازات غير شرعي ، لكن كونه غير شرعي لا يعني إبطال ما نتج عنه ، وأشبّه هذا الأمر بزواج تم بالإكراه فهو بالتأكيد غير شرعي ، لكن للأولاد المولودين فيه حقهم بالنسب والميراث كما لو كان الزواج شرعياً تماماً.

نحن الآن في جميع البلاد الإسلامية مواطنون على قدم المساواة مع المسيحيين واليهود وغيرهم من أديان ، لأن جوهر المواطنة هو التساوي في الحقوق والواجبات بغض النظر عن الدين أو اللون أو القومية أو الجنس أو العمر.

أزمة ثقة

يتخوف الإسلاميون من المواطنة التي تعطي المسيحي والملحد وأبناء الطوائف والأديان الأخرى الحق في تبؤ وظائف حساسة في البلاد لأنهم يخشون منهم الخيانة. ترجع القضية كما أعتقد لما ورد عن عمر بن الخطاب من شعوره بالريبة من غير المسلمين ورفضه أن يتولوا أية وظائف حساسة في دولة المسلمين ، فقد روى ابن تيمية وصحح ، عن أبي موسَى الأشعري أنه قال: قلتُ لعمرَ: إنَّ لي كاتبًا نصرانيًّا قال: ما لكَ قاتلَكَ اللهُ ، أما سمِعتَ اللهَ تعالَى يقولُ:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{51}" المائدة.

ألا اتَّخذتَ حنيفيًّا؟ قال: قلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ لي كتابتُهُ وله دِينهُ ، قال: لا أُكرِمُهم إذ أهانَهُم اللهُ ، ولا أُعِزُّهم إذ أذلَّهُم اللهُ ، ولا أُدْنيهِم إذ أقصاهُم اللهُ". وقد وردت روايات مختلفة لهذه القصة في كتب السيرة يصر فيها من يجادل عمر بن الخطاب على ضرورة الاستعانة بالكاتب النصراني ، فيحسم عمر الموضوع بقوله: (مات النصراني والسلام)، أي افترض أنه مات ، ألن تتدبر الأمر من بعده؟ إذن تدبر الأمر من دونه الآن. قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (28/ 643) :"فَقَدْ كَتَبَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - رضي الله عنه - إلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - يَقُولُ: "إنَّ بِالشَّامِ كَاتِبًا نَصْرَانِيًّا لَا يَقُومُ خَرَاجُ الشَّامِ إلَّا بِهِ" فَكَتَبَ إلَيْهِ: "لَا تَسْتَعْمِلْهُ". فَكَتَبَ: "إنَّهُ لَا غِنَى بِنَا عَنْهُ" فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ "لَا تَسْتَعْمِلْهُ" فَكَتَبَ إلَيْهِ "إذَا لَمْ نُوَلِّهْ ضَاعَ الْمَالُ" فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ - رضي الله عنه - "مَاتَ النَّصْرَانِيُّ وَالسَّلَامُ"

ومروي عن عمر مواقف عديدة فيها هذا التوجس من رعاياه غير المسلمين.

الشُّرُوطِ الْعُمَرِيَّةِ:

يروي ابن القيم في أحكام أهل الذمة عن عبد الله بن أحمد بن حنبل هذه الرواية ، عن شروط فرضها عمر على النصارى في الشام والأقطار المفتوحة عَنْوَةً ، ومع أنها لم تثبت من حيث السند كما تثبت الأحاديث الصحيحة فإنها كانت مشهورة ومطبقة وبرأيه لا داعي للشك في صحتها. يقول ابن القيم:

"قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: حَدَّثَنِي أَبُو شُرَحْبِيلَ الْحِمْصِيُّ عِيسَى بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي [عَمِّي] أَبُو الْيَمَانِ وَأَبُو الْمُغِيرَةِ قَالَا: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ ، قَالَ: حَدَّثَنَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالُوا: كَتَبَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ: "إِنَّا حِينَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا طَلَبْنَا إِلَيْكَ الْأَمَانَ لِأَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا عَلَى أَنَّا شَرَطْنَا لَكَ عَلَى أَنْفُسِنَا أَلَّا نُحْدِثَ فِي مَدِينَتِنَا كَنِيسَةً ، وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلَا قِلَّايَةً وَلَا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ ، وَلَا نُجَدِّدَ مَا خُرِّبَ مِنْ كَنَائِسِنَا وَلَا مَا كَانَ مِنْهَا فِي خُطَطِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَلَّا نَمْنَعَ كَنَائِسَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْزِلُوهَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَهَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَلَا نُؤْوِي فِيهَا وَلَا فِي مَنَازِلِنَا جَاسُوسًا ، وَأَلَّا نَكْتُمَ غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَلَّا نَضْرِبَ بِنَوَاقِيسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيًّا فِي جَوْفِ كَنَائِسِنَا ، وَلَا نُظْهِرَ عَلَيْهَا صَلِيبًا ، وَلَا تُرْفَعَ أَصْوَاتُنَا فِي الصَّلَاةِ وَلَا الْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِيمَا يَحْضُرُهُ الْمُسْلِمُونَ ، وَأَلَّا نُخْرِجَ صَلِيبًا وَلَا كِتَابًا فِي سُوقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَلَّا نُخْرِجَ بَاعُوثًا - قَالَ: وَالْبَاعُوثُ يَجْتَمِعُونَ كَمَا يَخْرُجُ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ - وَلَا شَعَانِينَ ، وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا ، وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَلَّا نُجَاوِرَهُمْ بِالْخَنَازِيرِ وَلَا بِبَيْعِ الْخُمُورِ ، وَلَا نُظْهِرَ شِرْكًا ، وَلَا نُرَغِّبَ فِي دِينِنَا وَلَا نَدْعُوَ إِلَيْهِ أَحَدًا ، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ الرَّقِيقِ الَّذِي جَرَتْ عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَلَّا نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَقْرِبَائِنَا أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ نَلْزَمَ زِيَّنَا حَيْثُمَا كُنَّا ، وَأَلَّا نَتَشَبَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لُبْسِ قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا نَعْلَيْنِ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ وَلَا فِي مَرَاكِبِهِمْ ، وَلَا نَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِمْ وَلَا نَكْتَنِيَ بِكُنَاهُمْ ، وَأَنْ نَجُزَّ مَقَادِمَ رُءُوسِنَا ، وَلَا نَفْرُقَ نَوَاصِيَنَا ، وَنَشُدَّ الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا ، وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا نَرْكَبَ

السُّرُوجَ ، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ السِّلَاحِ وَلَا نَحْمِلَهُ وَلَا نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ ، وَأَنْ نُوَقِّرَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ وَنُرْشِدَهُمُ الطَّرِيقَ وَنَقُومَ لَهُمْ عَنِ الْمَجَالِسِ إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ ، وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَلَا نُعَلِّمَ أَوْلَادَنَا الْقُرْآنَ ، وَلَا يُشَارِكَ أَحَدٌ مِنَّا مُسْلِمًا فِي تِجَارَةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ إِلَى الْمُسْلِمِ أَمْرُ التِّجَارَةِ ، وَأَنْ نُضِيفَ كُلَّ مُسْلِمٍ عَابِرِ سَبِيلٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَنُطْعِمَهُ مَنْ أَوْسَطِ مَا نَجِدُ. ضَمِنَّا لَكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَذَرَارِيِّنَا وَأَزْوَاجِنَا وَمَسَاكِينِنَا ، وَإِنْ نَحْنُ غَيَّرْنَا أَوْ خَالَفْنَا عَمَّا شَرَطْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَقَبِلْنَا الْأَمَانَ عَلَيْهِ فَلَا ذِمَّةَ لَنَا ، وَقَدْ حَلَّ لَكَ مِنَّا مَا يَحِلُّ لِأَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ".

فَكَتَبَ بِذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: "أَنْ أَمْضِ لَهُمْ مَا سَأَلُوا ، وَأَلْحِقْ فِيهِمْ حَرْفَيْنِ أَشْتَرِطُهُمَا عَلَيْهِمْ مَعَ مَا شَرَطُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَّا يَشْتَرُوا مِنْ سَبَايَانَا [شَيْئًا]، وَمَنْ ضَرَبَ مُسْلِمًا [عَمْدًا] فَقَدْ خَلَعَ عَهْدَهُ". فَأَنْفَذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ ذَلِكَ ، وَأَقَرَّ مَنْ أَقَامَ مِنَ الرُّومِ فِي مَدَائِنِ الشَّامِ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ.

قَالَ الْخَلَّالُ فِي كِتَابِ "أَحْكَامِ أَهْلِ الْمِلَلِ": "أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ... "فَذَكَرَهُ ، وَذَكَرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ قَالَ: "كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه حِينَ صَالَحَ نَصَارَى الشَّامِ وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ فِيهِ أَلَّا يُحْدِثُوا فِي مَدِينَتِهِمْ وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلَا كَنِيسَةً وَلَا قِلَّايَةً وَلَا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ ، وَلَا يُجَدِّدُوا مَا خُرِّبَ ، وَلَا يَمْنَعُوا كَنَائِسَهُمْ أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَ لَيَالٍ يُطْعِمُونَهُمْ ، وَلَا يُؤْوا جَاسُوسًا ، وَلَا يَكْتُمُوا غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يُعَلِّمُوا أَوْلَادَهُمُ الْقُرْآنَ ، وَلَا يُظْهِرُوا شِرْكًا ، وَلَا يَمْنَعُوا ذَوِي قَرَابَاتِهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَأَنْ يُوَقِّرُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَقُومُوا لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِهِمْ إِذَا أَرَادُوا الْجُلُوسَ ، وَلَا يَتَشَبَّهُوا بِالْمُسْلِمِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ لِبَاسِهِمْ وَلَا يَتَكَنَّوْا بِكُنَاهُمْ ، وَلَا يَرْكَبُوا سِرْجًا وَلَا يَتَقَلَّدُوا سَيْفًا ، وَلَا يَبِيعُوا الْخُمُورَ ، وَأَنْ يَجُزُّوا مَقَادِمَ رُؤوسِهِمْ ، وَأَنْ يَلْزَمُوا زِيَّهُمْ حَيْثُمَا كَانُوا ، وَأَنْ يَشُدُّوا الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، وَلَا يُظْهِرُوا صَلِيبًا وَلَا شَيْئًا مِنْ كُتُبِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا

يُجَاوِرُوا الْمُسْلِمِينَ بِمَوْتَاهُمْ ، وَلَا يَضْرِبُوا بِالنَّاقُوسِ إِلَّا ضَرْبًا خَفِيًّا ، وَلَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَخْرُجُوا شَعَانِينَ ، وَلَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ مَعَ مَوْتَاهُمْ ، وَلَا يُظْهِرُوا النِّيرَانَ مَعَهُمْ ، وَلَا يَشْتَرُوا مِنَ الرَّقِيقِ مَا جَرَتْ فِيهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنْ خَالَفُوا شَيْئًا مِمَّا شَرَطُوهُ فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ ، وَقَدْ حَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ".

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ ثَعْلَبٍ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي الْعَيْزَارِ ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ نُوحٍ ، [وَالسَّرِيِّ] بْنِ مُصَرِّفٍ يَذْكُرُونَ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ ، عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ قَالَ: كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه حِينَ صَالَحَ نَصَارَى أَهْلِ الشَّامِ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا: إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمُ الْأَمَانَ لِأَنْفُسِنَا وَذَرَارِيِّنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا ، وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَلَّا نُحْدِثَ فِي مَدَائِنِنَا وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلَا قِلَّايَةً وَلَا كَنِيسَةً وَلَا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ... فَذَكَرَ نَحْوَهُ".

ثم يعلق ابن القيم على ضعف سند هذه الرواية فيقول مدافعاً عنها: "وَشُهْرَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ تُغْنِي عَنْ إِسْنَادِهَا ، فَإِنَّ الْأَئِمَّةَ تَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ وَذَكَرُوهَا فِي كُتُبِهِمْ وَاحْتَجُّوا بِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُ الشُّرُوطِ الْعُمَرِيَّةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَفِي كُتُبِهِمْ ، وَقَدْ أَنْفَذَهَا بَعْدَهُ الْخُلَفَاءُ وَعَمِلُوا بِمُوجَبِهَا".

ثم يقول:

"فَذَكَرَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرِيُّ - مِنْ حَدِيثِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى الْحُلْوَانِيِّ - حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ [جَنَّادٍ]: حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ مُسْلِمٍ الْحَلَبِيُّ ، عَنْ صَالِحٍ الْمُرَادِيِّ ، عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ: رَأَيْتُ عَلِيًّا صَلَّى الْعَصْرَ فَصَفَّ لَهُ أَهْلُ نَجْرَانَ صَفَّيْنِ ، فَنَاوَلَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ كِتَابًا ، فَلَمَّا رَآهُ دَمَعَتْ عَيْنُهُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ: "يَا أَهْلَ نَجْرَانَ ، هَذَا وَاللَّهِ خَطِّي بِيَدِي وَإِمْلَاءُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ". فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعْطِنَا مَا فِيهِ. قَالَ: وَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ رَادًّا عَلَى عُمَرَ يَوْمًا فَالْيَوْمَ يَرُدُّ عَلَيْهِ! فَقَالَ: لَسْتُ بِرَادٍّ عَلَى

عُمَرَ شَيْئًا صَنَعَهُ ، إِنَّ عُمَرَ كَانَ رَشِيدَ الْأَمْرِ ، وَإِنَّ عُمَرَ أَخَذَ مِنْكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَعْطَاكُمْ ، وَلَمْ يَجُرَّ عُمَرُ مَا أَخَذَ مِنْكُمْ إِلَى نَفْسِهِ إِنَّمَا جَرَّهُ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِين".

وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ ، عَنِ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه قَالَ لِأَهْلِ نَجْرَانَ: إِنَّ عُمَرَ كَانَ رَشِيدَ الْأَمْرِ ، وَلَنْ أُغَيِّرَ شَيْئًا صَنَعَهُ عُمَرُ! .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: قَالَ عَلِيٌّ حِينَ قَدِمَ الْكُوفَةَ: مَا جِئْتُ لِأَحُلَّ عُقْدَةً شَدَّهَا عُمَرُ! .

وَقَدْ تَضَمَّنَ كِتَابُ عُمَرَ رضي الله عنه هَذَا جُمَلًا مِنَ الْعِلْمِ تَدُورُ عَلَى سِتَّةِ فُصُولٍ:

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: فِي أَحْكَامِ الْبِيَعِ وَالْكَنَائِسِ وَالصَّوَامِعِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ.

الْفَصْلُ الثَّانِي: فِي أَحْكَامِ ضِيَافَتِهِمْ لِلْمَارَّةِ بِهِمْ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ: فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِضَرَرِ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ: فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَغْيِيرِ لِبَاسِهِمْ وَتَمْيِيزِهِمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَرْكَبِ وَاللِّبَاسِ وَغَيْرِهِ.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ: فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِظْهَارِ الْمُنْكَرِ مِنْ أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ مِمَّا نُهُوا عَنْهُ.

الْفَصْلُ السَّادِسُ: فِي أَمْرِ مُعَامَلَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ بِالشَّرِكَةِ وَنَحْوِهَا."

انتهى كلام ابن القيم رحمه الله.

خـوف مبــرر

في زماننا هذا استحيا كثير من المسلمين أن يكون أسلافهم قد فرضوا هذه الشروط على أهل الذمة ، فحاولوا نفيها بالقول إنها لا أصل لها بل وضعت بعد عمر بن الخطاب بأجيال ، ومنهم من قال هي شروط ، للحاكم المسلم الحرية في تطبيقها أو تركها ، لكن هنالك من الإسلاميين الذين يكرهون ضعفنا أمام الغربيين وحرصنا على نيل إعجابهم ولو على حساب ديننا من انبرى للدفاع عن الشروط العمرية وليثبت من المراجع الإسلامية أنها ليست موضوعة ، وأنها كانت مطبقة ، وأنها يجب أن تطبق من جديد عندما توجد الظروف المناسبة.

الشيخ علي بن نايف الشحود باحث في العلوم الإسلامية واسع الاطلاع وغزير الإنتاج وكتابه (المفصل في شرح الشروط العمرية) رائع وشامل ومتوافر على النت ويغني القارىء عن العودة للمراجع القديمة التي قد تكون قراءتها غير مريحة للبعض لاختلاف التعابير والمصطلحات. المهم ، الشيخ علي يؤمن أن هذه الشروط يجب فرضها على اليهود والنصارى كلما أمكن ذلك إلى يوم القيامة ، فهي برأيه من ثوابت الإسلام مع أنه لم يذكر في القرآن منها أكثر من الجزية والصغار لكفار أهل الكتاب ، ولم ترد في الأحاديث الشريفة. هو يرى أنه طالما جمع عمر بن الخطاب نخبة الصحابة الذين كانوا معه في المدينة المنورة وعرض هذه الشروط عليهم لأخذ رأيهم فأجمعوا عليها ، فقد صارت فريضة دائمة لأن كل إجماع للأمة ينتج عنه أحكام معصومة من الخطأ وواجبة على الأمة إلى يوم الدين.

هذه الشروط التي فرضت على أهل الذمة في بلادنا قروناً عديدة نادر منا من اطلع عليها ، بينما هنالك ناشطون حاقدون من المسيحيين أشهروها في الأوساط المسيحية في المنطقة ، لتحريضهم على العمل على أن لا تتكرر بأي شكل من الأشكال. لا يمكننا أن نلوم أحداً أنه منزعج من تاريخه الذي كان فيه أجداده الذين أصروا على دينهم يعيشون حياة فيها صغار كما أمر القرآن الكريم. كما إننا نستطيع أن نفهم الرعب المنتشر عند المسيحيين في المنطقة بعد ثورات الربيع العربي خشية أن يصل إسلاميون متشددون للحكم فيفرضوا عليهم هذه الشروط من جديد.

صحيح أن الشروط العمرية مذلة للذميين ، لكنها كانت مطبقة في جو من الرحمة ، إذ لم يعرف التاريخ فاتحاً رحم الشعوب المغلوبة كما رحم العرب الشعوب التي فتحوا أو قل احتلوا بلادها. لم يحتلوها لينهبوا خيراتها ويستعبدوا أهلها بل لإزالة أية حواجز أمام دعوتهم ودخولهم في الإسلام دون إكراه ، وأذكركم بالحكمة التي أعتقد أن الله أرادها عندما قال: (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ، لكن لم يسجل التاريخ أي اضطهاد لليهود والنصارى في البلاد الإسلامية ، اللهم إلا ما يدعيه الأرمن من اضطهاد مارسه عليهم القوميون الأتراك خلال وبعد الحرب العالمية الأولى ، وهو لم يحدث لأسباب دينية على الإطلاق ، إنما وقع لأن الأرمن تعاونوا مع الجيش الروسي الذي احتل شرق تركيا وارتكبوا مذابح بحق أهلها. كان الأرمن بنظر الجيش التركي خونة يستحقون أقسى معاملة ، وبخاصة أن القوميين الأتراك الذين أسقطوا الخلافة

العثمانية، كانوا هم المسيطرين على الجيش التركي. أي بكل بساطة، الإسلام بريء من أية مذابح بحق الأرمن والقضية كانت قومية.

ثم من شاء منكم فليقرأ تاريخ اليهود في أوربا على مدى القرون التي سبقت الثورة الفرنسية ليرى مقدار الاضطهاد الذي وقع على اليهود هناك ولقرون عديدة لمجرد أنهم يهود، إلا في الأندلس حيث ازدهروا مالياً وثقافياً ونعموا بأفضل حياة في تاريخهم بعد الشتات وقبل الثورة الفرنسية. وقد واجهوا مشكلة كبرى عندما سقطت الأندلس بكاملها بيد النصارى الأوربيين، فهاجر بعضهم إلى المغرب واستوعبت تركيا العثمانية الباقي، فاستقروا آمنين في ديار المسلمين. نعم كانت كلمة (وهم صاغرون) تجعلهم درجة ثانية لكن لم يقع عليهم أي ظلم لأنهم يهود كما كان يقع في أوربا المسيحية. الإسلام لم يلغ الرق وبقي قسم كبير من البشرية عبيداً لغيرهم، لكن الإسلام حرم على السادة أن يظلموا عبيدهم أو أن يكلفوهم مالا يطيقون من الأعمال، وأمرهم أن يطعموهم مما يَطعمون هم أنفسهم وكذلك أن يلبسوهم مما يلبسون.. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن المعرور بن سويد قال: "رأيتُ أبا ذرٍّ وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه مثلُها. فسألتُه عن ذلك؟ قال: فذكر أنه سابَّ رجلًا على عهد رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فعيَّرَه بأمِّه. قال: فأتى الرجلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم. فذكر ذلك له. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "إنك امرؤٌ فيك جاهليةٌ. إخوانُكم وخولُكُم. جعلهم اللهُ تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يدَيه فلْيطعِمْه مما يأكل. وليلبسْه مما يلبس. ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم. فإن كلَّفتموهم فأَعينوهم عليه". إن كان هذا هو حال العبيد في الإسلام فما تكون حال الذميين وهم أحرار؟ فحتى الجزية اشترط ربنا أن لا تؤخذ من فقيرهم بل لا تؤخذ إلا "عن يد" أي من القادرين عليها دون إرهاق. ربنا بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون رحمة للعالمين أي لشعوب الأرض كلها قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ{107}" الأنبياء.

وضع جديد وأحكام جديدة

والسؤال هو: ما الذي تغير الآن؟ أليسوا الآن أهل الكتاب والغالبية العظمى منهم غير موحدين لله وينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أي هم كفار ويشملهم قوله تعالى:

"قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{29}" التوبة.

أولسنا مأمورين بمقاتلتهم وفرض الجزية والصغار عليهم لعلهم يؤمنون؟ ألم يكن الصحابة أعلم بدين الله وهم الذين أجمعوا على الشروط العمرية وبالتالي هي من فرائض الإسلام ويأثم من يتحرج منها؟

أسئلة مشروعة وتحتاج إلى إجابات مقنعة قبل أن نعلن أننا نؤمن بالديمقراطية والمواطنة الكاملة لكل من يعيش على أرض بلداننا بما فيهم من كان أجدادهم ذميين.

أولاً: حتى لو قويت شوكتنا وصرنا أقوى أمم الأرض وبقيت البشرية على حالها تعطي حرية الاعتقاد والتعبير والعبادة لكل الناس فما لنا من حق في قتال أحد إلا دفاعاً. هذه الحرية التي ينعم بها الناس في أوربا وأمريكا وباقي بلدان العالم الحر إنجاز حديث للبشرية لم تكن تتصوره قبل هذا العصر باستثناء الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لغير المسلمين. القتال الذي أمر به الله في سورة التوبة ليس قتالاً للدفاع، لأن القتال للدفاع حق تكفله شرائع الأرض وشرائع السماء وقد أذن به الله للمؤمنين بمجرد أن صارت لهم دولة في المدينة المنورة. كان قتالاً هجومياً يسمى قتال الطلب مقابل قتال الدفع في حال تعرض المسلمين للعدوان. لم يكن الهدف من هذا القتال وفتح الأقطار والبلدان أن يتم إكراه أهلها على الإسلام، بل كان الهدف تحريرهم من القيود التي كانت عليهم وكانت تحول دون وصول دعوة الحق إليهم وتحول دون دخولهم في الإسلام إن هي وصلتهم وأرادوا ذلك. إن أردنا أن نصف الحروب التي خاضها المسلمون وفتحوا بها بلداناً كثيرة بالدفاعية فيمكننا ذلك، لكن لم تكن دفاعاً عن المسلمين، بل دفاعاً عن حرية الاعتقاد وعن حق الشعوب في أن تختار الدين الذي تريده دون إكراه ولا اضطهاد. نعم أمرنا بالقتال كي لا تكون فتنة وكي يكون الدين كله لله. قال تعالى:

"وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ{190} وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ{191} فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{192} وَقَاتِلُوهُمْ

حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ{193}" البقرة.

ربنا يعتبر الإكراه في الدين الذي يسميه فتنة جريمة وظلماً أشد من القتل. وهذا أحد معاني كلمة فتنة في القرآن ، حيث قال الله تعالى عن أصحاب الأخدود الذين أكرهوا الناس على العودة لعبادة الملك بدل عبادة الله وألقوا في أخدود النار كل من ثبت على الحق: "فتنوا المؤمنين والمؤمنات" ولنقرأ هذه الآيات:

"قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ{4} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{5} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{6} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{7} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{8} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{9} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{10}" البروج.

وربنا كلف المسلمين أن يكونوا حراساً لحق البشر كلهم في حرية الاعتقاد ، ووعد الجنة لمن يقتل منهم دفاعاً عن حرية غيرهم. لا تستغربوا فنحن مأمورون أيضاً أن نقاتل لرفع الظلم والاضطهاد عن أية أمة مستضعفة مؤمنة كانت أو كافرة. قال تعالى:

"وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً{75}" النساء.

عام 1994 في شهر إبريل/نيسان بدأت مذابح في رواندا قام فيها المتطرفون من قبائل الهوتو بقتل حوالي مليون من الرجال والنساء والأطفال من قبائل التوتسي خلال ثلاثة أشهر ، وتم قتل الكثيرين بالمناجل والفؤوس لعدم توفر أسلحة نارية للجميع. فرنسا وبلجيكا أرسلتا حوالي ألف جندي إلى رواندا من أجل حماية رعاياهما هناك ، ولم يتدخل أحد. بعد المذابح بسنين عبر مسؤولون أمريكيون عن شعورهم بالذنب والخزي لأنهم لم يفعلوا شيئاً لإيقاف تلك المذابح ، ثم تكشّف أن فرنسا كانت مشاركة في المذابح. لو كان للمسلمين دولة عظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية هل كانوا سيتركون أولئك المستضعفين من الرجال والنساء

والأطفال يذبحون بمعدل عشرة آلاف ذبيح كل يوم؟ إن قتالنا واستشهادنا لإنقاذ هؤلاء المستضعفين وإن كانوا غير مسلمين عبادة وجهاد تماماً كالجهاد لإعلاء كلمة الله.

أعود لحرية الاعتقاد والدعوة والعبادة التي تسود الأرض هذه الأيام لأذكر أنه لم يعد هنالك مبرر لأي قتال للذين كفروا من أهل الكتاب ولا من غيرهم، بل هي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتأليف القلوب بالإحسان إلى الناس، لأن الحب والرغبة في الانتماء هما أكبر دافعين للناس لأن يؤمنوا بدين الله. وهذا يعني أنه ليس متوقعاً أن يصبح عندنا ذميون مرة أخرى.

لكن أليس لنا الحق إن استعدنا عزتنا أن نفرض على المسيحيين وغيرهم ممن كانوا ذميين في بلادنا أن يلتزموا بالشروط العمرية لأن الذي ألغى تطبيق هذه الشروط هو الاستعمار الأوربي الذي ليس له أية شرعية أو حق أن يفقدنا الامتيازات التي كنا نتمتع بها؟..

لا ليس لنا الحق في ذلك. إن انتصار المسلمين على البلاد التي فتحوها جعل كل أهلها من غير المسلمين ذميين، وانكسارنا أمام الأوربيين جعلنا والذين كانوا ذميين عندنا، نتساوى كمواطنين في دول أنشأها المستعمرون ولم يأخذوا رأينا في حدودها المصطنعة. هكذا الدنيا، إنكسار المسيحيين أمام الجيوش المسلمة حولهم إلى ذميين في بلادهم، أما انكسارنا أمام الأوربيين فلحسن حظنا لم يحولنا إلى ذميين وبخاصة أن المستعمرين مسيحيون، بل أفقدنا الامتيازات وأخرج المسيحيين وغيرهم من رتبة الذميين إلى رتبة المواطنين. طالما نرى تحول من لم يسلم من أهالي البلاد التي فتحها المسلمون إلى ذميين بسبب هزيمة عسكرية حلت بهم نراه عدلاً، فإنه من العدل أيضاً أن تتحسن حالتهم بمجرد هزيمتنا عسكرياً أمام من يشاركونهم الدين والمعتقد.

"... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ..." آل عمران.

من سياسة إلى دين

لكن أليست الجزية والشروط العمرية من فرائض الإسلام وعلينا تطبيق جميع فرائضه ولا نخشى في الله لومة لائم؟ أوافق أن علينا أن نطبق ديننا دون مبالاة باستحسان الآخرين لذلك أو استنكارهم، لكن علينا التأكد أن ما سنطبقه ونصطدم مع الآخرين بسببه هو فعلاً من

ثوابت الدين. أعود لأكرر أن الجزية لا يحل للمسلمين أن يأخذوها من أهل الكتاب وغيرهم إلا نتيجة التغلب بالقوة العسكرية عليهم، وكلنا نعلم أن دولنا التي نعيش فيها الآن ليست ثمرة انتصاراتنا بل ثمرة هزائمنا وضعفنا. أي بعد تخلفنا وتراجعنا حتى عن ثوابت ديننا وانتشار الجهل فينا سواء بالدين أو بالدنيا لم يعد لنا الحق في استعادة ما فقدناه من وضع متميز في بلادنا كمسلمين. أما الإجماع الذي بناء عليه اعتبر أخونا الشيخ علي نايف الشحود وغيره من الإسلاميين الجزية والشروط العمرية واجبة التطبيق على غير المسلم لمجرد أنه غير مسلم مغلوباً كان أو غالباً فله حكاية أخرى.

عندما اختلف المسلمون حول أحقية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في أن يكون خليفة رسول الله وادعى من تشيع له أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي بالخلافة وأن هنالك نصوصاً في القرآن والحديث تثبت ذلك، وبالغوا في الأمر فأضافوا في الشهادة "وأن علياً ولي الله" بعد "أن محمداً رسول الله" بحيث تحولت السياسة إلى عقيدة دينية، لم يجد أهل السنة والجماعة نصوصاً قوية ترجح حق أبي بكر وعمر وغيرهما بخلافة رسول الله، إنما كانت مبايعة أبي بكر قراراً بناء على اتفاق الصحابة للحفاظ على الاستقرار ودرء الفتنة بين المسلمين، بالغ السنة أيضاً وأدخلوا السياسة في العقيدة فجعلوا إجماع الصحابة وكذلك إجماع مجتهدي الأمة في أي عصر من العصور مصدراً للتشريع لا يقل عن القرآن والسنة، وادعوا أن الأمة بمجموعها معصومة من أن تجتمع على ضلالة، وبالتالي يكون كل ما أجمعت عليه متمثلة بمجتهديها في عصر من العصور حقاً ثابتاً لا شك فيه، وعلى الأمة التوقف عنده والالتزام به وعدم مراجعته إلى يوم القيامة. وبالمقابل آمن الشيعة أن أئمتهم المختارين من الله من ذرية فاطمة الزهراء رضي الله عنها معصومون، وكل ما يأتون به من حلول للمستجدات في حياة المسلمين إنما هو استمرار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم من دون أن يكونوا أنبياء، فصار الإيمان بالولاية عقيدة لا يكتمل إيمان المسلم من دونها، لأنه يترتب عليها الإيمان بعصمة الأئمة وبكونهم مصدراً متجدداً للتشريع في الإسلام. واضح أن اعتقاد العصمة للأئمة وأن ما يقولونه مصدر للتشريع لا يقل عن الكتاب والسنة، وكذلك الاعتقاد أن الأمة بمجموعها معصومة، وأن إجماع مجتهديها في أي عصر بعد النبي صلى الله عليه وسلم هو المصدر الثالث للتشريع الإسلامي، واضح أن كلاً من العصمتين، عصمة الأئمة وعصمة الأمة كانتا وماتزالان وسيلتي السنة والشيعة لإجبار كل من ينتمي لهاتين الطائفتين على عدم الخروج عن رأي

سياسي تجاوزه الزمن متعلق بمن كان أولى أن يخلف رسول الله، علي أم أبو بكر ثم عمر. صدقوني كثيراً ما أقرأ لعالم دين معاصر أو من السابقين وأعجب كثيراً برجاحة عقله وقدرته على التفكير الناقد المستقل ومنطقه السليم أو القوي في المحاججة، ثم يفاجئني بتحوله إلى مجادل غير منطقي، يعتبر الأدلة الهزيلة أدلة قطعية، ويقع في أخطاء التفكير والمحاكمة العقلية التي كان ينتقد غيره عليها قبل سطور، كل ذلك ليثبت العصمة والحجية التي ما بعدها حجية للإجماع إن كان سنياً وللأئمة من آل البيت إن كان شيعياً. يجادلون لإثبات إحدى هاتين القناعتين بالمنطق الهزيل نفسه الذي يجادل به مسيحي يريد أن يثبت لنا أن عيسى عليه السلام ابن الله. لكن ولله الحمد ليس انحرافنا وانجرافنا مع السياسة خطيراً مثل الإيمان أن لله ولداً، وإن كان الإيمان بكلتا العصمتين قد أعاق الأمة عن التطور الفقهي والفكري الديني الذي هي بأمس الحاجة إليه في هذا الزمان.

إني أسائل نفسي: متى يراجع المسلمون أنفسهم ويتخلصوا من عقد التاريخ التي كانت سياسية بحتة حولها المسلمون إلى دينية عقدية، من يخالفها يكون كافراً أو على الأقل ناقص الإيمان. السابقون معذورون وهذه كانت وسائلهم في الصراع ما بينهم، لكننا نحن في هذا الزمن أقدر منهم على الرؤية والتحليل ودراسة ما حدث والتحرر من إساره لنعود إلى الكتاب والسنة ونكتفي بهما مصدرين للتشريع لا ثالث لهما، نحيل كل مستجدات حياتنا ونردها إلى أولي الأمر منا، أي حكمائنا في الاختصاصات المختلفة وممثلينا في المجالس التشريعية ليختاروا للأمة ما ينفعها ويجنبوها الوقوع في ما يضرها. بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم لا أحد معصوم إلا آيات القرآن الكريمة المحكمات ذوات الدلالة القطعية وما صح من حديث شريف قطعي الدلالة أيضاً، والباقي يكفينا فيه غلبة الظن وعلى الله القبول. إن التحرر من خرافة العصمة عند السنة وعند الشيعة لن يتم بسهولة أبداً، بل يحتاج إلى جهود جبارة من أبناء الأمة الإسلامية، الذين يجتمع فيهم الذكاء العالي وقوة الشخصية اللازمة للإبداع، كي يخلصوا الأمة من خرافتين دخلتا العقيدة الإسلامية وترسختا وصارت لهما جذور عميقة فيها. الأمر خطير ويستحق الجهد، وسيكون هو أقوى ما نفعله تأثيراً كي تنطلق الأمة، سنتها، وشيعتها، لتعود لها العزة التي ضاعت وليلقي الإسلام بجرانه وأثقاله في الأرض، ويظهر على الدين كله.

المواطنة والانتماء عند المسلم

إذن في هذا الزمان صار المسيحي وغير المسلم عموماً مواطناً مثلي ، له بحكم انتمائه للدولة التي أنتمي إليها كل الحقوق والواجبات ، ولم يعد ذمياً؟ كيف أتقبل أنني أنتمي أنا والكافر لأمة واحدة ؟ وكيف اطمئن على مستقبل أمتي إن أعطي هؤلاء الحق في الوصول إلى المراتب القيادية العليا ؟ ، وهل يمكنني أن أثق بمسيحي أو ماركسي ملحد أو غيرهما من الكفار الذين يشاركونني الانتماء إلى دولة واحدة ؟ لقد عشنا نحن وهم القرون العديدة في بلد واحد وربما في حي واحد لكنني كنت دائماً أعتبر نفسي واحداً من أمة الإسلام ، وأعتبر الخليفة من أي قطر أو لغة أميراً لي ، أما الكفار الذين كان علي أن أتعايش معهم فما كنت أشعر يوماً أنني أنتمي أنا وهم إلى أمة واحدة ، كانوا من أمة أخرى يعيشون ما بيننا بشروطنا وعليهم أن يحمدوا الله على تسامحنا معهم وامتناعنا عن ظلمهم واضطهادهم.

الحق معي أليس كذلك ؟

مؤلم الانتقال من العزة إلى التشارك مع الآخرين المختلفين عنا ، والأسوأ أننا أجبرنا على ذلك. لكن دعونا نفكر ونحن دائماً نرد الأمور التي تشكل علينا إلى الله والرسول ، أي إلى الكتاب والسنة إضافة إلى الحكمة التي تكسبنا إياها خبرة الحياة. المواطَنة لمن يجد هذا المصطلح جديداً عليه وغير محدد المقصود منه ، هي ببساطة أن يكون لأهل دولة من الدول الحقوق والميزات نفسها بغض النظر عن أي اعتبار آخر غير انتمائهم لهذه الدولة ، كما يكون عليهم الواجبات نفسها نحوها ، ولهم الحق في المشاركة في بنائها وتسييرها ، ولرأيهم الوزن والاعتبار نفسه ، بغض النظر عن جنسهم (نساء أو رجال) وعن لغتهم وأصلهم القومي وعن دينهم ومذهبهم وقناعاتهم وفلسفتهم بالحياة. أي إن أخذنا مثالاً سورية والسوريين ، فالمواطنة هي انتماؤنا كلنا لسورية ، أي نشكل أمة اسمها السوريون ، العضوية فيها لكل سوري مسلماً كان أو مسيحياً أو غير ذلك ، مؤمناً كان أو ملحداً ، رجلاً كان أو امرأة ، طفلاً كان أو بالغاً أو مسناً ، أبيض البشرة أو أسودها ، عربياً أو كردياً أو أرمنياً أو شركسياً أو تركياً أو غير ذلك ، ناطقاً بالعربية أو بغيرها... كلنا سوريون تجمعنا الجنسية السورية ولا تفرقنا لا الأديان ولا اللغات ولا الجنس ولا اللون ولا العمر. يكون السوريون بمثابة عائلة واحدة كبيرة تتكون من السني والشيعي والإسماعيلي والدرزي والعلوي النصيري ، والمؤمن والملحد والإسلامي والعلماني ،

والعربي والكردي والشركسي والأرمني والتركي، والرجال والنساء والأطفال والشيوخ المسنين، كلهم تربطهم رابطة أنهم سوريون، وكلهم لهم في سورية الحق نفسه في أن يتمتعوا بخيرات الوطن وبأي امتيازات للمواطن السوري، ولهم الحق في المشاركة السلمية في بناء سورية وتقلد أي منصب يكون الواحد منهم أهلاً له من حيث الكفاءة والطاقة (بسطة في العلم والجسم) و(القوي الأمين) دون أي اعتبار آخر طالما أنهم سوريون.

هذا يعني أنه لا يمكننا بناء دولة إسلامية كما نحلم في سورية وكما هي الدولة الإسلامية في تصورنا.

المواطنة الآن حق لكل سوري وسورية بكل ما تتضمنه من حقوق وواجبات، وليست تنازلاً منا أو تكرماً من الأغلبية السنية على الأقليات ولا تعبيراً عن تسامح ديننا. السوريون كلهم شركاء في سورية لكل منهم نفس القدر الذي للآخر، ولنشبه الأمر بشركة مساهمة أصحابها من أديان وقوميات وأجناس وأعمار وألوان مختلفة. كلهم شركاء فيها لهم نفس العدد من الأسهم، فإن ربحت وكبرت عاد الخير والربح على الجميع بالتساوي، وإن خسرت وتعثرت خسر الجميع بنفس القدر. هل في شركة مثل هذه يقتصر الإخلاص والولاء للشركة على فئة معينة من المساهمين فيها، بحيث يكون ولاؤهم لها وحرصهم عليها لا شك فيه، بينما الأصل في المساهمين من الفئات الأخرى عدم الولاء والإخلاص وسهولة التورط في الخيانة؟ الجميع شركاء بالتساوي في الربح وفي الخسارة وليس فيهم لص فاسد، سيكون ولاؤهم وحرصهم وإخلاصهم لهذه الشركة متساوياً، لأنهم كلهم بشر وعقلاء ومفطورون على الفطرة ذاتها.

كان عمر بن الخطاب على حق في الحذر من الذميين لا لأن الخيانة والغدر متوقعة أو متأصلة فيهم لأنهم من دين آخر وبالنسبة لنا كفار، بل لأنهم كانوا أمماً مغلوبةً ومضطرةً لأن تكون وراء المسلمين، الذين كانوا يرون أنفسهم هم المواطنين، ويرون الباقين ذميين في رعايتهم. ليس من المستبعد من المهزوم دينياً وسياسياً، الذي تحول إلى مستأجر لبستانه، وإلى ذمي لا يقبل في الجيش، بل عليه ضريبة سنوية يؤديها صاغراً، أن يفكر بخيانة أمة لم تقبله واحداً منها، ما لم يغير دينه، وهو متمسك به. لذا كان الذمي الذي يدخل في الإسلام يصير مواطناً تماماً مثل المسلمين الفاتحين، ويصبح واحداً منهم بكل ما تعنيه الكلمة، يصبح أخاهم (فقهوا أخاكم) مع أنه قبل لحظات كان ذمياً معاهداً يعيش بين المسلمين في حمايتهم وعلى أرضهم. إن شعور الإنسان أن وطنه يعترف به كمواطن لا يقل عن غيره وله القدر والمكانة

والحقوق نفسها، يجعله يتعلق بهذا الوطن ويشعر بالولاء له، وقد يقدم حياته في سبيله، بغض النظر عن دينه ومعتقده. ألا يقاتل من هم بالنسبة لنا كفار على اختلاف مللهم ويُقتلون في سبيل أوطانهم؟ هل يضحي بنفسه إن كان لا يحب باقي المواطنين معه؟ ما الوطن؟ هل هو مجرد الأرض؟.. إنه الأمة، الأسرة الكبيرة التي يعتز أفرادها بالانتماء إليها مع أرضهم وحكومتهم. الوطن ليس مجرد التراب. سورية بالنسبة لي ليست بقعة جغرافية مجردة، إنها الأرض والعمران والإنسان والتاريخ والمستقبل، والثقافة واللغة والأزياء والعادات والأكلات والفنون... انتماء الإنسان للوطن هو الانتماء للأمة التي تعيش على ترابه أكثر منه انتماء لبقعة جغرافية. نعم البلد ذو الطبيعة الخلابة أو الطقس اللطيف نعمة، لكن الشعوب متعلقة بأوطانها مع أن أكثرها فيها ما لا يريح.

بحكم عملي كطبيب نفسي وبخاصة عندما كنت أعمل في أبو ظبي، استشارتني نساء من أديان وأعراق وثقافات مختلفة، وأحيانا تكون الخيانة الزوجية أو التعلق العاطفي بغير الزوج هي المشكلة التي من أجلها أتت هذه المرأة إلى الطبيب النفسي. كلنا يتوقع أن تكون المرأة المسلمة التقية وفية لزوجها لا تخونه لأن تقواها تمنعها. هذا صحيح لكن وجدت كل النساء من كل الأديان والشعوب عندهن الميل الفطري نفسه للإخلاص للزوج أو الحبيب، وجدت ذلك عند المسلمات وعند المسيحيات ووجدته عند البوذيات والهندوسيات والكونفوشيوسيات، وعند الشرقيات والأوربيات، وعند المؤمنات والملحدات. هي فطرة المرأة لا تتغير، الأصل فيها أن تخلص للرجل الذي أحبته فلا يدخل قلبها رجل آخر مادام الأول فيه.

وهكذا حب الأوطان فطرة عند كل الناس، طالما هم أناس أسوياء وغير فاسدين منحرفين. كل الآباء والأمهات يحبون أولادهم ويبذلون ما يستطيعون من أجل سلامتهم. صحيح أنني أحتسب عند الله ما أنفقه على أولادي، لكن المسيحي أو الهندوسي ليس أقل مني عطاء لأولاده. كل مولود يولد على الفطرة، والبشر كلهم يشتركون بالتكوين النفسي ذاته والميول ذاتها، وما علينا إلا أن نشاهد أفلاماً من أقوام ولغات وأديان مختلفة لنرى كيف أن النفس البشرية واحدة. لو شعر أبناء الأقليات في سورية أن المسلمين السنة يشاركونهم الوطن، ويعتبرونهم مساوين لهم في جميع الحقوق والواجبات، واقتنعوا أن ذلك حقيقي وليس تظاهراً، فإنهم لن يقلوا إخلاصاً وعطاء لسورية عن غيرهم أبداً.

لكن هل نصبح مواطنين سوريين وننسى أننا مسلمون نشكل بكافة لغاتنا أو ألواننا أمة واحدة كلنا ننتمي إليها؟ هل يمكن أن نكون مواطنين مع غير المسلمين دون أن يكون ذلك على حساب ديننا؟ وهل يحل لنا أن نحس برابطة بيننا وبين كفار لا يؤمنون بديننا؟

يفصّل ربنا في سورة النساء ما يتوجب على المؤمن إن قتل مؤمنا خطأً، فيقول:

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} النساء.

فمع أن المؤمن المقتول خطأ مؤمن فإن رب العالمين نسبه إلى القوم العدو للمؤمنين، الذين في الغالب ليسوا مؤمنين، لذلك قال من قوم عدو لكم وهو مؤمن، بهذا التأكيد على إيمان المقتول يؤكد أن قومه قد يكونون كافرين وقد يكونون مؤمنين، لأن المؤمنين يكونون أعداء للمؤمنين أحياناً، ومع أن المقتول مؤمن فإنه يعامل معاملة قومه مؤمنين كانوا أو كافرين، لا دية للمقتول منهم رغم أن المقتول تربطه بالمؤمنين أخوة الإيمان "فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ" أي هو واحد من أمة المؤمنين، لكنه من قوم عدو فلا دية له.

ومن ناحية أخرى لم يُذكر رسول من الرسل في القرآن إلا وتحدثت عنه بعض الآيات على أنه واحد من قوم، هم قومه، وهو منهم، بل كثيراً ما يقال عنهم إخوته أو إخوانه رغم كفرهم واستحقاقهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة. اقرؤوا هذه الآيات عن نوح عليه السلام:

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{59} قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{60} قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{61}" الأعراف.

خاطب ربنا الأنبياء بأنهم أمة واحدة تجمعها العقيدة والرسالة رغم تباعد أزمانهم وأماكنهم وأنسابهم. قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{52}" المؤمنون.

أي كان كل رسول ينتمي إلى أمة تربطها أخوة العقيدة هي أمة الرسل ، وكان في الوقت نفسه فرداً من قوم ، هم قومه وهو منهم ، وحتى لوط الذي بعث في غير قومه الأصليين قال تعالى عنهم وقد كانوا فاسقين "إخوان لوط":

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ{12} وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ{13}" ق.

وما أكثر ما يخاطب الرسل أقوامهم قائلين: "يا قومي" يتم تخفيفها في القرآن دون أن يتغير معاناها ، فتقرأ "يا قومِ". وهذا يعني أنني من الممكن أن أكون من أمة الإسلام وفي الوقت نفسه أنتمي لقومي السوريين. لا يتعارض شعوري بالأخوة والوحدة مع كل مسلم من أي عرق أو لون أولغة ، مع شعوري أنني واحد من قوم أتشارك معهم الوطن ونتعاون جميعنا من أجل أمنه ورفاهيته. هل يتعارض ولائي لأسرتي الصغيرة أي زوجتي وأولادي مع انتمائي لقريتي أو قبيلتي؟ وقد يكون من أفراد أسرتي من هو كافر ، أليست المسيحية التي أباح الله لي أن أتزوجها إن كانت محصنة ، كافرة؟ أما قال تعالى:

"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ{72} لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{73}" المائدة.

إذن يمكنني أن أكوّن أنا المسلم المؤمن مع امرأة كافرة بلا جدال - لكنها من أهل الكتاب - أسرة متحابة تكون لها ذرية ، أخوالهم كفار ، وأعمامهم مسلمون.

أمة متحابة متماسكة رغم الاختلاف

هنالك من المسلمين من يظن أنه محرم علينا أن نحب غير المؤمنين ، بل حتى أن نبدأهم بالسلام ، وأن نهنئهم في أعيادهم. وهم بكل نية طيبة يريدون الاستجابة لما أمرنا به ربنا في هذه الآية:

"لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{22}" المجادلة.

لكن ربنا حذر المؤمنين من كفار هم يهود المدينة ، كانوا لهم محبين بينما أولئك الكفار يضمرون للمؤمنين أشد العداوة ، فقال:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ{118} هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{119} إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{120}" آل عمران.

والله هنا يثبت أن المؤمنين المخاطبين وكانوا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يحبون هؤلاء الكفار من اليهود ، ولا يدرون أن الآخرين يكرهونهم ، وكان المؤمنون يؤمنون بالقرآن وبالتوراة التي يؤمن بها هؤلاء الحاقدون ، بينما هم لا يؤمنون بالقرآن. ومع ذلك لم يلمهم الله على حبهم لأولئك ، إنما بين للصحابة الكرام أن هؤلاء اليهود ليسوا جديرين بحبهم ، لأنه كان حباً من طرف واحد تقابله عداوة شديدة وكراهية وحقد من الطرف الآخر.

بالمقابل شهد الله للنصارى أنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا ، لأن منهم رهباناً وقسيسين عبّاداً لله ، ولأنهم لا يستكبرون كما يستكبر اليهود. قال تعالى:

"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{82} وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ{83} وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ{84} فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ{85}" المائدة.

بينما كان يهود المدينة يخادعون الصحابة ويدعون أنهم مؤمنون بأن محمداً رسول الله ، وأن القرآن وحي من الله ، وإن كانوا هم باقين على دينهم ، أي يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن كما نؤمن نحن برسلهم وكتبهم دون أن نتحول إلى دينهم. بينما النصارى هم الذين يمكن أن تثقوا بحبهم لكم ، لأن منهم رهباناً متعبدين ، ولأنهم لا يستكبرون على الناس ، ولا على الحق ، ويشهدون أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق من ربهم.

الحب غير الولاء

إن الحب ، سواء في العلاقة بين الزوجين ، أو العلاقة بين صديقين ، شيء مختلف عن الولاء:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{51}" المائدة.

والولاء يكون بين المؤمنين:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{72} وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ{73}" الأنفال.

الولاء أكثر من مجرد الصداقة والمودة ، إنه تحالف وارتباط قد يبلغ حد الالتزام القانوني ، فقد كان المؤمنون في المدينة المنورة بعضهم أولياء بعض وكان النبي وليهم جميعهم ، والواضح في هذه الآيات نفي علاقة الولاء بين أمة المؤمنين في المدينة المنورة والمؤمنين الذين لم يهاجروا وينضموا إلى دولة الإسلام ، إنما بقوا في أرضهم ومساكنهم ، مع أن المؤمنين إخوة ، وبينهم المودة والرحمة على اختلاف قبائلهم وأوطانهم.

إذن من لم يهاجر من المؤمنين إلى المدينة المنورة ويلحق بأمة المؤمنين ليس له حق بولايتهم حتى يهاجر ، لكن هذا لا يعني أنه لا حق له في محبتهم وصداقتهم ، وهذه الآية دليل على أن الحب والصداقة ليسا هما الموالاة المحرمة علينا إلا مع المؤمنين ، أي يمكنك أن تصادق شخصاً كافراً غير محارب للمسلمين وتحبه دون أن تواليه ، لأنه لا يعقل أن يحرم علينا ربنا أن نحب أخاً لنا مؤمناً لأنه لم يلحق بنا في دولتنا إما لأن ظروفه لا تسمح له أو لأنه متمسك بموطنه وعشيرته ولا يحب أن يفارقه. للمؤمن على المؤمن حق أن يحب له من الخير ما يحب لنفسه ، وأن يحبه في الله ويكون معه في أعلى درجات اللطف ، لكن لا يواليه ما دام ممتنعاً عن الهجرة ، أي لم ينضم إلى دولتنا ويحمل جنسيتنا ، وهذا يرينا أن علينا أن نحب جميع المؤمنين في الأرض ونراهم إخوة لنا ، لكن لا نواليهم ما لم يكونوا أعضاء في دولتنا التي نحن مواطنون فيها.

وهذه آية أخرى يتضح لنا فيها اختلاف الولاء عن المودة والتحابب ، قال تعالى عن الذي قُتل مظلوماً:

"وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً{33}" الإسراء.

فولي القتيل له صلاحية أن يصر على القصاص وقتل القاتل أو أن يعفو عن القاتل ويتنازل عن دم القتيل أو يرضى بالدية دون الثأر.

"إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ{55} وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ{56} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن

قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{57} وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ{58} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ{59}" المائدة.

أي يشكل المتوالون حزباً واحداً يربط الولاء بين أعضائه ، ويعطيهم حقوقاً على بعضهم بعضاً ويفرض عليهم واجبات تجاه بعضهم بعضاً ، ومع أن المواطنين في دولة واحدة تربطهم ببعضهم بعضاً علاقة الجنسية المشتركة والوطن الواحد ، إلا أن علاقة الولاء مختلفة ، لأنها لا تكون إلا بين المؤمنين ، بينما المواطنة رابطة تتجاوز الدين والعرق والجنس.

البنت البكر الصغيرة بالعمر لا تتزوج إلا بمن يرضاه وليها ويعقد هو قرانها عليه:

"الثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا ، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ ، وَإِذْنُهَا سُكُوتُهَا" ، وحدثنا ابْنُ أَبِي عُمَرَ ، حدثنا بِهَذَا الإِسْنَادِ ، وَقَالَ: الثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا ، وَالْبِكْرُ يَسْتَأْذِنُهَا أَبُوهَا فِي نَفْسِهَا ، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا ، وَرُبَّمَا قَالَ: وَصَمْتُهَا إِقْرَارُهَا" (صحيح مسلم).

وهذا يعني أن الولاء علاقة مختلفة عن مجرد المحبة والمودة ، إذ وليها محدد لا يكون غيره ولياً لها مهما كانت تحبه ويحبها.

المودة مع الكافر

قال تعالى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{8} إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{9}" الممتحنة.

الآية الأولى ترفع الحرج عن المؤمنين فتكون علاقتهم بالكفار الذين لم يقاتلوهم بسبب الدين ولم يخرجوهم من ديارهم علاقة طيبة سماها ربنا البِرّ ، وهو قمة الإحسان في المعاملة لذلك أمرنا ببر الوالدين ، والأغلب في البر أن يكون مصحوباً بالودّ ، بينما الآية الثانية تحرم على المؤمنين موالاة من يقاتلون المؤمنين بسبب إيمانهم ، أو يخرجونهم من ديارهم أو يعينون غيرهم على إخراجهم ، حتى لو كان الإخراج لسبب آخر غير الدين ، بل نحن منهيون عن أن

تكون بيننا وبينهم مودة على الإطلاق ، لأنهم بعدوانهم على المؤمنين لإيمانهم إنما هم يحادّون الله ورسوله ، أي يغاضبونه ويعادونه ويخالفونه:

"لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{22}" المجادلة.

كما حذرنا تعالى من مُوادّة الكفار المحاربين لنا لإيماننا ، فهم لنا عدو يتربص بنا الدوائر وليس من الحكمة في شيء أن تحب عدوك الذي يتحين الفرصة للانقضاض عليك:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{1} إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ{2}" الممتحنة.

أي علينا أن نتخذ من يعادينا في الدين عدواً ، فلا نحبه ولا نصادقه ومن باب أولى لا نواليه. والخلاصة أن المودة مع الكافر المحارب لله والرسول والذي عداوته بيّنة هي محرّمة ومن باب أولى موالاته والتحزب معه والتبعية له ، لا لأنه كافر بل لأنه عدو لن يضيع فرصة لإيذاء المؤمنين ، والمودة معه تسهل له أن يضرنا. ثم إن المودة تدفع الإنسان إلى أن يتشبه بالمحبوب ، والله لا يرضى لنا أن نقتبس أية أخلاق من كافر محارب لدين الله ، وبالمقابل إن المودة تجعل غير المؤمن الذي ليس عنده ما يدفعه إلى الحقد على الإسلام والمسلمين ومحاربتهما ، يميل وهو يشعر أو لا يشعر إلى التشبه بالمؤمنين ثم الانضمام إليهم ، ولهذا شرع ربنا أن نخصص جزءاً من مال الزكاة نتألف به قلوب بعض الكفار من أجل اجتذابهم للإسلام. ومخطىء من يظن أنه يكفي أن نبين للكفار محاسن الإسلام كي ينجذبوا إليه ويدخلوا فيه. قد يكفي هذا لهداية فئة قليلة من الذين وهبهم الله الحكمة والتعقل ، لأن الغالبية العظمى من الناس تدخل في الأديان وتؤمن بها لأسباب وجدانية تجعلهم ينظرون إلى الحق الذي فيها فلا

ينكرونه ، بل يأخذون به وينضمون إلى المؤمنين به. ولا يمكن أن نجتذب الناس للإسلام إن كنا نكرههم ونحقد عليهم ، نعم نحن لا نحب الضلال الذي هم فيه ، ولا نحب منهم من يعادينا ويعادي ديننا ، لكننا نحب الخير لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم ، ونحرص على إنقاذهم من النار لأننا نحبهم ، لا لأننا نكرههم. إن كنت أكرهك ما الذي يجعلني أحرص عليك وأجتهد في محاولتي هدايتك ؟. ما دمت أكرهك فلتذهب إلى الجحيم. نحن بشر وتحكمنا عواطفنا وأفكارنا ولا يمكن أن نجمع في قلوبنا الكراهية والعداوة للكفار مع الرغبة الحقيقية في هدايتهم ، لأن ما خرج من القلب هو الذي يدخل إلى القلب.. ديننا دين الرحمة ، ولا تحس القلوب بالرحمة وهي مملوءة بالعداء ، لأن العداوة تولد البغضاء وتصاحبها ، أما الرحمة فهي وليدة المودة ورفيقتها. كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لقومه بالهداية بكل صدق في أشد مواقف الإيذاء الذي ناله منهم. لن نستطيع أن نهدي البشرية ما لم نحبها ، ولن يهتدوا ما لم يحبونا ، ولن يحبونا إن لمسوا منا الجفاء والكراهية. إن كنا نريد أن نكون على خطا محمد صلى الله عليه وسلم وأن نخرج الناس من الظلمات إلى النور كي ننال رضى الله وثوابه العظيم فعلينا أن نكون مثله رحمة للعالمين ، والعالمين في القرآن تعني كل الشعوب مؤمنها وكافرها ، بل وتعني غير البشر من مخلوقات. إن تبليغهم الرسالة ونحن نستشعر الكراهية لهم ليس هو البلاغ المبين الذي يقيم عليهم الحجة ويبرىء الذمة ، ألم يوص ربنا موسى وهارون أن يتلطفا في دعوة فرعون وأن يقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو أن يخشى فيهتدي وينجو من عذاب الله. أرأيتم إلى التجار والباعة الذين يريدون أن يبيعوا بضاعتهم كيف يتقربون إلى الزبائن وهم كلهم حرص على كسب مودتهم وإعجابهم ، ألسنا تجاراً مثلهم بضاعتنا هي دعوة الحق ؟ يقول الشافعي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة	ولكن عين السخط تبدي المساويا
ولست بهيّاب لمن لا يهابني	ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
فإن تدن مني تدن منك مودَّتي	وإن تَنْأَ عني تلْقني عنك نائياً
كلانا غني عن أخيه حياته	ونحن إذا متنا أشد تغانيا

عندما ترضى عن إنسان فإنك لا تكاد ترى إلا محاسنه ، وإن أنت لم تر فيه إلا محاسنه فإنك ستعجب به ثم تحبه ، وبالمقابل إن كنت ساخطاً على إنسان فإنك لا تكاد ترى فيه إلا معايبه ، وعندها يستحيل أن تعجب به وأن تحبه. كيف سنكسب قلوب البشر لنجعلهم يعجبون بنا ويحبوننا فيدخلون في ديننا الحق؟ إننا نمتلك أغلى وأرقى وأهم سلعة يمكن

للبشرية أن تعرفها لكننا تجار فاشلون ، ننفر زبائننا منا بدل أن نجتذبهم إلينا. أطلقوا لقلوبكم العنان ، واتركوها تحب وترحم كل شيء ، وكل بشر ، ولا تكون شدتها إلا على من يحاربها في دينها أو يخرجها من ديارها ، وعندها سنتحول إلى أذكى وأمهر تجار ، وسيكثر زبائننا ويدخلون في دين الله أفواجاً.

السلام على الكافر

لم يستطع اليهود بالمدينة المنورة التحكم بمشاعر الكره والحقد والحسد والازدراء التي امتلأت بها قلوبهم نحو النبي صلى الله عليه وسلم ونحو أصحابه ، فصاروا إذا التقوا بأحد منهم يقولون له: (السّامُ عليكم) والسّام هو الموت ، فهو دعاء على النبي صلى الله عليه وسلم أو على الصحابي بالموت ، يدعونه وهم يتظاهرون أنهم يلقون السلام ، لأن كلمتي السّام والسلام قريبتان في اللفظ. لم تنطلِ حيلتهم على محمد صلى الله عليه وسلم ، فصار لا يقول في رده على تحيتهم إلا كلمة وعليكم ، فإن كان السلام رده إليهم وإن كان السّام ارتد عليهم ، ولم يجعل منها قضية ، لأنه حليم ، وليس من عادته أن يغضب لنفسه ، بل لا يغضب إلا لله. لم تمر الأمور بسلام حيث جاء يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده زوجه عائشة رضي الله عنها وحيوه بالسّام بدل السلام ، فغضبت عائشة وردت عليهم بعنف ، فعلمها النبي صلى الله عليه وسلم أن الرفق أخلق بالمؤمن وتوجه بتعليمٍ لأصحابه أنهم إن سلم عليهم أهل الكتاب "وهذا كان الاسم المستعمل لليهود في المدينة في الغالب" أن يقتصر ردهم على كلمة وعليكم.

لنقرأ هذه الأحاديث الشريفة:

"دخَل رَهطٌ من اليهودِ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: السَّامُ عليكم ، قالتْ عائشةُ: ففَهِمْتُها ، فقلْتُ: وعليْكُمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ ، قالتْ: فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَهْلًا يا عائشةُ ، إن اللهَ يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه" . فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ ، أو لم تسمَعْ ما قالوا ؟ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "قد قلْتُ: وعليكم" (البخاري)

"أتى اليهود النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: السّامُ عليك ، قال: (وعليكم). فقالتْ عائشَةُ: السّامُ عليكم ، ولعَنَكمُ اللهُ وغضِبَ عليكم ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله

عليه وسلم: "مَهلًا يا عائشَةُ ، عليكِ بالرِّفقِ ، وإياكِ والعُنفَ ، أو الفُحشَ". قالتْ: أولم تسمَعْ ما قالوا؟ قال: "أو لم تسمعي ما قلتُ ، ردَدْتُ عليهم ، فيُستَجابُ لي فيهم ، ولا يُستَجابُ لهم فيَّ". (البخاري).

"كان اليهودُ يُسَلِّمونَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولونَ: السّامُ عليك ، ففطِنَتْ عائشةُ إلى قولِهم ، فقالتْ: عليكمُ السّامُ واللعنةُ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "مَهلًا يا عائشةُ ، إن اللهَ يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كلِّه". فقالتْ: يا نبيَّ اللهِ ، أولم تسمَعْ ما يقولونَ؟ قال: "أولم تسمَعي أني أرُدُّ ذلك عليهِم ، فأقولُ: وعليكم". (البخاري).

"مرَّ يهوديٌّ برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: السّامُ عليكَ ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (وعليكَ). فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "أتدرونَ ما يقولُ؟ قال: السّامُ عليكَ". قالوا: يا رسولَ اللهِ ، ألا نقتُلُهُ؟ قال: "لا ، إذا سلَّم عليكم أهلُ الكتابِ ، فقولوا: وعليكُم" (البخاري).

"إذا سلّم عليكم اليهود ، فإنما يقول أحدهم: السّام عليك ، فقل: وعليك" (البخاري).

"لا تبدَؤوا اليهودَ ولا النصارى بالسلامِ. فإذا لَقِيتُم أحدَهم في طريقٍ فاضطَرُّوه إلى أضيَقِهِ" (مسلم).

"إذا لَقِيتم أهلَ الكتابِ وفي رواية: المشركين ، فلا تبدؤوهم بالسلامِ ، واضطَّروهم إلى أضيقِ الطريقِ" (رواه البخاري في صحيح الأدب المفرد وصححه الألباني).

"لا تبدَأوا اليَهودَ والنَّصارى بالسَّلامِ ، وإذا لقيتُم أحدَهُم في الطَّريقِ فاضطرُّوهم إلى أضيَقِهِ" (رواه الترمذي وصححه الألباني).

كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول أهل الكتاب ويقصد يهود المدينة مع أنهم ليسوا هم كل أهل الكتاب ، إذ هنالك باقي اليهود المشتتين في بلدان كثيرة ، وكان هنالك أيضاً النصارى الذين يشكلون أمماً كاملة. وحتى القرآن الكريم يقول أحياناً أهل الكتاب ويكون المقصود هم يهود المدينة. لم يكن يحصل أي لبس أو إشكال في الفهم لدى السامعين ، فالعرب تقول الناس وتقصد بعض الناس مثل باقي الأهل أو الجيران أو العشيرة ، مع أن كلمة الناس المعرفة باللام والألف يمكن أن تعني البشرية كلها ، وعلى العادة نفسها كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول أهل الكتاب ، ويقصد قلة قليلة منهم ، أي يهود المدينة ، مع أن هذه الكلمة يمكن أن تعني جميع أهل الكتاب في كل زمان ومكان.

أراد صلى الله عليه وسلم أن يحذر أصحابه من أذى يهود المدينة فأمرهم أن لا يبدؤوا أهل الكتاب بالسلام ، وأن يردوا عليهم سلامهم بكلمة (وعليكم) فقط. وصلتنا نصيحته وتحذيره لأصحابه لا تبدؤوا اليهود والنصارى أو ولا النصارى بالسلام... الحديث. ويبقى التساؤل هل حذر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته وأمرهم ألا يبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، مع أن الذين كانوا يؤذونهم هم اليهود ، ولم تذكر السيرة أنه كان يعيش في المدينة يومها أي نصراني ؟ أم أنه قال لهم لا تبدؤوا أهل الكتاب بالسلام وحصل إبدال هذه الكلمة في ذاكرة أحد الرواة بما تعنيه عادة أي اليهود والنصارى ؟ كلا الاحتمالين وارد. المهم سياق الأحداث يبين بما لا يدع مجالاً للشك أن النهي عن بدئهم بالسلام كان إجراءً احترازياً مخصوصاً بزمانه ومكانه والناس المقصودين به.

عندما جُمعت أحاديث رسول الله من ذاكرة الرواة بعد أجيال من النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وتطور علم الحديث والفقه ، ثم وضع الفقهاء قواعد أصولية وقواعد فقهية يسترشدون بها في عملية استنباط الأحكام ، وضعت قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ، وبذلك تحول تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من أذى يهود المدينة في عهده والذي انتهى برحيلهم عن المدينة ، إلى حكم شرعي مطلق وعام ، ينطبق على كل اليهود والنصارى ، وعلى كل المسلمين في كل زمان ومكان. إن أخذ النص معزولاً عن سياقه التاريخي والكلامي واستنباط الأحكام منه يمكن أن يوصلنا إلى نتائج مثل هذه. لم يَفُت بعض فقهاء الأمة ذلك ، فنبهوا إلى أهمية اعتبار السياق لمعرفة ما تدل عليه الآيات والأحاديث ، لكن المسلمين المتغلبين على اليهود والنصارى ما كانوا بحاجة إلى مراجعة الحكم الشرعي الذي سبق أن

وضعه الفقهاء السابقون بناء على عموم لفظ أهل الكتاب أو اليهود والنصارى. أما في زماننا هذا حيث نعيش عصر الضعف والذلة بعد قرون من الانحطاط وتفكك عرى الإسلام والاستعمار الأوربي فقد صرنا في حاجة حقيقية لمراجعة حكم تحريم بدء المسيحي أو اليهودي بالسلام، فهم لم يعودوا أهل ذمة عليهم الرضا بوضعهم لأنهم أمة مغلوبة عسكرياً. ومما يبشر بالخير أنه هنالك عودة وعي بأهمية السياق في استنباط الأحكام تتجلى بالكم الكبير من المقالات ورسائل الماجستير والدكتوراه التي تبحث هذا الموضوع وتؤكده من جديد، كما هنالك أيضاً من تجرأ من فقهاء هذا العصر ومفكريه الإسلاميين على إعادة النظر في هذا الحكم الذي لا يبدو منسجماً مع روح الإسلام، دين الرحمة وتأليف القلوب. ربنا لا يأمرنا إلا بالنافع لنا ولا يحرم علينا إلا الخبائث الضارة بنا، فما الضرر في أن نبدأ أصدقاءنا أو زملاءنا المسيحيين بالسلام؟

اعملوا بحثاً في القرآن الكريم واستعرضوا التكرار الكثير لأمر الله لعباده الصالحين أن يقولوا سلام، وحتى وهو يتحدث عن المشركين العرب يقول:

"وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ{87} وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ{88} فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{89}" الزخرف.

أي مع أنه يؤكد أنهم لا يؤمنون ولا يجدي معهم الجدال يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصفح عنهم ويقول سلام، وهل تتصورون ربنا يقصد أن يصفح الرسول صلى الله عليه وسلم عن المشركين المعاندين ويردد لنفسه كلمة سلام، وهي في أغلب المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم كانت تعني بوضوح سلام التحية.

إذن ليس تحريم بدء المسيحيين واليهود بالسلام من ثوابت الإسلام، وطالما هنالك فهم آخر للحديث الوحيد الذي ينهى عن بدئهم بالسلام، ليس معتسفاً ولا متكلفاً، وأغلب الظن أنه هو الحق، فليس على المؤمن حرج أن يبدأ أهل الكتاب بالسلام. الغريب أن الفقهاء أصروا على تحريم بدء أهل الكتاب بالسلام وبقي بدء المشركين من الأديان المختلفة والملحدين بالسلام على حاله، أي مباحاً، مع أن الله أعطى لأهل الكتاب مكانة خاصة ومعاملة خاصة في ديننا. علينا أن ننظر إلى الإسلام نظرة شاملة تأخذ كل أوامره ونواهيه ومقاصده بالاعتبار دفعة واحدة، وأن نكف عن الطريقة التجزيئية في النظر لمفردات ديننا، كي لا نقع بالتناقض. هل يعقل أن ديناً يسمح لك أن تتزوج مسيحية، وبالفطرة لا بد أن يكون بينكما

المودة والرحمة ، ثم يحرم عليك أن تبدأها بالسلام ؟ لو كان هذا الدين وكتابه الكريم القرآن من عند غير الله لكان التناقض بين بعض مفرداته شيئاً طبيعياً ومتوقعاً:

"أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً{82}" النساء.

لقد لفت ربنا أنظارنا إلى إحدى آياته التي تثبت لنا أن القرآن من عنده وهي غياب الاختلاف والتناقض بين آياته ، وسنة نبيناً مبينة ومفسرة للقرآن ولابد أن تكون مثله خالية من التناقض ، إلا ما نتج عن انتقالها إلينا بروايات من الذاكرة وما حاول الذين يكرهون ديننا أن يدخلوه فيها من باطلهم. ما عليكم إلا أن تستعرضوا الأحاديث الموضوعة لتروا إلى أي حد هي تتعارض مع القرآن وثوابت السنة.

مواطنون لا ذميون

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلم من أهل المدينة عدد كبير ، وما أن استقر به المقام حتى وضع ما يسمى صحيفة المدينة أو وثيقة المدينة ، التي يقول عنها الدارسون: إنها أول دستور مكتوب في التاريخ. كان مايزال كثيرون من أهل المدينة مشركين ، وكان في المدينة ثلاث قبائل يهودية. الوثيقة نظمت العلاقات بين من يعيش بالمدينة من المؤمنين والمشركين واليهود. تبدأ الصحيفة بالقول إن المؤمنين المهاجرين من قريش والأنصار من أهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم أي انضم لهم في المدينة وجاهد معهم يشكلون كلهم أمة واحدة من دون الناس. "هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) (بين المؤمنين والمسلمين من قريش و (أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة من دون الناس." (وثيقة المدينة). وبعد عديد من الفقرات المتعلقة بأهل يثرب العرب جاء ذكر اليهود وأنهم أمة مع المؤمنين ، لهم دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن لليهود التابعين لدولة المدينة النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، والأسوة هنا تعني مساواتهم بالمؤمنين. يقول ابن منظور في لسان العرب: {والأُسْوَةُ والإِسْوَةُ: القُدْوة.... والقوم أُسْوةٌ في هذا الأَمر أَي حالُهم فيه واحدة}، أي لم يكن اليهود في دولة المدينة ذميين لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدخلها غازياً وفاتحاً ، بل جاءها مهاجراً إليها ، فرحب به فريق كبير من

أهلها ، وقالوا طلع البدر علينا. كان لابد للنبي صلى الله عليه وسلم من أن يتولى أمر المدينة ، فيكون القائم بشؤونها قيام الأمير أو الرئيس ، لكنه كما أكد أكثر من مرة لم يكن ملكاً ، ولم يتصرف كملك ، ولم يتمتع بما يتمتع به الملوك عادة من ميزات. كان ولي الأمر في المدينة ، دون أن يكون ملكاً ، فقد كان الغريب يدخل المسجد ، ومحمد صلى الله عليه وسلم مع أصحابه لا يتميز عليهم بشيء ، فيسأل هذا الغريب: أيكم محمد ؟.

المهم ، عاش اليهود مع المسلمين سنين كمواطنين معترف لهم أنهم أمة ، وأنهم لهم ما للمؤمنين ، وعليهم ما على المؤمنين ، أي المساواة التامة ، ومعترف لهم بدينهم لا يتدخل فيه أحد {لهم دينهم وللمسلمين دينهم} (وثيقة المدينة)..

وهنالك في مكة ، وقبل الهجرة بسنين ، نزلت سورة الكافرون ، تعلن استقلالية المؤمنين بدينهم ومعبودهم عن دين المشركين وما يعبدون من آلهة ما أنزل الله بها من سلطان. قال تعالى:

"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6}" الكافرون.

لكم دينكم ولي دين أي لي ديني.

رحم الله سيد قطب الذي فهم منها وجوب البراء من الكفار ، والمفاصلة عنهم ، وعدم مداهنتهم أو مجاملتهم على حساب الدين الحق.. لقد فاته أن يلحظ أن الآيات التي تُظهر المفاصلة عن الكفار تعلن في الوقت نفسه الاعتراف بهم وبدينهم ، لا على أنه حق ، وإنما لهم الحق في عبادة من يشاؤون ، وهم على دين مستقل ومنفصل عن الإسلام ، لكنه دين ، ومن حق أهله أن يعترف باقي المجتمع بهم وبه. وهكذا في هذا الزمان أتشارك أنا المؤمن الذي يقول لا إله إلا الله المواطنة مع من هم كفار برأيي ، لكن لا أعبد ما يعبدون ، ولي ديني ولهم دينهم ، ولا حق لي أن أمارس عليهم أي ضغط أو إكراه بخصوص دينهم وعباداتهم. إنه اعتراف يشبه اعتراف دولة بأخرى في هذا الزمان ، مع وضوح الحدود الفاصلة بين البلدين المتجاورين.

إذن هنالك في الإسلام شكل آخر للعلاقة مع غير المسلمين في بلادنا ، ليس التعامل معهم فيه على أنهم مجرد ذميين حقوقهم مختلفة عن حقوق من عاهدوهم وقبلوهم في ذمتهم ، وهو المواطنة التي تُلَخص حقيقة التشارك بالوطن على قدم المساواة والندية. وهذا النمط من

العلاقة مع شركائنا في الوطن من غير المؤمنين الذي مارسه النبي صلى الله عليه وسلم والأمة الإسلامية الناشئة ، يرفع عنا في هذا الزمان أي حرج شرعي إن نحن رغم إيماننا والتزامنا قَبِلنا المواطنة المشتركة مع غير المؤمنين في بلداننا.

وبهذا تكون الدولة في سورية على سبيل المثال دولة للسوريين ، لا دولة للمسلمين من دون الناس ، وقلما تجد دولة في العالم جميع أهلها من دين واحد ومذهب واحد.. فحتى لو كان من أتشارك معه الحياة كافراً بحسب عقيدتي ، فلا شيء يمنع أن أتعامل معه تعامل مواطن ومواطن في دولة واحدة ، له ما لي وعليه ما علي. كما إنها ستكون دولة سورية ، لا دولة إسلامية ، لكن بمقدور المؤمنين السنة فيها أن يطبقوا ما شاؤوا من ثوابت الشريعة الإسلامية على أنفسهم ، لا على سواهم.

لما كان المسلمون فاتحين متغلبين على الشعوب التي تحول فيها غير المسلمين إلى ذميين قاموا بفرض أحكام الشريعة الإسلامية على الجميع بمن فيهم الذميون على اختلاف أديانهم ، وإن كانوا تساهلوا معهم بالخمر والخنزير غير المحرمين في شرائعهم. لكن الحال مختلفة الآن ، وللإسلام أحكامه التي تناسب حالنا الراهن. وهذا ما سأفصل فيه إن شاء الله في الفصل السابع عن التعددية في دولنا المنشودة ، التي لن تكون دول مواطنة ولن تكون ديمقراطية حقاً إلا بالعلمانية أو بالتعددية الشاملة للتشريعات والقوانين إضافة للثقافة والسياسة.

الفصل السادس

الحاكمية لله أم لسواه؟

تمهيد

بعد أن استحال تقريباً على تنظيمات الإسلاميين في كثير من أقطارنا أن تصل إلى الحكم لتعلنها دولة إسلامية على النمط المترسخ في أذهانهم، والذي تمثل خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عمر بن عبد العزيز النموذج المثالي له، وتبين لهم أن القوى الاستعمارية التي تتبنى إسرائيل وتسهر على حمايتها تقف بكل قواها في طريق تحقيق الإسلاميين لحلمهم عن طريق الثورة المسلحة، صاروا أكثر واقعية، وانتبهوا إلى أن طوائف أخرى تشاركهم أوطانهم، وأولها طائفة جديدة مكونة من كثير من الذين آمنوا أن تقدم بلادنا ونهضتها لن يتم ما لم نهمش الإسلام من الحياة العامة، ونبني دولاً علمانية يستقل فيها البشر في تحديد القيم والأخلاق والقوانين التي يريدون أن تحكم سلوكهم. أدرك الإسلاميون ضعفهم، وأدركوا أن الرافضين لإنشاء دول إسلامية مكان الدول الحالية ليسوا قلائل وليسوا رقماً يمكن إهماله أو إغفاله. بالطبع كان للانفتاح على الثقافات العالمية والتواصل بين الشعوب أثره أيضاً إضافة إلى الصعوبات الاقتصادية وإخفاق الأنظمة الحاكمة في تحرير الأرض المغتصبة وفي تأمين مستوى معاشي لائق لشعوبها، كل ذلك جعل فكرة الديمقراطية واردة عند الإسلاميين، وأخذوا يطالبون بها مع المطالبين. وكالعادة عندما يظهر جديد في حياتنا تكثر الفتاوى التي تحرم وتكفر، أو تعتبر هذا الجديد انحرافاً ستقع فيه الأمة بفعل مكائد أعدائها، الذين يريدون إخراجها من دينها. كثرت المقالات والمحاضرات التي تستنكر أن يفكر المسلمون بالديمقراطية، لأنها بدت لهؤلاء المعترضين تعدياً على الحاكمية الإلهية وسلطة التشريع التي لا يحق لغيره أن يمارسها.

كان الخوارج الذين اعترضوا على التحكيم الذي أعطى معاوية الحق في الخلافة أول من قال بحصر كل أشكال الحكم بالله ورفعوا شعارهم "لا حكم إلا لله". لعلهم كانوا أول من غالى وتطرف وبالغ في الإسلام، فأعطى أموراً فيه أكثر من حقها وحجمها. ثم إنهم أول من خلط بين

مفهومين هما "الحكم" و "الإمرة"، لذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سمع قولتهم "لا حكم إلا لله": "كلمة حق أريد بها باطل" وقال إنهم يقصدون لا إمرة إلا لله، وقد روي عنه كرم الله وجهه في نهج البلاغة أنه قال: "كَلِمَةُ حَقّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إلاَّ للهِ، ولكِنَّ هؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ، فَإِنَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِير بَرّ أَوْ فَاجِر، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِر". (نهج البلاغة).

وفي رواية أُخرى أنّه (عليه السلام) لمّا سمع تحكيمهم قال: "حُكْمَ اللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ. وقال: أَمَّا الإمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فيها التَّقِيُّ، وَأَمَّا الإمْرَةُ الْفَاجرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إلى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ" (نهج البلاغة).

وعندما اطلع المسلمون في القرنين التاسع عشر والعشرين على المفاهيم السياسية التي ظهرت في الثقافة الأوربية، وكثرت محاولاتهم لتأصيل المفاهيم التي أعجبتهم تأصيلاً إسلامياً، بأن بحثوا في الثقافة الإسلامية عن مفاهيم مشابهة لما أبدعه الفكر الغربي، فربطوا بين الديمقراطية والشورى مثلاً، والسيادة sovereignty والحاكمية الإلهية. وبالغ المفكرون الإسلاميون فحصروا الحاكمية بالله سبحانه وتعالى، وأبدعوا نوعاً ثالثاً من التوحيد، أسموه توحيد الحاكمية، وبذلك دخل المفهوم في صلب عقيدة المسلمين، بدأ الأمر مع نامق كمال رحمه الله في تركيا مبكراً في القرن التاسع عشر، حيث كانت تركيا أسبق من غيرها من أقطار الإسلام احتكاكاً وتأثراً بالحضارة الأوربية، وزاد عليه علي سعاوي، الذي كان أول من قال بوضوح: إن الحاكمية لله وحده، من المعاصرين وأعلنها "الحاكم هو الله". ثم كان لأبي الأعلى المودودي رحمه الله الدور الأكبر في إبراز مفهوم الحاكمية، واعتباره من خصائص الألوهية، وإن كان قال: إن الأمة خليفة عن الله، ولها بعض الحاكمية المستمدة من الله الذي استخلفها وأعطاها الصلاحية لتجتهد في استنباط الأحكام الفقهية لما يستجد، وسمى هذه الحاكمية المعطاة للأمة بوصفها خليفة عن الله "الحاكمية الشعبية".

ثم جاء دور المفكرين الإسلاميين المصريين وعلى رأسهم مفكرو جماعة الإخوان المسلمين. كان أولهم حسن البنا ثم عبد القادر عودة ثم سيد قطب. تبنى سيد قطب تصور المودودي للحاكمية على أنها من خصائص الألوهية ، وقاده هذا الفهم إلى استنتاج خطير ، نجده واضحاً جلياً في كتابه مقومات التصور الإسلامي ، وإن كان متضمناً أيضاً في كتاب معالم في الطريق ، لكن بصورة أقل بروزاً.. كان هذا الاستنتاج هو أن "كل من شرَّع لغيره فقد تألّه ، وكل من أطاع تشريعاً وضعياً من صنع البشر فقد أشرك". وكان لسيد رحمه الله أثر كبير في انتشار هذا الفهم الذي يقود مباشرة إلى تكفير الحكام والمحكومين في البلاد الإسلامية في هذا العصر ، فقد اجتمع لسيد أسلوب أدبي رائع ، مجرد قراءته متعة وشاعرية وروحانية ، ثم جاء استشهاده في سبيل فكرته هذه ليعطي مصداقية عالية جداً لكل آرائه ، فكان موته مفتاح القلوب لأفكاره. ثم نشأت على فكره جماعات تكفيرية جهادية ، أرادت أن تحول القول إلى عمل ، وعانت منها منطقتنا ما عانت ، وما تزال تعاني. لم يلحظ سيد ومن سار على نهجه ، أن التشريعات الوضعية لا توضع على أنها دين يُحل الحلال ويحرّم الحرام ، وكذلك الشعوب التي تنفذ هذه التشريعات ، لا أعتقد أن منها أحد من المسلمين ينظر إلى القوانين الوضعية نظرة تقديس ويراها ديناً أو مكملة لدينه. الفرق واضح في أذهان الناس الذين في الحقيقة يخضعون في الدول الحديثة إلى ثلاثة أنواع من التشريع ، أولها ما هو مطبق عندهم من شرع الله ، وثانيها القوانين الوضعية ، وثالثها وضعي أيضاً لكنه غير مكتوب ، ولا تتدخل الدولة في فرضه على الناس ، إنما وسائل الضغط الاجتماعية هي التي تجبر الناس على الالتزام به ، وهي العادات والتقاليد وقانون العيب.

أنا لا أحمّل سيد قطب رحمه الله المسؤولية عن ظهور التيارات التكفيرية المعاصرة لأنني لا أحبه ، فالله وحده يعلم مقدار محبتي له ، فهو والشيخ جودت سعيد أحب كاتبين لي ، والأعمق تأثيراً في فهمي للإسلام ، وكما قال الشاعر: "كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه". لقد تعلمت من سيد رحمه الله كيف أتذوق القرآن الكريم وأعيش في أجوائه عندما أقرؤه أو أستمع إليه ، وإني أعتبر كتابه في ظلال القرآن كنزاً للأمة ، وكم تمنيت أن يتوافر لي الوقت لأقوم بنوع من التهذيب لهذا الكتاب القيم ، فأحذف منه الفقرات التي يكفّر فيها سيد المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، ليبقى لنا منه ، روعته وتميزه عن أي تفسير آخر للقرآن ، إذ لم يأت أحد

بمثل ما أتى به سيد رحمه الله ، وأذكر ذلك الآن لعل أحداً غيري يقوم به ، ليتمكن المسلمون جيلاً بعد جيل ، من الاستفادة من هذا الكتاب الذي هو أكثر من رائع.

قصة الحاكمية

نتحدث عن الحاكمية وننسبها إلى الله وكأن معناها واضح جلي ، لكن الحقيقة غير ذلك ، إنه مفهوم مُشْكِل ، لا تفهم المقصود منه بسهولة ، ما لم تقم ببحث علمي جاد ، لذا لابد لي قبل أن أكمل أن أحكي لكم حكاية الحاكمية هذه ولو بإيجاز وتبسيط. تعلمون أن ربنا أخذ على النصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله:

"اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{31}" التوبة.

وعندما جادل عديّ بن حاتم النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً (إنا لسنا نعبدهم)، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه و يحلون ما حرم الله فتستحلونه ؟" قال عديّ: بلى ، فأجابه: "فتلك عبادتهم" ، كما جاء في حديث حسنه الألباني. لم يكن رجال الدين في أوربا مثل علمائنا ، يقتصر دورهم على استنباط الأحكام الفقهية من نصوص شرعية من عند الله ، أو قياساً على أحكام أتت في القرآن أو الحديث الصحيح. فقد اجتمعت لدى بابوات الكنيسة في أوربا القرون الوسطى سلطة الدين وسلطة الدنيا ، وصار البابا هو الحاكم بأمره ، إذا قضى أمراً فلا راد لقضائه. كان لا يُسأل عما يعمل وهم يُسألون.. كان البابا والكنيسة معه أرباباً من دون الله بالفعل ، فقد كان هو من يشرّع لهم ما يحل وما يحرم ، وكان في الوقت نفسه هو الملك والسيد المطاع في كل شيء ، والناس أقرب إلى العبيد أمام سلطته ، وبهذه المكانة العظيمة ، استطاع البابا أن يُخضع حتى الملوك لسلطانه ، وكانوا كلهم يأتون في المكانة بعده ، ومنه يستمدون شرعيتهم كملوك.. لكنّ بقاء الحال من المحال ، إذ أخذ الأوربيون يتعلمون ، والعلم نور ، وظهرت عقول تأبى الخضوع لسلطة ديكتاتور يفرضها حتى على النظريات العلمية المكتشفة ، وكان لا بد من نضال طويل لتتحرر أوربا من سلطان رجال الدين الطاغي. جاءت الضربة القاصمة من مارتن لوثر وكالفن وغيرهما ، حيث سحبوا البساط من تحت أقدام البابا

والكنيسة معه بالإصلاح الديني الذي قاموا به ، والذي كان يقوم على فكرة بسيطة جداً ، وهي أن يقرأ المؤمنون كتابهم المقدس بأنفسهم ، دون أن تبقى قراءته وفهمه حكراً على رجال الدين وباللغة اللاتينية حصراً. ترجموا الكتاب المقدس إلى اللغات الأوربية المختلفة ، فقرأه الناس. وعندما قرؤوه اطلعوا على العهد القديم الذي كان رجال الكنيسة قد غيبوه عنهم ، وفي العهد القديم ، وهو الكتاب المقدس عند اليهود ، التوراة وما أضيف لها ، يقرأ المؤمنون عن بني إسرائيل وأنبيائهم وملوكهم وحروبهم وإنجازاتهم الدنيوية ، وكل ذلك مختلف عما كان يدعوهم له رجال الكنيسة من احتقار للدنيا وزهد بها. رحم الله عزت بيغوفيتش ، الذي ترك لنا كتاباً رائعاً يجمع بين الدقة والوضوح والبساطة ، وهو كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب". فيه تجدون كيف أن اليهودية والنصرانية تطرفان متناقضان ، حيث اليهودية بكل عهدها القديم تركز أغلب تركيزها على الدنيا ولا تكاد تذكر الآخرة ، وحيث الأناجيل التي لا تكاد تذكر الدنيا.

لقد جاء عيسى عليه السلام ليعيد بني إسرائيل إلى الاعتدال والتوازن ، فكانت رسالته تدعو بإلحاح إلى الزهد والتعلق بالآخرة. المهم كان الأوربيون بفضل الكنيسة يرون العمل من أجل الدنيا معصية لا بد منها ، والزواج شر لابد منه ، وحتى الأكل والشرب والجنس كذلك ، ثم قرؤوا العهد القديم فوجدوا أنبياء بني إسرائيل الذي كانوا في الوقت نفسه ملوكاً لا يهملون الدنيا ولا يترهبنون ، بل يبنون ويحاربون ويحبون النساء ويتزوجون الكثيرات ويحرصون على كسب المال ، وفي الوقت ذاته لم يكن لديهم "بابا" يتحكم بهم ويشرع لهم من الدين ما يشاء ، فقد كانت تسوسهم الأنبياء كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والأنبياء معصومون ومترفعون عما حرمه الله ، وعن ظلم البشر والتكبر عليهم.

مع أن الكتاب المقدس عند النصارى مؤلف من العهد القديم الذي هو الكتاب المقدس عند اليهود ومن العهد الجديد الذي هو الأناجيل الأربعة ورسائل بولس وما شابه ، فإن نصارى أوربا كانوا يُلَقّنون ديناً مستمداً من العهد الجديد وحده ، لذا كان اكتشافهم للعهد القديم بالنسبة لهم بمثابة الاطلاع على دين جديد بروح جديدة ، وهكذا كانت البروتستانتية روحاً تجمع بين النصرانية المنصرفة عن الدنيا ، واليهودية المتكالبة على الدنيا ، أي كانت أشبه بتوازن الإسلام الذي يهتم بالآخرة ولا ينسى الدنيا ، فكانت البروتستانتية تحريراً لطاقات الأوربيين ، الذين اندفعوا يعملون ويجتهدون لدنياهم بحماس وإصرار ، دون شعور بالذنب أو التقصير بحق معبودهم ، خاصة أن البروتستانتية أقنعتهم أنه مهما عمل الإنسان من سوء فإن

إيمانه بالمسيح رباً ومخلصاً سينجيه من النار ، لذلك تعزو الدراسات الاجتماعية تقدم أوربا في القرون الخمسة الأخيرة إلى ما يسمونه "أخلاق العمل البروتستانتية".

لكن ما علاقة هذا كله بالحاكمية ؟

لقد أراد الأوربيون أن يتحرروا من سلطان الكنيسة ، فكان لهم ذلك من الناحية الدينية بفضل الإصلاح الديني والبروتستانتية ، وكان لا بد لهم من أجل التحرر من تسلط البابا والكنيسة من سحب البساط من تحتهما ، وإقناع الجماهير أن هنالك من هو أحق بالمُلك من البابا وكنيسته. وقتها اخترعوا مفهوم "سوفرن وسوفرنتي "Sovereign & Sovereignty". كان المقصود بالسوفرن الشخص الذي له حق التصرف بالأمة من جميع النواحي ، دون أن يحق لأحد مساءلته أو محاسبته ، ويكون كل شيء وحتى الناس بمثابة ممتلكات له ، وهو السيد الذي يُنعم على عبيده بما شاء وكيف يشاء. كان السوفرن هو البابا لكن دون دين أو كنيسة ، وليبعدوا الجماهير عن البابا الذي كان يقوم بدور السوفرن ، قال المفكرون إن الملك في كل أمة هو السوفرن الذي يجب أن يطاع الطاعة العمياء التي كانت تعطى للبابا. بهذا تحرر الملوك في أوربا من قدر كبير من سلطان البابا ، لكنهم مع الزمن صدقوا أنهم سوفرن ، وتصرفوا بطغيان دفع بعض الشعوب الأوربية إلى الثورة ، التي كان لابد لها من فكر تقوم على أساسه ، فظهر من المفكرين من يقول: "السوفرن الحقيقي في كل مجتمع هي الدولة" ، هكذا الدولة ، دون أن يكون بالإمكان تحديد من هي الدولة ، ودخلت أوربا في مرحلة عبادة الدولة ، حيث للدولة كل صلاحيات البابا القديمة ، وصلاحيات الملوك الذين اعتبروا البلاد والعباد ممتلكات لهم. وبعد أجيال ، وبسبب ميل الدولة إلى الطغيان ، جاء من يقول: "لا سوفرن إلا الأمة" ، سواء بالشكل المباشر ، أو بواسطة ممثليها ، الذين تنتخبهم ليشرعوا لها القوانين ، ويقرروا عنها القرارات المصيرية ، وكانت هذه مرحلة الديمقراطية التي يلخصونها بجملة واحدة وهي أنها "حكم الشعب بالشعب وللشعب" وما نزال فيها.

في غياب الدين من أوربا ، وخاصة بعد أن أكمل الأوربيون تحررهم من سلطان البابا والكنيسة بالعلمانية ، التي تعني إبعاد رجال الدين نهائياً عن الحكم في البلاد ، وهذا يعني إبعاد أي دور للدين المسيحي في سياسة الأمة ، يمكن لرجال الدين أن يتخذوه مبرراً للتسلط على الأمة ، أحس المفكرون أن هنالك فراغاً ، إذ بدون سلطان الكنيسة التي تطيعها الملايين

المؤمنة طاعة عمياء، فإنه لا شيء يجعل هذه الجماهير تطيع السلطان الجديد، إلا ما أسموه السوفرن. الحياة تسير من دون البابا وكنيسته، لكن لضمان استقرار البلاد، كان لابد من إضفاء الهالة والقدسية، التي كانت للبابا والكنيسة، على الملك في المرحلة الأولى، ثم على الدولة في المرحلة الثانية، ثم على الأمة في مرحلة الديمقراطية التي نحن فيها الآن. إذن كان مفهوم السوفرن ضرورياً للأوربيين لجعلهم مطيعين لحكامهم.

في هذه المرحلة، بدأ المسلمون يحتكون بالأوربيين، وينبهرون بحضارتهم، ويحاولون اقتباسها لتنهض الأمة من انحطاطها وتخلفها، ومما استورده المسلمون من مفاهيم، كان مفهوم السوفرن والسوفرنتي، وكأنهم ظنوا أننا بحاجة لهذا المفهوم، كما إن الأوربيين بحاجة إليه.. تفكروا في معنى السوفرن والصلاحيات التي له، فلم يجدوا أحداً يمكن أن نعطيه هذه المكانة في قلوبنا إلا الله سبحانه وتعالى، فنحن أمة لا إله إلا الله. فقالوا إن الله هو السوفرن، وإن السوفرنتي هي لله لا لسواه. السوفرن إذا أردنا أن نفهم هذه الكلمة بكل أبعادها، تجمع كل معاني "الملك" و"السيد". الملك كما عرفته البشرية قديماً، لا مجرد قائد وحاكم، إنما هو بمثابة مالك لكل شيء (أليس لي ملك مصر..)، وحتى نفهم أبعاد هذه الكلمة علينا أن نعيش جو الآية الكريمة التي يقول فيها الخالق الجبار.

"يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ{16}" غافر.

وهي تعني السيد، لا من حيث احترام الناس له، بل السيد مقابل العبد، أي هو سيد للأمة كلها، وهم كالعبيد عنده. إذن السوفرن هو ملك بالمعنى الذي نفاه محمد ρ عن نفسه، مع أنه كان قائد الأمة وحاكمها، وهو سيد الناس بالمعنى المقصود بقول المسيحي "Jesus is Lord" التي ترجمتها الحرفية "يسوع هو الرب"، وباللغة العربية رب الشيء مالكه، والملك قديماً كان يسمى لورداً، أي سيداً، كما تطلق هذه الكلمة على الإله، جاء في لسان العرب عن قولنا الله هو السيد: " وأما صفة الله، جل ذكره، بالسيد فمعناه أنه مالك الخلق، والخلق كلهم عبيده"، فالشعوب كانت تعتقد أن ملوكها من روح الآلهة.

السوفرن بهذه المعاني التي فيها الربوبية، والسلطان المطلق، كلمة لا يمكن للمسلم أن يقولها عن أحد إلا الله. لكن لما أرادوا ترجمتها للغة العربية ترجموها "الحاكم" أو "السيد"

وترجموا سوفرنتي "الحاكمية" أو "السيادة". الحاكمية ، لأننا أمة تتبع أحكام الله التي شرعها لنا ، لذا هو الحاكم أي السوفرن ، والسيادة ، لأن الكلمة تستعمل حالياً في السياسة لتعني استقلال البلاد استقلالاً كاملاً بحيث على الجميع احترام حدودها الجغرافية وعدم التدخل بشؤونها الداخلية وبسياساتها الخارجية. أي الدولة أو البلد يتصرف كما يشاء ضمن دائرة أرضه وشعبه. وعندما يقال في الأخبار سيادة المقصود بها سوفرنتي ، وكذلك عندما يقال في كتب الفكر الإسلامي حاكمية ، فالمقصود أيضاً سوفرنتي ، وهكذا تم شحن كلمة حاكمية بمعاني سوفرنتي التي تختلف كثيراً عن معناها الأصلي ، فأشكلت الأمور على الناس ، وصارت الحاكمية تنسب إلى الله وحده.

السوفرنتي في النظام السياسي الإسلامي

لكن ، هل في النظام السياسي الإسلامي سوفرنتي ؟ وهل للمسلمين سوفرن ؟ وهل نحن في حاجة لمفهوم الحاكمية بمعنى سوفرنتي ؟ نحن عندنا مفهوم الرب ونؤمن أن ربنا هو الله ، وعندنا شرع بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ففرض علينا فرائض معينة ، وحرم علينا أشياء معينة ، وعفا وسكت عن الباقي ، ليتركه لحكمة البشرية ، تشرع لنفسها ما يجلب لها النفع ويجنبها الضر. ما جاءنا من ربنا من أحكام وتشريعات هي دين نتعبد الله بطاعته ، ونسميها شريعة ، وما نشرعه لأنفسنا فيما لم يشرع لنا الله فيه شيء وتركه لعقولنا وحكمتنا وعلومنا نسميه قانوناً ، ولا نتعبد بطاعته أحداً ، إنما نبتغي النفع وتحقيق المصلحة لنا في الدنيا والآخرة ، لكن لا قدسية لهذه الأحكام الوضعية كقدسية شرع الله. وهي أحكام لا يضعها عندنا ملك سوفرن sovereign يتحكم بنا ويفرض علينا ما يشاء ، بل هي قوانين نتشاور فيها ، ونبحث عما يفيد ، ونتجنب ما يضر ، هي شؤون دنيانا التي نحن أعلم بها ، وهي شاملة لكل ما تركه الله في مرحلة "وإثمهما أكبر من نفعهما" عندما أراد أن يُكَرِّه الناس بالخمر والميسر دون أن يحرمهما ، لأن المتوقع منا أن نمتنع عنهما دون تحريم ، إن علمنا أن أضرارهما أكبر من منافعهما. الخمر والميسر إدمان خطير لذا لم يتركه الله لحكمتنا وتدبيرنا ، فقد فشلت الولايات المتحدة الأمريكية في منعه ، بل حرمهما الله علينا وصار امتناعنا عنهما عبادة.

الحاكمية في القرآن

مما عقد القضية أكثر، وزاد اللبس فيها، أننا فهمنا كلمة الحكم في القرآن، بحسب المعنى الذي نفهمه منها هذا الزمان. نحن في هذا الزمان نقول الحكم والحاكم والحكومة، ونعني بذلك من بيده السلطة في البلاد، بينما لا نجد استعمالاً لكلمة حكم، بهذا المعنى في القرآن الكريم، والسياق يبين لنا المعنى المقصود من كلمة حكم حيثما وردت في كتاب الله. كان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم يسمون الحكم "الإمرة"، ويسمون الحاكم "ولي الأمر"، لأن جوهر الحكم والسلطة التي تكون للرئيس أو الملك هي إعطاؤه الأوامر للرعية وطاعتهم لأوامره. هو من يتولى وظيفة أمر الناس بما يلزم لصلاح حالهم، لذا يسمى "الأمير" وهي مبالغة من آمر. أما كلمة حكم في القرآن، فكانت تأتي بأحد هذه المعاني:

- بمعنى القضاء بين الناس، والفصل في الخلافات.
- بمعنى قضاء الله بين عباده يوم القيامة .
- بمعنى القضاء الذي هو القدر المتعمد من الله.
- بمعنى التشريع للأحكام والشرائع، أو الأحكام والتشريعات ذاتها، وكذلك أحكام التحريم والتحليل التي يبتدعها البشر.
- بمعنى الحكم الصادر عن القاضي.
- بمعنى المحاكمة العقلية والتفكير.
- بمعنى الحكمة.
- بمعنى جَعْلِ آيات الله مُحْكَمَةً لا تلتبس على أحد.

1 - الحكم بمعنى قضاء البشر فيما بينهم:

عندما تكون كلمة حكم بمعنى القضاء بين الناس، تأتي دائماً متبوعة بكلمة "بين"، أو بحرف الجر "بِ" ولنتأمل كلمة حكم في هذه الآيات الكريمة:

يقول ربنا عن اليهود:

"سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{42} وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{43} إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ{44} وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{45} وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ{46} وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{47} وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{48} وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{49}" المائدة.

لنتأمل الجمل التي فيها كلمة حكم في هذه الآيات:

- "وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ"
- "إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ"
- "وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ"
- "وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ"

❖"فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ"

حكم بين ، وحكم بِ "التوراة أو الإنجيل" الحكم بِ (القسط).. المطلوب أن تحكم بين الناس ، لا أن تحكم الناس. إذ لم ترد كلمة حكم بهذا الاستعمال في القرآن أبداً ، أي ولا مرة واحدة قال: احكمهم ، بل دائماً احكم بينهم. فعلى سبيل المثال قال الهدهد لسليمان وهو يخبره عن بلقيس وقومها:

"إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ{23}".

ولو كان الهدهد عاش بيننا وفي زماننا لكان على الأغلب قال: (إني وجدت امرأة تحكمهم..) ، لكن العرب قبل عصرنا هذا كانوا إذا قالوا حَكَمَه عَنَوا بها مَنَعه من أمر يريده ، قال ابن منظور في لسان العرب: (وحَكَمَ الرجل وحَكَّمَه وأَحْكَمَهُ: منعه مما يريد) وقال: (أَحْكَمْتُ فلاناً أي منعته ، وبه سُمِّيَ الحاكمُ لأنه يمنع الظالم ، وقيل: هو مِن حَكَمْتُ الفَرسَ وأَحْكَمْتُه وحَكَّمْتُه إذا قَدَعْتَهُ وكَفَفْتَه... وحَكَمْتُ السَّفِيه وأَحْكَمْتُه إذا أخذت على يده ؛ ومنه قول جرير: أَبَني حنيفة ، أَحْكِمُوا سُفهاءكم) ، وقال أيضاً:

(حَكَمَ الشيء وأَحْكَمَهُ ، كلاهما: منعه من الفساد. قال الأزهري: وروينا عن إبراهيم النخعي أنه قال : حَكِّم اليَتيم كما تُحكِّمُ ولدك ، أي امنعه من الفساد وأصلحه ، كما تصلح ولدك ، وكما تمنعه من الفساد ، قال: وكل من منعته من شيء فقد حَكَّمْتَه وأَحْكَمْتَهُ ، قال: ونرى أن حَكَمَة الدابة سميت بهذا المعنى لأنها تمنع الدابة من كثير من الجَهْل.).

وقال تعالى: "وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{78}" الأنبياء.

وقال: "فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{65}" النساء.

وقال: "وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{47} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ{48} وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ{49} أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا

أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{50} إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{51}" النور.

2 - الحكم بمعنى قضاء الله يوم القيامة:

يقضي الله ويحكم يوم القيامة ، بمعنى يحاسب الناس على ما عملوا ، وبمعنى الفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، سواء المظالم ، أو الاختلاف في الدين ، فيبين لهم من كان على الحق ، ومن كان على باطل. والحكم "على الناس" و"بين الناس" يوم القيامة هو مما اختص به سبحانه وتعالى ، ولا أحد غيره سيشارك فيه.

قال تعالى: "إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{124}" النحل.

وقال: "قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{46}" الزمر.

وقال:"أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{41}" الرعد.

وقال: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{113}" البقرة.

وقال: "إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{55}" آل عمران.

وقال مؤكداً أنه مالك يوم الدين: "ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ{62} قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{63}" الأنعام.

كما قال عن تفرده بالحكم يوم القيامة:

"وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً{25} قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً{26}" الكهف.

وقال: "وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{70}" القصص.

وقال يروي لنا ما قاله يوسف لصاحبيه في السجن ، يحذرهم أن الآلهة التي يعبدونها من دون الله لن تنفعهم بشيء يوم الحساب ، إذ الحكم يومها لله وحده:

"مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{40}" يوسف.

وقال: "الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{56}" الحج.

وقال: "وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً{25} الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً{26}" الفرقان.

وقال: "وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ{47} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ{48}" غافر.

3 - الحكم بمعنى "القضاء" أي القدر المتعمد من الله:

وهو النوع الثاني من الحكم الذي تفرد به سبحانه وتعالى ، ولا ينسب إلى غيره أبداً.

قال تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً{23} فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً{24}" الإنسان.

وقال: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ{48} لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ{49} فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{50}" القلم.

"وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{88}" القصص.

وقال: "فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ{45} يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ{46} وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{47} وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ{48} وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ{49}" الطور.

وقال: "وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ{67}" يوسف.

وقال: "قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{108} فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ{109} إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ{110} وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{111} قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ{112}" الأنبياء.

4 - الحكم بمعنى التشريع والأحكام المشرعة:

هذا النوع الأصل فيه أنه لله وحده ، لكنه سبحانه وتعالى استخلفنا في الأرض لنقوم ببعض ما يقوم هو به ، وبذلك نكون خلفاءه ، فأذن لنا أن نشرع مثله ، لكننا نشرع فقط فيما سكت هو وعفا عنه وتركه لنا ، رحمة بنا لا نسياناً ، ثم إن ما يشرعه هو يكون ديناً نثاب على فعله ونأثم إن خالفناه ، ويمتاز بالثبات ، ولا يحل لأحد أن يبدله ، وله قدسية ، وكل ذلك ليس لتشريعات البشر شيء منها ، فلا قدسية لها ، وهي دنيا وليست ديناً ، ونحن نتبعها لنجلب لأنفسنا النفع وندفع عنها الضُّر. وهذا النوع من الحكم الذي اختلط على الناس فظنوا أنه لا ينبغي إلا لله وحده ، وأن الآيات التي تفرده سبحانه وتعالى بالحكم تعنيه ، واعتبروا من يعتدي على هذا التفرد متألِّهاً ، ومن يطيعه مشركاً بالله ، بينما الآيات التي تُفرد الله بالحكم كلها جاءت في معرض الحديث إما عن القضاء الذي يقضيه الله على الناس ، فيتعمد تقدير شيء عليهم ، أو يتعمد خلق شيء على نحو معين مقصود منه ، أو هو القضاء في النزاعات والخصومات والاختلافات بين البشر يوم القيامة ، وكذلك حكمه على العباد من أي الفريقين هم ، من أصحاب الجنة أو أصحاب السعير.

قال تعالى: "وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{49} أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{50}" المائدة.

وقال عن الشريعة التي جاء بها القرآن وكانت باللغة العربية التي هي أقدر اللغات على التعبير الدقيق عن حكم الله:

"وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ{37}" الرعد.

وقال: "وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{10}" الشورى.

وقال عن المشركين الذين يخترعون أحكاماً دينية من عند أنفسهم:

"وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{136}" الأنعام.

وقال: "وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ{45} قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ{46}" هود.

ونلاحظ هنا أن الله لا يتفرد بالحكم بل هو أحكم الحاكمين.

وقال: "وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ{57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{58} يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{59}" النحل.

وهنا البشر يحكمون ، لكن ساء ما يحكمون.

وقال: "فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ{7} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ{8}" التين.

وهنا أيضاً يوجد مع الله حاكمون غيره ، لكنه هو أحكم الحاكمين.

5- الحكم الذي يصدر عن القاضي:

الحاكم في قضية ما وعملية القضاء حتى الوصول إلى حكم عادل:

قال تعالى: "وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{78} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ{79}" الأنبياء.

6 - الحكم بمعنى المحاكمة العقلية المنطقية:

قال تعالى: "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{36} أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ{37} إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ{38} أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ{39}" القلم.

وقال:"قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{35} وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ{36}" يونس.

7 - الحكم بمعنى الحكمة:

قال تعالى: "وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ{74}" الأنبياء.

وقال: "فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ{79}" الأنبياء.

وقال: "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ{79}" آل عمران.

وقال: "وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{16}" الجاثية.

وقال: "أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ{89}" الأنعام.

وقال: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{22}" يوسف.

وقال: "يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً{12}" مريم.

وقال: "قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ{20} فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ{21}" الشعراء.

8 - الإحكام لآيـات القرآن:

بمعنى جعلها بيّنة ، دلالتها قطعية لا تلتبس على أحد:

قال تعالى "هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ{7}" آل عمران.

وقال: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{52}" الحج.

9 - التحاكم بمعنى الاحتكام:

أي طلب الناس من أحدهم أن يحكم بينهم في خصومة.

قال تعالى: "إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً{58} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{59} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{60} وَإِذَا

قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{61}" النساء.

والطاغوت هو الطاغية فائق الطغيان، فيقال طاغوت مثل فاروق الفائق في فرقه بين الأشياء.

الأئمة

بالمصطلح القرآني، يسمى الحاكم في أمة ما، إماماً، قال تعالى: "وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{5}" القصص.

أي نجعلهم الحكام بعد أن كانوا مستضعفين، ولعمري إن الإسلاميين في بلادنا بدؤوا أن يكونوا الأئمة، وإن كان بنفوذ محدود، وصلاحيات منقوصة، لكن وعد الله سيتحقق لا شك في ذلك.

ونحن في هذا الزمان لا نعرف من الأئمة إلا الذين يؤمون المصلين في صلوات الجماعة، لذلك سنقرأ هذين الحديثين الشريفين لنتأكد أن الحكام هم بلغة القرآن والحديث أئمة.

روى البخاري في صحيحه: "دخل أبو بكرٍ علَى امْرأةٍ مِن أحْمَسَ يُقالُ لها زَيْنَبُ، فرآها لا تكلمُ، فقال: ما لها لا تكلمُ؟ قالوا: حَجت مُصْمِتَةً، قال لها: تكلَّمي، فإنَّ هذا لا يَحِلُّ، هذا مِن عمَلِ الجاهِلِيَّةِ، فتكَلَّمَت، فقالتْ: مَن أنتَ؟ قال: امْرُؤٌ مِن المُهاجِرينَ، قالتْ: أيُّ المُهاجِرينَ؟ قال: مِن قُرَيْشٍ، قالتْ: مِن أيِّ قُرَيْشٍ أنتَ؟ قال: إنَّكِ لسَؤولٌ، أنا أبو بكرٍ، قالتْ: ما بَقاؤُنا علَى هذا الأمْرِ الصَّالِحِ الَّذي جاء اللَّهُ بِهِ بعدَ الجاهِلِيَّةِ؟ قال: بَقاؤُكُم عليه ما اسْتَقامَتْ بِكم أئِمَّتُكم، قالتْ: وما الأئِمَّةُ؟ قال: أمَا كان لِقَوْمِكِ رُؤوسٌ وأشْرافٌ، يأمُرونَهُم فَيُطيعونَهم؟ قالتْ: بلى، قال: فهُمْ أولئكِ على الناسِ".

وروى ابن حجر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الأئمَّةُ من قريشٍ ما حكموا فعدلوا، ووعدوا فوفُّوا، واسترْحِموا فرحِموا" (حسنه الألباني).

ويبقى الأئمة الذين يؤموننا في الصلاة ، لكن الأئمة في هذه الآية هم الحكام:

"وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{5}" القصص.

هل الحاكمية في دولة المسلمين لله أم لسواه ؟

إن نحن عنينا بالحاكمية المُلك والسيادة المطلقة كما تعني كلمة سوفرنتي sovereignty فإنها لله وحده يوم القيامة ، أما في الدنيا فإنه يؤتيها من يشاء على سبيل الابتلاء والاختبار ، لينظر ماذا يعملون ، لكنها لا تصل عند المؤمنين إلى السيادة المطلقة ، والطبيعة الإلهية ، أي الربوبية ، بل المستخلف عبد لله ، فضله الله على غيره واصطفاه خليفة في الأرض. إذن هي استخلاف لا غير... تعالوا نتدبر هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{1}" الملك.

إذن بيده الملك يفعل به ما يشاء.

"قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{26}" آل عمران.

أي الملك في الدنيا يكون للبشر ، لكن بمشيئة الله وإذنه ، فهو على كل شيء قدير ، ولا يفلت من قدرته شيء.

"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{247}" البقرة.

لقد اصطفى ربنا طالوت ليكون ملكاً لبني إسرائيل ، اما ملوك الأرض الفاسدين ، فإنهم يصبحون ملوكاً بالقَدَر وبإذن الله ، لا بتعمد منه ، كما قد يدعون أنهم ، إنما ولاهم الله على عباده ، وهم أشر من أن يوليهم الرحمن على العباد.

ربنا يؤتي من يشاء من عباده الملك في الدنيا ، دون أن ينقص من ملكه شيء ، إذ ملوك الدنيا عبيده ، لا يقدرون على شيء إلا بإذنه ، لذلك مهما كثرت الملوك ، يبقى الله هو الملك الحق ، الذي لا يشرك في ملكه أحداً. قال تعالى:

"تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{1} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً{2}" الفرقان.

وقال أيضاً: "يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{1}" التغابن.

وقال: "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً{111}" الإسراء.

وقال: "فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ{116}" المؤمنون.

"يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ{13} إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ{14}" فاطر.

إنه المالك الحقيقي لكل شيء ، وما يملكه الملوك يبقى ملكه ، لأنه يملكهم وما يملكون.

قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{258}" البقرة.

حتى هذا الملك المتأله لم يصل إلى الملك لولا أن أذن الله أن يصل ، فبمجرد عدم تدخل ربنا ليمنع وصوله إلى الملك ، مع أنه سبحانه وتعالى قادر على ذلك ، وعالم بالأمر من قبل حدوثه ، يكون قد وقع بقدره ، ويكون هو الذي آتى هذا المتأله الملك ، كما تقول الآية الكريمة.

"فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{251}" البقرة.

لقد آتى ربنا داود عليه السلام الملك ثم قال له:

"يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ{26}" ص.

لذلك يتأدب المؤمن مع الله مهما رفعه في الدنيا ، ويقول مثلما قال يوسف عليه السلام:

"رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ{101}" يوسف.

بينما يفسق فرعون ويستكبر بما أعطاه الله فيقول:

"يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ{16}" غافر.

وقال أيضاً: "الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً{26}" الفرقان.

وقال: "الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{56}" الحج.

له الملك وحده ، ولا ملك لغيره يوم القيامة ، ولا على سبيل الاستخلاف ، لذا أمرنا أن نقول عنه في كل ركعة نصليها "مالك يوم الدين" ، ذلك أن النصارى يزعمون أن عيسى عليه السلام هو مالك يوم الدين ، بوصفه ابن الرب ، وهو الذي يحاسب العباد ، فيدخل من شاء الجنة ، ويدخل من شاء النار. لقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليهدي البشرية إلى الدين الحق ، وليصحح ما انحرف فيه أتباع إبراهيم عليه السلام بفئاتهم الثلاث: العرب الذين انحرفوا عن الحنيفية ، واليهود ، والنصارى. فاليهود اعتبروا الله ربهم وحدهم وهم شعبه المختار ، فجعل ربنا في كل ركعة نصليها تأكيداً أنه رب العالمين ، أي رب جميع الأمم والشعوب ، وأنه هو وليس عيسى أو غيره ملك يوم الدين ، أما الفئة الثالثة الكبيرة من أتباع إبراهيم الذين أشركوا فليس لهم في الفاتحة شيء ، ذلك أن ربنا أراد أن لا يبقى أحد منهم مشركاً.

1- أما إن عنينا بالحاكمية التشريع ووضع الأحكام ، فالأصل أنها له وحده سبحانه ، لكنه استخلفنا ، وفرض وحرم علينا أشياء محددة ، وسكت عن الباقي لنجتهد نحن فيه بالعلم الذي يعلمنا إياه والحكمة التي يؤتيها المحظوظين من عباده.

2- إن عنينا بالحاكمية تشريع الأحكام فالله جعلها مشتركة بيننا وبينه في الدنيا لينظر كيف نعمل ، لأننا بذلك نكون خلفاءه في الأرض.

3- إن عنينا بالحاكمية القضاء بين الناس والفصل في منازعاتهم وسياستهم وتطبيق شرع الله عليهم ، فهي للبشر في الحياة الدنيا ، وله حصراً يوم القيامة.

4- إن عنينا بها القضاء الذي هو ما يتعمده ربنا من القدر ، فهي لله وحده دون سواه.

لكن هل نحن بحاجة لمفهوم الحاكمية وهو على هذا القدر من الالتباس؟ وهل المسلمون يحتاجون إلى سوفرن كي يلتزموا بالشرع وبالقوانين؟

عاشت الأمة الإسلامية قروناً لا تعرف هذا المصطلح ولا المفهوم ، ولم يكن لغيابه من فكرهم ومعتقدهم أي أثر ، كما إننا في هذا العصر لم نستفد من الحاكمية ومن إدخالها في العقيدة إلا إعطاء المبرر لشباب غير ناضجين من حيث فهمهم للإسلام كي يكفّروا باقي المسلمين ويستحلوا دماءهم.

إن كنا نريد شيئاً يضمن طاعة الناس للحاكم والقوانين الشرعية والوضعية فكلام الله يكفينا إن كنا حقاً مؤمنين ، وقد أمرنا بطاعته والتحاكم إلى شرعه في كل ما لم يسكت عنه ، وبطاعة الرسول وأولي الأمر منا ، قال تعالى:

"إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً{58} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{59}" النساء.

المسلمون لا يحتاجون إلى سوفرن كما احتاجه الأوربيون عندما خرجوا من تسلط الكنيسة وخرجوا من الدين نفسه، وصار لديهم فراغ حاول المفكرون ملأه عن طريق السوفرنتي ، التي ترجمناها الحاكمية ، وأسبغوها على الملوك ثم على الدولة ثم على الشعوب.

هل يحتاج إيماننا إلى مفهوم الحاكمية لإكماله ؟

لقد بعث نبينا صلى الله عليه وسلم بلا إله إلا الله ، ولاشيء سواها ، وكل ما عداها متفرع عنها. علينا العودة إليها والاقتصار عليها ، فديننا كُمُل ، وهداية الله لنا اكتملت بها وحدها ، وقبل أن ندخل عليها أنواع التوحيد التي اجتهدنا وأضفناها ، ونحن نظن أننا بذلك نجعل ديننا مُحْكَماً أكثر. لسنا في حاجة إلى إدخال الحاكمية في عقيدتنا ، فلا إله إلا الله تكفينا. قال تعالى:

"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{3}" المائدة.

الفصل السابع

الإسلام والديمقراطية

تعريف الديمقراطية

عرف أحدهم الديمقراطية أنها "حكم الشعب بالشعب وللشعب". أي يكون الشعب ولي أمر نفسه ، ويتولى سياسة نفسه بنفسه ، ويسعى لمصلحة نفسه بالدرجة الأولى.

الاستقلالية المنقوصة

كلنا أتى إلى هذه الحياة طفلاً لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء ، واحتجنا إلى من يربينا صغاراً ، وهما عادة الوالدان. طفولة الإنسان طويلة تمتد حتى عمر خمس عشرة سنة ، حيث يتزامن البلوغ الجنسي والبلوغ العقلي ، لكن يبقى الوصول إلى الرشد في حاجة إلى سنين أخرى. وطيلة طفولة الإنسان يكون أبوه ولي أمره ، يتولى شؤونه كلها ويضبط سلوكه ويتصرف بأمواله إن كان له مال أو ميراث. كل ذلك حرصاً عليه وعلى ما ينفعه ، فالوالدان يقدمان لأولادهم ما يستطيعان ، ويسعدان برؤيتهم في أحسن حال. وفي عمر خمس عشرة سنة يبلغ أغلب البشر عقلياً وجنسياً. في مجتمعات القبائل والأمم السابقة يدخل الصبي ببلوغه عالم الرجال وتدخل البنت عالم النساء ، فيحملان مسؤولية الكبار ويعطيان امتيازات الكبار. لكن يبقى التصرف بالمال مؤجلاً حتى يصل الإنسان سن الرشد ، الذي تعتبره قوانين أغلب دول العالم 18 سنة.. ولما كان الناس ينمون وينتقلون من طور إلى آخر كلٌّ بسرعته الخاصة لم يحدد ربنا عمراً يعتبر فيه الجميع راشدين يمكنهم التصرف بأموالهم ، بل أمر أن نختبر اليتيم من الناحية العقلية ، فإن آنسنا منه رشداً بما يكفي ليتصرف بأمواله بحكمة ، توجب علينا دفعها إليه ، وإلا ننتظر حتى يكبر ويرشد أكثر.

اعتاد الوالدان في كل الحضارات القديمة أن يتخذوا القرارات المهمة بدلاً عن أولادهما ، وفي الغالب يتقبل الولد ذكراً كان أو أنثى ما يختاره له والداه مهما كان كبيراً.. كان الوالدان

يختاران لابنهما زوجته ولابنتهما زوجها، ويختاران لأبنائهما المهنة التي سيعملون بها، والدار التي سيسكنون فيها، وأموراً كثيرة يتولى الوالدان زمامها لأنهما أكثر خبرة في الحياة وأكثر حكمة. كان ذلك مفيداً في أغلب الأحيان للأبناء والبنات، لكنه كان على حساب استقلاليتهم وحريتهم في الاختيار. وبالتأكيد كان هنالك من يتمرد ويصر أن يختار لنفسه، لكنه كان الاستثناء لا القاعدة.

كانت عقلية تولي الكبير أمر الصغير عامة، وكان الحاكم بمثابة أب للجميع، وولي أمرهم، يتدخل في ما يشاء من شؤونهم، فيكافىء أعمالهم التي ترضيه، ويعاقب من يتمرد على سلطانه، وكان الناس يرون ذلك طبيعياً. الملك في أمة هو المالك لكل شيء فيها، وهو السيد والرعية أقرب للعبيد مع أنهم أحرار وليسوا مملوكين لأحد، إلا ملكهم الذي لا يملكهم بشكل رسمي كما يملك عبيده، لكن عليهم طاعته في كل شيء كما لو كانوا عبيده، وكثيراً ما كان الأمر يصل حد إضفاء صفات إلهية على الملك، وأحياناً عبادته.

طاعة الفرد لسلطة المجموع المتمثلة بالملك أو شيخ القبيلة أو كبير العائلة كانت واجبة، ونادراً ما يتجرأ أحد على تحديها. من يُطِع يتلقى الرعاية والحماية وتقف القبيلة معه في أي نازلة، ويشعر هو بالعزة من انتمائه إليها، فيتوحد معها، ولا يخطر بباله أن يستقل عنها. كانوا يتنازلون عن قدر كبير من حريتهم واستقلاليتهم مقابل أن تحتضنهم أسرهم وعشائرهم وملوكهم، وأن يحصلوا على فوائد عضويتهم في الأسرة الكبيرة أو العشيرة أو القبيلة أو القوم، أما من كان يخرِج عن سلطة قبيلته فيتشرد، وتنبذه قبيلته ويسمى صعلوكاً عند العرب.

اللاعبودية حرية

كان مفهوم الحرية أنها نقيض العبودية، (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) أي إن لم تكن عبداً مملوكاً فأنت حر، وخضوعك للأعراف والتقاليد التي تفرض عليك ما تفعله في أكثر المواقف الحياتية، وأن تكون نسخة عن باقي أبناء القبيلة أو البلدة لم يكن يتنافى مع كونك حراً. قالوا: "وبضدها تتميز الأشياء"، وقد كان الضد للحرية ضداً فاقع اللون لا تخطئه العين، كان هذا الضد هو العبودية وأن يكون الإنسان ملكاً لغيره يبيعه ويشتريه ويفرض عليه ما يشاء.. كانت صورة صارخة لغياب الحرية ما عاد الخضوع للتقاليد أو لشيخ القبيلة أو لأمير البلاد يمثل إزاءها إلا قمة الحرية.

كان الناس راضين ومتكيفين مع العيش بحرية منقوصة كما يعيش الأولاد في كنف والديهما. ثم جاء الإسلام ومعه اندفاع المسلمين الأوائل في جميع الاتجاهات لهداية الناس، كل الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وكان طبيعياً جداً أن يصل حرص المسلمين المهتمين بأمر دينهم وأمتهم لحد أن يمارسوا دوراً مباشراً في عملية الضبط الاجتماعي، وأن يستشعروا وصاية على الناس كي يلزموهم بما أمر الله، لتكون بذلك نجاتهم من النار إلى الجنة. وجاء الأمر بإكراه المشركين العرب على الإسلام بحد السيف، ومتابعتهم للتأكد أن إسلامهم حقيقي من خلال التزامهم بالصلاة والزكاة وهما عبادتان منظورتان، لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل أصحابه ويأمرهم أن لا يغيروا على قبيلة من العرب قبل أن يتريثوا ويرصدوا، فإن كانت الصلاة تقام في ديار تلك القبيلة رجع الصحابة دون أن يهاجموهم، وإن كانت لا تقام ولا يؤذن لها دل ذلك على أنهم مصرون على شركهم وعندها تتم مهاجمتهم.

يكاد لا يذكر الإيمان في القرآن الكريم إلا مقروناً بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما كان مجرد الإيمان لا يعصم دماء مشركي العرب، بل لابد مع إعلانهم الإسلام من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة. ولهذا لم يتردد أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة مع أنهم كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله ويقيمون الصلاة. كان الدخول في الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة إلزامياً لكل عربي مشرك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فالمشركون العرب هم الوحيدون الذين استثناهم ربنا من مبدأ لا إكراه في الدين كي يمكّن للإسلام والمسلمين في أرض العرب، فتكون لهم دولة قوية تحمي القرآن والإسلام من التحريف.

هذا الأمر الرباني بإلزام المشركين العرب بالدين الإسلامي، مع عدم اعتبار تدخّل حكام الشعوب بشؤونها وفرضهم قواعد سلوك معينة عليها، مساساً بالحرية التي كان يكفي الإنسان منها في تلك الأزمنة أن لا يكون عبداً مملوكاً مثل ملايين البشر الأرقاء من حوله، كل ذلك جعل المسلمين الأوائل ينهجون نهج الإلزام للمسلم بكل ما ثبتت فرضيته أو تحريمه في الإسلام، وتراجعت "لا إكراه في الدين" ليُقصَر معناها على عدم إكراه أحد من غير المسلمين على الدخول في الإسلام، لكن بمجرد أن يدخل في الإسلام ويشهد الشهادتين يكون قد قبل بالالتزام بفرائض الإسلام وبأن يُكره عليها إن هو قصر فيها. هو لا يُكْره على الدخول في الإسلام وله حرية البقاء على دينه إن هو دفع الجزية، لكنه ليس له الحرية في الدخول في الإسلام دون التزام بتعاليمه، وليس له الحرية أن يخرج منه بعد أن دخل فيه. صار ولي الأمر ومن يوكله من

قضاة ومحتسبين وغير ذلك مسؤولين عن أداء المسلمين لعباداتهم، وعن امتناعهم عن المحرمات الكبرى كالزنا وشرب الخمر. بدت هذه المسؤولية التي تحمّلها ولي الأمر بوصفه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنها امتداد لوجوب ضرب أولادنا الذين بلغوا العاشرة إن هم لم يؤدوا الصلاة. هو إلزام نابع من الحرص عليهم ومن الحرص على تطبيق تعاليم الدين بحذافيرها.

ومع الحركة الفقهية التي أتت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة أجيال، والأخذ بعموم اللفظ لا بخصوصية السبب، أي ما كان النص الشرعي يفهم دائماً في سياقه، بل الأصل أن يعتبر تشريعاً لحكم فقهي يسري على المسلمين في كل زمان ومكان إلى يوم الدين، تم الإبقاء على حكم قتل من يرتد من المسلمين، وبالحكم نفسه يقتل تارك الصلاة. لقد نشأ الفقه الإسلامي بروحِ أبوية تشجع الكبير على إلزام الصغير بما ينفعه في الدين والدنيا، فصار الإنسان يكبر ويبلغ الرشد، فيتحرر نسبياً من ولي أمره الأول الذي هو أبوه، لكنه يبقى تحت ولاية أمير المؤمنين بحكم أنه ينوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أي من بعضهم بعضاً. اختلط مفهوم ولي الأمر في الأمة بمفهوم ولاية الكبير على الصغير. فكان ولي الأمر بمثابة الوالد الذي له صلاحيات كثيرة على ولده.

فطرة الاستقلالية

تغيرت البشرية بعد مرور القرون وتقدم العلوم وشيوع الدعوة إلى الحرية وإعلاء قيمتها فوق الكثير من القيم. ابن آدم مفطور على الاتباع، ومفطور أيضاً على الاستقلالية، وظروف النشأة والبيئة الاجتماعية تشجع لديه أحد الميلين، بحيث يصبح غالباً عليه ومنسجماً معه. العصور السابقة كانت تشجع على الاتباع والطاعة والانقياد لمن هم موضع إجلال أو تقديس، وما زالت الحال كذلك إلى حد ما لدى شعوب جنوب شرق آسيا. بالفطرة أيضاً هنالك عشرة بالمئة من البشر يأنفون الطاعة والانقياد والاتباع، ولديهم ميل زائد إلى الاستقلالية والشعور أنهم لا يفعلون إلا ما هم مقتنعون به أو راغبون فيه، وهؤلاء من المستبعد أنهم كانوا منسجمين مع أن يكون للإنسان ولي أمر طيلة حياته، لكنهم أقلية على كل حال.

في هذا الزمان تغذي الثقافة النزوع والميل إلى الاستقلالية، التي هي في الأصل فطرة إنسانية، لأن الحرية أصبحت مقدسة، ولم تعد هي مجرد أن لا يكون الإنسان عبداً مملوكاً

لغيره، بل هي حرية فردية في جميع مجالات الحياة. حرية في التفكير والاعتقاد، حرية في تحديد أهداف الإنسان في حياته، والمهنة التي سيعمل بها، والتوجه السياسي الذي سيناصره، والهوايات التي سيستمتع بها، والكتب أو البرامج التي سيطالعها، واختيار الزوج أو الزوجة التي يريد أن يقضي عمره معها، وغير ذلك كثير من تفصيلات الحياة اليومية بكل أبعادها العاطفية والسلوكية والمعرفية الفكرية.

صار أغلب الناس وخاصة في الثقافة الأوربية وفي الشعوب التي تفاعلت معها وتأثرت بها لا يحبون أن يُملي عليهم أحد ما يجب أن يفعلوه أو يعتقدوه أو يحبوه. صار حب الاستقلالية Autonomy شائعاً جداً تحت مسمى الحرية الفردية، وبدأت تظهر على الكثيرين ردود الفعل على تعرضهم لقيود لا يرضون عنها في حياتهم، وصار كل ممنوع مرغوباً، وظهر السلوك الضدّي oppositional حيث يميل الشخص إلى عكس ما يؤمر به، ما لم يشعر أنه حر في الأخذ به أو في تركه. لم تعد الحياة تحت خليفة يمسك عصاه ويضرب بها من أخطأ أو أساء حلماً إلا لقلة من المؤمنين الصالحين الصادقين في رغبتهم في العيش في ظل الشريعة وفي إعادة التاريخ المجيد لأمتنا. هؤلاء يضحون بأية نزعة استقلالية لديهم في سبيل الله وفي سبيل تحكيم شرعه وإظهار دينه على الدين كله. روحهم روح الجندي المتفاني المتجرد الذي يضحي بكل شيء في سبيل ما يجاهد من أجله لا يهمه إلا أن يفوز برضا الله وجنته. هؤلاء المخلصون يظنون أن أي ممانعة عند باقي الأمة للالتزام بشرع الله إنما هي نابعة من فسقهم وربما كفرهم وإشراكهم، لذا هم على استعداد أن يعيدوا من انحرف من الأمة إلى طاعة الله ولو بالقوة والإكراه.

وما المشكلة في ذلك طالما سنجبر الناس على ما فيه خيرهم دنيا وآخرة؟

إننا نتعامل مع النفس الإنسانية التي خلقها الله للعبادة والانقياد له، وفي الوقت نفسه لخلافته في الأرض وتحقيق صفاته في سلوكها وشعورها وتفكيرها. ربنا الذي خلق هذه النفس المستخلفة أخبرنا في كتابه الكريم أنه لو شاء لهدى الناس جميعاً، لكنه لم يهدهم، لا لأنه يريد أن يضلهم ويملأ جهنم بهم، بل لأنه يريد أن لا يُكْرِههم على شيء، ويريدهم أن يؤمنوا به، ويحبوه، ويطيعوه، التزاماً من أنفسهم، لا إلزاماً يفرض عليها من خارجها، أي يكون إكراهاً وإجباراً. ولهذا قال: (لا إكراه في الدين)، قالها كمبدأ، والمبادىء لا تنسخ، لكن قد يستثنى منها بعض الحالات لاعتبارات معينة، وهذا ما حدث عندما أمر ربنا بقتال كل من يأبى الدخول في الإسلام من العرب المشركين الذين كانوا في عصر الرسالة وفيهم بعث محمد صلى الله عليه

وسلم ، من كان منهم في أرض العرب لا خارجها. لقد تم استثناؤهم من "لا إكراه في الدين" لمصلحة عظيمة ، فكانوا محظوظين أن أكرهوا على الإسلام لتكون نجاتهم من النار التي لابد لكل مشرك من دخولها إن هو مات على الشرك. لكن باقي البشرية ليست محظوظة مثلهم بل لها مطلق الحرية ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ومن شاء أن يبقى في الهداية ، ومن شاء أن يرتد ويخرج منها.. البشرية محظوظة بالتكريم الذي كرمها الله به فاحترم حرية كل فرد منها ولم يجبره ولا حتى عقلياً على الإيمان به والدخول في دينه. مقابل هذه الحرية مسؤولية ومحاسبة دقيقة وعذاب السعير لكل من بلغته الهداية بَيّنة وأصر على ضلاله.

الحرية والديمقراطية

يعيش الناس في الدول الغربية حرية على كل المستويات ، لعل البشرية لم تصل إليها من قبل. حرية جاءت بعد الانتصار على الكنيسة التي كانت تفرض سلطتها وتحكمها على الجميع ، ابتداء بالفلاح البسيط وانتهاء بالأمير والملك ، باسم الإله ، ومن أجل الخلاص في الدنيا والآخرة. هذا الكبت للحريات الذي مارسته الكنيسة هناك ساهم كثيراً في نفور الأوربيين من الدين ، وفي انتشار الإلحاد المتذرع بالعلم بينهم ، لذلك عندما انهزمت الكنيسة ، كانت الحرية المطلوبة حرية متطرفة ، وصلت حد المجاهرة بتحقير المقدسات والسخرية منها ، وإلى حد ممارسة الجنس بلا استتار في الحدائق العامة. هي انفلات من كل قيد جاء كرد فعل على القهر والكبت والتحكم الطويل ، وكان مقصوداً ، وكأن غايته إغاظة الكنيسة بتعمد تدنيس كل ما تقدسه ، والتمرد والخروج على كل خُلُق كانت الكنيسة تفرضه عليهم. لم تقتصر الحرية على السلوك الشخصي ، بل أصبحت الحرية ديناً وغاية بحد ذاتها ، فبررتها الفلسفات والآداب والفنون ، ورسختها القوانين التي أعطت الجميع حرية مطلقة في التعبير ، وحرية مطلقة في العمل السياسي السلمي ، وهما صنفان من الحرية تعاني الشعوب المسلمة من الحرمان منهما والتشوّق لهما. تقاربت المسافات ووجد الكثيرون من المسلمين الفارين من الظلم والقهر والكبت في بلادهم ملاذاً بل فردوساً دنيوياً في أوربا وأمريكا. ثم جاءت الفضائيات والإنترنت لتصبح الأرض قرية واحدة يتواصل الناس فيها بيسر وسهولة بالصوت والصورة والبريد وكل ما يخطر على البال من طرق التواصل. ومخطىء من يظن أن هذا كله لم يوقظ في الشعوب المسلمة حبها الفطري للحرية الفردية والاستقلالية ، لكن المؤمنين فيها وأكثر المسلمين مؤمنون ولله الحمد يحلمون بنسخة إسلامية من الحرية التي ينعم بها الغربيون. يريدون

إيجابياتها دون أن يخسروا دينهم وإيمانهم وعفافهم ، فهم في الوقت ذاته عائدون إلى دينهم وإيمانهم الذي انتقضت عراه كلها ، حتى صار نقاشنا مع زملائنا لما كنت في المرحلة الثانوية حول وجود الله أو عدمه.. لكن بفضل الله ونعمته قطعت الأمة شوطاً كبيراً في العودة لدينها وبالتالي انعقاد عرى الإسلام من جديد. عاد لنا انتماؤنا للإسلام وكثيرون منا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون ، وأقل منهم المتخلقون بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم لكنهم في ازدياد. وعاد الكثير من شباب الإسلام إلى الجهاد في سبيل الله والحرص على الاستشهاد فيه ، وإن كان انتشار الأفكار التكفيرية واستباحة دم من يعتبرونه كافراً أو مشركاً قد أفسدت قدراً كبيراً من هذه العودة إلى الجهاد. كما نشطت جماعات وأحزاب إسلامية تدعو إلى عودة الخلافة وإلى تحكيم شرع الله ، ونجحت في بعض البلدان في الوصول إلى الحكم لتحقيق أحلامها ، فكان نموذج الجمهورية الإسلامية الإيرانية بديمقراطية منقوصة واستبداد فقيه لم ينتخبه الناس ، بيده كل القرارات المصيرية. ثم جاء نموذج طالبان في أفغانستان الذين أعطوا صورة مخيفة للشعوب المسلمة عما يمكن أن يكون حالهم لو وصل الإسلاميون إلى الحكم وطبقوا شرع الله عليهم. كان الطالبان مخلصين للدين كما يفهمونه ففرضوا على الناس قيوداً كثيرة في أمورهم الشخصية على أنها شرع الله الذي يجب أن نخضع الناس له كما فعل المسلمون الأوائل.

ضاعت حسناتهم بسبب هذا التطبيق الذي يريد أن يعيد التاريخ بحذافيره دون مراعاة أحوال المسلمين وتغيّرهم في هذا العصر. في السعودية نموذج ثالث للدولة الإسلامية أكثر أصالة وأطول عمراً من نموذج إيران وطالبان يزيد عمره على مئتي عام. هو نموذج يتخذ من الحياة الإسلامية المأثورة من عهد الراشدين وما بعدهم الأسوة ولا يتمتع فيه الناس بالحرية نفسها التي يتمتع بها الأوربيون والأمريكيون.. لكن المجتمع السعودي القَبَلي الأصيل الذي مازالت فيه القيم القَبَلية العربية حية وفعالة ، منسجم مع هذا النمط من تحكيم الشريعة بما فيه من قيود على الحياة الشخصية ، لأن حياة العربي في قبيلته هي حياة التزام وتقيد بأعرافها ، فالكل ينشأ عليه ومتعود عليه ومتقبل له ويرفض الخروج عنه. السعوديون سعداء بدولتهم الإسلامية ، لكن باقي الشعوب المسلمة لا تحلم بنفس النمط من حكم الإسلام. الغالب في تلك الشعوب أنها لم تعد قبائل ، ولم يبق لديها الكثير من التقاليد ، بل احتكت بالأمم الأوربية منذ قرون ، وتأثرت بتقدمهم الدنيوي وبالحريات التي يتمتعون بها. المسلمون في الغالب

يريدون مجتمعات بنظافة المجتمع السعودي من حيث السلوك والعبادات ويريدون في الوقت نفسه حرية فردية لا تقل عن حرية الأوربي والأمريكي... فهل هذا ممكن؟

الحرية في المجتمعات الأوربية لم تزدهر إلا مع الديمقراطية، وبالمقابل لا معنى للديمقراطية دون حرية حقيقية. وكلتاهما تتعارضان مع مسلمات لدينا نراها أساسيات في ديننا وهي الاعتقاد أن الحاكمية لله وأنه لا حكم لسواه، وحد الردة، وتكفير من يطالب بأي شرع غير شرع الله، ولزوم تطبيق الحدود كما كانت تطبق في عصور الإسلام الأولى: فتقطع يد السارق ويرجم الزاني المحصن ويجلد شارب الخمر ويقتل من يعمل عمل قوم لوط وغير ذلك. نقول إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فكيف نوفق بينه وبين الديمقراطية والحرية الفردية لننشىء دولاً إسلامية معاصرة لا كالتي أنشأها الطالبان ولا كالجمهورية الإسلامية في إيران؟ هل يتسع الإسلام لنموذج للدولة الإسلامية تحقق للمسلمين حلمهم بالجمع بين أحسن ما في الحضارة الغربية المعاصرة وديننا الحنيف؟ أم لا مخرج إلا أن يتخلى المسلمون عن أحلامهم ويستسلموا للعيش كما كان يعيش أسلافهم ليكونوا في المآل من أهل الجنة؟

كثير من الإسلاميين يرون أنه لا مناص من تخلي الشعوب المسلمة عن أية أحلام بحياة تقلد بها الكفار في ديمقراطيتهم وحريتهم الفردية، وعليها العودة إلى حظيرة دين الله وشرعه، ولا يرون مشكلة في أن يفرضوا ذلك على هذه الشعوب فرضاً إن كتبت لهم الغلبة وصار حكم البلاد بأيديهم.

لكنني أعتقد أن ديننا مثلما استوعب طريق الأوائل في الحكم قادر على استيعاب المفاهيم والقيم العصرية، ويمكننا الجمع بين الديمقراطية والحرية والدين الإسلامي جمعاً لا يكون على حساب أي منها.

لا إكراه في الدين

لابد لنا من أجل ذلك أن نعيد الاعتبار لقوله تعالى: (لا إكراه في الدين) ولا نقصرها على نفي الإكراه في الدين قبل أن يدخل الشخص في الإسلام، بل لا إكراه في الدين قبل أن يدخل في الإسلام وبعده، ولا إكراه في كل مجال متعلق بالدين، إنما هي دعوة بالحكمة وبالتي هي أحسن، ويبقى الذي ندعوه حراً في أن يستجيب لما ندعوه إليه أو أن لا يستجيب. هذا ليس تهرباً من استحقاقات ديننا لنرضي الناس كي يتقبلوا حكم الشريعة، هذه عودة إلى الأصل في

فهم هذه الآية الكريمة التي تعلنها مطلقة غير مقيدة: لا إكراه في الدين. هكذا تفهم النصوص ، هي على ظاهرها وعلى إطلاقها ما لم يكن هنالك قرينة على غير ذلك سواء نص آخر في نفس قطعية النص الذي نفهمه أو السياق النصي أو التاريخي له. إنما الأصل أن نفهم من قوله تعالى: (لا إكراه في الدين) أنه لا إكراه في كل ما هو دين. فلا نكره أحداً على الدخول فيه ولا نكره أحداً على البقاء فيه ، كما لا نكره أحداً على الالتزام بشيء منه إلا ما يتعدى تأثيره وضرره إلى الآخرين فعندها نكرهه على أمور محددة لدفع ضرر معصيته عن المجتمع ، كأن نكرهه على أن لا يسرق ، أو نكرهه على أن لا يعتدي على غيره بلسانه أو يده أو بأي شيء آخر.. أو نكرهه على أن لا يستعلن بالسكر أو الزنا وعلى أن لا يعتدي على أعراض الناس بقذف أو مسبة أو بهتان. أو نكرهه على أن يمتنع عن ترويج ما يؤذي غيره في صحته أو ماله أو علاقاته مثل العقاقير التي تسبب العداوة والبغضاء والإدمان. وكأن نكرهه على أن يؤدي زكاة ماله لأنها حق للفقراء علينا تحصيله وإيصاله لهم.. لكننا لا نتدخل في أي أمر ديني ضرره لا يتعدى صاحبه ، بل نكتفي بالموعظة الحسنة.

نعم نُكرهه على فعل ما يتضرر الآخرون بتركه له ، وعلى الامتناع عن ما يضرهم إتيانه له ، لكن من نحن الذين سنكرهه على ذلك ؟ ليس لفرد الحق في إكراه غيره إلا من كان منهم تحت سلطانه المباشر كالوالدين اللذين يُكرهان أولادهما دون البلوغ على الصلاة ، وكصاحب العمل الذي من حقه أن يتحكم بمكان العمل وشروطه وسلوك العاملين فيه الذي يؤثر على الآخرين. أما باقي الناس فالذي يُكرههم هي الأمة ممثلة بحكومتها التي تعمل وفق القوانين التي أقرتها الأمة التي لا حق لأحد أن يكرهها على سن قانون معين ، بل يدعوها إليه ويرغبها به ويبين لها أضرار تعطيله وفوائد تطبيقه ، ثم يسألها إن كانت تريد أن تلتزم به ، وبالطبع السؤال يكون عن طريق استفتاء الأمة كلها أو ممثليها المنتخبين.

هذا يعني أن للأمة الحق في أن تفرض تحكيم بعض الشريعة أو كلها..!

لم يسبق للمسلمين أن تركوا لأحد منهم حرية أن يختار الشريعة أو أن يرفضها ، فهل يجوز هذا التخيير ونحن نقرأ آيات الله التي تُكَفِّر وتُفَسِّق من لم يحكم بما أنزل الله ، وتنفي أن يكون لمؤمن أو مؤمنة الخِيَرة إذا قضى الله ورسوله أمراً.

"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً{36}" الأحزاب.

والجواب سؤال مقابل: ألا يحرم علينا أن نكره مشركاً أو ملحداً أو كتابياً على الدخول في الإسلام؟ وهل هنالك ذنب أكبر من الشرك بالله؟ ومع ذلك لا يحل لنا إلا أن ندعوه بالحكمة والموعظة الحسنة ونتألف قلبه لعله يتذكر أو أن يخشى. فإن رفض فله الحق في أن يرفض وهو حر في أن لا يستجيب لكنه محاسب ومسؤول. احترام حريته في أن يؤمن أو أن يكفر وفي أن يلتزم أو أن يتفلت لا يعني أن كفره أو تفلته وفسقه حلال له. الحلال بَيّن والحرام بَيّن، ولا خيرة لمؤمن أن لا يلتزم بهما، أي لا خيرة له إن أراد أن يبقى ضمن دائرة الإيمان، أو إن أراد أن يكون كامل الإيمان. إيمانه هو من يُلْزمه ويفرض عليه أن يؤمن، وأن يحتكم لشرع الله، ولا يلزم بذلك إلزاماً وهو له كاره.

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ{28}" هود.

عندما جاء جبريل إلى مريم العذراء عليها السلام خافت منه، فقالت له أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. إذن ماذا لو لم يكن تقياً؟ هي هنا لا تستعيذ بالله كي يحميها منه تقياً كان أو شقياً، لأن الله على كل شيء قدير وقاهر فوق عباده، إنما كانت تحتمي بإيمانه إن كان مؤمناً، حين تقول له أنها عائذة بالله، فإن كان ممن يخافون الله فلن يؤذي عائذة بالله، وبالتالي لن يعتدي عليها، أما إن كان غير ذلك فلن تغير استعاذتها من الأمر شيئاً. هي توجهت بالاستعاذة بالرحمن إلى هذا الرجل الذي دخل عليها وملأها رعباً، ولو كانت متوجهة بالاستعاذة بالرحمن إلى الرحمن نفسه فلن يكون لاشتراطها (إن كنت تقياً) أي معنى. الأصل أن أمور البشر تجري وفق الأسباب والسنن التي وضعها الله سبحانه وتعالى وليس بالمعجزات الخوارق، وبموجب هذه السنن والأسباب لم يكن متوقعاً أن يحميها الله من شر هذا الغريب بمعجزة كما حمى إبراهيم عليه السلام بمعجزة. لذا تحاول مريم الأخذ بالأسباب واستثارة النخوة والحس الإيماني عند هذا الذي تخشى عدوانه عليها، فتقول له أنا لاجئة إلى الله ومحتمية به، فإن كان مؤمناً وتقياً فلن يعتدي على من استجارت بالله. إبراهيم عليه السلام لم يستعذ بالله مثل مريم عندما عزم القوم على إلقائه في النار، لأنه لا فائدة من إعلامهم باستجارته بالله وهم ينكرونه ولا

يخشونه ، إنما قال بينه وبين ربه: حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال الله على الفور: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. كان عند مريم أمل أن يكون هذا الغريب يخشى الله ويتقيه ، فاستجارت بهذه التقوى ، وإلا ما كانت لتقول له شيئاً من ذلك إن كانت على يقين أنه لا يتقي الله أبداً ، وكانت ستتوجه بدعائها إلى الله وحده ، وتستسلم لقضائه وقدره ، وتتوكل عليه ، دون أن تتعب ذهنها بالتفكير بالوسيلة التي من الممكن أن يحميها الله بها.

الصلاة فرض وكذلك تحكيم شرع الله فرض على من كان تقياً ، وهذا لا يعني أنها ساقطة عن غير المؤمنين ، بل لا أمل فيهم أن يقوموا بها ما لم يؤمنوا أولاً. ولا خلاف على أننا لا يحق لنا أن نكره أحداً على الإيمان ابتداء ، بل نرفق به ونتلطف معه ونقول له قولاً ليناً لعله يستجيب لنا فينجو هو ونؤجر نحن. وليس للمؤمن ولا للمؤمنة الخيرة إذا قضى الله ورسوله أمراً ، لا حرية له أن يوافق أو أن يرفض حكم الله ، لكن الذي يحرمه حرية الاختيار بين القبول والرفض هو إيمانه وتقواه لا نحن ولا غيرنا من بني آدم. هو لا يحق له أن يختار بين الطاعة والفسوق إن كان مؤمناً ، أي إيمانه هو ما يلزمه لا البشر الآخرون. طاعة قضاء الله ورسوله فرض على المؤمن لا خيار له في أن ينفذه أو لا ينفذه ، تماماً كما أن شهادة أن لا إله إلا الله فرض على كل بالغ عاقل من البشر ، ومع ذلك ليس لنا حق إكراه أحد على الدخول في الإسلام ، إن هو أبى واستكبر ، بل علينا البلاغ المبين ، والدعوة المخلصة ، ويبقى هو صاحب القرار ، إن اهتدى فلنفسه ، وإن ضل فعليها ، ولا نسأل عما فعلوا وهم يسألون.

تأملوا آية التخيير بين الإيمان والكفر:

"وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً{29} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً{30} أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً{31}" الكهف.

ألا ترون أن هذا التخيير مشفوع بتهديد وتحذير وترهيب لمن يختار الكفر ، وبوعد وترغيب عظيم الإغراء لمن يختار الإيمان. إذن هي حرية لا تنفك عن المسؤولية ، كأنما هما

وجها عملة واحدة، لا وجود ممكناً لأحدهما دون الآخر. وهكذا اللا إكراه عندما نعممه على الدين كله يكون إعطاء للحرية دون إعفاء من المسؤولية.

إن آية لا إكراه في الدين عندما تفهم كما يجب أن تفهم، كافية بحد ذاتها لنجمع بين ديننا الحنيف، والديمقراطية والحرية الفردية. لأن جوهر الديمقراطية هو اللاإكراه، فلا يفرض على الأمة قانون إلا برضاها، أما هل هذا القانون مستمد من الشريعة أم من العلم الدنيوي، أم من أي مصدر آخر فلا فرق، الديمقراطية متحققة والحرية مطبقة وللأمة الحق في أن تختار ما تحتكم إليه، حق في الاختيار لا ينفصم عن المسؤولية أمام رب العالمين عن هذا الاختيار. الديمقراطية لا دين لها، وما يدعيه الذين يخافون أن يحكموا بالشريعة من أن الديمقراطية لا تتحقق إلا مع العلمانية ادعاء باطل، لأن العلمانية ليست إلا تقييد حرية الأمة في أن تأخذ من الشريعة ما تريد أن تطبقه على نفسها من أحكام وتجعلها قوانين واضحة يلتزم بها القضاة وغيرهم. عندما نشترط العلمانية مع الديمقراطية فإننا نجعلها ديمقراطية منقوصة طالما أن من يمارسها لا يتمتع بالحرية الكاملة في اختيار ما يشاء من قوانين وأحكام. الديمقراطية لا تكون حقيقية إلا مع الحرية الحقيقية، والحرية المشروطة بالعلمانية حرية منقوصة.

أمة بلغت رشـدها

جوهر الديمقراطية قائم على الاعتراف أن الأمة بلغت رشدها، ولا ولاية لأحد عليها، إنما ولايتها على نفسها. وهي، كما أن الفرد مكلف بفرائض وتحريمات، فإنها مكلفة بفرائض وتحريمات تخصها، وكما أنه لا إكراه للفرد على التزام الفرائض والتحريمات التي كلفه الله بها، فإنه لا إكراه للأمة عليها أيضاً. والأمة ككيان، تمارس حريتها في الاختيار من خلال الديمقراطية، فيكون تصويت أغلب أبنائها لصالح أمر ما بمثابة الرضا منها به، كما يكون رفض أغلب أبنائها له بمثابة عدم موافقتها كأمة عليه. الأمة شخصية اعتبارية، وليس هنالك كائن له ذات مفكرة وواعية اسمه الأمة، إنما هي مجموع الشعب المكون من ملايين الأفراد، كل فرد منهم بمثابة خلية حية في جسد الأمة الحية، وإذا ما قررت أغلبية هذه الخلايا أمراً اعتبر قراراً للأمة كلها، وعلى الذين قالوا :"لا" أن يلتزموا بما اختارته الأمة بمجموعها. الأمة حرة حرية تامة في اختيار الأحكام التي تريد تطبيقها، والفرد حر حرية تامة في أن يقول لأمر معين: "نعم" أو أن يقول: "لا"، لكن بعد أن تختار الأمة حكماً معيناً فإنه لا حرية لأي فرد فيها في أن يرفضه

طالما يريد أن يكون واحداً من هذه الأمة. وهذا يعني أن الأغلبية تفرض على الجميع ما تشاء وعلى الأقلية أن ترضى وتنقاد ولا تتمرد ، أي إن الديمقراطية فيها مكوِّن من صلبها مناقض لها وهو ديكتاتورية الأغلبية ، من دونه لن تكون ديمقراطية ، لأن اشتراط موافقة جميع أفراد الأمة بلا استثناء على أمر ما كي يتم إقراره ، هو من قبيل اشتراط المستحيل ، وهو بمثابة تعطيل وشلّ للديمقراطية.

في أوربا التي تحررت من سلطان رجال الدين كان الناس ثلاث فئات: الذين مايزالون مؤمنين بالدين المسيحي ، واليهود ، والأوربيون الذين ألحدوا واتخذوا نظرية النشوء والارتقاء الدارونية ديناً لهم. ومن أجل أن لا تفرض الفئة المؤمنة أية أحكام مستمدة من الدين المسيحي على باقي الأمة من خلال أغلبية الأصوات ، وحتى لا يترك أي ثغرة يعود منها رجال الدين للتدخل في الأمر العام ، أعلن الأوربيون العلمانية التي هي ضد وعكس حكم رجال الدين ، أي هي حكم رجال الدنيا ، ومن أجل الدنيا ، وهذا ما تعنيه كلمة Secular بالإنكليزية وكلمة laïque بالفرنسية ، وقد ترجمها أول من ترجمها للعربية بكلمة العَلْماني ومنها العَلْمانية ، أي ما هو منتمٍ إلى العالَم ، أي الدنيا ، لا إلى الدين والغيبيات والآخرة ، وقد أشكلت هذه الترجمة والتبست مع العِلْمية ، وكان الأدق ترجمتها بالدنيوية.

يكاد لا يخلو مجتمع مسلم في هذا العصر من الرافضين للدين وأحكامه ، ومن ملل وأديان أخرى تشارك في الوطن ، وهي بالتأكيد لا ترغب أن يحكمها الشرع الإسلامي ، لذا نجدهم يكررون صباح مساء أنهم يريدون "ديمقراطية علمانية" وإلا فلا ديمقراطية ، لأنهم يخشون - وخشيتهم في محلها - أن تتحكم الطائفة الأكبر في بلادهم وبالديمقراطية نفسها لتفرض على الأمة كلها أحكاماً مستمدة من شريعتها ، وبذلك تقود ديكتاتورية الأغلبية التي لابد منها في الديمقراطية إلى تهميشهم وتحويلهم إلى نوع من الذميين من جديد.

نعم لقد فرض المسلمون شريعتهم على الجميع في البلدان التي فتحوها لأنهم كانوا متغلبين ولهم الحق أن يفرضوا على المغلوبين ما يشاؤون ، لكن كثيراً من المسلمين في هذا العصر ظنوا أن الفتوحات إنما كانت لهذا الغرض ، أي فرض الحكم بما أنزل الله على كل الشعوب والأمم. قد يكون ذلك مبرراً عند التغلب على أمة وثنية ، لكن أهل الكتاب مأمورون أن يحكموا بما أنزل الله عليهم في كتبهم.

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{68}" المائدة.

ولهم الحق أن لا تطبق عليهم الشريعة الإسلامية طالما هم غير مسلمين. ثم إنهم في هذا الزمان ليسوا أمما مغلوبة أمام المسلمين ولا ذميين خاضعين ، لقد استعادوا حقهم بالمواطنة الكاملة عندما أصبح من غلبوهم مغلوبين أمام الاستعمار الأوربي.

هل هذا يعني أنه لهم الحق أن لا تطبق الديمقراطية في بلادنا إلا مع العلمانية ؟

العلمانية تحميهم من أن نفرض عليهم شريعتنا وطريقتنا في الحياة ، لكنها تحرمنا من أن نطبق على أنفسنا شرع الله الذي تَعَبّدنا بالتحاكم إليه ، فيكون في الواقع لدينا ديكتاتورية الأقلية على الأكثرية. ولئن كانت ديكتاتورية الأغلبية هي من صميم الديمقراطية ، فإن ديكتاتورية الأقلية هي نقيض الديمقراطية ، وهي شكل من أشكال الاستبداد الذي نريد أن نتحرر منه.

إذن ما الحل وما المخرج من هذا الاستعصاء ؟

العلمانية تحقق للأقليات ما تطلبه لكنها تحرم الأغلبية مما تطمح إليه ، أي أنها ليست الحل العادل الذي ينصف الجميع. الأوربيون تغلبوا على مشكلة التعدد الديني في مجتمعاتهم بأن ألغوا أي اعتبار للدين في تحديد المواطنة ، ونظروا لجميع أفراد الأمة على أنهم بريطانيون أو فرنسيون مثلاً ، بغض النظر عن الدين الذي يؤمنون به. أي ألغوا الاختلاف الديني والطائفي من اعتبارهم ، ولما كان الذين ما يزالون مؤمنين في أوربا أقلية ، فقد انسجمت العلمانية مع مبدأ ديكتاتورية الأغلبية الديمقراطي الأصيل.

إن الحل في بلادنا هو في الاعتراف باختلاف الأديان والطوائف بدل إنكاره وإغفاله. هذا ما فعله محمد صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة المنورة وتسلم رئاسة القوم بلا منافس. كان في المدينة يومها ثلاثة أديان أو ثلاث أمم أو ثلاث طوائف. الأولى أمة المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والثانية القبائل اليهودية التي استوطنت المدينة من عدة قرون ، والثالثة المشركون من أهل المدينة الذين كانوا ما يزالون على شركهم. كان محمد صلى الله عليه

وسلم يمثل أمة المؤمنين ، وكان لليهود زعماؤهم الذين يمثلونهم ، أما بقايا المشركين في المدينة فلم يكن لهم أي شكل من التنظيم والقيادة ، بل كانوا أفراداً رغم عددهم الكبير. كتب النبي صلى الله عليه وسلم صحيفة يعترف فيها أن يهود المدينة أمة مع المؤمنين وليست منهم، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ولليهود الأسوة أي المساواة في الحقوق والواجبات مع المؤمنين ، ولم يكن في الصحيفة ذكر لمشركي المدينة ، اللهم إلا تلميحاً عندما حظرت الصحيفة على أي من أهل المدينة أن يجير للمشركين من خارجها نفساً أو مالاً. المهم الصحيفة اعترفت بيهود المدينة مواطنين متساوين مع المواطنين المؤمنين ، وإن كانت كلمة مواطن لم ترد بالصحيفة ، لكن الوضع القانوني الذي منحته الصحيفة لليهود مقارب كثيراً للمواطنة التي نسعى إليها في هذا الزمان.

التعددية التشريعية

لم يفرض المسلمون شريعتهم على يهود المدينة ، وإن كان الله أذن لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بالقرآن إن هم أرادوا ذلك.

"سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{42} وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{43}" المائدة.

أي عملياً كان في المدينة المنورة أمة مكونة من ثلاث طوائف اثنتان منها لهما شرائعهما ويطبق كل منهما شريعته على نفسه. أي بدل إنكار وجود الفوارق الدينية بين المواطنين في مجتمع المدينة تم الاعتراف بهذه الفوارق دون أن تتعارض مع المواطنة ، وهذا ما يسمى في عصرنا التعددية. الأوربيون في أرقى ما وصلوا إليه قبلوا أن يكون في مجتمعاتهم تعددية سياسية حيث الأحزاب المختلفة بإيديولوجياتها المختلفة ، ثم قبلوا بالتعايش مع من يخالفهم في المعتقد الديني وأسموا ذلك التعددية الثقافية.

لكن نبينا صلى الله عليه وسلم زاد عليها التعددية التشريعية

أي يمكننا في هذا العصر أن نحل مشكلة الطوائف بالاعتراف باختلاف الطوائف، وبعدم تطبيق أي قانون شرعي إسلامي إلا على المسلمين السنّة، تماماً مثلما أن لهم الآن قانون أحوال شخصية إسلامياً لا يطبق على غيرهم. يمكن التوسع بهذا القانون الخاص بالمسلمين السنّة في سورية أو مصر أو أي دولة أخرى وإضافة أحكام شرعية إسلامية تطبق حصراً على المسلمين السنّة، فيتحقق لهم ما يسعون إليه من تحكيم الشريعة، ويكمل تدينهم وتعبدهم للخالق سبحانه وتعالى.

ويبقى السؤال: إن كانت الحدود والأحكام الإسلامية الأخرى لن تطبق إلا على المسلمين السنة، ما القوانين التي ستطبق على الطوائف الأخرى؟ سيبقى هناك القانون المدني الحالي الذي هو علماني إلى حد ما ليطبق على كل من لا ينتمي إلى الطائفة السنية. لكن هنالك من أبناء الطائفة السنية من لا يريد ان تطبق عليه الشريعة الإسلامية لأنه ليبرالي أو علماني أو يساري أو ملحد، وهؤلاء في دول مثل سورية ومصر ليسوا بالقلة التي لا نحسب لها حساب، كيف سيتم التعامل معهم؟ سنستحدث طائفة جديدة نسميها طائفة العلمانيين، ينتسب إليها من شاء من أبناء الطوائف المختلفة في البلاد، تخضع للقوانين المدنية القائمة التي ستستكمل بقانون أحوال شخصية مدني ينظم شؤونهم... لكن ألا يمكن أن يتلاعب الناس، فإذا ارتكب مسلم سني سرقة قال أنا علماني كي لا تقطع يده؟ سيتم تسجيل من يرغب على أنه مسلم سني ومن يرغب على أنه درزي ومن يرغب على أنه مسيحي ومن يرغب على أنه علوي نصيري ومن يرغب على أنه علماني، وهكذا كل الطوائف والأديان بما فيها طائفة العلمانيين، بحيث لا يبقى أحد من السوريين مثلاً لا ينتمي لإحدى الطوائف وغير مسجل في السجل المدني وفي بطاقته الشخصية اسم طائفته، وعندها لا يستطيع أحد أن يتلاعب. لكن يبقى لكل مواطن الحق في الانتقال من طائفة إلى طائفة أخرى على أن يقدم طلباً رسمياً ويتم نقل اسمه من سجلات طائفة إلى سجلات طائفة أخرى بحسب رغبته واختياره. ولا خوف عليه أن يقتل لأنه مرتد، لأن قتل المرتد كان لأسباب وقتية استدعت سَنَّه، ثم كان أيضاً لفئة محددة تم استثناؤها من مبدأ لا إكراه في الدين، وذلك لمصلحة عليا لم تكن لتتحقق لولا هذا الاستثناء، أما باقي البشرية فعلى الأصل الذي هو "لا إكراه في الدين"، ولا عقوبة على الاعتقاد سواء كان بالنسبة لنا كفراً وردة أو ابتداعاً وانحرافاً.

لا معنى للديمقراطية بلا حرية ولا معنى للحرية بلا لاإكراه في الدين ، أي يكون لجميع الطوائف حرية الاعتقاد ، وحرية التعبير عن المعتقد ، وحرية العبادة وفق هذا المعتقد ، وحرية إنشاء دور العبادة الخاصة بهم ووسائل الإعلام وكل ما يلزم لهذه الطائفة كي تمارس دينها أو مذهبها كما لو كانت تعيش وحدها في البلاد. إسلام اللاإكراه لا يسمح أبداً بمسبة أي رمز ديني لأي طائفة ، لا الله ولا الرسول ولا الصحابة ولا المسيح ولا العذراء ولا أي رمز مقدس عند طائفة من الطوائف بما في ذلك طائفة العلمانيين التي قد يكون عندها رموز لا تسمح لأحد أن يسبهم أو يسخر منهم أو يصورهم بالدراما أو غيرها بصورة تشوه تاريخه وتفتري عليه ما لم يكن فيه. بل ستُجَرّم كل إساءة للرموز الدينية ويعاقب بحزم كل من يقع فيها.

احترام مقدسات الآخرين

لك الحق أن تقول إنك لا تؤمن بوجود الخالق ، لكن ليس لك الحق أن تهزأ منه أو من ديني أو صلاتي أو معتقد من معتقداتي. ربنا نهى المسلمين عن أن يسبوا آلهة المشركين كي لا يستفزوهم فيسبوا الله وهم لا يعلمون قدره ، قال تعالى:

"وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{108}" الأنعام.

كما حرم على المؤمنين مجالسة من يسخر من دين الله حتى يكفوا عن هُزئهم وسخريتهم ويخوضوا في حديث غيره.

"وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً{140}" النساء.

وفي عصرنا هذا عصر حقوق الإنسان ، يجب أن يكون الاحترام على رأس هذه الحقوق ، لأن إهانة رمز ديني ما ، هي إهانة واستخفاف بمن يقدسه. ولن نراعي حقوق بعضنا بعضاً إن لم نحترم بعضنا بعضاً. أنت حر أن تسخر أو تشتم ما شئت ومن شئت سواء كنت منفرداً أو خلوت بأبناء دينك الذين يشاركونك معتقداتك ، لكن إذا تسرب هذا خارج دائرتك فستحاسب كمجرم وتنزل بك العقوبة. لن نفرض على الآخرين أن يقدسوا من نقدس ، لكم دينكم ولي دينِ ، لكن

نفرض عليهم أدب الخلاف والاختلاف، وبذلك نمنع أية تعبيرات تستفز طائفة من الطوائف وتثير الأحقاد وربما العنف، ليعيش الناس بسلام رغم اختلاف أديانهم.

لكل مواطن طائفته

سيعترض بعض الذين تعودوا على إنكار المشكلات ليوهموا أنفسهم أنه ليس هنالك مشكلات، سيعترضون على تصنيف المواطنين كأبناء طوائف، سيقولون إن ذلك سيفكك البنية الاجتماعية واللحمة الوطنية وسيثير النعرات الطائفية في البلاد. أقول لهم إنكم مخطئون. إن اعترافنا بالحقيقة وهي أنه لكل منا طائفة ينتمي إليها، على اعتبار العلمانيين طائفة من الطوائف، هذا الاعتراف مع اعترافي بحقك بالحياة فدمك معصوم، وحقك في البلد كأحد مواطنيها، لك ما لي وعليك ما علي، وبقاء المودة بيني وبينك حتى لو صنفتك كافراً وصنفتني أنت أنني كافر، فسيكون الانتماء للطوائف مثل الانتماء للعائلات والعشائر، فأنا حتى أكون سورياً ليس علي أن أتخلى عن انتمائي لعائلتي أو قريتي، إنما هي مكملات الهوية لكل منا، وكلنا ننتمي للدولة التي نحمل جنسيتها دون أن نفقد هوياتنا التي تميزنا، سواء منها ما ورثناه من آبائنا وأمهاتنا، أو ما اخترناه نحن بأنفسنا. سنكون شركاء في الوطن رغم اختلاف انتماءاتنا، بل سيشعر كل منا أنه موضع احترام من المجتمع كله الذي لم يفرض عليه الانتماء لطائفة لا يريد الانتماء لها حتى لو كانت طائفة أبويه، ثم هو يراعي اختلافك عن غيرك ويعترف لك بحقك في أن تكون مختلفاً طالما تحمل مسؤولية اختياراتك أمام رب العالمين. لا شأن لي إن كنت تشاركني الاعتقاد أو تخالفني فيه، طالما أنك تحترمني وتحترم مشاعري الدينية ولا تعاملني معاملة سيئة لمجرد أنني مختلف عنك دينياً. المواطنة شراكة مثلما تكون المساهمة في شركة كبرى شراكة مع أناس كثيرين مختلفين في ألوانهم واديانهم، لكن توحدهم شراكتهم ومصلحتهم في نجاح شركتهم كي يكونوا كلهم رابحين، ويبقى كل على دينه والله يفصل بينهم يوم القيامة.

أدرك أن هذا المنطق غريب علينا نحن المتدينين الذين نحلم باستعادة تاريخنا المجيد وإحيائه من جديد. لكن العاقل هو الواقعي الذي لا يكابر، فينكر الحقائق لأنها لا تعجبه، وقد تغير واقعنا بعد هزائمنا أمام المستعمرين الأوربيين، وصرنا في واقع غير الذي قرأنا عنه في كتب التاريخ، وغير الذي عاشه أبطالنا والأجيال التي نسعى للاقتداء بها. مع ذلك لو تفكرنا

جيداً فسنكتشف أن واقعنا الجديد واشتراكنا في المواطنة مع من يخالفنا في المعتقد ليس مشكلة بحد ذاته ، طالما أننا عقلاء ، ونترك خلافاتنا الدينية لخالقنا الذي سيخبرنا يوم القيامة من منا كان على حق ومن منا كان على باطل ، ونتعاون في سبيل العيش الكريم لنا جميعنا. تذكروا دائماً المسلم الذي يتزوج كتابية كافرة بالنسبة له ، ويكون بينهما الحب والمودة والرحمة والتعاون على تربية الأولاد ، والحرص على منفعة كل منهما ، ولا يكون اختلاف القِبلة التي يصلي كل منهما إليها مانعاً من المحبة والتعاون بينهما. قد يشكل انجذاب الرجال إلى النساء وانجذاب النساء إلى الرجال بالفطرة ، قوة دافعة تتغلب على شعورنا بالاختلاف ، فيوجد الحب والرحمة والتعاون رغم اختلاف الدين.. هذا صحيح.. لكننا حتى نتعايش مع من يشاركنا المواطنة في بلدنا ويختلف عنا بالمعتقد ، لا يلزمنا أن نعشق بعضنا بعضاً ، بل أن نَبَرّ بعضنا بعضاً ، ونحب الخير لبعضنا بعضاً ، ونحترم بعضنا بعضاً ، ولا يظلم بعضنا بعضاً ، وهذا كله لا يحتاج إلى الانجذاب الجنسي ليعطيه الطاقة ، بل يكفينا اشتراكنا بالإنسانية وفي الانتساب إلى أب واحد وأم واحدة.. نحن أقرباء كلنا ، وأخوة الإنسانية تجمعنا.

وعلى الإسلاميين الذين تشبعوا بأفكار سيد قطب رحمه الله وتأكيده على ما يسميه المفاصلة الشعورية بين المؤمن والمجتمع الجاهلي أن لا ينزعجوا عندما يسمعون هذا الكلام ، فالقرآن الكريم أكد أخوة الرسل لأقوامهم مع أنهم فسقوا وكابروا واستحقوا عذاب الله.

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ{12} وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ{13}" ق.

"وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ{84}" هود.

"كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ{123} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ{124}" الشعراء.

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ{141} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ{142}" الشعراء.

حقوق مدنية متساوية

يبقى من شروط المواطنة أن يكون الجميع متساوين في الحقوق والواجبات بغض النظر عن جنسهم أو دينهم، وهذا يعني حقوقاً مدنية وسياسية وفرصاً للمشاركة في إدارة البلاد متساوية للجميع، للمسلم وغير المسلم وللرجل والمرأة على السواء. أي سيكون من حق المسيحي مثلاً أن يترشح لأي منصب حتى لو كان رئاسة الجمهورية، فإن حصل على غالبية الأصوات أصبح رئيساً للبلاد، وكذلك لو ترشحت إمرأة مسلمة أو غير مسلمة. طبعاً تقف أقوال قاطعة وجازمة لعلماء كبار أنه لا ولاية لكافر على مسلم، في طريق قبول الإسلاميين بهكذا احتمال.

ويستند من حرم تولية غير المسلمين مناصب قيادية على المسلمين إلى آيات كريمة لا شك في ثبوتها لكن دلالتها بهذا الخصوص ظنية، وهي قوله تعالى:

"بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{138} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{139} وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً{140} الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً{141}" النساء.

والشاهد في هذه الآيات أولاً إنكاره سبحانه وتعالى على المنافقين اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ثم قوله تعالى: "وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً{141}" النساء.

كما يستدلون بقوله تعالى (منكم) في هذه الآية:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{59}" النساء.

ويستدلون بنهي الله المؤمنين أن يتخذوا من الكافرين بطانة ، في هذه الآيات:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ{118} هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{119} إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{120}" آل عمران.

صحيح أن الله نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ، لكن رئاسة الجمهورية أو منصب وزير لا يجعل من يشغله ولياً للمواطنين المسلمين. الولاء علاقة تشبه الأخوة ، فقد كان العرب أحياناً يتعاهد اثنان منهم على أن يكون كل منهما ولي الآخر ، فتكون العلاقة بينهما حميمة لحد أن يرث أحدهما الآخر إن مات. وكان من يعتق عبداً يصبح العبد مولاه ويرثه سيده السابق إن مات بحكم الولاية التي له عليه. والأب ولي أولاده الصغار وولي بناته البكر حتى يتزوجن.. وكان محمد صلى الله عليه وسلم ولي أمر كل من كان يعيش في المدينة المنورة ، ولم يكونوا كلهم مؤمنين. كان منهم يهود كثيرون ومشركون يعبدون مع الله الأصنام. كان ولي أمرهم بحكم أنهم كانوا مواطنين في دولته ، لكنه لم يكن ولي أحد من المشركين أو اليهود بمعنى الولاء المحرم بين المؤمن والكافر. الولاء قرب شديد بين اثنين ، ولا شك عندنا أن محمداً لم تكن علاقته بالمشركين واليهود في مدينته علاقة موالاة ، لأن الله حرم على المؤمنين موالاة الكفار ولن يقع صلى الله عليه وسلم في ما حرم الله. صحيح أن ولاء العبد المعتق لسيده الذي أعتقه هو ولاء من طرف واحد ، لكنه أيضاً ليس علاقة موالاة ، حيث الموالاة المحرمة مع الكفار من نوع آخر ولابد أن يشارك فيها الطرفان.

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم لا بحكم منصبه كرئيس لدولتهم بل بحكم نبوته ، قال تعالى:

"النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً{6}" الأحزاب.

إن ولاية الأمر مسؤولية وقوامة وليست علاقة موالاة بين ولي الأمر وجميع مواطنيه. قد يكون بينه وبين الذين على دينه منهم موالاة نابعة من الأخوة الدينية التي تربطه بهم لا من كونه رئيساً أو وزيراً.

وخلاصة القول: ليس هنالك آية قرآنية تحرم استعمال غير المسلم في وظائف إدارية في دولة المسلمين ، وليس هنالك حديث نبوي شريف صحيح بهذا الخصوص ، فالتحريم الجازم الذي ورد في كتب فقهائنا القدامى ما هو إلا اجتهاد منهم متناسب مع عزة المسلمين وغلبتهم على كثير من الشعوب ، ولعل هؤلاء الفقهاء لو كانوا بيننا هذه الأيام وشاركونا الذل الذي نعيشه لغيروا فتواهم واجتهدوا اجتهاداً آخر ينسجم مع حالنا وظروفنا ويحقق المصلحة للبلاد والعباد.

ثم هنالك اعتراض آخر وهو أن ولي أمر المسلمين هو إمامهم ، والإمامة كما قال الماوردي"موضوعةٌ لِخلافة النُّبوة في حراسة الدِّين وسياسة الدُّنيا ، وعقدها لِمن يقوم بها في الأُمَّة واجب" ، فكيف يصح أن يشغل هذا المنصب كافر ؟

نعم لا يصح لأنه منصب ديني ودنيوي في آن معاً. لكن رؤساء الجمهوريات في الأنظمة الديمقراطية التي نسعى إليها ، ليسوا أئمة الأمة بالمعنى الديني للكلمة ، وليسوا خلفاء للنبوة ، بل هم موظفون دنيويون لا دخل لهم بدين الأمة.. فالدين خارج صلاحياتهم تماماً ، إذ ستكون هنالك هيئة مسؤولة عن كل ماله علاقة بالإسلام في الدولة من أوقاف ومساجد ومدارس دينية ومجلات وأقنية فضائية وما شابه ، تشرف هذه الهيئة على دين الأمة ، وتكون مستقلة عن السلطة التنفيذية استقلالاً تاماً ، أي في دولة المسلمين المعاصرة التي فيها أديان وطوائف ، سيكون هنالك أربع سلطات لا ثلاث كما هو معروف في الدولة الحديثة.

السلطة الرابعة دينية

من شروط الدولة الديمقراطية أن يكون فيها ثلاث سلطات مستقلة عن بعضها بعضاً هي السلطة التنفيذية أي الرئيس والوزراء وجميع من يعمل تحت إمرتهم، والسلطة التشريعية المتمثلة بمجلس النواب ومجلس الشورى، والسلطة القضائية من أعلى مراتبها المتمثلة بالمحكمة الدستورية إلى أبسط درجات المحاكم في البلاد. سلطات ثلاث لا تكون الدولة ديمقراطية حقاً إلا إن كانت هذه السلطات مستقلة كل واحدة بنفسها لا تخضع للسلطتين الأخريين. هذا في الدولة الديمقراطية العلمانية، لكن دولتنا المنشودة في بلاد مثل سورية ومصر لن تكون علمانية، بل ستكون دولة الكتاب والحكمة، دولة تلتزم الأحكام الشرعية الثابتة التي لا خلاف بين المسلمين عليها، ودولة العلم والتخصص حرصاً على المصالح المرسلة والمنافع ودفعاً للأضرار والمفاسد. سيكون للإسلام فيها مكانته من حيث الأحكام الشرعية التي سيطبقها المسلمون السّنة على أنفسهم، ومن حيث التزام المسلمين بالعبادات والأخلاق الإسلامية إضافة إلى اجتناب المحرمات. في هذه الدولة سيكون هنالك سلطة رابعة مستقلة عن باقي السلطات استقلالاً تاماً، بحيث لا يستطيع رئيس أو وزير أن يتدخل في عملها أو أن يفرض عليها شيئاً، وبالمقابل ليس لهذه السلطة على باقي السلطات إلا النصح والتوجيه والانتقاد دون القدرة على إلزامهم بشيء، وتشارك هذه السلطة الدينية بعشرة بالمئة مثلاً من النواب أو أعضاء مجلس الشورى ليكونوا حاضرين وشاهدين لكل حوار أو قرار يتخذ، ولا يكون لهم من السلطة التشريعية إلا بعدد أصواتهم.

وبذلك نكون قد حررنا الدين من السياسة، وحررنا السياسة من الدين، دون أن نعطل ثوابت شرع الله، إنما هو فصل بين السلطات، لا فصل للدين عن الدولة، فالدين سيكون في صميم دولتنا، لكن دون أن يتدخل علماؤه بالسياسة تدخلاً مباشراً، ودون أن تكون لهم على السياسيين في الدولة سلطة الأمر والنهي والإلزام والمنع. سيشارك علماء الدين في النقاش حول التشريعات المقترحة ويبينون حكم الإسلام في القضية المطروحة، وللأمة ممثلة بنوابها أن تشرع ما لا يتعارض مع الإسلام أو ما يتعارض.

ستسهر السلطة الدينية على تديُّن الأمة، وعلى المناهج الدينية التي تدرس في المدارس الدينية والمدارس العامة، كما ستسهر على متابعة تنفيذ ما أقرته الأمة من أحكام

شرعية التزمت بها ، كل ذلك دون أن يكون لها أية صلاحيات تنفيذية إلا ما يتعلق بإدارتها لمؤسساتها وأوقافها.

بذلك يكون منصب رئيس الجمهورية منصباً دنيوياً مئة بالمئة.. وحتى من الناحية الدنيوية لن يكون له من الصلاحيات ما كان يتمتع به خلفاء المسلمين قديماً ، لأنه رئيس دولة ديمقراطية يحكم فيها الشعب نفسه بنفسه من أجل نفسه.

الدولة المنشودة لن تكون دولة إسلامية بالمعنى الذي في أذهاننا ، بل ستكون دولة للسوريين أو للمصريين أو غيرهم من الشعوب ، يتساوى فيها المسلم والكافر والرجل والمرأة والأبيض والأسود.. وستكون دولة ديمقراطية لا يصل فيها مسلم أو مسيحي أو درزي أو نصيري أو غير ذلك لمنصب رئيس الجمهورية إلا بأصوات الناخبين الحرة. والناخبون يصوتون حسب قناعاتهم. فالذي لا يوافق أن يرأس الدولة إمرأة يصوت لمرشح رجل ، والذي لا يرضى برئيس جمهورية غير مسلم يحجب صوته عن المرشح غير المسلم ويعطيه لمرشح مسلم.

إن اتساع الفقه الإسلامي لمتطلبات الدولة العصرية الديمقراطية التعددية لا يلغي قناعات المسلمين ولا يمنعهم من أن يمارسوا حريتهم وحقهم في الدعوة إلى ما يرونه الحق ، لكن بالطرق القانونية والسلمية ، كما لا يمنعهم من ممارسة سلطتهم التي تتجلى في عملية التصويت في الانتخابات والاستفتاءات.

وفيما يخص وصول امرأة لمنصب رئيس الجمهورية فقد روى البخاري في صحيحه عن نفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه أنه قال: "لقد نفعني اللهُ بكلمةٍ سمعتُها من رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أيامَ الجملِ ، بعد ما كدتُ أن ألحق بأصحابِ الجملِ فأقاتلُ معهم ، قال: لما بلغ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّ أهلَ فارسٍ قد ملَّكوا عليهم بنتَ كِسرى ، قال: "لن يُفلحَ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأةً". هذا حديث صحيح لا يحبذ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتولى أمر المسلمين امرأة. فكيف سنرضى أن تترشح لهذا المنصب امرأة قد تفوز به ؟

علينا أن ننتبه إلى الفارق الكبير بين منصب الملك قديماً ، الذي كان يتولى أمر رعيته بكل ما تعنيه الكلمة ، ومنصب رئيس جمهورية ديمقراطية معاصرة. فالصلاحيات التي كانت بيد كسرى أو أي ملك آخر ستكون في زماننا موزعة على أربع سلطات ، التنفيذية التي ليس هو

إلا جزءاً مهماً منها ، والتشريعية والقضائية والدينية ، وهو لن يكون منها بشيء. ولي الأمر الحقيقي هو مجموع هذه السلطات الأربع.

ألا يجعل هذا في الأمر سعة؟ وبخاصة أننا لا يمكن أن نأخذ ببعض المواطنة ونترك بعضها ، أو ببعض الديمقراطية ونترك بعضها ، طالما أنه لنا شركاء في الوطن مختلفون عنا في الدين والمعتقد.. ويبقى لكل مواطن الحق في أن يعطي صوته لمن يراه الأصلح لمنصب رئيس الجمهورية. المهم أن ما يقال عن الولاية العظمى والخلافة والإمامة ، لا ينطبق على رئاسة الجمهورية في دولة ديمقراطية تتقاسم الصلاحيات فيها أربع سلطات كل منها مؤسسة كبيرة بحد ذاتها.

بين الشورى والديمقراطية

قد يقول قائل ما لنا نزهد بما عندنا ونسعى وراء ما عند الآخرين نريد أن نقلده وعندنا ما يغنينا عنه؟ ديننا دين الشورى فلم نحرص على الديمقراطية وهي لم تنبت في تربة إسلامية ولا ترعرعت فيها؟

نخلط بين مفهومين مختلفين فتتشوش الرؤية. الشورى والديمقراطية مختلفتان تماماً لكن تكمل إحداهما الأخرى. يمكن أن توجد الشورى دون ديمقراطية ويمكن أن توجد الديمقراطية دون شورى. كيف؟!

الشورى هي قيام الحاكم بشَوْر آراء من حوله من عقلاء الأمة ، والشَّوْر هو الاجتناء ، وكأنها شجرة يجني من يستشير غيره ثمارها ، أو خلية نحل يجني مالكها عسلها. والحاكم كما كل الناس حينما يستشير غيره فإنه يسعى إلى إحدى هذه الغايات وربما لها كله. الغاية الأولى من استشارة الآخرين هي الاستفادة من علمهم وفنهم إن كانوا متخصصين فيما لا نجيد ، كما نستشير الطبيب مثلاً. والغاية الثانية هي تجميع أكبر عدد من الأفكار بخصوص مسألة معينة ، مما يوسع أفقنا ويعيننا على الوصول إلى القرار الصائب. والغاية الثالثة هي استطلاع موقف الذي نستشيره ، لما لموقفه من أهمية في قرارنا الذي ننوي اتخاذه ، كما استشار صلى الله عليه وسلم أصحابه قبل أن يغزو غزوة بدر. والغاية الرابعة هي الاستشارة بهدف الاستئذان وضمان عدم الاعتراض أو ضمان مشاركة من نستشيره وعونه ، كما استشار إبراهيم إسماعيل عليهما السلام

عندما أمره الله بذبحه. والغاية الخامسة نفسية بحتة وهي الإفضاء بما يشغل بالنا ويجلب لنا الهم والحزن والضيق ، فنرتاح حتى لو لم يقدم لنا من استشرناه إلا حسن الاستماع والتفهم.

الشورى جوهرها عدم الاستبداد بالرأي فيما للحاكم من صلاحيات هو صاحب القرار فيها. والقرآن الكريم عندما أمر بالشورى أمر بها بما يخص الحكم بالدرجة الأولى ، حيث الحكم يسمى في القرآن الأمر. قال تعالى:

"وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{38}" الشورى.

وقال: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ{159}" آل عمران.

وكلمة أمر غنية بالمعنى فهي تعني الحكم كما تعني الشأن ، مما يجعل أمر الله لنا بالشورى لا يقتصر على شؤون الحكم. في الشورى هنالك مشاركة في الرأي والتفكير لا في اتخاذ القرار بالذات ، أي الشورى الحقيقية معلمة غير ملزمة "وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ" ، لأنها لو كانت ملزمة لأصبحت اسْتِئْماراً لا استشارة. إن كنت أسأل من لهم الحق في مشاركتي في اتخاذ القرار عن رأيهم ، فأنا هنا لا أستطلع آراءهم فحسب ، بل أستطلع إراداتهم بما يخص موضوع الاستشارة ، ولما لم تكن لي الصلاحية أن أنفرد باتخاذ القرار في هذا الشأن وعلي اتباع رأي الأكثرية ، فأنا هنا استأمرهم أي: أسألهم عما يأمرون به ، ويكون القرار تحصيل حاصل وقرار الأغلبية. عندها هم شركاء في الأمر لا مجرد مستشارين. ولنضرب على ذلك مثالاً من عالم الأعمال والتجارة.

لو كنت مديراً عاماً لشركة وأردت تطوير العمل ، فاستشرت خبيراً يقدم لي نصائحه وأنا أتبع أحسنها ، فأنا هنا أستشير. أما إن كان هنالك قرار مهم يجب اتخاذه وعقدت اجتماعاً مع شركائي أو مع أعضاء مجلس الإدارة لنصل سوية إلى قرار نتحمل جميعنا مسؤوليته ، فهذه ليست استشارة ، بل هي استئمار. وهكذا هي الديمقراطية. فعندما يعرض رئيس الجمهورية مشروع قانون أو اتفاقية أو غير ذلك على مجلس النواب للنقاش والتصويت ، فهو هنا يطلب أمر

المجلس إضافة لرأيه ، وهذا يعني أن الرئيس ليس ولي الأمر الفعلي ، لأنه لا يستطيع أن يأمر دون موافقة مجلس النواب. بينما في الحضارات القديمة وفي دولة الإسلام على مر العصور كان الخليفة هو ولي الأمر ، أي هو الذي له حق الأمر ، ولم يكن لأحد غيره حق الأمر إلا بما يفوضه به هو من نفسه استعانة به. في الدولة الديمقراطية الحديثة ذات السلطات الأربع تكون الأمة هي ولية أمر ذاتها ، ممثلة بمجموع هذه السلطات ، أي الأمة تحكم نفسها عن طريق السلطات الأربع التي تمثلها ، أما في دولة الخلافة فالخليفة يحكم الأمة التي بايعته على السمع والطاعة. لذا كانت الشورى عند أغلب علماء المسلمين الأوائل مُعْلِمة للإمام أي الخليفة أو الأمير ، ولم تكن ملزمة له ، وهو الصواب والله أعلم.

لقد كانت الخلافة نوعاً من الحكم الفردي لا يختلف عن المُلْك الذي عرفته البشرية إلا في التزام الحاكم والمحكوم بأحكام شرع الله ، وباحترام حرية الرعية لا استعبادهم. إن كان الحاكم ملكاً قلنا: هو يملكهم إذا قصدنا: يحكمهم ، أما في الإسلام فنقول هو يؤمهم أو يسوسهم ، لنؤكد على المساواة في الكرامة الإنسانية بين الخليفة ورعيته.

في نظام الخلافة تتنازل الأمة عن حقها في اتخاذ القرار لأحد أبنائها ، وتبايعه على السمع والطاعة ، وهو إن كان كأبي بكر وعمر قال أطيعوني ما أطعت الله فيكم. لكن أغلب خلفاء المسلمين كانوا يستولون على الأمر ، أي الحكم ويفرضون على الأمة طاعتهم ببيعة أو بدون بيعة ، وإن تمت بيعة فإنها لم تكن بيعة حرة نزيهة أكثر من الاستفتاء على بقاء رئيس جمهورية جاء إلى الحكم على ظهر دبابة.

من يقول إن الشورى في الإسلام ملزمة للحاكم لا ينتبه لحقيقة أن الحاكم هو ولي الأمر ولا يشرك في أمره أحداً إلا بمزاجه وحر إرادته. الشورى الملزمة هي الديمقراطية بذاتها.. لم يكن نظام الخلافة الإسلامية على مر العصور ديمقراطياً ، اللهم إلا في وصول الخلفاء الراشدين إلى مناصبهم دون استيلاء ولا تغلب ، بل ببيعة حرة من أهل الحل والعقد. لكن حتى الخلفاء الراشدون بعد أن يتسلموا منصب الخلافة فإنهم ينفردون بالحق في اتخاذ القرار في الدولة ، وكل من يعمل معهم من القضاة والوزراء وكافة الموظفين الحكوميين نواب موكلون من الخليفة ، ويأمرون نيابة عنه شخصياً لاستحالة أن يقوم بنفسه بكل مهام الخلافة. القاضي في الدولة الحديثة يقضي ويصدر حكمه باسم الشعب ، أي نيابة عن الشعب الذي لا يستطيع أن يقوم بهذا الأمر بنفسه لكنه فوض هذا القاضي أن يقضي بين الناس نيابة عنه.. أرجو تأمل هذه

النقطة كي ندرك كيف أن الشورى التي ألزم نفسه صلى الله عليه وسلم بها والتي مارسها الخلفاء الراشدون بشكل يومي لم تكن ديمقراطية ، لأن الديمقراطية هي حكم الشعب بالشعب وللشعب.

في الديمقراطية لا تتنازل الأمة عن السيادة للخليفة الذي يصبح هو صاحب السيادة ومنه تُستَمد شرعية كل الولاة والقضاة والعاملين في الدولة من أكبرهم إلى أصغرهم. كانت الأمة تبايع رجلاً ليكون ولي أمرها مثلما يكون للقاصر ولي أمر مسؤول عن تدبير أموره واتخاذ القرار في كل أمر مهم لحياة هذا القاصر. أما في الديمقراطية فالأمة أو الشعب يحتفظ بالسيادة على نفسه ولا يتخلى عنها ، فلا يكون رئيس الجمهورية ولي أمر لشعب أشبه بالقاصرين ، بل هو مجرد وكيل عند بالغين راشدين سلطتهم على جميع شؤون حياتهم بأيديهم هم ، لكنهم استعانوا بهذا الرئيس كأجير عندهم يتولى ما يكلفونه به من إدارة شؤونهم لاستحالة أن يقوموا هم بها بأنفسهم. هو موظف لا غير ولا يمتلك أية سلطة لشخصه على الأمة ، إنما السلطة التي تكون بيده هي للمنصب بغض النظر عن من يشغله وليست لفلان من الناس.

في عملنا في الطب النفسي تُحَوّل إلينا حالات من القاضي يسأل فيها هل هذا المريض غير قادر على تولي شؤونه بنفسه بسبب مرضه ويحتاج إلى ولي يتولاها عنه ، ام هو رغم مرضه مايزال قادراً على اتخاذ قرارات حكيمة بما يكفي فيما يخصه من شؤون مالية وغيرها. الذي مرضه يؤثر على قدرته على التفكير المنطقي السليم وسيطول مرضه نوصي أن يوضع تحت ولاية من يدبر له شؤونه ، أي يصبح له ولي أمر مثلما كان في طفولته. أما إن كان سليم العقل رغم مرضه النفسي فيمكنه أن يوكل أباه أو أخاه ليتولى شؤونه نيابة عنه ، لكن له الحق متى شاء أن يلغي هذه الوكالة ويعزل الوكيل ، كما أنه رغم توكيله لغيره يبقى له الحق في أن يقرر هو لنفسه فيبيع ويشتري ويتزوج ويطلق بخلاف من له ولي لصغره أو عدم قدرته العقلية ، حيث من لحظة تعيين الولي عليه يفقد هذا المريض حقه في التصرف بالأمور المهمة في حياته ، وإن هو قام مثلاً ببيع عقار عنده ، فالبيع باطل ما لم يقره وليه.. أما الذي وكل غيره توكيلاً فإن بيعه ثابت ، حتى لو تم دون علم أو إذن الوكيل ، لأن الوكيل يعمل عنده وليس ولي امره.

يمكن للحاكم الذي اغتصب السلطة بقوة السلاح أن لا يقضي أمراً إلا بعد أن يستشير علية قومه ، ويستنير برأيهم ، وهو عندها يكون حاكماً شورياً دون أن يكون ديمقراطياً. كما يمكن لحاكم أن يصل إلى الحكم عن طريق صناديق الاقتراع ولحكمه أجل ينقضي بعد حين

وصلاحياته محدودة فيستبد برأيه في كل ما هو من صلاحياته ولا يستشير إلا من يقول له دائماً أنت على حق ، وبذلك يكون حاكماً ديمقراطياً لكنه ليس شورويًا. الوضع المثالي في عصرنا هو أن يكون الحاكم ديمقراطياً وشوروياً في الوقت نفسه. في الحقيقة في النظام الديمقراطي ليس هنالك حاكم بمعنى الكلمة لأن السيادة هي للأمة الممثلة بسلطاتها الأربع ، وللرئيس صلاحيات محدودة مخول بها ويمكن للأمة مساءلته ومحاسبته إن أساء استخدامها.

لذا في الدولة الديمقراطية الشوروية تكون ممارسة الشورى على كافة الصُّعُد من أصغر منصب إلى أرفعه ، وتكون معلمة غير ملزمة إلا إن كانت مشورة لخبير في فن من الفنون لا يجيده المسؤول الذي استشاره ، وعندها تكون الشورى ملزمة ، وعليه الالتزام بها ، ويحمل المسؤولية كاملة إن هو لم يأخذ بها وتسبب ذلك بضرر للأمة ، كما يعفى من هذه المسؤولية إن هو عمل بتوصية الخبير ولم يجتهد من عنده دون علم.

الشورى في الإسلام خلق المسلم حيث يستشير في بيته وفي سوقه وفي عمله سواء كان موظفاً حكومياً أو كان يعمل لحسابه الخاص. هي تعبير عن تواضع المؤمن وعدم غروره وإعجابه برأيه فلا يقول لسان حاله: (ولا أريكم إلا ما أرى) كما كان فرعون يقول ، تواضع لمن حوله سواء كانوا عائلته أو العاملين معه أو حتى اللاعبين معه إن كانوا فريقاً رياضياً. وحتى الذين تنتخبهم الأمة ليمثلوها في المجلس التشريعي عليهم الاستمرار في أن يستشيروا الناس الذين انتخبوهم فيستقرؤون آراءهم ويأخذونها في اعتبارهم في تحديد مواقفهم مما يناقش أمامهم من قضايا البلاد. المسلم لا يشعر أن كرامته نقصت إن هو استشار غيره في أي شأن من شؤونه الشخصية أو التي هو موكل عليها من الأمة ، فلا يستكبر ويستعلي بل يسعى إلى الحق والخير وتحقيق المنفعة لنفسه ومجتمعه. لو تخلق المسلمون بخلق الشورى وأقاموا دولاً ديمقراطية حقيقية فسيكونون فعلاً خير أمة أخرجت للناس حتى في نظام حكمهم وسياسة بلادهم.

إذن لا تغني الشورى عن الديمقراطية كما لا تغني الديمقراطية عن الشورى ، إنما بهما معاً يمكن أن يتحقق العدل والرفاه للأمة كلها وتنعم بحياة طيبة لجميع أبنائها. نعم نحن عندنا في إسلامنا ما ليس عند غيرنا ولكن إسلامنا عفا وسكت عن كثير من الأمور وتركها لحكمة البشر يجتهدون فيها ، ومن ذلك نظام الحكم الذي كانت الديمقراطية خير ما توصلت إليه البشرية بعد حكم محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين.

السيادة التي تحتفظ بها الأمة لنفسها في الديمقراطية ليست الحاكمية بمعناها المطلق الذي لا يرضى المؤمن أن يكون لغير الله.. إنها مثل السيادة التي يمتلكها الإنسان بعد أن يكبر ويبلغ سن الرشد، هي كونه ولي أمر نفسه بعد أن كان أبوه وليه طيلة طفولته. إن وضوح المفاهيم في أذهاننا يجنبنا أن نختلف دون وجه اختلاف حقيقي، ويعيننا على أن نحسن الظن بأنفسنا فلا نظن أننا وحدنا المخلصون والمؤمنون حق الإيمان، وكل من خالفنا في أمر نعتبره خطيراً فهو قليل الإيمان أو الفهم والتبصر.

في الدولة الديمقراطية المسلمة يقوم نواب الأمة وعلماؤها الدينيون والدنيون بتقديم المشورة للمسؤولين فيها، ولا يوجد مسؤول ليس له مستشارون متفرغون أو غير متفرغين.. صحيح أن السلطة التي ستكون بيد رئيس أو وزير سلطة مقيدة، لكن دون شورى ستكثر الأخطاء التي هي بقصد حسن، لكن حسن القصد وطيب النية لا يمنعان أضرار القرارات الخاطئة. لذا لابد للدستور من أن يحدد الصلاحيات التي يجب استشارة الخبراء فيها وأخذ توصياتهم في الاعتبار ضمن تحديده لصلاحيات رئيس الجمهورية أو غيره من المسؤولين.

كما إن ثوابت الشريعة الإسلامية لا الاجتهاديات التي اختلف فيها الفقهاء تكون معايير على الرئيس وغيره أن لا يخالفوها. بالطبع هذا يختلف عن ولاية الفقيه عند إخوتنا الشيعة، حيث الفقيه هو ولي أمر الأمة وصاحب الكلمة الأخيرة، وهذه الولاية هي استمرارية أو بدل مؤقت عن ولاية الإمام من أهل البيت الذي يعتقد المؤمنون أنه معصوم والله يهديه دائماً للحق والصواب. لذلك مهما كان هنالك من آليات ديمقراطية ومناصب نظيرة لما في الدول الديمقراطية كما هو الحال في جمهورية إيران الإسلامية، فإنها تبقى ديمقراطية مزيفة لأن الفقيه هو الذي يحكم ويمتلك السيادة بحكم ولايته على الأمة، بينما الأمة لا تحكم نفسها بنفسها، وحكم الأمة نفسها بنفسها هو جوهر الديمقراطية.

ثم إن الشورى هي كالديمقراطية لا حياة لها إلا في بيئة حرة يأمن فيها الإنسان على نفسه مهما كان الرأي الذي سيعطيه، أي حرية اعتقاد وتفكير وتعبير حقيقية لا مزيفة للخداع وذر الرماد في العيون.

من هم الذين يستشيرهم الحاكم في شؤون البلاد؟ إن له أن يستشير كل من توسم عنده الحكمة وتوقع أن يسمع منه شيئاً مفيداً. أيام الخلفاء الراشدين كان الذين يُستشارون أغلب الأحيان هم من أطلق عليهم العلماء الذين كتبوا عن السياسة الشرعية لقب أهل الحل

والعقد. في زماننا يحتاج الرئيس مستشارين سياسيين متخصصين أو زعماء أحزاب موالية أو معارضة ، ومستشارين دينيين من علماء الهيئة الدينية ، ومستشارين في العلوم المختلفة. يمكنه أن يعين من هؤلاء مستشارين متفرغين أو يستشير بعضهم دون أن يتفرغوا لهذا العمل. أما الذين يحلون ويعقدون أي نواب البرلمان وأعضاء مجلس الشورى أو الشيوخ فالذي يعيّنهم هو الشعب بالانتخاب المباشر ، وبهذا تشارك الأمة كلها في التفكير في أية مشكلة تواجه البلاد.

الفصل الثامن

الإصلاح وتغيير منكر المحكومين

المعروف والمنكر

أمتنا هي أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى عنها:

"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ{110}" آل عمران.

وحتى عندما يمكّن الله للمؤمنين وتصير لهم دولة يبقى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهم تكليف لهم بعد الصلاة والزكاة:

"الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{41}" الحج.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: "سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: مَن رأى مِنكُم مُنكرًا فليغيِّرهُ بيدِهِ ،فإن لَم يَستَطِع فبِلسانِهِ ، فإن لم يستَطِعْ فبقَلبِهِ. وذلِكَ أضعَفُ الإيمانِ". وفي رواية أخرى رواها ابن تيمية وصححها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه ، فإن لم يستطعْ فبلسانِه ، فإن لم يستطعْ فبقلبِه ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ مثقالُ ذرةٍ". وقال في رواية أخرى عند الألباني وقد صححها: "من رأى منكم منكرًا فغيره بيده ؛ فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه ؛ فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه ؛ فقد برئ ، وذلك أضعف الإيمان".

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهم وسيلة لتغيير المنكر إن أهملتها أمة من الأمم فقد تستحق غضب الله سبحانه وتعالى ، ولنقرأ ما قاله ربنا عن الذين كفروا من بني إسرائيل:

"لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{78} كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{79}" المائدة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الأنبياء والرسل ، قال تعالى:

"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{157}" الأعراف.

يبعث الله الرسل إلى أممهم ليأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، يأمرونهم بما تعرفه النفوس ، أي تتعرف عليه عندما تراه ، لأنه سبق لها أن عرفته ، فهو مركوز في صميم فطرتها التي فطر الله الناس عليها. إن رأيت شخصاً تعلم من هو من قبل فستعرفه حين تراه ، أما الذي لم تره من قبل ولا تعلم من هو فإنك حين تراه لا تعرفه فيكون مُنْكراً من قبلك ، وهكذا فضائل الأعمال المغروس حبها في فطرة الإنسان ، تعرفها النفوس عندما تلتقيها ، لأنها سبق لك أن علمتها أو علمت صفاتها فتميّزها وتتعرف عليها حين تراها ، أما ما هو شذوذ وانحراف عن الفطرة السليمة ، فإن النفوس السوية تنكره حين تراه ، فلا تتعرف عليه ولا تميّزه ، أي لا تعرفه ، لأنه ليس له فيها صورة أو ذكرى كالمعروف.

المعرفة في القرآن الكريم تطلق على ما نتعلمه بالاستقراء ، حيث تعرف الأمور من خلال علاماتها وصفاتها معرفة ظنية يقوم القلب بتحويلها إلى يقين إن شاء أو يتشكك فيها ويرتاب إن كان هواه في إنكارها وعدم الاعتراف بها.. والمعرفة بهذا المعنى هي تعرّف وتمييز recognition وليست علماً knowledge الذي يكون يقينياً ، لذلك لم يقل ربنا عن نفسه أنه عرف أو يعرف بل يقول علم ويعلم ، أما نحن البشر فنعرف الأشياء ونميّزها عندما نرى علائم فيها تدلنا على هويتها ، كما يُعرف كلٌّ بسيماهم يوم القيامة:

"وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ{46}" الأعراف.

كلمة عَرَف ومشتقاتها لا تقال بحق الله لأن المعرفة دائماً ظنية ، حتى وإن كان الظن غالباً ، واحتمال الحق يقترب من المئة بالمئة ، أما عَلِم ومشتقاتها فتعبر عن المعرفة اليقينية التي تسمى علماً عندما تكون يقينية ، حيث ليس هنالك ولا ذرة احتمال أن لا تكون حقاً.

عندما نجد ارتياحاً في قلوبنا لأمر ما كالصدق والأمانة والعدل والطهر وغيرها فذلك لأن نفوسنا عرفتها أي تعرفت عليها ، فهي تماثل ما هو مغروس فيها بالفطرة ، لذا فالصدق معروف والعدل معروف ، بينما الكذب والظلم لا وجود لهما في الفطرة السليمة والنفوس لا ترتاح لهما ولا تتجاوب معهما ما لم تكن قد فسدت فطرتها من قبل ، ولهذا يسمى الكذب منكراً والظلم منكراً ، وقد يقال نُكْراً بمعنى منكراً كما في قوله تعالى:

"فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً{74}" الكهف.

ويقال عن المعروف عُرفاً كما في قوله:

"خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ{199}" الأعراف.

وقد ظن بعضهم خطأً أن الله يأمر رسوله أن يأمر الناس بالعُرف الذي تعارفوا عليه ، أي بالتقاليد والأعراف المتبعة عند جماعات معينة من البشر ، العُرف في القرآن هو المعروف والنُّكر هو المنكر ، أما تسمية التقاليد وما يعتاد عليه الناس عُرفاً فقد استحدثت بعد نزول القرآن ربما بأكثر من مئة عام. ديننا يأمر بالمعروف وعلى أعرافنا أن تتشكل بحسب تعاليمه لا أن تترك بصمتها فيه ، فقد تكون أعرافاً جاهلية. أما في الفقه فللعرف اعتبار في فهم العقود ، ومعرفة الشروط المضمرة التي لم يجد كاتب العقد حاجة لتبيينها ، لذا يقال: المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، أي لا يُنشىء العُرف أحكاماً في ديننا ، إنما يساهم في تحديد الدلالات عموماً والشروط في العقود لا أكثر.

المؤمن عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحمي نفسه من الوقوع في المنكر أو من التقصير في المعروف وذلك إلى حد كبير.. لأن المؤمن ذو الشخصية السوية الصادقة الأمينة لا

يأمر بالمعروف ويتركه ، ولا ينهى عن المنكر ويأتيه. إن الدعوة نوع من الدفاع عن النفس حيث تترسخ العقيدة والقيم النابعة منها في نفس الداعية إلى الخير. وواضح مِن لَعْن الذين كفروا من بني إسرائيل بأعمال ارتكبوها كان منها أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه. والأمة التي لا يتناهى أفرادها عن المنكر ولا يتواصَوْن بفعل المعروف أمة لا خير فيها لا لنفسها ولا لغيرها. في تبيين محاسن المعروف ومساوىء المنكر للناس نكون نحن أول من يتذكر وتتوضح في ذهنه الأمور ، فقد قالوا: كل شيء ينقص بالإنفاق إلا العلم. لذلك نجد أكثر الناس علماً هم الذين يعلمون غيرهم ، وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا تعليم وتذكير.

تغيير المنكر بلا حكمة

في هذا العصر ومع عودة الأمة إلى دينها وكثرة الشباب المؤمن المتحمس لإقامة المجتمع الإسلامي ، والذي كانت نواياه وعواطفه أسبق من علمه وفقهه ، نشأت مشكلات عانت منها كثير من الأسر وكثير من المجتمعات. النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن رأى مِنكُم مُنكرًا فليغيِّرهُ بيدِهِ" أي يغيره بالقوة سواء القوة المادية أو قوة النفوذ والسلطان ، فكلها يكنى عنها باليد.. واندفع شباب مخلصون لإزالة المنكر من بيوتهم أو أحيائهم ، فحطم بعضهم أجهزة التلفاز في بيوتهم ، واعتدى بعضهم على أخواتهم إن لم يلتزمن بالحجاب الكامل ، وقد يكون برأي الشاب النقاب هو الحجاب الكامل. واندفع بعضهم ليحطم أو يشعل النار في حانة للخمر أو ملهى ليلي أو بيت سمعوا أنه تحدث فيه دعارة. الذي حطم أو أغلظ القول أو ضرب أحداً من عائلته صار مكروهاً من والديه وإخوته وأخواته وكرهوا التدين وتكونت لديهم فكرة خاطئة عنه. فبدل أن يكسب هذا الشاب الذي يريد الإصلاح قلوب أهله فتنفتح له ولإرشاده ، كسب نفورهم منه وكُرههم له. أما الذين أرادوا إزالة المنكر في أحيائهم أو مدنهم بأيديهم فقد تحولوا إلى مجرمين ملاحقين ويحكم عليهم بالأحكام القاسية من سجن بل وإعدام أحياناً.

هل الخطأ في الشباب أم في المجتمع ؟ هم ينفذون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بعث الله الرسل ليُطاعوا بإذنه.. وهل له أن لا يفعل ما فعل وهو يرى المنكر فلا يحرك ساكناً ؟ أين إيمانه وإخلاصه وتضحيته ؟ ألم يتوعد ربنا من يحب أهله أكثر من دينه ؟

"قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{24}" التوبة.

أليس ما فعله الشباب الذين حطموا الخمارات وأضرموا فيها النار أو رموا راقصة تفتن الناس بماء حمضي أو قلوي يشوه جمالها الذي تفتن به الناس ، أليس ذلك جهاداً في سبيل الله ويستحق أن يتحمل المؤمن في سبيله الملاحقة والسجن ؟

تساؤلات مشروعة أمام نص ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالته واضحة لا تلتبس على أحد. بل تفاقم الأمر وصار الشباب المسلم المتحمس لدينه يجاهد في بلده ومجتمعه ، فيقتل ويفجر المسلمين وغير المسلمين ، ويرى نفسه مجاهداً في سبيل الله ، بل يرى نفسه هو المجاهد وكل من لا يفعل مثله قاعد مقصر غير مستجيب لأمر الله.

هل فعلاً ربنا يريدنا أن نزيل المنكر بأيدينا ونتحمل في سبيل ذلك محاربة المجتمع بل اضطهاده لنا ؟ ألم يأمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن نأخذ على يد الظالم ونأطره على الحق أطراً أو نقصره على الحق قصراً ؟

روى الهيثمي في مجمع الزوائد عن أبي موس الأشعري رضي الله عنه أنه قال: "إنه من كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل فيهم العامل الخطيئة فنهاه الناهي تعذيراً فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض على لسان داود وعيسى بن مريم "ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون" والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على أيدي المسيء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم" (قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح).

وفي رواية ثانية للحديث نفسه ذكرها ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح وحسّنها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "لمَّا وقعتْ بنو إسرائيلَ في المعاصي نهتْهُم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالِسِهم وآكلوهم وشاربوهم فضربَ اللَّهُ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ ولعنَهم على لسانِ داودَ وعيسى ابنِ مريمَ عليهما السَّلامُ" ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ" قالَ فجلسَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وكانَ متَّكئًا

فقالَ "لا والَّذي نفسي بيدِهِ حتَّى تأطروهم أطرًا وفي روايةٍ كلَّا واللَّهِ لتأمرنَّ المعروفِ ولتنهونَّ عنِ المنكرِ ولتأخذنَّ على يديِ الظَّالمِ ولتَأطُرُنَّهُ على الحقِّ أَطْرًا أو لتَقصُرُنَّهُ على الحقِّ قصرًا أو ليضربنَّ اللَّهُ بقلوبِ بعضِكم على بعضٍ ثمَّ ليلعننَّكم كما لعنَهم".

وروى الترمذي في سننه وقال حديث حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم".

القطعي مقدّم على الظني

هذه الأحاديث الشريفة من الخطأ أن تفهم منفردة وخارجة عن سياقها.

وما سياقها؟ سياقها هو الإسلام ككل، القرآن الكريم وما صح من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنْ تعارضَ حديث ولو كان صحيحاً مع آية كريمة قطعية الدلالة فإن الاعتبار يكون للآية، لأن الآية نقلت إلينا بدقة لا مثيل لها وتم تدوينها ساعة نزلت، أما الأحاديث فقد تناقلتها الأجيال مشافهة حتى جاء من يجمعها في كتب. إن افترضنا أمانة وصدق الناقلين وعلينا أن نحسن الظن بكل من لم يثبت عليه ما يطعن في عدالته، فهل يمكننا أن نفترض أن الرواة جيلاً بعد جيل قد نقلوها بالدقة نفسها التي وصلنا بها القرآن الكريم؟ بالتأكيد موثوقية الحديث الشريف من حيث الرواية دون أن تحصل أخطاء ناتجة عن طبيعة الذاكرة البشرية أقل من موثوقية القرآن الذي تكفل الله بحفظه فقدّر الأقدار التي حفظته، بينما الأحاديث اعتمدت على ذاكرة البشر. ولكثير من الأحاديث روايات متعددة تختلف في بعض جزئياتها وهي تروي الحادثة نفسها، ولا يمكن أن تكون الحادثة المروية قد حدثت إلا بشكل واحد، مما يدل على أن الأحاديث الشريفة معرضة أن يكون قد طرأ على بعضها أو على أجزاء من بعضها نوع من التغيير غير المقصود الناتج عن ضلال الذاكرة لا عن ضعفها، وهو ضلال الذاكرة لا ضلال الشخص، والمقصود ضلال الذاكرة الذي علل به ربنا في آية الدين اشتراط امرأتين في الشهادة تذكر إحداهما الأخرى:

"فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{282}" البقرة.

ضلال الذاكرة هو تَذَكُّر غير دقيق لما حدث ينتج عن عامل الزمن وعن الدوافع النفسية ، وهو أمر طبيعي ولا يدل على أي سوء نية عند الإنسان.. فهو يحدث بشكل لاشعوري تماماً ولا ينتبه الإنسان أنه حدث لديه وشوّه ذاكرته بخصوص أمر معين.

المهم: إن تعارضت آية قطعية الدلالة ، أي معناها واضح لا يلتبس ، مع حديث شريف صحيح ، فالأولوية للآية الكريمة ، أما الحديث فيُؤَوّل إن كان يحتمل التأويل ليوافق الآية ، أو يُترك فلا يؤخذ منه حكم شرعي ، لأننا على يقين من أن الآية قطعية الثبوت ، وليس هنالك ذرة من شك في أننا نقرؤها كما نزلت ، ودلالتها قطعية ، لأن القرآن من آياته ما هو محكم أي معناه ودلالته واضحة لا تختلف الأفهام فيها ، وباقي آياته متشابهات ، أي لو عزلناها عن الآيات المحكمات فإنها تحتمل عدة دلالات ممكنة ، لذلك لا يصح فهم آيات القرآن إلا في سياقها الذي هو القرآن كله. القرآن كل آياته بينات ، لكن المحكمات معناها ثابت وواضح ، حتى إن عزلت عن سياقها وفهمت لوحدها ، أما المتشابهات فلابد من فهمها في ضوء الآيات المحكمات ، وإلا يسوء الفهم ويبتعد عن المعنى الحقيقي ، لذا فإن كل صاحب أهواء يريد أن يستدل بالقرآن على ما يهواه من معتقدات أو أحكام يلجأ إلى آية أو أكثر من المتشابهات ويحملها المعنى الذي يريد ، وهذا ما عناه سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عندما قال: القرآن حمّال أوجه.

ربنا لا يبالي بالجزئيات

نعود إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تأمر بتغيير المنكر ويُفهم منها وجوب التدخل باليد أو بنوع من القوة لتغييره ، فيعطي من يريد أن يغير منكراً رآه بنفسه الحق أن يعتدي على ممتلكات غيره أو أنفسهم. هذه الأحاديث يجب أن تفهم في ضوء الآيات الكريمة

القطعية الدلالة المتعلقة بالموضوع نفسه، تماماً كما لو كانت هذه الأحاديث آيات قرآنية متشابهة. هنالك احتمال أن يضيع جزء صغير من الحقيقة في هذه العملية، لكنها طريقة ربنا العظيم الذي لا قيمة عنده لجزئيات صغيرة إن تحققت الكليات الكبرى، فهو يعفو أي يتجاوز ولا يُدخل في حسبانه الكثير من هذه الجزئيات، وهذا واضح في قوله تعالى ويعفو عن كثير في هذه الآية الكريمة:

"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{15}" المائدة.

وهو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها" وقوله: "ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا ثم تلا هذه الآية "وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً{64}" مريم. وقوله: "الحَلالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كثيرٌ منَ الناسِ. فمنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ استَبْرَأَ لِدِينهِ وعِرْضِه،..".

ربنا عظيم جل جلاله وقد قال:

"مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ{28}" لقمان.

ما خَلْقُنا كلنا وما بعثنا إلا كنفس واحدة.. لقد خلق ربنا بيده نفساً واحدة هي آدم عليه السلام ووضع في تكوينها القدرة على التكاثر -الذي لا أعجب منه- عندما يتخلق من بيضة ملقحة إنسان متكامل، يتم تخلقه دون الحاجة لأن يتدخل خالقنا به، فقد برمج الكائنات وصممها بحيث يخلق ما يشاء منها دون أن يفعل ذلك بيده كما خلق آدم.. هذا هو ما يتناسب مع عظيم قدرته ومع جلاله وكبريائه. ولكن عملية الخلق هذه التي تتم لوحدها مهتدية بما برمجها ربنا عليه معرضة لبعض الخلل أو الخطأ الذي ينتج عنه تشوهات لم تكن في الوالدين. ربنا لا يبالي بذلك لأنه خلق الدنيا كشيء مؤقت، وهو لو شاء لخلقنا جميعنا بيده ولما كان في البشرية مشوه على الإطلاق، لكنه الكبير المتعال الذي خلق نفساً واحدة وتركها يتخلق منها

بإذنه ما لا يحصى من الأنفس. هذا يعني أن قليلاً من العيوب والأخطاء لا يبالي بها ربنا ويعفو عنها، وكذلك الدين الذي ينزله لعباده يؤكد فيه على أساسيات معينة، ويترك الكثير من الجزئيات للبشر، يبحثون عنها وفيها ويهتدون إلى بعض الحق فيها أو إلى كل الحق. ربنا لا يبالي بها طالما أننا حققنا الأساسيات التي أمرنا بها. ربنا لو شاء لأنزل لنا كل أوامره ونواهية واضحة بينة لا تلتبس، ولما كان هنالك مجال لأن يختلف الفقهاء في حكم شرعي واحد، لكنها سنته في الخلق وطريقته المتناسبة مع جلاله وعظمته وكبريائه. الحرام بيّن والحلال بيّن وبينهما أمور مشتبهات... لا يهم طالما كان الحلال والحرام بيّنَيْن. وحتى في العقيدة فإنه يعفو عن كثير، أي لا يبالي بتفصيلات صغيرة كثيرة ويتركها موضع اختلاف، إنما هي الأساسيات إن كانت على الحق فلا ضير من أخطاء في الجزئيات.

ربنا أنزل في القرآن تصحيحات مهمة لأهل الكتاب، فعلى سبيل المثال بين لهم ولنا كيف خلق عيسى عليه السلام بكلمته وأنه عبده ورسوله وليس ابنه، لكن هل هذه القضية هي الشيء الوحيد الخاطىء أو المنحرف في المسيحية؟ ربنا يهمه أن لا يشرك به أحد، ويعفو عن كثير من العيوب في تديننا وعبادتنا إياه، أما أمرنا أن ندعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء يصححون بها عقيدتهم التي انحرفت عن التوحيد الخالص لله، ولم يبالِ بأخطاء كثيرة أخرى لديهم سواء في تفصيلات اعتقادية أو فقهية، فقد قال:

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{64}" آل عمران.

"إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً{48}" النساء.

ونبينا أمرنا أن لا نُشادَّ الدين حتى لا نشدد على أنفسنا، إنما نسدد ونقارب، ولا يهم أن تكون عباداتنا كاملة، لا عيب فيها على الإطلاق، لأن ذلك سيجعلنا في حرج، لذا كانت الأعمال لا تكفي، مهما كانت كاملة كي ندخل الجنة، ما لم يتغمدنا الله برحمته.

قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه: "سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا ، فإنَّه لا يُدخِلُ أحدًا الجنَّةَ عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا ، إلَّا أن يتغمَّدَني اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ".

وفي رواية ثانية للبخاري: "لن يُنجِّيَ أحدًا منكم عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا ، إلَّا أن يتغمَّدَني اللهُ برحمةٍ ، سدِّدوا وقارِبوا ، واغدوا وروحوا ، وشيءٌ من الدُّلجةِ ، والقصدَ القصدَ تبلُغوا".

وفي صحيح مسلم: "سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا. فإنَّهُ لن يُدْخِلَ الجنَّةَ أحدًا عَملُهُ قالوا ولا أنتَ يا رسولَ اللَّهِ قالَ ولا أَنا إلَّا أن يتغمَّدَنيَ اللَّهُ منهُ برحمةٍ واعلَموا أنَّ أحبَّ العملِ إلى اللَّهِ أدوَمُهُ وإن قلَّ".

وفي صحيح البخاري: "إن الدينَ يُسرٌ ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبَه ، فسدِّدوا وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوَةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ من الدُّلْجَةِ".

مما سبق نستنتج أن ربنا تبارك في عليائه ، الذي أنزل القرآن دفعة واحدة وترك لرسوله جبريل أن يتنزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم منجماً ، كل مرة سورة أو آية أو بضع آيات بحسب المناسبة ، هذا العظيم في علاه يعلم أن بعض الجزئيات من الدين قد تضيع أو تلتبس ، لكنها عنده لا تهم ، طالما نحن نعبده بالأساسيات التي يريدها منا. أقول هذا لكي لا نتردد في اعتبار الآيات المحكمات وإهمال أي حديث شريف يعارضها ولا يمكن تأويله دون تكلف بحيث ينسجم معها. ربنا يهمه منا الحلال البين والحرام البين ، بينما ترك لنا الباقي نجتهد فيه ، وهو يثيبنا في الحالين إن أخطأنا أو أصبنا.

أحاديث الأمر بتغيير المنكر يجب أن تفهم في ضوء آيات كريمة محكمة متعلقة بالموضوع ، وأهم آية محكمة وحاكمة على هذه الأحاديث ولها الاعتبار الأول هي آية لا إكراه في الدين.. قال تعالى:

"لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{256}" البقرة.

ثم قوله تعالى: "نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ{45}" ق.

وقوله: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26}" الغاشية.

وقوله: "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ{99}" يونس.

وقوله: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ{28}" هود.

وقوله: "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ{48}" الشورى.

وبتدبرنا لهذه الآيات الكريمة نجد أنه لابد من أن نفهم قوله صلى الله عليه وسلم: "فليغيره بيده" ونتبين المقصود منه، وهو أن يغير المؤمن منكراً رآه في سلطانه، باستخدام القوة المعنوية أو المادية التي له صلاحية استخدامها، بحكم السلطة التي يمتلكها على موضوع أو مرتكب المنكر، أما المنكر الذي نرى جارنا أو ابن عشيرتنا أو رجلاً من غير ديننا واقعاً فيه فلا يجوز لنا تغييره بالقوة، إلا إن كان تغييره بالقوة في تلك اللحظة، ينقذ إنساناً من القتل أو الأذى الشديد. أما في باقي الأحوال فالمطلوب منا أن نغيره بلساننا، أي بالموعظة الحسنة والدعوة بالحكمة، أو الانتقاد في وسائل الإعلام، أو بالتظاهر السلمي، والتعبير المهذب عن استنكارنا لهذا المنكر ورغبتنا في أن يتغير.

ويبقى التغيير بالقلب، أي إنكار هذا المنكر، وعدم تقبله أو اعتباره طبيعياً، كما يعتبرون الشذوذ الجنسي في بعض الأمم طبيعياً، فهو الحد الأدنى الذي يقبله الله من المؤمن، لأنه قادر عليه، ولا يستطيع أحد منعه منه، وقادر على إخفائه بحيث لا يتعرض لأي أذى أو عدوان بسببه. وقد رغَّبَنا به صلى الله عليه وسلم عندما قال: "إذا عُملت الخطيئة

في الأرض كان من شهدها فكرهها – وقال مرة: أنكرها – كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها ، كان كمن شهدها". (رواه أبو داود وحسنه وصححه السيوطي وأحمد شاكر).

لكن ما الفائدة من الإنكار القلبي طالما سيبقى حبيس الصدر لا يغير من الواقع شيئاً ؟

تغيير المنكر بالقلب وقاية

إن الإنكار بالقلب يحصّن الإنسان ضد تأثير رؤيته لإنسان آخر يفعل هذا المنكر. ففي العلوم النفسية أثبتت الدراسات أن البشر يتأثرون عندما يرون غيرهم يقوم بسلوك معين ، فيزيد احتمال أن يقوموا هم بالسلوك نفسه إن حصل الذي شاهدوه يقوم بهذا السلوك على متعة أو فائدة ، ولم تقع عليه أية عاقبة غير مرغوبة. أما إن رأوه يقوم بسلوك معين ، ويتعرض بسببه إلى عواقب غير سارة كالعقوبة أو الضرر المادي أو المعنوي ، فإنه يقل احتمال قيامهم بالفعل نفسه. الذي يحدث دون قصد هو أننا معشر البشر ندرك أننا متشابهون جداً في النفس والجسد ، فنحن مخلوقون من نفس واحدة ، وإدراكنا لوحدة النفس البشرية يجعلنا نتخذ من بعضنا بعضاً نماذج ، نتعلم من خلالها بآلية اسمها "الاستقداء" modeling أي اتخاذ الآخرين قدوة ومثالاً. وهكذا إن رأينا شخصاً أو سمعنا أنه ارتكب الزنا وحصل منه على متعة جنسية ولم يمسسه سوء ، فإن بعضنا ، وخاصة الذين لا تجد شهوتهم الجنسية الإشباع بالحلال ، يَسْتَقْدون هذا الشخص الذي زنا ونجا بفعلته ، فتحدثهم أنفسهم أن يفعلوا مثله ، أي أن يقتدوا به ، وبذلك يكثر الزنا في المجتمع. أما إن أنكر من سمع قصة واقعة الزنا هذا المنكر ولو بقلبه ، فإن تأثره بالسلوك الذي رآه أو سمع عنه يقل كثيراً ، لأن إنكار المنكر يشبه إقناع النفس أن طعاماً ما غير طيب أو حتى كريه ، فيقل اشتهاؤها له واحتمال تناولها إياه. أما الذي يحصننا أكثر ، فهو بذل الجهد باللسان وما يتفرع منه من طرق وأساليب ، من أجل تغيير هذا المنكر. تأثُّر المراقب بالمنكر واستقداؤه لمرتكبه وازدياد احتمال وقوعه فيه ، ما لم ينكره بقلبه ولم يرَ مرتكبه يعاني عاقبة لفعله ، هذا التأثر مع ما ينتج عنه من سلوك يسميه علماء النفس تعلُّماً. والشيء الوحيد الذي يزيد بالإنفاق بدل أن ينقص هو العلم. فكلما أعطيت الآخرين من علمك ازداد علمك وترسخ في ذهنك ، وتوضحت لك غوامضه ، وسهل عليك حفظه. والعاقل يستفيد من العلم الذي عنده ، وتغيير المنكر باللسان لابد فيه إضافة للإنكار القلبي من تبيين أضرار المنكر ، والتحذير من عواقبه ، وإظهار النفور منه واستقباحه ، وكل هذا يزيد الإنسان علماً بهذه الأمور

ونفوراً منها ، فيقل ارتكابه لمثلها ، ويكون قد تعلم ، على المستويات الثلاثة: المعرفي والوجداني والسلوكي.

الاستقداء والتعلم من سلوك الآخرين والألفة للمنكر والميل لاعتباره أمراً طبيعياً تمت الإشارة إليها كلها في قوله تعالى عن حديث الإفك واتهام عائشة وصحابياً شاباً بالزنا:

"إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ{19}" النور.

ربنا هنا يحذرنا من أن نشر الاتهام وإشاعته يهدف إلى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، أي أن يتعلموا هذا السلوك ويستقدوا مرتكبه ، فتطوع لهم أنفسهم أن يقعوا فيه. لم يكن المنافقون الذين نشروا هذا الاتهام علماء نفس ، إنما هذا شيء يمكن لكل خبير في الحياة أن يستشعره ، كما نجد الإشارة إلى هذا النوع من التأثر والتعلم بقوله صلى الله عليه وسلم: "ضرب قلوب بعضهم على بعض" ، فلنتأمل هذا الحديث الشريف: "إنه من كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل فيهم العامل الخطيئة فنهاه الناهي تعذيرا فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض على لسان داود وعيسى بن مريم "ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر ، ولتأخذن على أيدي المسيء ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ويلعنكم كما لعنهم" (رواه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رجاله رجال الصحيح كما حسّنه ابن حجر العسقلاني).

ويتأكد هذا المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالط" (أو يخالل في رواية أخرى) (رواه أحمد في مسنده وصححه أحمد شاكر وابن باز).

من ابتلي فليستتر

وإذا انتبهنا لهذه الآلية في التعلم ، تبين لنا بعض الحكمة في اشتراط أربعة شهود عدول رأوا العملية الجنسية بأعينهم ، أو إقرار الزاني وثباته على إقراره لتثبت جريمة الزنا على المسلم ، ولِمَ كان حد القذف شديداً لهذا المدى ؟. أكثرنا يظن أن الهدف من حد الزنا في الإسلام هو أن يمتنع الناس عن الزنا ، لذا نرى تمسكاً برجم الزاني المحصن أو المتزوج ظناً أن قسوة العقوبة ترهب الناس أكثر وتجعلهم يمتنعون عن الزنا. الذي يثبت أن هذا الظن خاطىء هو أن جريمة الزنا لا تثبت على أحد إلا بإحدى الحالتين التاليتين: الأولى أن يذهب الذي زنا ويبلغ القضاء عن نفسه ويَثْبُت على ادعائه أنه زنا ، ويطلب التطهير من ذنبه ، ومثله المجاهر الذي يباهي بأنه زنى ويتحدث به أمام الناس فيعتبر ذلك اعترافاً منه بالزنا لو وصل إلى القضاء ما لم يكذّب نفسه وينكر ادعاءه ، والثانية أن يتمكن أربعة رجال عدول ، أي ليسوا من الفساق ، من أن يروا العملية الجنسية ذاتها ، ويروا الأعضاء التناسلية للزانيين ، ويتأكدوا أن الزنا وقع بينهما ، والزنا في القضاء الإسلامي هو ولوج ذكر الرجل في فرج المرأة ، وكل ما سوى ذلك لا يستحق مرتكبه الحد الشرعي ، وإن كان يستحق عقوبة تعزيرية بحسب اجتهاد القاضي أو القوانين النافذة ، مع أنه يعتبر زنا ، لكنه زنا لا يوجب الحد. هل من شك أن حد الزنا يهدف بالدرجة الأولى إلى إرغام الزناة على أن يستتروا عن أعين الناس ، وعلى أن يحتفظوا بفعلتهم سراً ، وعلى أن ينكروا وقوعها إن اتهمهم أحد بها ؟ بهذا الإرغام يخلو المجتمع من أية قدوة للزنا مع أنه لابد حاصل من بعض الناس. تدبروا هذا الحديث الشريف: "مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَحْفَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ". (رواه مالك في الموطأ). وفي رواية ثانية: "من أتى من هذِه القاذوراتِ شيئًا فليستتِر بستِرِ اللَّهِ فإنَّهُ من أبدى لنا صفحتَه أقمنا عليهِ الحدَّ" (رواه الحاكم والبيهقي بإسناد جيد وقال ابن الملقن: إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم).

واضح من هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أن يستتر الناس بمعاصيهم وأن يستر بعضهم على بعض ، ولم يكن حريصاً أن يقيم الحد على أي زان أو شارب خمر أو غير ذلك. كان يعلم أنه لابد من وقوع بعضهم في الزنا أو غيره من المعاصي ، لكنه كان حريصاً أن لا يتحول العصاة إلى نموذج وقدوة لغيرهم ، فيشيع الزنا في المجتمع ، أو تشيع

المعصية المرتكبة. بعضهم يدافع عن حد الرجم بأنه لا يستحقه إلا من مارس الجنس أمام أربعة رجال عدول أو إن اعترف على نفسه وهذا نادر جداً أن يقع. لكن في هذا العصر كل شيء يمكن أن يقع، ففي البلدان غير المسلمة يُمارس الجنس على المسارح أمام عشرات المتفرجين لإمتاعهم مقابل المال، أو يصور الفعل الجنسي ويعمل منه أفلام سينمائية تباع في الأسواق أو تعرض على الإنترنت بمقابل أو دون مقابل. لا تظنوا أن المسلمين لن يفعلوا ذلك، فقد فعله منهم أعداد كبيرة جداً من كل الجنسيات المسلمة والإنترنت مليء بأفلامهم. ألم يقل صلى الله عليه وسلم: "لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم، شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ، حتى لو دخلواجُحْرَ ضبٍّ تبعتُمُوهم. قلنا: يا رسولَ اللهِ، اليهودُ والنصارى؟ قال: فمَنْ؟" (متفق عليه)

إن حد الزنا شرعه الله ليقام على هؤلاء وأمثالهم من المستهترين الذين لا يستحيون، كي لا يكون من المسلمين قدوة فاسدة. وحتى حد القذف الذي يستحقه من يدعي أن فلاناً أو فلانة قد زنيا ويشهد عليه شاهدان فقط عدلان فيجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبداً ما لم يثبت ادعاءه بأربعة شهود عدول رأوا العملية الجنسية المزعومة، ولا يُسأل المتهم أو يحلف اليمين لتبرئته، بل من أراد أن يشيع في المجتمع الفاحشة بلسانه الطويل عليه الحد حتى لو كان في حقيقة الأمر صادقاً في ادعائه، لكن ليس لديه أربعة رجال يشهدون أنهم رأوا ما ادعاه. إن الإنسان يقتدي بمن يراهم ويقتدي بمن يسمع عنهم، لذا كان الحرص على بقاء جو المجتمع نقياً كما نحرص على نقاء أجواء مدننا، رغم أنه لابد أن يكون هنالك فضلات وقاذورات.

تغيير المنكر باللسان

تغيير المنكر باللسان يكون بالموعظة الحسنة والتلطف بها مع ستر المسلم الذي اطلعنا على منكره، فتكون نصيحتنا له نصيحة ولا تكون فضيحة. ويجب أن نقدمها ونحن مخلصون في أننا نفعل ذلك من أجل أخينا الواقع في المعصية، حرصاً عليه من أن يتعرض لغضب الله، إذ وقتها تخرج النصيحة من القلب لتدخل في قلب من تُوجه إليه. هذا الأسلوب لتغيير المنكر باللسان هو أبسط أشكال هذا النوع من التغيير وليس الشكل الوحيد.

إن كل وسيلة لا عنفية لتغيير المنكر هي تغيير باللسان أو ملحقة به. قد يكون العمل على تغيير المنكر كتاباً نكتبه أو ننشره أو نشتريه ونهديه للشخص الواقع في المنكر، وقد يكون

مقالة في صحيفة أو على الإنترنت ، أو لوحة جدارية ، أو أغنية تستهوي الشباب ليسمعوها ، أو تمثيلاً على شكل فيلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني ، أو خطبة على المنبر يوم الجمعة ، أو دروساً دينية في المساجد ، أو مناهج دراسية تهدف إلى تغيير منكر معين ، أو رسائل إلكترونية ، أو....أو... كل وسيلة يستخدم فيها البيان بالكلمة أو بالصورة أو بالكتابة أو غير ذلك من طرق التعبير ووسائله ، كلها تغيير باللسان لما نراه من منكر أو نعلم أنه يقع خفية ونريد أن يمتنع الناس عنه.

السؤال الآن ما المنكر الذي علينا ولنا أن ننكره على غيرنا ونسعى لإقناعهم أن لا يقعوا فيه ؟

نبينا صلى الله عليه وسلم قال: الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات ، وحتى لا نفرض على الناس إلا ما نحن متأكدون مئة بالمئة أن الله فرضه ، سيكون علينا أن لا نعتبر شيئاً من سلوكهم منكراً إلا إن كان حراماً بيناً ، جاء تحريمه في نص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة ، أما ما اختلفت فيه المذاهب والفقهاء ، وما توصل إليه الفقهاء بالاجتهاد بالقياس أو غيره ، فلا يحق لأحد أن ينكره على أحد ، لأن حرمته ليست متيقنة وما تزال موضع جدال وخلاف. ديننا اكتمل قبل وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل تحريم أتت به الأمة بعده ليس من المنكر الذي لنا الحق أن ننكره على غيرنا ونعمل على تغييره. قال تعالى:

"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{3}" المائدة.

وواضح لنا أن الإعلان عن اكتمال ديننا وتمام نعمة هداية الله لنا ، جاء في وسط آية ولم يأت بآية مستقلة ، بل أتى في سياق تعداد أحكام الله من تحريم وتحليل ، وما عليكم إلا العودة إلى المصحف وتأمل موقع هذا الإعلان في سورة المائدة وما الذي سبقه وما الذي تلاه. إذن لا تحليل ولا تحريم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن يؤمن بغير ذلك من محرمات اجتهد الفقهاء فحرموها ولم يكن الله قد حرمها في القرآن أو على لسان نبيه ، فهو حر

فيما يقتنع به وله منا كل الاحترام ، لكن لا يحق له أن يتدخل في شؤون الناس ليغير منكراً لم يثبت أنه منكر من قبل أن يعلن المولى اكتمال دين الإسلام. على مستوى الأمة يكون التركيز في تغيير المنكر على ما حرمه الله في كتابه أو على لسان نبيه في حديث صحيح لا اختلاف بين المسلمين في صحته ، ودلالته قطعية لا يختلف فقيهان في فهمه ، ولا يعارض آية كريمة قطعية الدلالة ، ولا حديثاً نبوياً آخر أثبت منه ودلالته قطعية. كل ما سوى ذلك لا ننكره على غيرنا وإن كان لنا مطلق الحق أن نلزم به أنفسنا.

كل ما فيه تأوّل أومخرج فقهي معتبر لا نعتبره منكراً يحق لنا العمل على تغييره عند الناس ، وهذا يعني أنه على من يريد تغيير أي منكر أن يكون متفقهاً بهذا المنكر ، ومتأكداً أنه مما لم تختلف فيه المذاهب وآراء العلماء.

ثم علينا مراعاة نفسيات الناس الذين نخاطبهم أو ندعوهم لترك منكر ما ، فنيسّر ولا نعسّر ، ونبشّر ولا ننفّر ، كما أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم: "قال أبو هريرة رضي الله عنه: قام أعرابيّ فبال في المسجدِ ، فتَناوَلَه الناسُ ، فقال لهمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "دَعُوه وهَريقوا على بَولِه سَجْلًا من ماءٍ ، أو ذَنُوبًا من ماءٍ ، فإنما بُعِثتُم مُيَسِّرينَ ، ولم تُبعَثُوا مُعَسِّرينَ". (رواه البخاري). وقال: "بشّروا ولا تنفّروا .ويسّروا ولا تعسّروا". (رواه مسلم).

وتغيير المنكر باللسان ، أي بجميع طرق البيان الإنساني ، يجب أن يكون بالحكمة والأسلوب الحسن ، لا بأسلوب التقريع واللوم والمهاجمة. نحن لسنا جنوداً عند ملك نريد إخضاع رعيته له ، فالخالق لم يفوضنا بذلك ، بل استخلفنا ، وعلينا أن نتلطف بالناس ونرفق بهم ، ونراعي ضعفهم الإنساني كما يفعل ربنا الذي استخلفنا. علينا أن نتبع سنته وأسلوبه ، أولاً لأنه هو أنجح الأساليب وأعظمها تأثيراً ، وإلا لما استنه ربنا الكبير المتعال حتى مع الكفار الفاسقين المعاندين لرسله ، فحتى فرعون ، أمر ربنا موسى وهارون ، أن يقولا له قولاً ليناً ، وقال سبحانه: لعله يتذكر أو يخشى.

"اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{43} فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى{44}" طه.

وثانياً: لأننا أصحاب مصلحة في استجابة من ندعوه لترك المنكر، لأننا إن استجيب لنا كان لنا مثل أجره على العمل الصالح الذي دعوناه إليه، وإن لم يُسْتَجب، كان لنا أجر دعوته فحسب.. إننا مثل تاجر يسعى إلى الربح فيتلطف إلى زبائنه ويتفنن في طرق إقناعهم بشراء سلعته، بل نحن نسعى إلى ربح الآخرة من ربنا الذي يضاعف الأجر أضعافاً مضاعفة.

وثالثاً: لا يدخل إلى القلب إلا ما خرج من القلب. يجب حتى نؤثر فيمن ندعوه أن يحس أننا لا نستعلي عليه بطاعتنا فنزدريه بسبب معصيته، وأن يحس أننا نحبه أو على الأقل نريد له الخير بصدق، لا أن يلمس منا عدائية ورغبة في إخضاعه فينفر منا ومما ندعوه إليه. علينا نحن المسلمين أن نبدع علم نفس شاملاً متخصصاً بالدعوة إلى الله، التي هي جوهر تغيير المنكر باللسان. في هذا العصر يستفاد من علم النفس في التجارة والصناعة وفي كل وسيلة من أجل زيادة الإنتاج والاستكثار من الربح، هذا غير استفادة السياسة من العلوم النفسية، ونحن الذين نريد الإصلاح وتغيير المنكر وإنقاذ الناس من النار أولى أن نستفيد من مكتشفات علم النفس ونسخرها في سبيل الله.

تغيير المنكر باليد

إن كان تغيير المنكر باللسان يعني تغييره بالكلام وما يُلحق به من وسائل البيان، فإن تغيير المنكر باليد يعنى تغييره بالأفعال لا بالأقوال، وثالثهما تغييره بالقلب، يعني تغييره بالمشاعر والأفكار.. ثلاثة وظائف تقوم النفس الإنسانية بها طيلة حياتها: الشعور والفكر، والقول، والعمل، غطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم في سطرين لا أكثر. وهي نفسها الثلاثة التي أصر علماؤنا أن تكوّن عند اجتماعها الإيمان: شهادة التوحيد بالكلام ومشاعر الحب والتواضع لله في القلب وعمل يصدق هذا الإيمان الذي وقر في القلب.

إذن تغيير المنكر باليد لا يقتصر معناه على إجبار الناس على ترك المنكر بالقوة، بل هو كل وسيلة للتغيير لا تقتصر على الكلام والبيان.

تغيير المنكر باليد يشمل ما يقوم به الحاكم المسلم من منع أية ظواهر محرمة في الإسلام أن تُمارس علانية، فلا يعترف بمهنة كالبغاء أو بيع الخمر للمسلم، أو المجاهرة بالممارسات الجنسية المثلية الشاذة، أو اختلاس مال الأمة، أو تعدي الناس على بعضهم بعضاً بالكلام المهين أو بالضرب أو القتل، أو سرقة الممتلكات، أو تدميرها، أو غش الناس في السلع

التجارية ، وما شابه مما لا يحصى من واجبات ومسؤوليات الحاكم فرداً كان كالخلفاء قديماً أو حكومة مؤلفة من أربع مؤسسات تتمتع كل منها بسلطة مستقلة ، أقصد السلطة التنفيذية ، والسلطة الدينية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التشريعية. ومن تغيير المنكر باليد ، رفع الظلم عن المظلومين ورد الحقوق لأصحابها ، والأخذ على أيدي الذين يعتدون أو يظلمون غيرهم. ومن تغيير المنكر باليد ، قيام الدولة بتطوير الأحياء الفقيرة المعدمة ، للتقليل من فرص تحول أبنائها إلى مجرمين تحت ضغط الحاجة ، ومنه إنزال العقوبات بالمجرمين ، وحماية المجتمع منهم ، وتأهيلهم كي ينصلحوا ويعيشوا كمواطنين صالحين مثل غيرهم ، ومنه أشياء كثيرة على الدولة القيام بها لتضمن العدل للجميع ، فلا هي تظلم أحداً ، ولا تسمح لأحد منهم أن يظلم غيره ، فالقسط والعدل هو الغاية الدنيوية الأولى من إرسال الله الرسل إلى البشرية ، إضافة إلى هدايتها إلى خالقها وعبادته التي ترضيه عنها ، قال تعالى:

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{25}" الحديد.

الحسبة

قال تعالى: "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{104}" آل عمران.

فَهِم المسلمون هذه الآية على وجهين. الأول أن الله يأمرنا أن تكون منا أمة أي طائفة أو مجموعة من المؤمنين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر نيابة عن مجموع المؤمنين ، وبذلك اعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية واستحدثت وظيفة "المحتسب" ، ومثالها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية. أما الوجه الثاني لفهم الآية الكريمة ، فهو أن الله يأمرنا أن نجعل من أنفسنا جميعنا أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أي على الجميع أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وبالتالي كل مؤمن "محتسب" ، وليست الحسبة عمل فئة تتخصص بها ، وإن كان لا بأس أن توجد هذه الفئة على أية حال.

ومع أن أكثر فقهاء الأمة مالوا إلى الوجه الأول، واعتبار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن باقي الأمة، فإن الوجه الثاني هو الأصح والله أعلم. أولاً سياق الآيات قبل هذه الآية وبعدها كله أوامر من الله للأمة بمجموعها، ثم إن الله عندما أمر أن تذهب طائفة أي مجموعة من المؤمنين من كل مجتمع مسلم في مدينة أو بلدة أو قبيلة ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إلى فئتهم يفقهونهم في الدين، قال:

"وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ{122}" التوبة.

.. أي عندما أمرنا الله بفرض كفاية يتخصص أناس بالقيام به وضح ذلك وبرره أنه يتعذر أن يقوم بذلك المؤمنون جميعهم، لكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتعذر أن يقوم به جميع المؤمنين كل في موقعه وحسب قدرته.

صلاحيات المحتسب

المهم، ما هي صلاحيات المحتسب، سواء كانت الأمة كلها محتسبين ومحتسبات، أو كان من طائفة مكلفة بهذا العمل، من دون بقية المؤمنين؟ هل واجبه محدد بالأمر والنهي، دون تجاوز ذلك إلى تغيير المنكر باليد؟ وهل ليس للمحتسبين إلا أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، دون أي إكراه لأحد على شيء، أو معاقبته على منكر فعله أو معروف تركه؟

بعقلية الوصاية على الآخرين لإبقائهم على الصراط المستقيم ولو لزم إكراههم على الطاعات كالصلاة مثلاً وإتلاف أموالهم المحرمة كالخمر مثلاً، كانت للمحتسب المعيّن من الخليفة كما لجميع من يقوم بالاحتساب ولو دون تكليف صلاحية إكراه باقي المؤمنين على المعروف وعلى ترك المنكر، وذلك ضمن قواعد تحدد مدى هذه الصلاحية في الحالات المختلفة، اجتهد الفقهاء في وضعها. كان للمحتسب حق إتلاف آلات الموسيقى على اعتبار الموسيقى محرمة، ولهم حق إهراق الخمور التي يجدونها عند أحد المسلمين، ولهم صلاحية التحقيق مع من يتخلف عن صلاة الجماعة، فإن لم يكن له عذر مقبول، أنزلوا به العقوبة من ضرب ونحوه، وصلاحية أمر أي مسلمة أن تحسن حجابها وتغطي وجهها في البلاد التي تعتبر ستر الوجه فريضة... أمثلة كثيرة يمكن تعدادها، المُشْتَرك فيها هو تجاوز الأمر والنهي إلى

الإلزام والمنع ، وإلزام الآخرين أو منعهم من ارتكاب المنكر ، غير ممكن إلا إن كان للمحتسب سلطة ، تجعل الذين يأمرهم بمعروف ما يطيعونه ، لأن له صلاحية معاقبتهم. عاشت الأمة قروناً على هذا الحال ، إلى أن جاءها الاستعمار الأوربي ، وانتقضت عرى الإسلام عندها ، حتى بلغ الانتقاض عقدة الصلاة في أغلب بلدان المسلمين ، فاختفى المحتسب من تلك المجتمعات ، كما صار من يمارس الاحتساب تطوعاً ومن نفسه ، مسؤولاً عن أي مال يتلفه ، أو أي أذى يوقعه على غيره ، ويعاقب على ذلك ، دون أن يشفع له أنه يأمر بمعروف وينهى عن منكر ، وجاءنا من الغرب مفاهيم الحرية الفردية بكافة أشكالها ، وتحرر المرأة ، والاهتمام بالرياضة والفنون من غناء وتمثيل وغيرهما ، فتعوّد المسلمون في هذه البلدان التي تعرضت للاستعمار الأوربي على الحرية الشخصية وخاصة في المجتمعات التي ضعفت فيها أو زالت الروابط القَبَلية ، وذهبت معها الكثير من الأعراف والتقاليد القديمة ، فتبدلت القيم ، وتغير ما يعلي الناس شأنه من الأمور ، أو يعتبرون من العيب والعار فعله. استيقظت لدى الناس الرغبة في الاستقلالية إلى آخر مداها ، وصار إكراه الناس على شيء ولو كان من فرائض الإسلام ، يستفزهم ويستثير مقاومتهم ورفضهم وكراهيتهم لمن يريد أن يجبرهم على أي شيء من تعاليم الإسلام. وفي هذا الجو وهذه المجتمعات ظهر المؤمنون الجدد ، الذي يريدون أن يستعيدوا الحياة الإسلامية التي كانت تحياها الأمة ، وكان المثال والقدوة لهم ما قرؤوه في كتب التاريخ عن ممارسات الأجيال السابقة من المسلمين ، وفهموا تغيير المنكر كما فهمه الأسلاف ، فنشطوا للدعوة وتغيير المنكر في مجتمعاتهم ، وأعطوا لأنفسهم حق إجبار الناس على الفرائض ، ومنعهم من المحرمات ولو بالقوة. ومنهم من كفّر المجتمعات والحكومات التي لا تطبق الشريعة كاملة ، فأعطى لنفسه الحق أن يقتل منهم ما يلزم قتله للعودة بالأمة إلى ماضيها الإيماني.

صار الشاب يحاول بالقوة فرض الحجاب على أخته أو أمه ، فينتهر الأم ، ويضرب الأخت ، إن لزم الأمر. وصار الشاب منهم يتقرب إلى الله بإتلاف أو تعطيل جهاز التلفاز في بيت أهله ، أو يتلف ما يجده عند والديه من محرمات كالخمور مثلاً ، فتحول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى صراع ، قطع روابط الحب والتراحم بين أفراد الأسرة الواحدة ، كما ظهر الاضطراب والنفور من الإسلام على مستوى الأمة ، عندما أعطى بعض هؤلاء الشباب أنفسهم الحق أن يغيروا المنكر بالقوة والعنف. حاربت الحكومات هؤلاء الشباب وانتصرت عليهم في كثير من البلدان ،

وانتصروا هم عليها في بعض البلدان ، ففرضوا الشريعة في المناطق التي يسيطرون عليها ، أو في الدولة بأكملها ، إن وصلوا إلى الحكم فيها ، كما فعل الطالبان في أفغانستان.

لم يكن هؤلاء الشباب المتحمسون لتغيير ما يعتبرونه منكراً بالعنف والإكراه على فقه وفهم للدين كالذي كان عند عمر بن الخطاب وهو يجول في طرقات المدينة يوجه الأوامر للرعية وقد يضرب أحدهم بعصاه إن قدّر أن الموقف يستدعي ذلك. وبهذا الفقر الفقهي ، والوفرة العظيمة في الحركة والعمل ، نجح هؤلاء الشباب ، رغم إخلاصهم ، في بث الرعب لدى الشعوب المسلمة من أن تحكمهم فئة من هؤلاء ، فيمارسوا عليهم الإجبار والإكراه على ما يعتقدون أنه مفروض أو محرم في الإسلام. هذا الرعب من أي حكم للإسلاميين أفاد الذين لهم موقف سلبي من الشريعة الإسلامية ، إما لأنهم غير مسلمين بالأصل ، أو هم من المسلمين الذين تأثروا بالفكر الغربي فألحدوا أو صاروا شيوعيين أو علمانيين أو ليبراليين. فاستغله هؤلاء ونفخوا فيه ليكبر ، ومارسوا الإقصاء من الشأن العام لكل ما هو إسلامي ، وحُرّمت السياسة على الإسلاميين ، فلجؤوا للعمل السري ، وظهر من بينهم الجهاديون والتكفيريون.

الإسلاميون وتحديات الربيع العربي

الآن بعد الربيع العربي وحصول بعض الشعوب العربية على شيء من الحرية وقليل من الديمقراطية الحقيقية ، فاز الإسلاميون في الانتخابات وشاركوا في حكومات بلادهم. ومع أن الفهم السائد للإسلام عندهم يدعوهم إلى فرض وصايتهم على رعاياهم ، على اعتبار أنهم أولياء أمر الأمة ، وعليهم واجب أن يأطِروا الناس على الحق أطراً أي يعطفوهم على الحق عطفاً ، فإنهم حرصوا ألا يفرضوا على أحد شيئاً بالإكراه. أولاً: لأن الشعوب لن تتقبل الإكراه على شيء ، ولا حتى على الصلاة التي هي عماد الدين ، وثانياً: لأنهم لم يصلوا إلى السلطة حقيقة ، إنما ماتزال بلدانهم تحكمها الجيوش وأجهزة الأمن ، أي يحكمها من عنده القوة ، والإسلاميون في دخولهم في الحكومات ليسوا أكثر من موظفين كبار ، صلاحياتهم كاملة في العلن ، لكنها في الحقيقة منقوصة جداً ، فلا يستطيعون أن يحكموا الناس بما يشاؤون.

بفوز الإسلاميين بالانتخابات بأصوات كثيرة ، أثاروا على أنفسهم عداء الكثير من القوى السياسية غير المسلمة أو المسلمة لكن غير مؤمنة أو العلمانية أو الليبرالية أو اليسارية... وفي الصراعات السياسية يستبيح الناس الكذب والخداع ، لذا قام هؤلاء الخصوم السياسيون ،

وسيبقون يقومون ، بالتشهير بالإسلاميين ، وتضخيم أخطائهم في عيون الجماهير ، وتشويه صورتهم ، مستغلين أشياء مترسخة عند الإسلاميين لا يمكنهم إنكارها ، مثل أن للدولة حق في فرض المعروف على الناس ، ومنعهم من المنكر ، بقوة القانون وعقوباته ، وهذا جعل الكثيرين جداً من أبناء بلادهم منهم مسلمون متدينون ، يرفضون حكم الإسلاميين ويسعون لإسقاطهم.

بالمقابل فإن عجز الإسلاميين الذين وصلوا إلى الحكم عن تحقيق حلم قواعدهم وحلم الفئات الملتزمة الأخرى ، التي لم تكن تمارس السياسة كالسلفيين ، جعلهم موضع لوم وانتقاد واتهام بالتقصير والتنازل عن ثوابت إسلامية من أجل البقاء في الحكم. الإسلاميون هذه الأيام أمام تحدٍ كبير إن لم يتغلبوا عليه فسيخسرون الكثير من شعبيتهم ، وسيشتد رفضهم من قبل القوى الاستعمارية التي ماتزال صاحبة التأثير في تحديد من يصل إلى الحكم في أغلب بلاد المسلمين ، وهذا سيعطي المجال لأن يتم اضطهادهم وإقصاؤهم ووضعهم بالسجون ظلماً وبتهم ملفقة ، لكن الفارق عن زمان الاستبداد السابق أن الاستبداد الحالي يغلف كل شيء بقشرة القانون والعدالة وحكم القضاء المستقل والنزيه ، كما يستند هذا الاستبداد الجديد على قاعدة شعبية لا يستهان بها ، سبب تمتعه بها الأول أن خطاب الإسلاميين السياسي غامض بما يخص الحريات الفردية وقيم المواطنة والديمقراطية والتعددية ، هو غامض عند الإسلاميين المسيسين من قبل ، وهو صريح في رفضه لكل هذه المفاهيم والقيم عند الإسلاميين غير المسيسين ، والذين بدؤوا ممارسة السياسة بعد الربيع العربي وأهمهم السلفيون.

ما لم يتغير خطاب الإسلاميين السياسي تغيراً حقيقياً تثق بصدقه كل فئات المجتمع ، ويستطيع طمأنتها إلى حريتها الفردية على كل الأصعدة ومن جميع النواحي ، وعلى شمول المواطنة لجميع أبناء المجتمع مؤمنهم وكافرهم ، وعلى الرضا بالديمقراطية كآلية للحكم دائمة ، لا كوسيلة للوصول إلى الحكم ثم إلغاؤها ، وعلى التعددية السياسية حتى لو كانت الإيديولوجيات التي يدعو إليها بعض الفرقاء متعارضة مع الإسلام تعارضاً تاماً ، ما لم يحدث ذلك كله ، فإن نجاح الإسلاميين الذي حققوه عندما كانوا مضطهدين ويعملون بالخفاء ، سيتراجع في مرحلة العلنية وقلة الاضطهاد ، لأن ظهورهم فوق السطح جعلهم عرضة للهجوم والتشويه وتصيّد الأخطاء وتضخيمها ، بينما كان الاضطهاد قبل الربيع العربي من نمط آخر ، وكانت دعوتهم السرية تصل إلى قلوب الكثيرين ، لأن كل شيء كان يتم بالسر ، ولا أحد يحاول أن يبطل أثرهم في الأفراد الذين يعملون على هدايتهم للدين وكسبهم للتنظيم. كان

خطاب الإسلاميين المسيسين يتم على مستوىً فردي وبشكل سري ، لكن بعد الربيع العربي صار خطابهم موجهاً إلى جماهير الناس وعلى الملأ، بحيث يستطيع من يريد التشويش والشغب عليهم أن يقوم بذلك ، أي إن خروج خطابهم من تحت الأرض إلى فوقها ، جعله معرضاً لسهام المعادين له ، بينما كان تحت الأرض محصناً تجاه هذه السهام ، وكانت السهام توجه إلى أشخاص من يُعْرفون منهم. قال الشاعر:

لولا اشتعال النار فيما جاورت　　　ما كان يعرف طيب عرف العود

وهذه السهام الناقدة الحاقدة مؤذية ومزعجة ، لكنها مفيدة جداً ، لأنها تدل الإسلاميين على المواطن التي عليهم تطويرها في خطابهم الديني عموماً والسياسي خصوصاً. المهم ألا يتثبطوا وألا يتصلبوا وألا يجمدوا على ما هم عليه ، وإلا فسيتجاوزهم الزمن ، ويخبو نجمهم ، وتصبح الأصوات الانتخابية الكثيرة التي يفوزون بها حالياً شيئاً من التاريخ. لا خيار أمام الإسلاميين في هذه المرحلة ، إلا تطوير نسخة الإسلام التي يتبنونها ، بحيث تلائم العصر بقيمه الجديدة ، وبحيث لا تصادم طباع الناس الفطرية التي استيقظت في نفوسهم ، كإعلاء قيمة الحرية بكل معانيها ، والنفور من البقاء تحت وصاية الغير.

نسخة جديدة من الإسلام ، تتسع للديمقراطية ، والمواطنة ، والتعددية ، وحرية الاعتقاد والارتداد والتعبير. وهذا ليس متعذراً ، ونحن في غنى عن التهاون بالثوابت ، إنما قد يكون في القضية مذهب يناسب عصرنا أكثر من غيره ، أو يكون هنالك مجال لاجتهاد جديد ، يكون معقولاً ومستساغاً من ناحية أصول الفقه ، لا أن نحمّل النصوص معانٍ لا تحتملها ، ولا أن نعطل أحكاماً ثابتة بنصوص قطعية ثبوتاً ودلالة بحجة فقه مقاصدها ، لأن هذا الأمر دين ولا مجال للتجديد والتغيير فيه بحد ذاته ، إنما التجديد يكون باكتشاف ما فات أسلافنا من احتمالات أو معانٍ للنصوص ، وأن نجدد أسلوب التزامنا وأسلوب تطبيقنا لأحكام ديننا ، فيكون ذلك تجديداً لدين الأمة ، لا للدين ذاته ، فهو دين أكمله الله وأتمه ، ولن يبقَ ديناً إن سمحنا لأنفسنا أن نبدل فيه وفق هوانا.. ديننا صالح لكل زمان ومكان ، لأنه مرن في ما عدا مجموعة من الأحكام الثابتة والعبادات ، التي علينا أداؤها كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحتى يتسع ديننا لمستجدات عصرنا ، علينا أن لا نصر على اعتقادنا أنه ليس بالإمكان أبدع مما

كان ، أي ليس بالإمكان الاجتهاد فيما اجتهد فيه علماء الأمة السابقون ، للإتيان بأحكام تلائمنا ، وتكون من صميم الدين.

التزام لا إلـزام

نعود إلى الاحتساب وما يحق للمحتسب أن يقوم به ، سواء كان محتسباً موظفاً من قبل الدولة ، أو محتسباً من تلقاء نفسه. في هذا العصر ما عاد أكثر المسلمين يستسيغون أن يفرض عليهم الدين فرضاً. فلا النساء يسعدهن أن يتدخل الآخرون بحجابهن ولباسهن ، ولا المسلم البالغ العاقل يستسيغ أن يلاحقه أحد ليجبره على الصلاة شاء أم أبى ، ولا أن يأتيه محتسب ويكسر آلات عزفه الموسيقية ، ولا أن يجره إلى مركز الشرطة إن أفطر في رمضان ، ولا غير ذلك من أشكال الإجبار والإكراه والإلزام. إنسان القرن الحادي والعشرين من أي دين كان ، لا يفرط بحريته واستقلاليته. فهو يريد أن يصلي إن صلى من تلقاء نفسه ، لا لأنه خائف من العقوبة ، وتريد المرأة أن تتحجب عندما ترغب هي ، لا عندما يفرض الآخرون الحجاب عليها. يريد أن يكون حراً لا يتدخل في شأنه أحد ، طالما أن ما يفعله مقبول عند مذهب من مذاهب المسلمين ، أو وفق اجتهاد فقيه يثق الناس به ، سواء كان معاصراً أو كان من السابقين.

هذا الإنسان ، الذي استقلاليته في القرار لنفسه ، وحريته الشخصية ، غاليان عليه ، ولا يرضى أن يتنازل عنهما لأحد ، يمكن أن يخضع للسيطرة والتحكم من المحتسبين أو من سلطات الدولة عموماً ، فيتقيد بأمور لا يرغب في التقيد بها ، وذلك خوفاً من العقوبة ، لكنه سيكره هذا الذي أجبره على ما لا يريد ، وقد يمتد كرهه ليصل إلى الإسلام نفسه ، كرها قد يصل أحيانا لحد إعادة النظر بهذا الدين ، والإيمان بدين آخر كان يعتبره خاطئاً دون شك. الإنسان المجبر والمكره على شيء ، يؤديه في العلن ويخالفه في السر ، لا يكون مخلصاً في عمله ، ويكون معرضاً لأن يحبط عمله ولا يكتب له الأجر. إن الرياء يحبط العمل لأن المؤمن دخل في نيته أنه يعمل ما يعمل ليرضي البشر.

هذا الكلام سيلاقي اعتراضاً من إخوة مخلصين ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يرضون بالتنازلات ، مع أنهم يدركون الواقع المعاصر ، وأنه علينا أن نأخذ الناس بما يطيقون ، لكنه برأيهم دين ولا مجال للتساهل في الدين. هذا صحيح ، لكن الصحيح مثله ، هو أن آية "لا إكراه" تحتمل ذلك كله. قال تعالى:

"لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{256}" البقرة.

إنه مبدأ وضعه ربنا فرفع عنا الحرج ، إن نحن رأينا منكرات معينة واكتفينا بالأمر والنهي ، بينما كان المسلمون قديماً يجبرون صاحب المنكر على التوقف عنه.

الآية دلالتها واضحة وضوح الشمس ، وهي عامة وشاملة ، وتعني أنه لا يجوز أي نوع من الإكراه في الدين ، لأن كلمة لا إكراه تعني نفي جنس الإكراه كله ، فلا إكراه في الدين ، لا قبل الدخول فيه ولا بعده ، ولا إكراه إلا لضرورة لا تتحقق إلا به ، كأن يكون المنكر الذي يرتكبه الإنسان ضاراً بغيره ، كالسرقة ، أو القتل ، أو المجاهرة بالفاحشة ، أو السُّكر وإزعاج الناس ، أو ظلم الآخرين وما شابه. في أمثال هذه الحالات لا مجال لمبدأ لا إكراه ، الذي هو بعبارة أخرى الحرية المطلقة في جميع أمور الدين. لذا تقيد هذه الحرية التي منحنا الله إياها في دين الإسلام بالقدر الذي لا بد منه لحماية المجتمع من أن يطغى بعضه على بعض ، أو أن يمارس بعضهم حريته دون مبالاة بما يسببه سلوكه من أضرار للناس. والبشرية في هذا العصر رغم تقديسها للحرية الفردية تقيد أبناءها في بعض الأمور التي يتعدى ضررها من يرتكبها ليصيب غيره ، وهذه الحالات من وجوب الإكراه في الدين محدودة ، وثابت تحريمها أو فرضها من قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فالزكاة يؤدي حبسها إلى حرمان فقراء الأمة من حقهم ، لذا تقوم الدولة بتحصيلها لتضمن أن الكل دفعوها.. أما الإفطار في رمضان ، أو عدم الصلاة ، أو الخروج من الإسلام دون التحول إلى عدو للأمة ، فإن أضرارها لا تمتد إلى الآخرين ، وبالتالي يطبق فيها مبدأ لا إكراه في الدين. ومع ذلك كانت هنالك ضرورة مؤقتة فرض الله فيها الإكراه في الدين ، وذلك في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث أراد ربنا أن تكون دولة الإسلام قوية منيعة ، لا يوجد فيها من يخربها من داخلها. دولة قوية تحفظ الدين من التحريف ، وعلى يديها يتحقق وعد ربنا بحفظ القرآن الكريم ، فأمر ربنا بإكراه فئة صغيرة من البشر في الدين ، وإجبارهم على الدخول في الإسلام بحد السيف ، وإلا فليرحلوا عن جزيرة العرب.

الذين أمر ربنا بإكراههم على الإسلام هم مشركو العرب ، الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يعيشون في المنطقة التي يقال لها جزيرة العرب ، وهي تضم في هذا العصر السعودية ودول الخليج العربي. هنا تمت مخالفة المبدأ الذي قرره ربنا ، لكن بأمر منه

للمؤمنين ، أن يقاتلوا المشركين الذين أصروا على الشرك. وكان لا يعصم دم من بقي في جزيرة العرب من المشركين ، إلا أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، فإن ادعى الإسلام ولم يصلِّ ويزكي فإنه يُقاتَل ، لأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة كانا الدليل على إسلامه.

إيتاء الزكاة حق الفقراء وعلى كل مسلم أن يعطي ما يتوجب عليه ، وليس له خيار ، فهي ضريبة سنوية فرضها الله على الأغنياء لترد على الفقراء ، والدولة مسؤولة عن أداء المسلمين لها ، ووصولها إلى مستحقيها. هؤلاء المشركون الذين أكره بعضهم على الإسلام ، ارتد منهم أقوام بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفريق آخر بقي على الإسلام ومقيماً للصلاة ، لكنه أعلن امتناعه عن تأدية الزكاة ، فقاتلهم المسلمون مرة أخرى ، حتى ردوهم إلى حظيرة الإسلام ، وأجبروهم على أداء الزكاة.. هؤلاء الذين أكرهوا على الإسلام بحد السيف ، كانوا يستطيعون الرحيل عن جزيرة العرب ، وعندها دماؤهم معصومة ولو كانوا ضمن الدولة الإسلامية ، تماماً مثل المشركين الهنود وعباد النار من مجوس إيران وغيرهم.

عندما نزل الأمر بقتال المشركين حتى يؤمنوا ، أعلن كثير من القبائل والعشائر دخولهم في الإسلام ، وبالطبع كان التحايل على النبي صلى الله عليه وسلم سهلاً ، لو كان يكتفي منهم بالشهادتين ، فهي كلمات ما أسهل أن يقولها الإنسان. لكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتلقى هداية السماء ، جعل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة برهاناً على جدية دخولهم في الإسلام ، فكان يرسل صحابته في سرايا تستكشف ديار هذه القبائل واحدة واحدة دون أن يشعر أهلها ، فإن وجدوهم يقيمون الصلاة رجعوا عنهم واعتبروهم مسلمين ، وإلا تكون الإغارة عليهم كما أمر الله سبحانه وتعالى.

من فعله صلى الله عليه وسلم هذا استنتج الفقهاء أن تارك الصلاة يُقاتَل ، فإن أصر على تركها يقتل ، منهم من اعتبره مرتداً فقال يقتل حداً ، أي يقام عليه حد الردة ، ومنهم من لم يخرجه من الملة ما دام لم ينكر وجوب الصلاة عليه ، فقالوا يقتل تعزيراً. حصل التباس ، وتعميم لما كان يطبق على المشركين في جزيرة العرب بعد نزول آية السيف في سورة التوبة ، واعتبر قتل تارك الصلاة حكماً على كل مسلم يترك الصلاة في أي مكان وفي أي زمان. فدخل الإكراه في الدين الذي لم يأمر به الله ، وادعى الفقهاء أن آية السيف نسخت آية لا إكراه في الدين ، مع أنه لا يجوز النسخ إلا على الأحكام من تحليل وتحريم.. المهم ، ضاع مبدأ لا إكراه في

الدين ، الذي عرفته البشرية لأول مرة مع القرآن الكريم ، وتم حصره في عدم إكراه غير المسلم على الإسلام.

ومثله حكم قتل المرتد ، الذي كان زمن النبي حكماً خاصاً بتلك الفترة ، لحماية المسلمين من المتآمرين ، الذين يدّعون الإسلام ثم يعلنون ردتهم ، وبعد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن حد ردة ، بل قتال للمشركين في جزيرة العرب ، الذين ارتدوا أو امتنعوا عن الزكاة ، وكان من يعود إلى الإسلام لا يقتل ، ولا يقام عليه حد ردة ولا غيره ، مع أنه ارتكب خطيئة الردة بالتأكيد. نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من بدل دينه فاقتلوه ، لكنه لم يكن يشرع حداً من حدود الإسلام على الأمة تطبيقه إلى يوم القيامة ، كما عليها قطع يد السارق وجلد الزاني ، إنما كان قراراً إدارياً وحكماً تعزيرياً ، زالت الحاجة إليه ، بمجرد أن جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وما عاد يؤثر فيهم ردة أحد. وهذا يعني الكثير بالنسبة للحسبة وصلاحيات المحتسب ، بل وصلاحيات الحكومة كلها ، في حال ترك مسلم للصلاة أو ارتداده عن الإسلام ، ليبقى ملحداً أو يدخل في دين آخر. لا إكراه في الدين ، ولا صلاحية لأحد أن يفعل أي شيء زيادة على الأمر والنهي ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والقول اللين ، واحترام استقلالية الناس وحريتهم في الاختيار. أعلم أن رأياً كهذا سيكون مستهجناً من الكثيرين ، لكن ديننا يحتمله دون تكلف ، وهو بالتأكيد أحد الآراء والاجتهادات التي تستحق الاعتبار. كما إن هذا الفهم يثير الشك والشبهة في استحقاق المرتد للقتل ومثله المصر على ترك الصلاة ، وفقهاؤنا يقولون: إذا طرأ الاحتمال بطل الاستدلال ، وبالتالي لا يكون الاجتهاد السابق يقينياً ، بل صار الشك يلفه ، ويجعله غير كاف لنستحل قتل نفس بشرية على أساسه.

الحسبة في ضوء آية لا إكراه في الدين ، إنما هي أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، والأمر والنهي كلاهما يوجهان لمن له الحرية في أن يستجيب أو لا يستجيب ، وإلا لكان مكانهما الإكراه والإجبار والإلزام بالمعروف ، والمنع والتهديد بالعقوبة وإيقاعها على من يرتكب المنكر ، أي منكر. تأملوا معنى أمر ونهى ، وكم هو مختلف عن ، أجبر ومنع.

ليس احترام حرية المسلم في أن يرتد أو يترك العبادات مختلفاً عن احترامنا لحرية مواطن معنا كافر مصر على الإشراك بالله ولا يصلي صلاتنا ولا يزكي زكاتنا. إن كانت الردة منكراً أو ترك الصلاة منكراً علينا تغييره ، فهما ليسا أكثر سوءاً من رفض الإيمان والإصرار على الكفر والشرك ابتداء. هما منكران والثالث منكر مثلهما. ديننا هو أول من جاء بحرية الاعتقاد

وباللاإكراه في الدين ، واليوم البشرية كلها تقريباً تعطي مواطنيها حرية الاعتقاد ولا تمارس الإ كراه في الدين ، إلا نحن المسلمين ، نثور ونغضب ونهدر الدماء ، ونقتل إن استطعنا ، إذا أعلن مسلم ردته أو تنصّره. هل تحسبون أنه بفعل حد الردة المزعوم سيبقى مؤمناً حقاً ، وسينجو من عذاب الله ؟ إنه سيتحول إلى منافق يشكل خطراً على الأمة ، فنكون قد زدنا أعداءنا واحداً ، ولم نزد المؤمنين أحداً. إن مسلمة واحدة تدخل في دين الله ، خير لنا من ألف مسلم يرتدون عن الإسلام ونجبرهم على البقاء مسلمين في العلن ، لأنه لا أحد إلا الله يمتلك التحكم بالقلوب وما يكون فيها من إيمان أو كفر. علينا أن نتخلص من الإكراه في الدين الذي علق بفهمنا للإسلام ، لأنه ينفّر الكثير من الناس من الإسلام ، ويدفع كثيرين إلى التحول إلى النصرانية. ما عليكم إلا أن تبحثوا في اليوتيوب عن فيديوهات من تنصّروا من المسلمين والمسلمات ، وشاهدوا منها ما هو باللغة العربية وما هو باللغة الإنكليزية ، لتروا أن التهديد بقتل المرتد لا يمنع الناس من الردة ، ولا يحافظ لنا على مؤمنين صالحين أبداً.

اللا إكراه في الدين مبدأ ينطبق على كل ما هو دين ، باستثناء الذي يؤدي فعله أو تركه إلى الإضرار بالآخرين ، وعندها يجوز الإكراه لحماية المجتمع ، لا لإبقاء الشخص طائعاً لله ، لأن الطاعة شعور في القلب ، أما الفعل الظاهر فقد يكون دافعه الطاعة ، أو الخضوع والخوف ، أو القناعة ، أو الهوى ، وكلها لا يثيب الله عليها ، إلا ما كان طاعة له لا طاعة لعباده.

الحجاب

اللا إكراه في الدين يشمل لباس المرأة والرجل ، واستماعهما للموسيقى ، أو ممارستهما للفنون بجميع أنواعها ، أو قراءتهما ما شاءا من الكتب ، أو مشاهدتهما ما شاءا من صور وأفلام ، وحتى وقوعهما في الكبائر إن هما استترا ، كل شيء فيه حكم للدين الكامل ، لا إكراه فيه ، والذي أقصده بالدين الكامل هو الحلال والحرام البين الذي فُرض علينا قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكله ثوابت لا خلاف عليها بين المسلمين ، أما ما أضافه الفقهاء بطرق الاجتهاد المختلفة ، فهو أولى أن لا تتدخل فيه الدولة لا بنهي ولا بأمر ، والناس أحرار يأخذون منه ما يشاؤون ، ويتركون ما يشاؤون. أما ثوابت الدين التي لا يتعدى أثر فعلها أو تركها إلى الآخرين ، فليس للدولة فيها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقوانين تضبط ما يمكن أن يتعدى ضرره صاحبه ، فيضر المجتمع أو بعض أفراده.

وهنا لابد من الكلام على التبرج والحجاب ، إذ قد يُعتبر مما يتعدى ضرره من يرتكبه ، فتكون المرأة المتبرجة فتنة للمؤمنين ، ويكون لابد من منعها من التبرج ، وليس مجرد أمرها ونهيها. هنالك اعتقاد عند المسلمين أن الله فرض الحجاب على النساء ليحمي الرجال من الفتنة ، أي كلف النساء بعمل ليس هيناً ، من أجل الرجال ، لا من أجل أنفسهن. ومن هذا المنطلق امتد الحجاب ليشمل وجه المرأة وكفيها ، فلا يُرى منها شيء البتة. هنالك حكم فقهي بخصوص حجاب النساء ، قال به فقهاء الأمة الكبار كلهم تقريباً ، يدحض الادعاء أن حجاب النساء إنما هو لحماية الرجال. هو حكم لا يتحدث عنه أحد ، ويجهله عموم المسلمين ، لأن موضوعه لم يعد موجوداً. إنه حجاب الأمَة المسلمة ، أي المرأة المسلمة المملوكة وغير الحرة ، هذه المسلمة التي قد تكون ملكة جمال وفاتنة بكل معنى الكلمة ، عورتها ، مع أنها مسلمة ، مثل عورة الرجل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إِذَا زَوَّجَ أَحَدُكُمْ عَبْدَهُ أَمَتَهُ فَلاَ يَنْظُرْ إِلَى عَوْرَتِهَا». (أبو داود).

«إِذَا زَوَّجَ أَحَدُكُم خَادِمَهُ عَبْدَهُ أَوْ أَجِيرَهُ فَلاَ يَنْظُرْ إِلَى مَا دُونَ السُّرَّةِ وَفَوْقَ الرُّكْبَةِ». (أبوداود).

وجاء في شرح هذين الحديثين في عون المعبود شرح سنن أبي داود - كِتَاب اللِّبَاسِ - تفسير العورة: "إِذَا زَوَّجَ أَحَدُكُمْ خَادِمَهُ" أَيْ أَمَتَهُ وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ خَادِمَتَهُ "فَلَا يَنْظُرْ إِلَى مَا دُونِ السُّرَّةِ وَفَوْقَ الرُّكْبَةِ": هَذَا تَفْسِيرُ الْعَوْرَةِ ، وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ ، أَنَّ السُّرَّةَ وَالرُّكْبَةَ كِلْتَاهُمَا لَيَستْا بِعَوْرَةٍ ، وَكَذَا مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ.

قَالَ فِي الْمِرْقَاةِ: ذُكِرَ فِي كِتَابِ الرَّحْمَةِ فِي اخْتِلَافِ الْأُمَّةِ: "اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ السُّرَّةَ مِنَ الرَّجُلِ لَيْسَتْ بِعَوْرَةٍ وَأَمَّا الرُّكْبَةُ فَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ لَيْسَتْ مِنَ الْعَوْرَةِ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَعْضُ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ إِنَّهَا مِنْهَا ، وَأَمَّا عَوْرَةُ الْأَمَةِ فَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ هِيَ كَعَوْرَةِ الرَّجُلِ ، زَادَ أَبُو حَنِيفَةَ بَطْنَهَا وَظَهْرَهَا" انْتَهَى.

كما استند الفقهاء الأئمة في قولهم إن عورة الأمَة كعورة الرجل على ما ورد ، أن عمر بن الخطاب رأى في الطريق أمَة قد غطت رأسها ، فضربها بعصاه وانتهرها ، وأمرها أن تكشف رأسها ولا تتشبه بالحرائر.

وواضح في القرآن الكريم أن التستر أو ما نسميه الحجاب إنما فرض على نساء المؤمنين لا على إمائهم ، مسلمات كن أو غير مسلمات. قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{59}" الأحزاب.

وتذاكى بعض المعاصرين الكارهين لدين الله فاعتبروا عدم فرض الحجاب على الأمَة ولو كانت مسلمة نوعاً من التمييز الطبقي ، وفاتهم أن الأمَة ، بمجرد أن يقول لها سيدها أنت حرة ، يتوجب عليها التستر كالحرائر ، وحتى لو أعتقها وهي تصلي كما يصلي الرجل سافرة وكاشفة ما شاءت إلا ما بين السرة والركبة ، فقالوا لا تكمل صلاتها إلا أن تتحجب. في التمييز العنصري والطبقي يبقى الوضيع في نظر المستكبرين وضيعاً ، حتى لو اغتنى أو تسنم منصباً أو تفوق بشيء.

المهم ، كانت الإماء في الحواضر الإسلامية زمن الرخاء كثيرات جداً ، وكن سافرات ، ومنهن الجميلات ومنهن غير الجميلات ، وهذا يعني بكل وضوح ، أن الحجاب لم يفرض على النساء لحماية الرجال من فتنتهن ، وإلا لفُرض على الإماء أيضاً ، فهن لسن أقل فتنة للرجال من الحرائر. على الرجال أن يغضوا من أبصارهم ، فلا ينظروا نظرة اشتهاء لامرأة ليست حلالاً لهم. أما الحجاب فإنما فرض على النساء لحمايتهن من نظرات الاشتهاء من الغرباء ، لأن المرأة إذا كشفت أكثر من وجهها وكفيها للرجال الأجانب عنها ، فعلى الأكثر سيشتهيها الرجل إن كانت جميلة ، أو ينفر منها إن كانت قليلة الجمال ، وهذا يعني أنه دون تفكير وبشكل انعكاسي وغريزي ، يصعب عليه مقاومته ، سينظر إلى هذه المرأة كجسد ، وينسى الإنسان الذي فيها.. أما لو سترت شعرها وجسمها وبقي وجهها وكفاها ، فإنه ما لم تكن ترتدي الضيق الذي يصف جسمها ، أو الشاف الذي يرى من خلاله ، إن كانت متسترة التستر المطلوب شرعاً ، فإنه مضطر إلى النظر إلى وجهها ، والوجه موطن الإنسانية ، وبخاصة عندما تلتقي العيون بالعيون ، فإننا نشعر أننا بالفعل ننظر إلى الإنسان الذي أمامنا لا إلى جسده ، والنظر إلى جسد المرأة دائماً هو

نظر تقييم وحكم عليها، هل هي جميلة؟، هل هي من النوع الذي يجذبني؟، وكأن الرجل مقدم على خطوبتها، إضافة إلى ما يثيره ما سوى الوجه والكفين من مشاعر اشتهاء جنسي انعكاسية، نحن الرجال لا نقدر على التحكم بها، إلا بأن نغض البصر فلا نرى جسم المرأة. لكن بالنسبة لبناتنا وأمهاتنا وأخواتنا وخالاتنا وعماتنا، فإن مشاعر الرحمة التي في قلوبنا تجاههن تقف حائلاً دون اشتهائهن، لذلك كل من يشتهي ابنته أو أخته، يكون لديه مشاعر عدائية نحوها. ويبقى ما بين السرة والركبة التي تثير الشهوة ولا تقدر مشاعر الرحمة على التغلب عليها، فتوجب على المرأة ستر ذلك حتى أمام النساء الأخريات. ما بين السرة والركبة يثير الشهوة بغض النظر عن جمال المرأة.

أما الإماء، فهن يعاملن كأجساد تباع وتشترى، ويقلّبها المشتري، فإن أعجبته اشتراها، وإن لم تعجبه، تركها إلى غيرها، لذا لا معنى أن يكلفها ربنا بالحجاب، ليحميها من أن ينظر إليها أحد كجسد، إنما يكون ذلك بمجرد أن تتحرر.

الحجاب حماية للمرأة لا للرجل، والتي تكشف مفاتنها للأغراب تعرض نفسها للنظر إليها كجسد، ولنسيان الإنسان فيها، ولسيلان لعاب الرجال اشتهاء للحصول عليها جنسياً. أما التي لا تكشف إلا وجهها وكفيها، فإنها إن كانت جميلة، أثارت في الرجال مشاعر الانجذاب والمودة والرحمة، وإن كانت غير ذلك، لم تثر فيهم أية مشاعر نفور وانزعاج، لأن المرأة التي تبدي مفاتنها، تقول للرجل دون أن تنطق: انظر إلي وارغب بي، هذا ما يحسه الرجل، فإن كانت غير جميلة بنظره انزعج، لأنها تناديه غريزياً وهي لا تعجبه. النساء لا ينظرن إلى الرجال بهذه الطريقة، لذلك تتبرج المرأة وهي تظن أن ذلك يجعلها تفوز بالإعجاب والمودة، لأنها ليست رجلاً ولا هي مبرمجة مثله. على كل حال الموضوع يحتاج إلى مزيد من البسط، لذا جعلت مقالة لي عن هذا الموضوع بعنوان (نظرات نفسية في حجاب المرأة المسلمة) ضمن ملاحق هذا الكتاب.

لقد ألغي الرق ولله الحمد، ولم تبق إماء أو جوارٍ نطبق عليهن الحكم الفقهي الذي نتحدث عنه، لكنني أريد أن أثبت أن السفور ليس مما يتعدى ضرره إلى غير صاحبته، إلا إن شارك الرجال بهذا المنكر، وأتبعوا النظرة النظرة، ولم يغضوا أبصارهم، بل عرضوا أنفسهم لسهام إبليس المسمومة، لذا فالحجاب لا يشمله الاستثناء، أي جواز الإكراه في الدين بالقدر

الذي لابد منه لحماية المجتمع من أضرار بعض المنكرات التي تتجاوز مرتكبيها بالضرورة. غض البصر مطلوب من المؤمنين والمؤمنات، والتضييق على الناس بفرض الحجاب على النساء كما فعلت إيران الإسلامية، لن يجدي شيئاً من حيث حماية الرجال من الفتنة، ونحن في عصر الفضائيات والإنترنت حيث تعرض كل المغريات والمثيرات من عري وإباحية، إنما سيجعل النساء يكرهن الحجاب، ويكرهن الشريعة، ونكون بذلك نفتنهن، بدل أن نقربهن من الله تعالى. "لا إكراه في الدين" تَسَعُنا، وترفع الحرج عنا، وتمكننا من أن نتعامل مع الجميع، بالرفق والتلطف والقول اللين، لترغيبهم بالالتزام بما أمر به الله، لا بإلزامهم به ولو كانوا له كارهين.

الموسيقى والفنون الأخرى

الدولة التي ستحقق لنا تطبيق شرع الله دون أن ننفّر الناس منه، هي دولة اللا إكراه في الدين، دولة الحرية الحقيقية للجميع، لكنها دولة خير أمة أخرجت للناس، لأنها تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، دون إكراه أو إجبار، بل هي الدعوة والترغيب والترهيب والتوعية والتفقيه. دولة لا تنكر على الناس في أي أمر اجتهادي، ولا تنكر عليهم فيما فيه فسحة في الدين، ولعل الفنون والموسيقى والرسم، كلها لا ننكرها على الناس لأنها ليست حراماً بيناً، أما نحت التماثيل فننكره وندعوهم إلى تركه، دون أن نمنعهم منعاً بالقوة. فالمعازف لم يصح حديث يحرمها، إلا ورودها مصاحبة لمحرمات بيّنة هي الحِرَ والحرير والخمر، أي الزنا ولبس الحرير للرجال وشرب الخمر وهذا ليس دليلاً قطعياً على تحريمها وبخاصة أنه جاءت أحاديث صحيحة تأمر بالدفّ في الأعراس والضرب بالدف من الموسيقى.

قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه: (ليكوننَّ من أمتي أقوام، يستحلُّون الْحِرَ والحرير، والخمر والمعازف...). (الحِرَ) الفرج، وأصله الحِرْح، والمعنى أنهم يستحلون الزنا).

وحتى الشوكاني رحمه الله، وهو ليس من عشاق الموسيقى، يقرر في نيل الأوطار أنها ليست حراماً بيّناً، أي ليس تحريمها ثابتاً لا خلاف عليه، وهو يراها من المشتبهات، لأنه لا يجوز أن نحرّم مباحاً إلا بدليل قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، وإن كنا نعامل الحديث الصحيح

على أنه قطعي الثبوت رغم أنه ظني الثبوت ، لكن لن يستقيم لنا أمر ديننا ما لم نأخذ بكل حديث صحيح لم يتعارض مع ما هو محكم وقطعي الدلالة من القرآن الكريم.

الحسبة في الدولة الحديثة ، هي الاقتصار على الأمر والنهي ، والامتناع عن فرض الوصاية على الناس ، وعن إكراههم على أي شيء ، إلا ما ضرره يتعدى إلى الآخرين ، وتبقى القوانين النافذة وليس المحتسب ، هي من يحمي الناس من أن يضروا ببعضهم بعضاً ، أما المحتسب فلا سلطة تنفيذية له على الإطلاق ، فلا يعتقل ، ولا يعاقب ، ولا يضرب ، ولا يكسر ، ولا يتلف لأحد شيئاً. المحتسب يمثل السلطة الدينية في البلاد ، التي لا صلاحيات تنفيذية لها أبداً ، كما لا سلطة لباقي السلطات عليها. فصل بين السلطات الأربع ، واختصاص كلٍّ بما هو له ، دون تجاوز ولا عدوان.

كرامة المواطن

شعوبنا متعطشة إلى الشعور بالاحترام في أوطانها ، وإلى أن تُعامل معاملة كريمة ، ويكون لها رأيها في أمور أوطانها.. والله لقد بكيت تأثراً ذات مرة ، وأنا أقرأ عن إجارة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها المشرك ، عندما استجار بها في المدينة المنورة ، فيقسم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يعلم بهذا الأمر من قبل ، ثم يعلن: أن المسلمين يُجير عليهم أدناهم ، أي إن أجار أقلهم مكانة أحداً من الناس ، وجب على المسلمين جميعاً احترام هذا الجوار.. بكيت وأنا أستشعر الذل الذي تفرضه علينا أنظمة حكم استبدادية ، تعمل لصالح المستعمر ، ولمنفعتها الشخصية دون منفعة البلاد والعباد. المسلمون في دولتهم يجير عليهم أدناهم ، فهل بعد هذا من كرامة ؟

روى البيهقي في سننه قصة هذا الموقف فقال: "لما دخل أبو العاصِ بنُ الربيعِ على زينبَ بنتَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم واستجارَ بها ، خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الصُّبحِ ، فلمَّا كبَّرَ في الصلاةِ صرختْ زينبُ: أيها الناسُ! إني قد أَجَرْتُ أبا العاصِ ابنَ الربيعِ ، فلمَّا سلَّم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من صلاتِه ، قال: أيها الناسُ! هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا: نعم ، قال: أمَا والذي نفسُ محمدٍ بيدِه ما علمتُ بشيءٍ ممَّا كان حتى سمعتُ منه ما سمعتم ، إنه يُجيرُ على المسلمين

أَدناهم ، ثم دخل رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على زينبَ فقال: "أيْ بُنَيَّةُ! أَكْرِمِي مثواهُ ولا يَقْرَبَنَّكِ فإنكِ لا تَحلِّين له ولا يَحلُّ لكِ".

المسلمون يحلمون بدولة تعيد لهم كرامتهم ، وتحترم إراداتهم وحرياتهم الشخصية بالمعروف ، ولا تعاملهم بالسوط والعصا ، لتجبرهم على فعل المعروف وترك المنكر إجباراً وقسراً من خارج أنفسهم.

الفصل التاسع

الإصلاح وتغيير منكر الحاكمين

إصلاح لا خروج

روى مسلم في صحيحه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: "سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: "مَن رأى مِنكُم مُنكرًا فليغيِّرْهُ بيدِهِ ، فإن لَم يَستَطِع فبِلسانِهِ ، فإن لم يستَطِعْ فبقَلبِهِ. وذلِكَ أضعَفُ الإيمانِ". وفي رواية أخرى رواها ابن تيمية وصححها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه ، فإن لم يستطعْ فبلسانِه ، فإن لم يستطعْ فبقلبِه ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ مثقالُ ذرةٍ". وقال في رواية أخرى عند الألباني وقد صححها: "من رأى منكم منكراً فغيره بيده ؛ فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه ؛ فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه ؛ فقد برئ ، وذلك أضعف الإيمان".

ما العمل وكيف يُغيّر المنكر إن كان الحاكم أو الحاكمون في البلاد هم الواقعين في المنكر ، وهم بحكم سلطتهم يمتلكون القوة في المجتمع ، بل يحرصون على احتكارها من دون أبناء الأمة ؟

عندما كان البحث في تغيير منكر العامة من الناس المحكومين لا الحاكمين سار الأمر ، من حيث مستوى التغيير الواجب على المؤمن ، وفق تسلسل الحديث الشريف. تغيير باليد فيما أملك فيه سلطةً ونفوذاً بحكم أنني الأب أو الأم في العائلة أو مالك معمل أو متجر أو غير ذلك. ثم يأتي التغيير باللسان وبكل وسائل البيان والدعوة في كل منكر واقع خارج دائرة سلطاني الصغير كفرد أو كمجموعة من الأمة. ثم يأتي الحد الأدنى من تغيير المنكر الواجب علينا والذي يتقبله ربنا منا ويثيبنا عليه ، مراعياً ضعفنا وقلة حيلتنا ، أو خوفنا على أنفسنا وأهلينا وأموالنا أي تغييره بالقلب.

عندما يرتكب السلطان المنكر يبدأ مسار التغيير من حيث وجوبه على المؤمن بالتغيير بالقلب ، فمن يستطيع أكثر من ذلك ، ويريد أن يجاهد في سبيل الله ، فبالبيان واللسان ، وقد نضطر اضطراراً إلى القوة لتغيير منكر الحاكمين. الأصل في الحاكمين أنهم بيدهم القوة والقدرة على البطش والإيذاء ، والمؤمن منهي عن أن يتحمل من البلاء ما لا يطيق.

روى الهيثمي في مجمع الزوائد الحديث التالي وقال: رجاله رجال الصحيح ، وبدايته حكاية أن الحجاج أخّر صلاة الجمعة إلى قريب من العصر ، فحث رجل الحسن البصري على أن يقوم إلى الحجاج ويأمره بتقوى الله ، فأجابه الحسن: "إنهم إذاً يقتلوني" فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ:"ألَيسَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{79}" المائدة. قَالَ ألحَسَنُ: "حَدَّثَنِي ابُو بَكْرَةَ ، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ، قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ:" يَتَكَلَّفُ مِنَ ألبَلاءِ مَا لا يُطِيقُ".

وروى الترمذي رواية أخرى لهذا الحديث صححها الألباني ، جاء فيها:

"لا يَنبغي للمُؤمنِ أن يُذلَّ نفسَه قالوا: وكيف يُذلُّ نفسَه ؟ قال: يتعرَّضُ مِن البلاءِ لما لا يُطيقُ".

فعندما يكون السلطان هو الواقع في المنكر ، ومتوقع منه أن يؤذي من يتجرأ على قول الحق ، إيذاء فوق احتماله ، فعلى المؤمن أن يكتفي بتغيير المنكر في قلبه ، وهو يدرك أنه لا حول ولا قوة إلا بالله. والذي يكتفي بتغيير منكر الحاكم بقلبه هو قاعد ، بينما الذي يتكلم هو مجاهد ، وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة عظيمة جداً ، لكنه وعد القاعدين أن يدخلهم الجنة ، مع أنهم اكتفوا بالتغيير القلبي. قال تعالى:

"لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{95}" النساء.

دون احتجاج وانتقاد للحاكم لوقوعه في المنكر ، فإنه على الغالب سيتمادى فيه ، فمن منكرات الحاكم ما لا يتعدى ضرره إلى الأمة ، لكن باقي منكراته شرها وأذاها واقع على الأمة كلها أو على طائفة منها ، ولابد في الأمة المسلمة أن يكون منهم مجاهدون باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، وهؤلاء لن يسكتوا على المنكر ، حتى لو كلفهم قول الحق حياتهم.

المشكلة الأولى التي تواجه من يريد تغيير منكر الحاكمين أي الإصلاح السياسي والقضاء على الفساد ، هي النصوص قطعية الثبوت والدلالة ، التي تأمر بطاعة السلطان أو الأمير ، ما لم يأمر بمعصية ، أو يكفر علناً كفراً صريحاً لا يختلف عليه مسلمان.

وقد اختلط الأمر على الكثير من الأمة ، لذلك اختلفت آراؤهم من النقيض إلى النقيض ، منهم من حرم أي احتجاج على الحاكم واعتبره خروجاً محرماً ، ومنهم من أوجب الخروج بالسلاح على الحاكم الواقع في المنكر وقتاله حتى إسقاطه. هنالك آيات وأحاديث شريفة فَهِمها بعضهم خارج السياق العام للإسلام ، فاستنتجوا منها أحكاماً متناقضة تناقضاً تاماً.

يقول تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{59}" النساء.

والأمر بطاعة أولي الأمر واضح في هذه الآية.

ثم هنالك عدة أحاديث صحيحة يأمرنا فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن نطيع أمراءنا ولا نخرج عليهم ، إلا أن يُظهروا كفراً واضحاً لا يختلف فيه المسلمون ، بحيث يقول بعضهم هو كفر وبعضهم الآخر يقول ليس بكفر. ولعل أفضل جمع لهذه الأحاديث الذي جاء في باب "الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والكف عن إقامة السيف" في كتاب نيل الأوطار للشوكاني ، وأنا أنقلها كما رواها دون الشرح "وقد أسقطت حديثاً ضعيفاً فلم أنقله ، وأضفت حديثاً صحيحاً لم يورده". وهي الأحاديث الشريفة التالية:

1- عن ابن عباس قال: "قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية". (متفق عليه)

2-وفي لفظ: "من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية". (متفق عليه)

3- وفي رواية لمسلم: "فميتته ميتة جاهلية" وفي أخرى له من حديث ابن عمر: "من خلع يداً من طاعة لقي اللّه ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية"

4- وما أخرجه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان وصححه من حديث الحارث بن الحارث الأشعري من حديث طويل وفيه: "من فارق الجماعة شبراً فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه" وأخرجه البزار والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفي سنده جليد بن دعلج وفيه مقال ، وقال: من رأسه بدل: من عنقه.

5- وعن أبي هريرة: "عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وأنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء ، فيَكْثُرون قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول ، ثم أعطوهم حقهم فإن اللّه سائلهم عما استرعاهم". (متفق عليه).

6. وروى الطبراني في المعجم الكبير أنه جَاءَ يَزِيدُ بْنُ سَلَمَةَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَخْطُبُ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ارأيْتَ إنْ كَانَ عَلَيْنَا قَوْمٌ يَأْخُذُونَا بالْحَقِّ وَيَمْنَعُونَا حَقَّ اللَّهِ ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يُجِبْهُ ثُمَّ عَادَ الثَّانِيَةَ فَلَمْ يُجِبْهُ ، ثُمَّ عَادَ الثَّالِثَةَ ، فَقَال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "عَلَيْهِ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا".

7. وأخرج مسلم من حديث أم سلمة مرفوعاً: "سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره برئ ، ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وبايع ، قالوا: أفلا نقاتلهم ؟ قال: لا ما صلوا".

8- وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: "سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، قال: قلنا يا رسول اللّه أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية اللّه، فليكره ما يأتي من معصية اللّه، ولا ينزعن يداً من طاعة". (أحمد ومسلم)

10. وعن حذيفة بن اليمان: "أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: "يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس، قال: قلت كيف أصنع يا رسول اللّه إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع". (أحمد ومسلم)

11. وعن عرفجة الأشجعي قال: "سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه". (أحمد ومسلم)

12. "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي اثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا، قَالُوا :فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ادُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ" (متفق عليه).

13. "ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم" (متفق عليه واللفظ لمسلم)

14. وعن عبادة بن الصامت قال: "بايعنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من اللّه برهان". (متفق عليه)

15. وعن أبي ذر: "أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: "يا أبا ذر كيف بك عند ولاة يستأثرون عليك بهذا الفيء؟ قال: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي وأضرب حتى ألحقك، قال: أولا أدلك على ما هو خير لك من ذلك؟ تصبر حتى تلحقني". (رواه أحمد) حديث أبي ذر في إسناده خالد بن وهبان قال في التقريب: مجهول من الثالثة وقال في التهذيب: ذكره ابن حبان في الثقات. وقال أبو حاتم: مجهول.

16. حديث ابن عمر عند الحاكم بلفظ: "من خرج من الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه، ومن مات وليس عليه إمام جماعة فإن ميتته ميتة جاهلية".

17. وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فميتته جاهلية" وأخرج أيضاً مسلم نحوه عن ابن عمر.

18. وأخرج الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري: "من حمل علينا السلاح فليس منا".

19. وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم من حديث أبي ذر: "من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه".

20. وأخرج البخاري من حديث أنس: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عبد حبشي رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب اللّه تعالى".

21. وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة: "من أطاعني فقد أطاع اللّه ومن عصاني فقد عصى اللّه ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني".

22. وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث ابن عمر: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة".

23. وأخرج الترمذي من حديث ابن عمر: "ألا أخبركم بخير أمرائكم وشرارهم؟، خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم".

24. وأخرج الترمذي من حديث أبي بكرة: "من أهان سلطان اللّه في الأرض أهانه اللّه تعالى" (صححه الألباني)..

25. عن الْحَارِثَ الأَشْعَرِيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "وَأنَا آمُرُكُمْ بخَمْسٍ أمَرَنِي اللَّهُ بِهِنَّ: الْجَمَاعَةَ، وَالسَّمْعَ، وَالطَّاعَةَ، وَالْهِجْرَةَ، وَا لجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ الإِسْلامَ مِنْ رَأْسِهِ إلا أنْ يُرَاجِعَ، وَمَنْ دَعَا دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ، فَقَالَ رَجُل: وَإنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: وَإنْ صَامَ وَ صَلَّى، فَادْعُوا بدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّه" (البيهقي والنسائي وأحمد وصححه ابن القيم).

قد يقول قائل هذه الطاعة بالمعروف واجبة للأمير الذي ولاه الناس وبايعوه طواعية، لا الذي سطا على الملك واغتصبه بقوة السلاح. بالحقيقة فقهاؤنا كلهم تقريباً، يوجبون طاعة الأمير الذي وصل إلى الحكم بالتغلب، أي بانقلاب عسكري بلغة عصرنا، وحرموا الخروج عليه، تماماً كما لو كان خليفة راشداً تَسلّم الإمارة ببيعة الأمة له طواعية. هذا الإصرار من الفقهاء على طاعة أمراء التغلب مثل أمراء البيعة لا يعني أن الأمير المتغلب هو أمير شرعي، بل هو غاصب وجبار في الأرض مهما طال حكمه، إلا أن يتيح للأمة فرصة حرية الاختيار بين أن تبايعه أو يعزل نفسه، ولا أعتقد أن أحداً غير عمر بن عبد العزيز فعلها.

إن تحريم الخروج المسلح على الحاكم الذي جاء بقوة السلاح علته الحرص على أن لا يقتتل أبناء الأمة الواحدة، لكن تغيير المنكر بالقلب واللسان واجبان لا حرمة فيهما. أي إن عدم شرعية الحاكم المتغلب لا تبرر الثورة المسلحة عليه، لأنها تسبب فساداً أعظم بكثير من فساد استئثاره بالحكم دون حق، لكن وجوب طاعته في كل شيء كما لو كان راشداً جاء ببيعة شرعية أمر فيه نظر. لا مقاومة مسلحة له أبداً، لكن طاعته هي من قبيل الاضطرار، لا من قبيل الفريضة الدينية التي يأثم من لا يؤديها. أي يطاع فيما وافق مصلحة الأمة، ويعصى فيما سوى

ذلك إن أمن جانبه ، ولا يكون عصيانه معصية لله. الخروج عليه بالسلاح محرم حرصاً على مصلحة الأمة ، وتجنباً أن يؤدي الخروج عليه من أجل تغيير المنكر الذي ارتكبه إلى منكر أعظم منه. هو متغلب على الأمة بقوة السلاح ، والأمة تنفذ أوامره اتقاء لشره ، لا لأن ذلك واجب عليها كما تجب عليها طاعة الأمير الذي اختارته بنفسها وبايعته دون إكراه.

جهاد الكلمة وكفّ الأيدي

إن أي محاولة للإصلاح ضمن المجتمع الواحد، لا يحل فيها إلا قول كلمة الحق ، وموعظة الحكام والضغط عليهم بلا عنف ، إنما بالإضرابات والتظاهرات وما يسمى العصيان المدني ، أما الخروج بالسلاح فلا يجوز ، إلا أن يستعلن الحاكم بالكفر البواح ، وهذا يعني أن من يواليه ويقاتل معه آثم ويحل قتاله ، أما ما سوى ذلك فيحرم القتال إلا للدفاع عن النفس والأهل والمال. وحتى تستبين الفكرة لابد من المثال ، وخير مثال أمامنا هو الثورة السورية ، لذا سأنقل فقرات مطولة من مقالاتي عن الثورة تتحدث عن الأحكام الفقهية مطبقة على الحالة السورية.

لم يكن اللاعنف اختراعاً لغاندي ولا سبقاً له ، إنما عرفته البشرية منذ الأسرة الأولى من بني آدم الذين أعطاهم الله من العقل وكمال الخَلْق ما لم يعطه لمخلوق قبلهم. القرآن يروي لنا قصة اثنين من أبناء آدم قدّما قرباناً إلى الله ، فتُقُبِّلَ من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، فقال هذا الآخر لأخيه: لأقتلنك. ومع أن حق الدفاع عن النفس لا يعترض عليه أحد ، فإن الأخ الصالح أعلن لأخيه أنه لن يدافع عن نفسه ، ولئن أصر الأخ الظالم على قتل أخيه الصالح فإنه لن يقاومه ، بل سيتركه يبوء بإثمه وإثم أخيه المقتول.

تأملوا هذه الحكاية التي يقصها علينا الحق سبحانه وتعالى في كتابه إذ يقول:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{27} لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ{28} إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ{29} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ{30} فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ

كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ{31} مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ{32}" المائدة.

ربنا يحكي لنا قصة الأخ الذي لم يدافع عن نفسه وهو يعلم أن أخاه يريد قتله ، ليكون هذا الرجل قدوة لنا ومثالاً ، لا ليذمه ويصفه بالضعيف أو المتخاذل. أليس سياق الآيات الكريمة واضحاً في امتداح امتناعه عن مقاومة أخيه بالعنف ولو دفاعاً عن نفسه ؟

وفي تاريخ الإسلام مثال رائع للاعنف ولا حتى دفاعاً عن النفس ، فقد بقي عثمان بن عفان محاصراً في داره مدة من الزمن ، وجاءه شباب الصحابة وكهولهم يعرضون عليه أن يأذن لهم أن يدافعوا عنه ، لكنه رحيم فما رضي أن تراق قطرة دم من أجله ، وانتظر الثائرين حتى اقتحموا داره وقتلوه وهو لم يبسط يده لأحد منهم ، بل تركهم يبوؤون بإثمهم وإثمه. لو أن عثمان علم كم من الصحابة قتلوا لا دفاعاً عنه ، بل من أجل الاقتصاص من قتلته ، لحزن حزناً شديداً أن ذهبت تضحيته بنفسه ليحقن دماء المسلمين سدىً ، فقد أريقت الدماء وقتلت أنفس زكية لا يعرف عددها الحقيقي إلا الله في سبيل الاقتصاص من قتلة عثمان.

عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في مكة قبل الهجرة إلى المدينة تعرضوا للإيذاء الشديد والتعذيب والحصار ، لكنهم أبداً لم يلجؤوا إلى العنف ، أو إلى أية أساليب كان يمكن أن توصف بأنها غير مشروعة ، كسرقة الطعام من أجل البقاء على قيد الحياة أثناء الحصار في شِعْبِ أبي طالب ، أو تخليص العبيد المؤمنين الذين كانوا يعذبون حتى يرتدوا إلى الشرك أو يموتوا تحت التعذيب ، وذلك بفك قيودهم ومساعدتهم على الهروب من سادتهم ، إنما كان المسلمون يشترون إخوانهم العبيد المعذبين بالمال الكثير ، ويحررونهم بالوسائل المشروعة في ذلك المجتمع ، وفي الشِّعْب صبروا على الجوع حتى أكلوا أوراق الشجر ولم يحاولوا الحصول على الطعام بوسائل غير مشروعة ، وذات يوم دافع أبو بكر عن محمد صلى الله عليه وسلم عند الكعبة ، فانهال عليه المشركون ضرباً حتى لم يعد يُعْرَف وجهه من

شدة ما أصابه ، لكنه لم يرد بيده أو يدافع عن نفسه بسلاح أو دون سلاح ، رغم أن قيم المجتمع المكي يومها تعلي من شأن الإباء والعزة وعدم الخضوع ولو كلف ذلك العربي حياته.

في تلك المرحلة لم يكن مأذوناً للمؤمنين أن يلجؤوا إلى أي شكل من أشكال العنف ، وكانوا مأمورين أن يكفُّوا أيديهم ، ونجد هذا واضحاً في الآية الكريمة التالية:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً{77}" النساء.

لكن بعد أن هاجر المسلمون والنبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأسسوا فيها دولة ، أذن الله لهم بالقتال في سبيله ، أما قبل ذلك فكان الحال هو ما تعبر عنه الآيات الكريمة التالية:

"أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19}" العلق.

لا تطعه واسجد واقترب ويداك مكفوفتان غير مبسوطتين بأي عدوان ولا حتى بدفاع عن النفس ، إنما هو الثبات والإصرار على الحق والعصيان السلمي.

الدفاع عن النفس حق تضمنه الفطرة الإنسانية السوية ، وتقره شرائع البشر كلها ، لكن تركه أحياناً ، يكون أقوى أثراً من ممارسته ، وأعظم نفعاً ، وأدعى لتحقيق الأهداف المطلوبة. نعم قد يؤدي ذلك إلى استشهاد بعضهم ، وإلى الظهور بمظهر الضعيف الذليل ، لكن فيه تكمن قوة أخلاقية ، لا يستطيع الخصم أن يتغلب عليها بسلاحه وعضلاته. سيكون هنالك شهداء ، سواء تم الدفاع عن النفس باليد والسلاح أو تم الامتناع عنه ، ولكن أثر هذا الصراع في نفوس الذين يراقبونه سيختلف. ففي حالة الدفاع عن النفس ، ينتقل اهتمام من يراقب الأحداث إلى معرفة من سينتصر ، ويتراجع اهتمامه بمعرفة عدالة قضية أحد الطرفين ومقدار الحق فيها.

أما إن كف أصحاب الحق أيديهم، فإن اعتداء خصومهم عليهم باليد والسلاح، وعجز هؤلاء الخصوم عن رد الحجة بحجة مثلها، وعن إبطال الدعوة بما يثبت خطأها، كل ذلك يجعل المراقبين للموقف، أو ما يسمى الأكثرية الصامتة، يتفكرون بعدالة القضية المطروحة، وينكشف لهم زيف ادعاء الخصم، الذي لا يعرف إلا لغة القوة، لأنه صاحب جسد كبير وعضلات مفتولة، لكن لا عقل له ولا قلب. إن الصبر على الأذى مع كف الأيدي عن الدفاع عن النفس يزلزل الأرض تحت أقدام الظالمين، لذا تراهم يحاولون استفزاز أصحاب الحق، كي يلجؤوا إلى العنف والسلاح، فتكون الغلبة للظالم، لأنه قوي ولا يتقيد بشرعٍ أو قانون، ويخسر المظلوم حتى تعاطف الأغلبية الصامتة معه، ويصبح الموقف يشبه حلبة مصارعة، يشاهدها الجمهور، وهو متشوق لمعرفة نتيجتها، أكثر مما هو مهتم بمعرفة من معه الحق من الطرفين المتصارعين.

عندما يكون الخلاف والصراع ضمن المجتمع نفسه يصبح أفضلُ الجهاد كلمةَ حق يقولها المرء ويتحمل الأذى الذي يقع عليه جراء ذلك دون أن يستخدم يده إلاّ للدفاع عن نفسه وهي الرخصة مقابل عزيمة كف اليد حتى عن الدفاع عن النفس، تماماً كما يفعل المتظاهرون السلميون من أجل الحرية والكرامة، وكلنا يعرف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الخصوص "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر أو أمير جائر"، ولهذا حكمة عظيمة أول جوانبها أن اقتتال أبناء المجتمع الواحد أو ما يسمى بلغة عصرنا الحرب الأهلية يهدد المجتمع بأسره، ويذهب فيه الأبرياء ضحايا الفوضى التي يسببها، كما قد يُقْتَل فيه من هم من أنصار الحق لأن المجتمع متداخل ومتشابك وغير متمايز، قال تعالى:

"وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً{24} هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{25}" الفتح.

والذي يدعو إلى الإصلاح يجب أن لا يجر المجتمع إلى الاقتتال الداخلي والحرب الأهلية، لأن هدفه تحسين حياة الناس لا انتحار المجتمع أو الانتقام من الخصوم.

إذن لا جهاد باليد ضمن مجتمع واحد، إنما الجهاد فيه يكون بأن يقوم المجاهد إلى الحاكم الجائر ويَعِظَه فيقتله هذا الظالم، لأنه تجرأ على قول الحق، مما قد يجعل باقي أفراد المجتمع يتمردون على سلطته وطغيانه، وعندما يقتل المجاهد بهذه الطريقة فإنه لا يكون شهيداً فحسب، بل هو سيد الشهداء. قال صلى الله عليه وسلم: "سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ" (رواه البزار والحاكم والهيثمي وصححه السيوطي والألباني).

أما عندما يكون الصراع والخلاف بين دولتين، أو بين فئتين متمايزتين غير مختلطتين، يمكن للجهاد بقوة السلاح أن يكون هو المطلوب:

"وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ{60}" الأنفال.

وذلك كأن يدخل محتل غريب بلداً من البلدان، فيكون جنوده معروفين، سهل تمييزهم وقتلهم وحدهم دون قتل أي بريء، ولا يكون هؤلاء الجنود أبناء المجتمع نفسه، بحيث يقتل الرجل ابن عشيرته.

والعنف لا ينفع عندما تكون الأمور مختلطة والحق غير واضح مع أي جانب هو، وهذا ما يسمى الفتنة، حيث يحتار الإنسان ولا يعرف أي الفريقين على الحق والصواب، عندها يُقتَل الأبرياء، ويقاتل الإنسان تحت راية، يكتشف بعد فترة أنها كانت خاطئة عمية، فيندم بعد أن أزهق أرواحاً بغير حق، وأتلف أموالاً ظلماً وعدواناً. لذا يجب أن يكون التغيير ضمن المجتمع الواحد وفي القضايا التي تختلف فيها الآراء، تغييراً سلمياً مئة بالمئة، نكف فيه أيدينا ولا نبسطها بعدوان على أحد، وبذلك لن يكون هنالك ما نندم عليه يوماً ما.

إن محاولة التغيير دون عنف ولا حتى بقصد الدفاع عن النفس تساعد كثيراً على توضّح الأمور وانجلائها، وعلى تغيير قناعات الكثيرين من الذين لا مصالح شخصية لهم مع الباطل الذي نريد تغييره، ومن الذين خدعهم هذا الباطل وأوهمهم أنه الحق وأنه الصواب. الصراع عادة له هدفان: أولهما تغيير القناعات، وثانيهما كسر الإرادات، أما الصراع الذي يهدف إلى

إبادة الخصم إبادة تامة ، فلا يمكن أن يكون له مكان في النضال من أجل التغيير الاجتماعي والانتقال من مجتمع القهر والكبت والقيود إلى مجتمع الحرية والعدل والمساواة.

ليس الحرص على سلمية الثورة المطلقة ، وعلى التزام مبدأ اللاعنف فيها ، نوعاً من الطوباوية والمثالية غير الواقعية ، التي لا يلجأ إليها إلا الضعفاء والمقهورون ، إنما هي قوة أخلاقية ، وتفوق في القيم على الخصم ، يحرجه ويفقده تعاطف الصامتين ، بل ويفقده بعض أنصاره الذين لديهم بقية من قيم وأخلاق ، بينما هو عاجز عن مواجهة الثورة في هذا المجال الذي لا يمتلك فيه أية مقومات تعينه على التغلب عليها.

تحتاج المحافظة على سلمية الثورة إلى أن يتمتع الثائرون بالثقة بأنفسهم والثبات والرسوخ على الأسلوب الذي يجيدونه ، ولا يحتاج إلى إمكانات كثيرة ، والنظام في الوقت ذاته لا يستطيع مواجهته إلا بالتنازلات أمام الثورة ، وهذا غير وارد لديه على الإطلاق ، بسبب غروره بقوته وتقليله من شأن الثورة وتوفر الدعم الخارجي له ، أو بمزيد من القتل والبطش مما يعني المزيد من الهزيمة له أمام الثورة من الناحية الأخلاقية ، والمزيد من زوال انخداع الكثيرين به وبأنه نظام ملتزم بقضايا الأمة وليس عصابة من المنتفعين على حساب الشعب المغلوب على أمره.

الإعلام سلاح السلمية

لكن السلمية وتقديم الشهداء دون دفاع عن النفس لن يفيد إن كان في السر ولم يعلم به أحد، لذا لا بد من سلاح الإعلام لفضح النظام وفضح جرائمه ، والذين يُظْهِرون الكرم والاستعداد لتمويل تسليح الثورة سيساعدون الثورة أكثر لو أمّنوا للثوار وسائل اتصال تمكنهم من نشر أخبار مصورة لما يحدث من احتجاجات سلمية وقمع وحشي لها.. إن هاتفاً محمولاً يتصل عن طريق الأقمار الصناعية أخطر على النظام من دبابة ، لأن قوة اللا عنف هي في إعلامه ، أما إن تم بالخفاء ،فلم يعلمه الناس فإنه في الغالب لا ينجح.

ولنرجع إلى الحديث النبوي الصحيح الذي قص علينا فيه قصة الغلام المؤمن الذي نشر عقيدة التوحيد في بلد يدعي ملكه الألوهية ، وقد روى الحديث الإمام مسلم في صحيحه ، وخلاصة القصة أنه كان ملك قديماً يدّعي الألوهية ، وله ساحر يعينه في التأثير في عقول الناس ، وكبر الساحر في السن فطلب من الملك أن يبعث إليه غلاماً يعلمه السحر ، ليحل

محله في خدمة الملك بعد موت الساحر. بعث الملك غلاماً إلى الساحر ليتعلم منه السحر، وكان الغلام عندما يذهب إلى الساحر كل يوم، يمر في طريقه على راهب، فصار يقعد إلى الراهب ويسمع كلامه، فأعجبه كلام الراهب عن رب العالمين. ومرت الأيام، وفي ذهن الغلام حيرة بين كلام الساحر الذي يؤله الملك وكلام الراهب الذي يقول لا إله إلا الله. وذات مرة اعترض حيوان مخيف طريق الناس وعجزوا عن قتله، فلما رأى الغلام ذلك قال في نفسه اليوم أعرف من الذي على حق الراهب أم الساحر، وأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس في طريقهم، ورمى الدابة المخيفة بحجره الصغير فقتلها، وتيقن أن الراهب على الحق، فذهب إليه وأخبره بقصة الدابة المخيفة وكيف قتلها، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، وإنك ستُبْتَلى، فإن ابتليت فلا تدل علي.

صار الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع به جليس للملك كان قد أصيب بالعمى، فجاءه بالأموال والعطايا طالباً منه أن يشفيه، فقال له الغلام، إني لا أشفي أحداً، إنما الذي يشفي هو الله، فإن أنت آمنت دعوت الله فشفاك، فآمن جليس الملك بالله وحده، ودعا له الغلام فشفاه الله. ذهب الرجل ليجالس الملك كما كان يفعل قبل أن يصيبه العمى، فسأله الملك: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي. فاستغرب الملك وسأله مستنكراً: ولك رب غيري؟ فأجاب الرجل: ربي وربك الله. جن جنون الملك، وأمر بتعذيب جليسه حتى دلهم على الغلام المؤمن، وأخبرهم أنه هو من علمه الدين الجديد، فجاؤوا بالغلام، فحاول الملك بالرفق ثنيه عن دينه الجديد واستعادته إلى الولاء له فأخفق، فأمر بتعذيبه حتى دلهم على الراهب، ثم نشروا جليس الملك والراهب بالمنشار لما رفضا ترك دين الحق والعودة لعبادة الملك، وأمر الملك جنوده أن يأخذوا الغلام إلى أعلى الجبل ويطلبوا منه الارتداد إلى دين الملك، فإن أبى رموه من أعلى الجبل ليموت، لكن الغلام دعا الله، فاهتز الجبل وسقط الجنود، وعاد الغلام إلى الملك سالماً، فأمر الملك جنوداً آخرين أن يأخذوا الغلام إلى عُرض البحر، وأن يرموه في البحر إن هو رفض العودة إلى عبادة الملك، فدعا الله فأغرق الله الجنود، وعاد الغلام إلى الملك سالماً، وقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. فقال الملك المتلهف على قتل الغلام: وما هو؟ قال الغلام: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع شجرة، ثم تأخذ سهماً من كنانتي، وتضع السهم في كبد القوس،

وتقول باسم الله رب الغلام ، ثم ترميني بالسهم ، فإن فعلت ذلك قتلتني. ففعل الملك كل ذلك أمام حشود الناس ، فآمن الناس بالله وحده ، وتركوا عبادة الملك ، ثم أمر الملك بحفر أخدود وإضرام نار فيه ، يلقى فيها كل من يصر على الدين الجديد ، والأخدود مذكور في سورة البروج:

"وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ{1} وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ{2} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ{3} قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ{4} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{5} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{6} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{7} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{8} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{9} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{10}" البروج.

انظروا إلى الغلام المؤمن كيف وظّف استشهاده لنشر دعوة الحق ، فكان موته دون دفاع عن النفس ، لكن بذكاء ودهاء ، وأمام جموع الناس ،كان وبالاً على الملك المتأله وزلزالاً لملكه. الشهداء واقعون لا محالة سواء دافع الجيش الحر عن المتظاهرين أم لم يدافع ، لكن علينا التفكير والتساؤل: أي الأسلوبين يجعل دماء هؤلاء الشهداء وصمة عار وفضح لنظام لا أخلاق له ، بحيث يفقد الاحترام والتأييد من كل الشرفاء ، ولا يبقى معه إلا المنتفعين ، الذين ما أن يشعروا أن هنالك بديلاً محتملاً، حتى يلتفوا حوله ويتخلوا عن النظام الذي خدموه واستفادوا منه ، لأن العلاقة بينهم هي المنفعة ، لا المحبة والوفاء ؟. لا تستهينوا بالناحية الأخلاقية التي لا يقدر النظام على الانتصار فيها ، فمنها يستمد أي نظام شرعيته ، وإذا فقد النظام شرعيته ، فقد معها شعبيته ، وصار سقوطه حتمياً.

رخصة الدفاع ضد العدوان

في 2012/11/22 كتبت ونشرت على الإنترنت ، مقالاً بعنوان **"ثورة سلمية محمية"** ، وكان مما قلته فيه ، هذه الفقرات:

"بعض السوريين متفائلون بحسم قريب وسقوط كامل للنظام ، لكن القلقين المشفقين المتحيرين كثيرون.. رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه يقدمون على الموت بكل إخلاص ، وملايين من المدنيين بين مشرد ومحاصر ومصاب.

الدعوات متناقضة بين من ينادي بالجهاد المسلح مهما بلغت الخسائر والتضحيات في سبيل الحرية والتخلص من النظام، وبين من ينادي بسلمية الثورة لأنه يرى السلمية أقوى أثراً وأقل ضرراً. لكن من ينادي بالسلمية وأنا منهم يقف متحيراً، ماذا يرد على الذين يجادلونه ويضربون الأمثلة من جرائم النظام التي فاقت كل التوقعات، ويسألونه مستنكرين: هل من المعقول أن تطلب من الناس أن يكفوا أيديهم ولا يدافعوا عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ومساكنهم؟.

لو التزم السوريون السلمية الكاملة وامتنعوا عن أن يبسطوا أيديهم بأي عنف، حتى لو دفاعاً عن النفس والعرض والمال والديار، لأمكن إسقاط النظام بسرعة أكبر، ولكانت النتائج مضمونة أكثر.

أنا مؤمن أن اللاعنف، أو كفَّ الأيدي، كما سماه القرآن الكريم، سلاح فعال في الصراعات ضمن المجتمع الواحد، أكثر من القتال والجهاد المسلح بكثير. لي أكثر من عشرين عاماً وأنا أتفكر باللاعنف كوسيلة للتغيير الاجتماعي والسياسي، وذلك منذ أن تعرفت على الشيخ جودت سعيد، والدكتور خالص جلبي، وقرأت كتبهما أكثر من مرة. المهم اقتنعت باللاعنف قناعة تامة ومازلت على قناعتي به، لكن كلمة قالها لي صديق لي يؤمن مثلي باللاعنف، هو الدكتور مأمون مبيض، عندما التقينا في اسطنبول في مؤتمر عن الآثار النفسية والاجتماعية للأزمة السورية، وكانت كلمته رداً على تأكيدي أنه على الثورة السورية أن تعود سلمية مئة بالمئة وعلى مبدأ ابن آدم الأول:

"لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ{28} إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ{29}" المائدة.

أجابني إجابة ذكية، ساعدتني كثيراً على العودة إلى الواقعية الحكيمة، قال لي: "ما تقوله يحتاج إلى قديسين ليقوموا به". وعبارته تتضمن، أن السوريين فيهم ضعف البشر، وليسوا قديسين ولا أنبياء، ولم يستطيعوا الصبر على العدوان الهمجي الذي تعرضوا له، دون أن يتصرفوا التصرف الطبيعي المتوقع من البشر، وهو رد العدوان بعدوان مثله، لعل ذلك يردع المعتدين، ويعجل بانزياح الكابوس عن صدورهم. كنت ومازلت معجباً كثيراً بصمود

اليمنيين أمام استفزاز نظامهم لهم ، ومحاولته دفعهم إلى الثورة المسلحة بدل السلمية ، فثبتوا على السلمية ، رغم أنهم أكثر شعب عربي مسلح حتى في الأحوال العادية ، ويقال إن الشعب اليمني يمتلك أكثر من خمسة ملايين قطعة سلاح.. وأنا أعتقد من الناحية النفسية أن امتلاكهم السلاح من قبل الثورة بكثير ، حماهم من الإذلال الذي تعرض له السوريون على مدى أكثر من أربعين عاماً ، وبالتالي أكسبهم وجود السلاح بأيديهم دائماً ، ثقة بالنفس ، جعلتهم لا يتصرفون بأسلوب رد الفعل ، ولا ينفع معهم استفزاز نظامهم لهم من خلال قنص مئات المتظاهرين السلميين في يوم واحد ، لكنني حتى لا أظلم السوريين وأنا أقارنهم بإخوتهم اليمنيين أقول ، الله وحده يعلم كيف كان اليمنيون سيتصرفون ، لو اتبع نظامهم سياسة الاغتصاب الممنهج المتعمد ، بهدف الإذلال والتخويف والدفع إلى السلاح ، كما فعل النظام السوري.. نحن أمة لا تتحمل الاعتداء على العرض ، ويصعب على أبنائها أن يملكوا أنفسهم ، وأن يحافظوا على السلمية المطلقة ، وهم يرون شرار الناس يعتدون على بناتهم وأخواتهم ، واليمنيون من أشد الشعوب العربية تمسكاً بهذه القيم الأصيلة.

في مقالاتي السابقة عن الثورة السورية ، وبخاصة في مقالي الرابع "الثورة السورية بين العنف واللاعنف" دعوت إلى السلمية وكفِّ الأيدي ، لكنني قلت إن ذلك لا يتناقض مع كون من مات دون نفسه فهو شهيد ، ومن مات دون ماله فهو شهيد ، ومن مات دون أهله أي عرضه فهو شهيد ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح.

لم أكن أناقض نفسي يومها.. لكننا بحاجة إلى بعض التفكر لنكتشف الموقف السليم الذي يريده الإسلام منا في مثل هذه الأزمات.

كلنا يعلم أن في الإسلام رخصاً ، وفيه عزائم ، فيه تعاليم تدعو للأمثل في كل شيء ، وفيه الإذن بفعل ما يتماشى أكثر مع الضعف البشري ، لكن ضمن إطار من العدل والطاعة لله ورسوله. القرآن الكريم صور المؤمنين أنهم أناس يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ويدفعون السيئة بالحسنة ، قال تعالى:

"وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ{133} الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{134}" آل عمران.

وقال: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ{34} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{35}" فصلت.

وقال: "وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ{37}" الشورى.

وقال: "قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ{14}" الجاثية.

إذاً هي دعوة إلى أن تدير خدك الأيسر لمن لطمك على خدك الأيمن ، فلا ترد اللطمة باللطمة ، ولا الإساءة بالإساءة ، بل تصبر وتغفر ، فيكون قلبك نقياً من الغل والحقد ، مما يُمَكِّنك من أن تُحْسِن لمن أساء إليك ، إحساناً صادقاً من كل قلبك ، وعندها تستطيع تغييره بدل تدميره ، فيتحول كأنه ولي حميم ، وإن لم يتحول إلى ولي حميم بكل معنى الكلمة. القرآن يدعو المؤمنين ليغفروا حتى للذين لا يرجون أيام الله من الكفار والملحدين والمشركين ، ولا يَقْصُر دعواه على الصبر والمغفرة على الحالة التي يكون فيها المعتدي أو المسيء مؤمناً مثلهم ، وهذا يعني أننا مدعوون لأن نغفر للمسيء إلينا ، من أجلنا ، لا من أجله هو ، فالله سيجزيه بما عمل ، إنما دعانا إلى أن نغفر لترتاح صدورنا من مشاعر الغيظ والغل والحقد ، وليزول الجدار الذي تشكله هذه المشاعر بيننا وبين إخوة لنا في الإنسانية أساؤوا إلينا ، فنحسن إليهم ونرد الإساءة بالحسنة ، وعندها يتحقق لنا ما نسعى إليه عندما نرد على العدوان بالعدوان ، يتحقق لنا دفع العدوان وتجنب المزيد منه ، وحماية أنفسنا من المزيد من الأذى والإساءة ، وهذا واضح في قوله تعالى: ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، أي ليس الأمر عجزاً واستسلاماً وسلبية تغري المعتدي بمزيد من العدوان ، بل هو دفع للإساءة ، لكن بوسيلة مثالية راقية ، تجعلنا ننتصر على الخصم بتحويله إلى ما يشبه الولي الحميم ، بدل العدو اللدود الذي كانه.

هذه هي العزيمة ، أما الرخصة التي تتجاوب مع ميل الإنسان الفطري للانتقام لنفسه ، وإن كانت دونها في الرقي والسمو الخلقي والتأثير في الغير ، فهي رد الإساءة بإساءة مثلها ، لا بإساءة تفوقها ، فقد توعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمَثِّل بسبعين من المشركين ، لما

رأى تمثيلهم الحاقد بجثة عمه الحبيب إلى قلبه ، حمزة رضي الله عنه في غزوة أحد ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى:

"وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ{126} وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ{127} إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ{128}" النحل.

إن عاقبتم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، هذا إن عاقبتم ، و"إنْ" هنا تشكك بوقوع المعاقبة ، لكن تأذن بها في الوقت نفسه ، دون تشجيع عليها ، بل الحض هو على الصبر والإحسان ، ومعه تذكير أن الصبر خير للصابرين من الانتقام ، وأن الله مع المتقين ، ومع المحسنين ، الذين لا يظلمون ، والذين يصبرون أكثر مما يعاقبون.

قال تعالى: "وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ{37} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{38} وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ{39} وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{40} وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{42} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{43}" الشورى.

هذه الآيات الكريمة تلخص الموقف الإسلامي بكامله عند التعرض للعدوان ، فهي تدعو إلى المغفرة ، لكن تأذن برد العدوان بعدوان مكافىء ، وتنهانا عن أن نظلم حتى الذين بادرونا بالعدوان والأذى.. اقرؤوها مرة أخرى وتأملوها ، لتعلموا روعة هذا الدين ، الذي يجمع بين المثالية والواقعية ، جمعاً رائعاً مريحاً للنفس البشرية.

دفاع لا هجوم

ونعود إلى موضوعنا الأصلي ، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما ، عنِ الأَحْنَفِ بنِ قَيسٍ قال: "ذَهبتُ لأنصُرَ هذا الرَّجُلَ ، فلَقِيَني أبو بَكرةَ فقال: أينَ تُريدُ؟ قلتُ:

أنصُرُ هذا الرَّجُلَ: قال: ارْجِعْ ، فإنّي سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا الْتقَى المُسْلِمان بسَيْفَيْهما ، فالْقاتِلُ والمقتولُ في النار. فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ هذا القاتِلُ ، فما بالُ المقتول ؟ قال: إنه كان حَريصاً على قتلِ صاحبِه".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: «مَن قُتِلَ دُونَ مالِه فهو شَهيد». وقال فيما رواه أحمد في مسنده: «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد». وروى النسائي في سننه الصغرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيد».

هو شهيد إذن إن قُتل وهو يدافع عن نفسه أو ماله أو عرضه ، هذا بغض النظر عن دين المهاجم وعلاقته بالمؤمن الذي يقاتل دفاعاً ، أي إن القتال دفاعاً عملٌ مشروع ، والموت فيه استشهاد ، حتى لو كان المعتدي شيخ الإسلام ، ومؤمناً لا يفوقه أحد في العبادة كما كانت الخوارج. وكما هو حال الكثيرين من الجهاديين التكفيريين ، الذي يستحلون دماء الناس في زماننا هذا ، مع أنهم غالباً متدينون ، وربما كانوا شديدي الالتزام الديني والتعبد فيما سوى استباحتهم لدماء الآخرين.. الدفاع مشروع ، سواء كان من يهاجمك مسلماً أو كان كافراً ، لكن أن يلتقي المسلمان بسيفيهما فهو محرم ، وكلاهما في النار.

ما الحل عندما يكون من يعتدي عليَّ مسلماً ، وأريد أن أقاتله لأحمي نفسي ومالي وعرضي ؟

الحديث الذي يحرم التقاء المسلمين بسيفيهما يقول: إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، أي خرج كل منهما من دياره ليلقى الآخر بسيفه ، وكلاهما مؤمن بالعنف والقتال وسيلة لحل الخلاف ، فيقاتله على أمل الغلبة وفرض الإرادة ، أي يكون التقاؤهما بالسلاح هجوماً مقصوداً من كل منهما ، لا هجوماً من أحدهما ودفاعاً من الآخر ، إنما مبادرة لمهاجمة الخصم ، وعدواناً استباقياً قبل أن يبدأ الخصم هجومه.

خروج المسلم للقاء المسلم بالسيف حرام ، والقاتل والمقتول فيه في النار ، لكن الدفاع حلال ، والمقتول فيه من المدافعين شهيد.. أي عندما نقاتل جنود النظام وشبيحته ومخابراته

إن هاجموا بيوتنا أو أحياءنا أو بلداتنا ، لنذود عن أنفسنا بما في ذلك أولادنا وأهلينا ولنحمي أموالنا وأعراضنا ، فإن قتالنا يكون في سبيل الله ، ومن يَمُت منا فهو شهيد ، له أن يتوقع جنة عرضها السماوات والأرض ، أما قطع المسافات كي نهاجمهم في ثكناتهم ، أو مراكزهم ، أو قراهم ، التي هي خارج مناطقنا الآمنة وبعيدة عنا ، فهذا ليس دفاعاً ، حتى لو بررناه لأنفسنا ، على أنه دفاع استباقي ، على مبدأ "الهجوم خير وسيلة للدفاع" ، لكن يبقى الهجوم على مراكزهم وقواعدهم التي هي ضمن مناطقنا الآمنة ، ومنها ينطلقون للعدوان علينا ، فلنا أن نخرجهم منها بالقتال ، إن رفضوا الخروج منها طواعية ، ويكون قتالنا في هذه الحالة دفاعاً مشروعاً والله أعلم.

يمكن لكل حي أو بلدة تحديد هامش أو حمىً ، لا تسمح لجيش النظام وعصاباته ومخابراته أن يجتازوه ، وتقاتلهم إن اقتربوا منه ، لكن لا ترسل المقاتلين لمهاجمة النظام ورجاله ، طالما هم بعيدون عن هذا الحمى. أي يكون دخول الجيش وقوى الأمن والشبيحة ممنوعاً إلى مناطق الثوار ، ولا يتم إلا على جثثهم ، لكن للنظام ورجالاته أن يأمنوا على أنفسهم من أي عدوان من الثوار ، طالما بقوا بعيدين ، ولم يبادروا بالهجوم والاعتداء.

في الوقت ذاته تبقى مناطق الثوار تحت الإدارة المدنية للدولة ، ويدخلها كل الموظفين الحكوميين ، بما فيهم الشرطة والمباحث الجنائية وشرطة السير ، وكل ما يلزم لاستمرار الحياة المدنية في تلك المناطق تحت حكم الدولة ، أي لا نعلن تحرير مناطقنا ونرفع عليها أعلامنا ، ونمنع كل من له صلة بالدولة والنظام من دخولها ، فنحن صراعنا مع النظام ، وليس مع الدولة ، ونريد أن نطيح بالنظام ، لا أن نطيح بالدولة في سورية.

نعلنها مناطق آمنة لكل السوريين ، من الشعب بكافة أطيافه ، أو من موظفي الدولة بكافة تخصصاتهم ، إلا من جاء معتدياً على الأنفس والأموال والأعراض. نعلنها آمنة نخضع فيها لقوانين الدولة في كل شيء ، إلا منها ما يمنعنا من المطالبة بالحرية والكرامة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، ونبذل كل جهدنا لنوصل صوتنا وصورتنا إلى العالم أجمع ، ولنفضح جرائم النظام على رؤوس الأشهاد ، كي لا يبقى أحد من الناس مخدوعاً به. فنتمرد تمرداً سلمياً على النظام ، المتمثل بقوى القمع والبطش ، من مخابرات وشبيحة وفرق عسكرية ، سواء منها من يوالي النظام بإرادته ، ومن هو مغلوب على أمره ومُكْرَهٌ ، لا يجرؤ على المخالفة والانشقاق ،

من مجندين إجباريين وغيرهم من العسكريين ، الذين لا يرضيهم ما يؤمرون به من قتل المطالبين بالحرية والديمقراطية.

ندافع عن أعراضنا وأموالنا وأنفسنا حتى الموت ، لكننا لا نهاجم أحداً ، ولا نغزوا أحداً في أماكن تواجده أو في قريته ، حتى لو اعتدى علينا منهم من يرتكب المذابح ويغتصب النساء ، فإننا ندافع ونقاتل بكل سلاح متاح ، فإما أن نقتلهم وإما أن نقتل لنكون شهداء عند الله ، لكننا لا ننتقم بأن نهاجم قراهم أو ثكناتهم ، ولا نرتكب المذابح ، ولا نعتدي عليهم وعلى أسرهم كما اعتدوا علينا. لقد أذن الله لنا بالدفاع عن أنفسنا وأعراضنا وأموالنا ، ولم يأذن لنا أن نعامل أبناء وطننا بالمثل ، أي بأن ننتقم ونثأر ، فنهاجم ونقتل ونغتصب ، حتى لو كان ذلك يشكل رادعاً لهم عن المزيد من العدوان علينا. المعاملة بالمثل والمبادرة مشروعة ، عندما يكون عدونا دولة أخرى ونواجهه كدولة ، أما عندما تتصارع فئات شعب واحد ، وأبناء أمة واحدة ، فليس مشروعاً لنا إلا الدفاع ، بل إن وعد نبينا لنا أن من قتل دون عرضه أو ماله أو نفسه أو أهله فهو شهيد ، حض وحث وتحريض على الدفاع عن ذلك كله ، وبذل النفس في سبيله.

عندما وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أن الروم يعتزمون غزو المسلمين ، جهز جيش العسرة ، وسار بهم إلى تبوك ، يريد أن يلقى الروم في عقر دارهم ، وهو يومها لم يجد ما يجهز به رجاله من عتاد وغذاء إلا القليل ، لأنه علم أن الهجوم خير وسيلة للدفاع فبادر إليه ، لكن ربنا حرم الاقتتال الداخلي ضمن المجتمع الواحد ، ولم يسمح به إلا للمدافع عن نفسه أو ماله أو عرضه أو أهله ، ونحن نؤمن أن ربنا لم يشرع لنا من الدين إلا ما هو خير ومنفعة لنا ودفع للضر والشر ، وحل الخلافات بالسلاح ضمن الأمة الواحدة ، يعني الحرب الأهلية التي يخسر فيها الجميع ، حتى لو في نهايتها تغلبت فئة على فئة ، فإن تغلبها ، يسبقه ضحايا عديدة جداً من الطرفين ، وتخسر الأمة ما كان يربط أبناءها بعضهم ببعض ، فيتحولون إلى أعداء ، ربما لأجيال إن لم يكن لقرون ، ويكون الوضع الجديد ، فيه غالب ومغلوب ، وقاهر ومقهور ، وجبار ومكره ، وظالم ومظلوم ، فلا يكون هنالك سلام حقيقي ، ولا يمكن أن تعود الأمة متماسكة كما كانت من قبل.

كل تحريم أو تحليل في دين الله هدفه المصلحة والمنفعة ودرء المفسدة ، وليس تطبيقاً للمبادىء والقيم على حساب الناس وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم. وتحريم الاقتتال بين مكونات الأمة الواحدة ، ليس من منطلق أنه لا يحل للمسلم أن يقاتل المسلم لأنهما مسلمان ،

فقد أحل الله للمسلم أن يقاتل المسلم عندما تبغي طائفة من المسلمين على طائفة أخرى ، فأمر الله المسلمين كدولة ، وليس كأفراد ، بمقاتلة البغاة حتى يفيئوا ويعودوا لأمر الله ، لذا أتى الأمر بقتالهم مخاطباً المؤمنين كجماعة ، وهذا يعني أن تكون لهم دولة ، ويقوموا بردع البغاة كدولة ، أما كأفراد وجماعات ضمن الأمة الواحدة تريد أن تقاتل من يبغي ، لتتحول القضية إلى حرب أهلية لا قواعد فيها للاشتباك ، بل يُقتل فيها المذنب والبريء ، والكبير والصغير ، والمرأة والرجل ، ويكون فيها القتل على الهوية والانتماء العشائري والطائفي ، فلا يحل ذلك ، حتى لو كانت فئة من المؤمنين قد بغت على غيرها من المؤمنين ، نعم ندفع الصائل ، ونرد المهاجم المعتدي ، وندفع عن أنفسنا وأهلنا وأموالنا وأعراضنا ، وفي الوقت نفسه نبقى متمسكين بالوسائل السلمية لحل الخلاف مع أبناء أمتنا وشركائنا في الوطن.

قد يقول قائل: كلامك صحيح إن كان البغاة مؤمنين مثلنا ، لكن إن كانوا كفاراً يؤلهون بشراً فالأمر يختلف! الحق ، أن الأمر لا يختلف ، طالما كنا أبناء أمة واحدة ، فحماية الأمة من الاقتتال الداخلي بين مكوناتها ، فيه المصلحة لهذه الأمة ، سواء كانت كلها من المؤمنين ، أو كانت أمة مختلطة فيها المؤمن والكافر ، أو كانت أمة من الكفار ، لأن تحريم لجوئهم إلى الاقتتال لحل خلافاتهم السياسية ، فيه الخير لهم والمنفعة ودفع المفسدة ، بغض النظر عن معتقداتهم ، والتشريع الذي ينفع أمة مؤمنة ، ينفع أمة كافرة إن هي أخذت به ، وأعود إلى مثال ذكرته في مقالاتي السابقة وهو تحريم الإسلام للربا وفرضه للزكاة ، وكيف لجأت أوربا وأمريكا في أزمتهم الاقتصادية الأخيرة إلى ما يشبههما ، من أجل أن يتعافى اقتصادهم ، إذاً تحريم الربا أو إلغاء الفوائد المصرفية بحكم القانون الوضعي ، يفيد اقتصاد الأمة ، بغض النظر عن معتقدات أفرادها ، وكذلك ضخ الأموال في المجتمع للمحافظة على حد أدنى من القدرة الشرائية للناس ، فلا تكسد البضائع وتفلس الشركات وتتفاقم الأزمة ، وهو محاكاة للزكاة التي تضخ القليل من أموال الأغنياء في المجتمع بشكل مستمر ، ويكفي منها هذا القليل كإجراء وقائي استباقي.

لو طبقنا ما شرعه الله لنا فسنسعد في هذه الدنيا ، سواء كنا مؤمنين ، أو كنا كافرين ، أو كنا خليطاً من المؤمنين والكافرين. إن الغذاء النافع ، والدواء الموافق للداء ، ينفع الجميع مؤمنهم وكافرهم ، وكذلك شرع الله وحلاله وحرامه ، ينفع كل من يأخذ به ويطبقه ، مؤمناً كان أو كافراً. وإن تحريم اقتتال أبناء الأمة الواحدة لحل خلافاتهم السياسية نافع لنا ، حتى لو كان بعضنا كافراً ، فالترياق ينفعنا من حيث أننا بشر ، نشترك بإنسانية واحدة ، ولدينا المشاعر

والعواطف والدوافع النفسية المتشابهة، فكلنا إخوة في الإنسانية، ويصلح لنا ما يصلح للمؤمنين من شرع الله وهديه.

ثم إن الكثير مما حرمه الله علينا ينطبق، حتى لو كان الطرف الآخر كافراً.. فالزنا محرم، سواء كان بمؤمنة أو بكافرة، والسرقة محرمة، سواء كانت سرقة لمال مؤمن أو مال كافر. صحيح أن التحريمات كانت موجهة للمؤمنين، وكان الخطاب للمسلمين، لكننا لسنا مثل بني إسرائيل الذين أحلوا لأنفسهم أموال ودماء وأعراض غير اليهود، لأنهم كفار بالنسبة لهم، وقالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، كما حكى لنا ربنا عندما قال:

"وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{75} بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{76}" آل عمران.

أن يكون لقاء المُسْلِمَيْن بسيفيهما لحل خلافاتهما السياسية محرماً، والقاتل والمقتول فيه في النار، لا يعني أن لقاء المسلم بالكافر الذي يشاركه الوطن نفسه وينتمي للأمة ذاتها لحل الخلافات السياسية بينهما حلال، لمجرد أن الطرف الآخر كافر. كان المؤمنون في مكة قبل الهجرة مضطهدين من قبل مشركين، لكن الله لم يأذن لهم بالقتال الهجومي، إلا بعد أن صارت لهم دولة يقاتلون تحت لوائها متميزين عن غيرهم، أما عندما كانوا أفراداً في مجتمع مكة الذي اختلط فيه المؤمنون بالمشركين، فإنهم لم يكن مأذوناً لهم أي هجوم على المشركين، حتى لو ظلموهم، ومع أن حقهم في الدفاع عن أنفسهم مكفول، ومن مات دون نفسه أو ماله أو عرضه فهو شهيد، فإنهم التزموا بالعزيمة، وهي أن يكفوا أيديهم مهما أصابهم من ظلم وعدوان، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وكلنا يعرف التهديد الذي أطلقه عمر بن الخطاب، عندما هاجر من مكة جهاراً نهاراً، وتوعد من يلحق به من المشركين بالموت، أي كان على استعداد لمقاتلة من يهاجمه، ولم ينكر عليه نبينا ذلك فيما بعد، لأن الإذن بالدفاع المحض عن النفس هو من المعروف، الذي تقبله نفوس البشر جميعهم، والإسلام جاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان الصحابة بلغوا مستوىً مثالياً في الأخذ بالعزائم التي أمروا بها.

فحتى لو هاجم أحياءنا وبلداتنا شبيحة أو ميليشيا تنتمي لطائفة معينة ، فإن لنا الحق أن ندافع بالسلاح ونقاتل ، فنقتلهم أو نُقتل ، لكن لا نغزوا قراهم ، ولا نقتل أحداً من أهليهم أو عشائرهم ما لم يكن مهاجماً لنا. ومع أن هذا يعني إعطاء الأمان للطوائف والأقوام التي ينتمي إليها المعتدون ، وعدم معاملتهم بالمثل ، بل إعطاء الأمان لأسر وأقرباء من اعتدوا على أسرنا وأعراضنا ، فإنه أبداً ليس وليد ضعف أو جبن أو تخاذل ، ولا دليلاً على شيء من ذلك ، إنما هو ضبط للنفس ، والتزام بشرع الله ، مع الثقة أننا بذلك سننتصر عليهم ، فالقضية ليست حرب إبادة من طرف لطرف ، إنما هي جهاد من أجل حياة أفضل لجميع السوريين ، مؤمنهم وكافرهم ، ولا يتحقق هذا الهدف إلا بالامتناع عن مهاجمة أحد منهم ، إلا انتقاماً وقصاصاً ، إن كنا نعرف المعتدي منهم بشخصه ، وتأكدنا من هويته ، لكننا نميل إلى العزيمة ما استطعنا ، لأنه لا بد أنها خير لنا مما رخص الله لنا فعله مراعاة لضعفنا البشري.

في الجهاد من أجل الحرية والديمقراطية ودولة القانون والمواطنة ، الهدف ، هو تحييد أكبر عدد من أعوان الطاغية ، من أجل عزله ، وتغيير مواقف أعوانه والمخدوعين به ، والإبقاء على خط رجعة لهم ، وعلى مكان لهم في دولتنا المنشودة ، رغم تورطهم في الدفاع عن النظام الظالم.. ألم يكن نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إهدِ قومي فإنهم لا يعلمون" ، مع أن من مات منهم في تلك اللحظة فإلى النار ، أي كانوا مسؤولين عما يرتكبونه من فسق وعصيان ، لكنهم كانوا لا يعلمون مصلحتهم أين ، كما هو حال جند النظام وشبيحته الآن ، فهم لا يعلمون أين هي مصلحتهم الحقيقية ، ويظنونها مع النظام الجائر الظالم. الكثير من السوريين يجهلون عدالة القضية التي قامت من أجلها الثورة في سورية ، وهم مغرر بهم ، ومتوهمون أن الثورة إن انتصرت فستكون نهايتهم ، وستقطع أرزاقهم وأعناقهم ، ويظنون أنهم بدفاعهم عن النظام ، إنما هم يدافعون عن أنفسهم وعن أرزاقهم ، ولا يعلمون أنهم يبيعون أرواحهم للمحافظة على مكتسبات عصابة متسلطة على البلاد والعباد ، ومستأثرة بخيرات الوطن ، وتتمتع بالكبرياء في الأرض على حساب كرامة باقي السوريين ، حتى لو كانوا من طائفتهم أو منطقتهم ، ما لم يكونوا موالين لهم ومستعدين للموت في سبيلهم.

لن نكون قديسين ، ولن نُدِر الخد الأيمن لمن لطمنا على الخد الأيسر ، بل سنرد العدوان ونقاتل في سبيل أهلنا وعرضنا ومالنا حتى الموت ، وهذا حق كفله لنا الإسلام ، طالما أننا لم نحتمل أن نتلقى الاعتداءات ، التي طالت أعراض نسائنا وأرواح أطفالنا. ندافع ، ومن

مات منا فهو شهيد ، لكن لا نسعى إلى الثأر ممن لم يعتدِ علينا بنفسه ، فنحن أمة العدل ، ثم نحن في جهاد في سبيل الله ، نطالب بحريتنا ، وبأن نشارك في تقرير حاضر ومستقبل بلدنا ، كما يشارك أي مواطن في دولة متحضرة. وليست العداوة شخصية ، بل بمجرد أن نحصل على الحرية والديمقراطية ودولة المواطنة والقانون لجميع السوريين ، نحتسب ما أصابنا عند الله ، ونفتح قلوبنا لإخواننا مهما بلغت إساءاتهم لنا ، ونبدأ معهم صفحة جديدة ، أمة متحابة متماسكة ، لا يفرقها عرق أو دين ، تماماً كما يتحاب أعضاء الأسرة الواحدة ، حتى لو اختلفوا في الدين أو العرق.. نعم نبدأ صفحة جديدة بلا أحقاد ولا انتقام.. أليس قتلانا شهداء وأحياء عند ربهم يرزقون ؟ وهل يصنع الانتقام فرقاً بالنسبة لهم ؟.

إخواننا بغوا علينا

لا تتعجبوا من هذا الكلام ، فهذا ديننا ، لا يلاحق فيه البغاة إذا ما هُزموا ، ولا إذا ما كفوا عن القتال ومالوا إلى السلم والصلح ، البغاة في المجتمع المسلم هم من يخرجون بالسلاح على باقي الأمة ، لغرض سياسي ، يغلب أن يجدوا له مبرراً دينياً. وما أسهل أن تجد في الدين تبريراً لما تريد إن كنت ذكياً وعالماً بالتفاصيل. قال الشافعي رحمه الله تعالى في كتاب قتال أهل البغي وأهل الردة من كتابه الكبير "الأم": (والباغي خارِج من أن يقال له حلالَ الدم مطلقا غير مستثنى فيه ، وإنما يقال إذا بغى وامتنع ، أو قاتل مع أهل الامتناع ، قوتل دفعاً عن أن يَقْتُل ، أو منازعة ليرجع ، أو يدفع حقاً إن منعه ، فإن أتى ، لا قتال على نفسه ، فلا عقل فيه ولا قود ، فإنا أبحنا قتاله ، ولو ولى عن القتال ، أو اعتزل ، أو جرح ، أو أسر ، أو كان مريضاً لا قتال به ، لم يقتل في شيء من هذه الحالات ، ولا يقال للباغي وحاله هكذا حلال الدم ، ولو حل دمه ما حقن بالتولية والإسار والجرح وعزله القتال).

وقال الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته: (والفرق بين الباغي والمحارب: أن المحارب يخرج فسقاً وعصياناً على غير تأويل ، والباغي: هو الذي يحارب على تأويل ، فيقتل ويأخذ المال ، وإذا أخذ الباغي ولم يتب ، فإنه لا يقام عليه حد

الحرابة ، ولا يؤخذ منه ما أخذ من المال وإن كان موسراً ، إلا أن يوجد بيده شيء بعينه ، فيرد إلى صاحبه (4)).

وقال أيضاً: {قال الحنفية والمالكية والحنابلة ، والشافعية في أظهر القولين عندهم: لا يضمن البغاة المتأولون ما أتلفوه حال القتال من نفس ولا مال ، بدليل ماروى الزهري ، فقال: «كانت الفتنة العظمى بين الناس ، وفيهم البدريون ، فأجمعوا - أي في وقائعهم كوقعة الجمل وصفِّين- على ألا يقام حد على رجل استحل فرجاً حراماً بتأويل القرآن ، ولا يقتل رجل سفك دماً حراماً بتأويل القرآن ، ولا يغرم مال أتلفه بتأويل القرآن» (2)، ولأن البغاة طائفة ممتنعة بالحرب بتأويل سائغ ، فلم تضمن ما أتلفت على الأخرى كأهل العدل ، ولأن تضمينهم يفضي إلى تنفيرهم عن الرجوع إلى الطاعة ، فلا يشرع كتضمين أهل الحرب}.

صحيح أن هذا الحكم هو في الأصل للبغاة من المؤمنين ضمن أمة مؤمنة ، لكن لو تفكرنا في الحكمة من إسقاط الملاحقة عنهم ، لوجدناها تتعدى كونهم مؤمنين ولهم اجتهادهم في الدين الذي قاتلونا من أجله ، فالاجتهادات لا حدود لها ولا ضابط ، ولا يعلم ما في قلوبهم من إخلاص لاجتهاداتهم إلا الله ، لكن ذلك لا يغير من الحكم الشرعي شيئاً ، ذلك أن الحكمة هي مصلحة الأمة في حقن الدماء وحماية أبنائها من أن يقتل المزيد منهم ، حتى لو لم تتحقق العدالة لمن قتلوا أو عذبوا أو اعتدي عليهم خلال النزاع ، لأن حفظ الأحياء مقدم على الانتقام والتشفي للأموات مهما كانوا عزيزين على قلوبنا ، حيث الإصرار على الملاحقة لمعاقبة كل من ارتكب جرماً في هذه الحرب الدائرة ، الذي يدغدغ مشاعر من أصيبوا ، ومشاعر أسر الذين ماتوا ، ثمنه ، سقوط المزيد من القتلى والمصابين ، لأننا عندما نغلق باب التوبة في وجه هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للنظام ، يصبح دفاعهم عن النظام دفاعاً عن أنفسهم وعن وجودهم ، فهم إن سقط النظام ، لوحقوا وحوكموا وأعدموا وصودرت أموالهم ، وهم أمام هذا المصير المتوقع لا أمل لهم إلا في القتال مع النظام حتى الموت ، أو ينتصر النظام وتكون لهم النجاة. هؤلاء بشر مثلنا ، ويحسبون الأمور بمدى المنفعة والضرر لهم ، فإن طبقنا ما أمرنا به ديننا بخصوص البغاة منا ، مع أنهم قد يكونون كفاراً بالنسبة لنا ، فإننا نستفيد من شرع الله ، ونوفر أرواحاً كثيرة وآلاماً عظيمة ، كانت ستستمر حتى يتم القضاء عليهم ، هذا إن أمكن ذلك. نعم نغفر لهم ،

ومن الآن نعدهم بالعفو والمغفرة والأمان، حتى تصبح فكرة تخليهم عن النظام واردة عندهم، وبخاصة إن تبين لهم أن الأمل في بقائه ضعيف، طالما أنهم لن يكونوا أسرى ماضيهم، وسيمنحون الفرصة ليبدؤوا حياة جديدة كمواطنين صالحين، لهم ما لنا وعليهم ما علينا. لا تستهينوا بهذا العامل النفسي المهم، الذي يجعل النظام معرضاً لأن يتخلى المدافعون عنه في يوم من الأيام، ولا تستهينوا بتأثير المطالبة بالمحاكمة والانتقام ولو من خلال محاكمات عادلة في جعل هؤلاء المدافعين عن النظام لا يتخلون عنه، مهما بدا لهم أنه مهزوم وآيل للسقوط، لأنهم وقتها لا يدافعون عن النظام بل يقاتلون ويقتلون الأبرياء دفاعاً عن أنفسهم، ونكون نحن الذين ألجأناهم لهذه الاستماتة في الدفاع عن النظام، مع ما تعنيه من خسائر ومعاناة كان من الممكن تجنبها.

في ديننا أحكام قد تبدو نوعاً من المثاليات، لكنها شرع من العليم الحكيم، لها غاياتها في تحقيق المصلحة لنا ودفع المفسدة، ولن يكون ذلك على حساب أسر الشهداء ولا المصابين ولا المغتصبات، بل يجب تعويضهم بسخاء من مال الأمة، بعد الإطاحة بالنظام، التعويض المالي والمعنوي ماعدا الانتقام لهم، ويترك الانتقام للمنتقم الجبار، الذي لا يضيّع حقاً لأحد. وعلينا أن ننظر ونعتبر بالتاريخ القديم والحديث، لنرى إلى أي حد تحققت العدالة للذين قتلوا وعذبوا واغتصبوا خلال الحروب، بعد أن هُزم المعتدون وحوكم بعضهم. هل يمكن إثبات التهم عليهم إن أنكروها؟ هل هنالك شهود عدول عليهم؟ هل هنالك أدلة وقرائن محفوظة تثبت جرائمهم؟ إن كنا نزعم أننا سنحاكمهم محاكمات عادلة المتهم فيها بريء حتى تثبت إدانته، فلن نستطيع إثبات أكثر من واحد بالألف، أو واحد بالمئة على أكثر تقدير من تلك الجرائم. لنكن واقعيين، ولنتأمل هل تم القصاص لكل الضحايا في البوسنة والهرسك أو في رواندا، مع أن محكمة دولية تولت محاكمة المسؤولين عن تلك الجرائم؟ صدقوني ليست إلا عدالة رمزية، لا تشفي الغليل على الإطلاق، وكما قلت سيكون ثمن الإصرار عليها باهظاً من أرواح ضحايا كان يمكن إنقاذها وتجنيبها القتل أو الإصابة أو الاغتصاب.

من قبل أن تقدروا عليهم

في ديننا حتى المجرمون قطاع الطريق، لا يُلاحقون بما ارتكبوا من قتل أو سرقة أو اغتصاب إن هم تابوا من قبل أن يقعوا في قبضة الدولة. هذا واضح في قوله تعالى:

"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ{32} إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{33} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{34}" المائدة.

وقد اجتهد كثير من علماء الأمة في تفصيل ما يسقط عن هؤلاء وما لا يسقط عند توبتهم قبل القدرة عليهم ، لكن الإمام الشوكاني وهو من أهم فقهاء الأمة أخذ بظاهر الآية ، فهو يقول في فتح القدير: "قوله: ("إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ" ، استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة ، والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال ، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة ، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك ، وعليه عمل الصحابة. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة ، والحق الأوّل (أي الحق أنها تسقط كلها) . وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة في الآية ، كما يدل عليه ذكر قيد "قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ".

وقال الطبري في تفسيره: (عن عامر الشعبي أن حارثة بن بدر خرج محارباً ، فأخاف السبيل ، وسفك الدم ، وأخذ الأموال ، ثم جاء تائباً من قبل أن يُقدر عليه ، فقبل علي بن أبي طالب رضي الله عنه توبته ، وجعل له أماناً منشوراً على ما كان أصاب من دم أو مال). وقال أيضاً: "حدثنا أسباط ، عن السدي قوله: "إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، وتوبته من قبل أن يقدر عليه: أن يكتب إلى الإمام يستأمنه على ما قتل وأفسد في الأرض: "فإن لم يُؤَمِّنّي على ذلك ، ازددت فساداً وقتلاً وأخذاً للأموال أكثر مما فعلت ذلك قبل". فعلى الإمام من الحق أن يؤمنه على ذلك. فإذا أمنه الإمام جاء حتى يضع يده في يد الإمام ، فليس لأحد من الناس أن يتبعه ، ولا

يأخذه بدم سفكه ، ولا مال أخذه. وكل مال كان له فهو له ، لكيلا يقتل المؤمنين أيضاً ويفسد. فإذا رجع إلى الله جل وعز فهو وليه ، يأخذه بما صنع ، وتوبته فيما بينه وبين الإمام والناس . فإذا أخذه الإمام ، وقد تاب فيما يزعم إلى الله جل ثناؤه قبل أن يؤمنه الإمام ، فليقم عليه الحد". أي إن ادعى أنه تاب من قبل أن يقبض عليه لا يؤخذ بكلامه ، ما لم يكن أعلن توبته قبل القبض عليه وأرسل للإمام أي الحاكم يعلمه بتوبته ويستأمنه.)

إذن من قتل نفساً واحدة بلا حق كان في الإثم كمن قتل الناس جميعاً ، ومع ذلك من تاب من القَتَلَة قطاع الطريق ، وقد قتل قبل توبته العشرات من الأبرياء ، من تاب منهم قبل أن نقدر عليه ونأسره ، وكنا متأكدين من أنه تاب بالفعل من قبل أن نقدر عليه ، سقط عنه في الدنيا المسؤولية والمحاسبة على ما فعل ، رغم أن ذلك يؤلم أهل المقتولين والمغتصبات والذين سرقت أموالهم ، لكن هذا لا يعني سقوط العقوبة عنه عند الله ، فالتوبة مهما كانت نصوحة وصادقة لا تسقط عن التائب حقوق العباد عليه ، وهي لن تسقط عنه إلا إن هو أعادها لأصحابها أو هم سامحوه بها. وهنا الحكمة واضحة من جعل هذا العفو القانوني الدنيوي عن جرائم بشعة بمثابة جائزة للمجرم التائب تشجعه على التوبة ، وهذا الحكم مقصور على المجرمين المسلحين المحاربين للأمة ، التي هي المقصودة بقوله تعالى يحاربون الله ورسوله ، فالله جل في علاه لا يحاربه أحد ، ولا يقدر أحد لا على نفعه ولا على ضره ، إنما ما يكون لله يعود على الأمة ، كما نقرض الله عندما نتبرع بالمال لفقراء الأمة على سبيل المثال.

الإسلام واقعي جداً وحكيم إلى أبعد الحدود ، ومن يعلم حدود قدرة الحكومات على ملاحقة قطاع الطرق هؤلاء ، وما تلقاه من صعوبة بالغة في القضاء عليهم واستئصالهم ، وما يكلف ذلك من مال وأرواح تزهق في محاربتهم ، لن يستغرب هذا الحكم الشرعي الذي شرعه الله ، لا حباً بهم ولا رضىً بما صنعوا ، بل ليشجعهم على التوبة ، والتوقف عن سفك المزيد من الدماء ، وانتهاك الأعراض وترويع الآمنين. نترك لهم ما نهبوه ولانحاكمهم على ما ارتكبوه ، مقابل أن يكفونا شرهم ويتوقفوا عن إجرامهم ، ولم يكلفنا الله أن نشق عن صدورهم ، لنتأكد هل توبتهم حقيقية وصادقة من القلب ، أم هي حيلة للتخلص من الملاحقة ، المهم أن يعلنوا

التوبة والعودة إلى حظيرة الأمة ، مسالمين لها ، يكفون أذاهم عنها ، من قبل أن يتم القبض عليهم ، وأمرهم إلى الله بعد ذلك.

ومرة أخرى هذا الحكم له نفعه للأمة إن طبقته ، بغض النظر عن كون هذا الذي يحارب الله ورسوله مؤمن أو كافر ، لأن التوبة الواردة في الآيات لم تقل ، كما هو الحال في مواقع أخرى تحدثت عن التوبة ، لم تقل: إنهم تابوا وأصلحوا ، أو تابوا وأقاموا الصلاة وما شابه ، وهذا يعني أن التوبة المقصودة هي مجرد توبتهم من سلوكهم الإجرامي.

يجب تغليب المصلحة على العاطفة ، ويجب تعويض من قُتل أحدٌ من أهله ، ومن اغتصبت ، ومن سرقت أمواله ، وغير ذلك ، التعويض السخي من مال الدولة ، لأن القانون أسقط عن هؤلاء الملاحقة كي يشجعهم على التوقف عن المزيد من الإفساد في الأرض ، وهذا لمصلحة الأمة ككل ، وعلى الأمة أن تعوض المتضررين.

إن تشديد الثائرين على ما يسمى العدالة الانتقالية ، وعلى محاسبة من قتل ومن اغتصب ، له ضرره ، وهو مخالف لأحكام شريعتنا.

ليس الذين يحاربون الله ورسوله كما جاء في هذه الآيات ، أقل سوءاً وإجراماً من الشبيحة والمخابرات وأعضاء الفرقة الرابعة وغيرهم من العسكريين الذين يدافعون عن النظام ، ولسنا أقل حاجة من الأمة المسلمة في الأحوال العادية لنقدم الإغراءات لهؤلاء المجرمين ، ليتوقفوا يوماً ما عن إجرامهم. علينا أن نكون أذكى من النظام وأن نطبق شرع الله في هذه المسائل التي نواجهها حالياً ، لنفوز بمنافعه ، ولا نترك هؤلاء أسرى للنظام ، لا أمل لهم في الانفكاك عنه ، مع أننا نكرههم ونكره ما يفعلونه كل يوم ، من فظاعات وجرائم تقشعر لها الأبدان ، لكن الإقلال من الجرائم التي يمكن أن يرتكبوها قبل أن ننتصر عليهم ، يستحق منا أن نؤجل الانتقام منهم ، وأن نحيلهم إلى الله الذي لا تضيع عنده الحقوق.

حتى ينقذ الغربيون اقتصادهم المهدد بالانهيار ، طبقوا أحكام الإسلام دون أن يقصدوا ذلك ، فنفعتهم ، وحتى تنجح ثورتنا في تغيير واقعنا المأساوي في سورية ، علينا أن نطبق أحكام الله هذه ، بغض النظر عن كون الذين سنطبقها بخصوصهم مؤمنين أو كفاراً ، لا يهم ، فهي ستنفعنا في كلتا الحالتين. ولا يهم أن نطبقها تعبداً أو من أجل المصلحة التي يمكن أن

نحققها بتطبيقها، فعلى كلا الحالين ستتحقق المصلحة، وتبقى النية المخلصة شرطاً للفوز بالأجر والثواب من الله تعالى.

إننا إن قلنا: إن الأحكام المذكورة تُلزمنا بما يخص المؤمنين وتبقى لنا الحرية بما يخص الكافرين، فإننا بذلك نفقدها تأثيرها في طوائف السوريين، الذين يخشون على مستقبلهم إن سقط النظام وصار للإسلاميين السنّة سلطة، جزئية كانت أو كاملة. وهم محقون في تخوفهم، إذ ما يزال بعضنا يعمم النصوص التي جاءت في المشركين العرب زمن البعثة، لتشمل كل من نعتبره كافراً، مع أن صحابة رسول الله لم يطبقوها إلا على المشركين العرب في المنطقة التي فيها حالياً دول مجلس التعاون الخليجي، وهم لم يعتبروا اليمن مشمولاً بها، رغم أن العرب منه جاؤوا قديماً.

الخروج المحرّم

ولا بد لي من الرد على شبهة أثارها الدكتور البوطي، غفر الله لنا وله، وهو يحاول حماية النظام السوري حتى من مجرد المظاهرات السلمية المطالبة بالحرية، وهي ادعاؤه أنها تشكل مع باقي أشكال العصيان المدني خروجاً على حاكم لم يجاهر بالكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان. صحيح ما يقوله من أنه لا يجوز الخروج على الإمام أي الحاكم أو السلطان ما لم يستعلن بالكفر الذي لا تأويل له ولا شك فيه، لكن الخروج المقصود بالتحريم هو التمرد والثورة المسلحة، حيث لا ترد عبارة الخروج على السلطان أو الإمام في كتب التراث، ولا يوصف بها فعل، إلا حمل السلاح والثورة العنيفة على الحاكم. كان الأمر بديهياً للمسلمين القدامى، لدرجة أن معجماً موسوعياً مثل لسان العرب، لم يفصل في شرح معنى الخروج على السلطان، رغم أنه خصص حوالي ألفي كلمة، لتبيين معاني خَرَجَ ومشتقاتها، ومثله القاموس المحيط ومختار الصحاح، لكن معجم اللغة العربية المعاصرة يقول: "خرَجَ على الحاكم: تمرّد وثار عليه ونبذ طاعته - خرَج عليه: برز لقتاله.". إذ لم يكن الناس يعرفون أسلوب اللاعنف والعصيان المدني والمظاهرات السلمية في النضال من أجل التغيير السياسي، إنما كان خروج المسلمين على حكامهم دائماً مسلحاً، وهجومياً مبادراً في كل مرة، وكان دائماً يبدأ بنزع الاعتراف بشرعية الحاكم بتأويل فقهي أو غيره، وينطلق محاولاً الإطاحة به بقوة السلاح. هذا هو الخروج على الحاكم أو السلطان أو الإمام، ولن يصعب على أي منكم أن يبحث من

خلال الغوغل أو غيره، ليستعرض ما قيل عن أمثلة الخروج في تاريخنا، ليتأكد من أن المقصود به كان دائماً الخروج الهجومي المسلح المبادر، وحتى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، يؤكد هذا المعنى للخروج على السلطان أو على الأمة، فقد روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ. وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا. وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ». وفي رواية للحديث نفسه في مسند أحمد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من فارق الجماعة وخرج من الطاعة فمات فميتته جاهلية، ومن خرج على أمتي بسيفه يضرب برها وفاجرها، لا يحاشي مؤمناً لإيمانه ولا يفي لذي عهد بعهده فليس من أمتي، ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية، أو يقاتل للعصبية، أو يدعو إلى العصبية فقتلة جاهلية».

ولنرجع إلى ما عنون به الشوكاني رحمه الله الفصل الذي جمع فيه أحاديث رسول الله التي تحرم الخروج على الحاكم الذي لم يستعلن بالكفر البواح، فقد عنونه قائلاً: "باب الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والكف عن إقامة السيف".

وقد روى مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ. فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ. فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِىءَ. وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ. وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ أَلاَ نُقَاتِلُهُمْ ؟ قَالَ: «لاَ، مَا صَلَّوْا» وفي مسند أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يكون عليكم أمراء تطمئن إليهم القلوب، وتلين لهم الجلود، ثم يكون عليكم أمراء تشمئز منهم القلوب، وتقشعر منهم الجلود، فقال رجل: أنقاتلهم يا رسول الله ؟ قال: لا، ما أقاموا الصلاة».

وروى مسلم في صحيحه عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللّهِ فَبَايَعْنَاهُ. فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا، أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا

وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا. وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ. قَالَ: «إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ». والمقصود بالأمر الذي علينا أن لا ننازع أهله عليه هو الحكم.. وفي رواية أحمد في مسنده للحديث نفسه: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ولا ننازع الأمر أهله، نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم. قال سفيان: زاد بعض الناس: ما لم تروا كفراً بواحاً». وسفيان هذا هو راوي الحديث عن جده عبادة.

نعم الخروج على الحاكم المسلم بالسلاح لا يجوز، إلا أن يُظْهِر هذا الحاكم، الكفر الصريح الذي لا يختلف فيه المسلمون، لكن الطاعة الواجبة للحاكم بالمقابل، ليست طاعة مطلقة وعمياء، فالأحاديث واضحة أنه لا طاعة إلا في معروف، وأن العصيان فريضة، إن أمر الحاكم مسلماً كان أو غير مسلم بمعصية، دون أن يعتبر هذا العصيان خروجاً على الحاكم، أي العصيان المدني والمقاومة السلمية من أجل التغيير في الأمة ليس خروجاً، بل جهاداً يؤجر عليه من يقوم به مراعياً ما فرض الله وما حرّم.

ومن جهة أخرى، إن إنكار المنكر في الإسلام واجب على كل مسلم، كل بحسب استطاعته وسلطته، فالذي له سلطة وحق الأمر في مجال من المجالات، عليه أن يغير المنكر بيده فيما له فيه سلطان، والذي يستطيع تغيير المنكر بلسانه، أي بالكلمة، سواء كانت مكتوبة، أو مرسومة، أو هتافاً في مظاهرة سلمية، أو من خلال الفن التمثيلي، أو الغناء، أو أي وسيلة من وسائل التعبير باللسان، أو بما يقوم مقامه كالإنترنت، فعليه ذلك، إلا إن خشي على نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه من الأذى، عندها يكون له الخيار: إن شاء أنكر المنكر وتحمل الأذى، فكان مجاهداً، وإن قتل فهو سيد الشهداء، وإن شاء صبر وصمت وأنكر بقلبه، وذلك أضعف الإيمان، بينما هو ينتظر الفرصة المواتية لينكر المنكر بلسانه. **قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ». وروى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم أنت الظالم فقد تُوُدِّعَ منهم». وفي رواية ثانية عند أحمد: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تودع منهم».**

نحن مأمورون بتغيير المنكر بأيدينا في المجالات التي تقع تحت سلطتنا ، وبألسنتنا فيما عدا ذلك ، إلا أن نخشى على أنفسنا ، فبقلوبنا وحدها ، وهذا ينطبق على المنكر أياً كان الواقع فيه ، حاكماً أو محكوماً ، أميراً أو مأموراً.. هذا وإن كان في قوانين الأرض للسلطان حصانة من الملاحقة القضائية ما دام على كرسي الحكم ، فإن الإسلام لا يعطيه أية حصانة ، ويوجب على الرعية أن تقوِّمَه ، لكن دون استخدام العنف ، وذلك بأن تنصحه ، فإن لم يستجب تنتقده على رؤوس الأشهاد ، فإن لم يستجب تضغط عليه بالطرق السلمية التي ابتكرتها البشرية من مظاهرات وملصقات وإضرابات وغير ذلك ، فإن لم يستجب ، وكانت أغلبية الأمة تطالبه بالتغيير دون فائدة ، تكون المطالبة بعزله وتولية غيره ، لكن دون عنف.. وفي سبيل الضغط عليه كي يستقيم ويرفع ظلمه عن المظلومين ، لا بد من عصيانه ، لأنه بالتأكيد سيأمر الناس أن لا يتظاهروا وأن لا يُضْربوا ، فإن هم أطاعوه ، يكونوا قد قصروا في تغيير المنكر وإنكاره ، ويكونوا قد أطاعوه في معصية ومنكر ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه مسلم في صحيحه: «لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللّهِ. إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ». وقال فيما رواه أحمد في مسنده: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل». والرواية المشهورة لهذا الحديث هي: "لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ".

ولنتأمل هذه الروايات الأربع في صحيحي البخاري ومسلم لحادثة هامة جداً وقعت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

1- بعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً وأمَّر عليهِم رجلًا من الأنصارِ وأمَرهم أن يُطيعوه ، فغَضِب عليهِم وقال: أليسَ قدْ أمَر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن تُطيعوني ؟ قالوا: بلَى قال: قد عزَمْتُ عليكم لمَا جمعْتُم حَطَبًا وأوقَدْتُم نارًا ثم دخلْتُم فيها. فجمَعوا حَطَبًا فأَوقَدوا نارًا ؛ فلما هَمُّوا بالدُّخولِ فقاموا يَنظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ فقال بعضُهم: إنما تَبِعْنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فِرارًا من النارِ أفندخُلُها ؟ فبينما هم كذلك إذا خمَدتِ النارُ وسكَن غضبُه فذُكِرَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: "لو دخَلوها ما خرَجوا منها أبدًا ، إنما الطاعةُ في المعروفِ".

2 - أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعَث جَيشًا ، وأمَّر عليهم رجلًا ، فأوقَد نارًا ، وقال: ادخُلوها ، فأرادوا أن يَدخُلوها ، وقال آخرونَ: إنما فرَرْنا منها ، فذكَروا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال للذين أرادوا أن يَدخُلوها: "لو دخَلوها لم يَزالوا فيها إلى يومِ القيامةِ". وقال للآخَرينَ: "لا طاعةَ في المعصيةِ ، إنما الطاعةُ في المعروفِ".

3 - بعث رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سرِيَّةً. واستعمل عليهم رجلا من الأنصارِ. وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا. فأغضبُوه في شيءٍ. فقال: اجمَعوا لي حطبًا. فجمعوا له. ثم قال: أوقِدوا نارًا. فأوقَدوا. ثم قال: ألم يأمرْكم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخُلوها. قال: فنظر بعضُهم إلى بعضٍ. فقالوا: إنما فرَرْنا إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم من النارِ. فكانوا كذلك. وسكن غضبُه. وطُفِئَتِ النارُ. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم. فقال "لو دخلوها ما خرجوا منها. إنما الطاعةُ في المعروفِ".

4 - أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بعث جيشًا وأمَّرَ عليهم رجلًا. فأوقد نارًا. وقال: ادخُلوها. فأراد الناسُ أن يدخلوها. وقال الآخرون: إنا قد فَرَرْنا منها. فذكر ذلك لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال ، للذين أرادوا أن يدخلوها: "لو دخلتُموها لم تزالوا فيها إلى يومِ القيامةِ" وقال للآخرين قولًا حسنًا. وقال: "لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ. إنما الطاعةُ في المعروفِ".

والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر عبادة ، وقربة إلى الله ، وواجب على المؤمن قدر استطاعته وعلمه في جميع أحواله حاكماً كان أو محكوماً ، يقول تعالى:

"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ{110}" آل عمران.

ويقول في سورة الحج عن المؤمنين إن صارت لهم دولتهم ومكّن الله لهم في الأرض:

"الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{41}" الحج.

إذن كل صور الاحتجاج والضغط على الحاكم إن كان ظالماً أو مقصراً مشروعة ، إن لم تكن واجبة ومفروضة كفرض كفاية ، شريطة أن نمتنع عن العنف بكل أشكاله ، وإن كانت الأساليب المستجدة لم تعرفها البشرية في عصور الإسلام الأولى ولم تذكر فيما أمرنا به ، فإننا في الوقت نفسه لم نُنْهَ عنها ولم تحرّم علينا ، والأصل في الأمور الإباحة إلا ما يثبت تحريمه بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، وبالتالي لا وجاهة لرأي من يطلب من الأمة أن تطيع حكامها في كل شيء عدلوا أم جاروا ، وتحرّم عليها عصيانهم في أي شيء ، حتى لو أمروها بالسكوت على المنكر والظلم.

والخروج المحرم هو الانتفاضة المسلحة المهاجمة والمبادرة للقتال ، أما القتال دفاعاً عن النفس والأهل والمال والعرض فمشروع ، ومن يقتل فيه فهو شهيد عند الله ، وهو ليس خروجاً على الحاكم حتى لو كان مقاومة لعدوان جنده ورجال أمنه ، فالدفاع عن النفس حق لكل إنسان كائناً من كان المعتدي عليه ، والحاكم ببيعة أو بلا بيعة لا يحل له أن يعتدي هو أو رجاله على أموال أو أعراض أو دماء أحد من رعيته ، ولو كان عدوان الحاكم على المحكوم تم بوسائل قانونية وبحكم قضائي ، لوجبت الطاعة دون مقاومة عنيفة ، بل تكون المقاومة سلمية باللسان وغيره كالعصيان المدني ، حتى رفع الظلم واستعادة الحق. لقد أباح الله للمظلوم أن يفضح الظالم بكل وسائل التعبير غير العنيفة ، قال تعالى:

"لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً{148}" النساء.

أما مع ما نراه من النظام من بطش غير منضبط ، لا بقانون ولا بشرع ولا بأخلاق ، بطش المجرمين القتلة واللصوص وقطاع الطرق ، فإن لنا الحق في الدفاع عن أنفسنا بكل الوسائل ، حتى نموت في سبيله أو نرد العدوان ، والمخابرات والشبيحة والفرقة الرابعة وغيرها لا يتصرفون كما تتصرف الدول ، التي يكون لتصرفاتها ضوابط ، مهما كان في هذه الضوابط من ثغرات ، لكن هؤلاء يحاربون الثورة بوحشية همجية ، غابت عنها كل معايير الانضباط والتقيد بنظام أو قانون شأن الحكومات والدول ، وهو ما من أجله ، ودرءاً للفتنة ، حرم الله الخروج بالسلاح على

الحكام وإن جاروا، طالما أن الوضع ما يزال وضع سلطة منظمة تتصرف ضمن قانون معلن، حتى لو كان قانون طوارىء، فقانون الطوارىء رغم سمعته السيئة يبقى قانوناً، لكن ما يُمارس في سورية اليوم، هو الوحشية، والفوضى، واللانظام، المنفلت من أية ضوابط أخلاقية أو قانونية، وهذا يُفقد النظام أي حق على الناس أن يطيعوه، كما عليهم طاعة أميرهم حتى لو أخذ مالهم وضرب ظهرهم، ولهم وقتها أن يقاوموا ظلمه بالوسائل السلمية، كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان أنه قال: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرِّ فَجَاءَ اللّهِ بِخَيْرٍ. فَنَحْنُ فِيهِ. فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَم» قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ» قَالَ قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذلِكَ؟ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ. وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ. وَأُخِذَ مَالُكَ. فَاسْمَعْ وَأَطِعْ».

الدفاع المشروع

الأمر بالطاعة وتحريم العنف، هدفه درء الفتنة والفوضى والهرج، والخروج بالسلاح محرم من أجل ذلك، للمحافظة على السلم الأهلي. لكن النظام عندنا هو الذي ينشر الفتنة والفوضى والهرج، لذا لم يعد النظام نظاماً، بل هو عصابة من المفسدين في الأرض، لنا الحق في دفعهم وحماية أنفسنا وأهلنا وأموالنا وأعراضنا، وعلينا أن نتعاون في ذلك حتى لا يستفرد هؤلاء القتلة بأي منا لضعفه، أي لا ننتظر حتى يكون العدوان علينا شخصياً، فالأمة كيان واحد يدافع عن نفسه، لكنه يتقيد بالضوابط الشرعية والأخلاقية، فلا يمارس أعمال الانتقام، التي يتم فيها الاعتداء على من لم يمارس العدوان بنفسه ضد الأمة، حتى لو كان المعتدي أباه أو أخاه، أي ننتقم إن قدرنا من القاتل نفسه، ومن المغتصب نفسه، لا من زوجته أو ابنه أو أخيه أو قريبه، نعم في الحروب بين الأمم يمكن أخذ الثأر من أي محارب ينتمي للعدو، حتى لو لم يكن هو الذي ارتكب العدوان فقتل واغتصب وسلب.. أما في الصراع بين مكونات الأمة الواحدة، فلا يمكن أن تزر وازرة وزر أخرى، بل تبقى المسؤولية فردية، وكل معتدٍ مسؤول عن عدوانه، يحمل الإثم، ويتحمل العقوبة والانتقام وحده، كما هو الحال في كل الأعمال

الإجرامية التي يرتكبها الجناة ، فيحملون مسؤولية ما اقترفوه ، ولا ننتقم من غير الذي اعتدى ، كما كان حال العرب ، عندما كانوا يأخذون ثأرهم من أبناء عشيرة القاتل أو أسرته ، فهذه عودة إلى الجاهلية ، ستدخل البلاد والعباد في فتنة عظيمة ، يفرح لها أعداؤنا ، وتحقق لهم ما يتمنونه من تفتيت لبلادنا وأمتنا.

لقد مدح الله المؤمنين بأنهم إذا بُغِيَ عليهم أي أعتدي عليهم ظلماً "هم ينتصرون" أي يدفعون الظلم عن أنفسهم ، وينتصفون ، وينتقمون ممن ظلمهم ، ولا محاسبة لهم على ما ارتكبوه من انتقام وانتصاف ، طالما أنهم لم يعتدوا ، أي لم يكونوا هم البادئين ، ولم يعتدوا بأكثر مما اعتدي عليهم ، ولم ينتقموا ممن لم يعتد عليهم بنفسه أو يشارك في العدوان عليهم.. قال تعالى:

"وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ{39} وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{40} وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{42} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{43}" الشورى.

وواضح لنا في هذه الآيات الكريمة التشجيع على المغفرة والعفو ، مع إباحة الانتصار في وجه الظلم والبغي ، وعدم ذم الانتصار للنفس والأهل ، بل اعتباره مما يمتدح الله به المؤمنين. وابن منظور في لسان العرب يفسر كلمة انتصر بما يلي: "وانْتَصَر الرجل إذا امتنع من ظالِمِه. قال الأَزهري: يكون الانْتصَار من الظالم الانْتِصاف والانْتِقام ، وانْتَصَر منه: انْتَقَم". لكن في جهاد كالذي نحن فيه في سورية ، علينا أن نضبط أنفسنا ، ونحتسب قتلانا وجرحانا ومصابينا عند الله ، لأنهم إنما أوذوا في سبيله ، ولا نسعى وراء الثأر والانتقام من غير المجرمين الذين اعتدوا علينا ، هذا إن لم نستطع الصبر دون الانتصار لأنفسنا ، والصبر خير وأحب إلى الله ، وأعظم أثراً في حسم الصراع لصالحنا.

نعم ندافع حتى الموت ، لكن نصبر بعد ذلك ، كي لا تتحول الثورة إلى ثارات تغلب عليها الطائفية ، إلا إن تمكنا من الانتقام من الشخص الذي اعتدى علينا بذاته ، لا من أهله أو من

عشيرته أو بني طائفته. هذا مادام الصراع قائماً ، فإن حسم لصالحنا إن شاء الله ، عفونا كما أمرنا الله ، وأجرنا عليه ، وتعويضنا في الدنيا على الدولة والأمة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: «مَن قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهو شَهيد». وقال فيما رواه أحمد في مسنده: «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد». وروى النسائي في سننه الصغرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ».

كما روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم . فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي ؟ قَالَ: «فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ: «قَاتِلْهُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ».

وهذه الأحاديث تثبت شرعية الدفاع عن النفس والمال والعرض ، بالسلاح وبدونه ، وإذا قتل المدافع فهو شهيد ، وله أن يقتل من يعتدي عليه أو على عرضه أو على ماله كائناً من كان ، وليس في ذلك شبهة الخروج المحرم ، ولا الاقتتال الذي يكون القاتل فيه والمقتول في النار.

فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ. أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا. وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا. أَلاَ ، فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِه». قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرْضٌ ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَلْيَدُقَّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ. ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ. اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ ، أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ ، فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي ؟ قَالَ: «يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ. وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

وهذا الحديث يدعو من أكره على المشاركة في الفتنة ، ولم يجرؤ على الانشقاق ، لأن يكون سلبياً ، فلا يرتكب أية جرائم ، ولو أدى ذلك لاستشهاده ، فهو شهيد ، ويبوء قاتله بإثمهما معاً ، كما باء ابن آدم الأول الذي قتل أخاه.

بدأنا ثورتنا سلمية ، وكنا نتمنى أن تبقى سلمية ، ولم نكن نتوقع أنها ستنجح في الإطاحة الجذرية بالنظام ، وعلينا رغم الشهداء الكثيرين أن نرضى بمثل الذي كنا سنرضى به لو بقيت ثورتنا سلمية ، نعم نرضى به رغم الشهداء والجرحى والمغتصبات والمشردين ، لأننا نريد أن نحقن الدماء ، وننهي معاناة الأهالي ، ونعود للبناء والإصلاح ، ونحتسب كل ما أصابنا في سبيل الله ، دون أن يسقط حق المتضررين بالتعويضات السخية من مال دولتنا الجديدة. إن التغلب على عواطفنا ، والتصرف بحكمة وصبر ورحمة وغفران ، سيمكننا من تحقيق ما يمكن تحقيقه في هذه المرحلة ، وسيمكننا من حقن الدماء وتوفير المعاناة على ملايين السوريين. علينا أن نتذكر أننا لسنا نحن والنظام وحدنا نتصارع ، بل هنالك قوى دولية عديدة تتدخل ، لتحقيق مآربها ومصالحها ، وهي لن تسمح لنا أن ننتصر الانتصار الكامل الذي نتمناه. دماء الشهداء لم تذهب هدراً ، إذ لولاها لما قامت ثورة في سورية ، فجرائم النظام وحمقه دفعا السوريين إلى الثورة ، وهذا كسب عظيم ما كنا نحلم به قبل سنتين. اقطفوا ثمار انتصارات ثورتنا بالتفاوض والمساومة ، مع استمرار الضغط على النظام لانتزاع أقصى ما يمكن انتزاعه منه من تنازلات ، واحرصوا على بقاء الدولة ، وعلى عودة أهالينا إلى الحياة الطبيعية ، ولا تستعجلوا تحقيق الأهداف التي تنادون بها ، فحتى الثورة الفرنسية احتاجت إلى مئة عام من الكفاح بعدها لتتحقق أهدافها تحققاً فعلياً في الواقع. اقبلوا بالحلول التي تنهي هذه الأزمة وتريح السوريين مما يعانون منه الآن ، فليسوا كلهم مثلكم يسعون إلى الجنة من طريق الموت في سبيل الله ، بل هم يريدون العيش الكريم والسعي إلى الجنة بالطرق الأخرى التي شرعها الله لهم.. هم يريدون الحياة لأنفسهم ولأولادهم ، وهذا مطلب مشروع ، وفطرة فطر الله الناس عليها ، فلا تضيعوا فرصة استعادتهم للحياة الطبيعية ، وبعد كل ما جرى فإن الساعة لن ترجع إلى الوراء ، ولن يقبل هذا الشعب الحر أن يعود إلى الذل والهوان ، فلا تخافوا إن جنحتم إلى السلم أن تندموا بعدها ، ولا تظنوا أن الثورة في مصر وتونس واليمن كانت مخطئة عندما رضيت بالتغيير الجزئي ، فإن ما حصلوا عليه من دون الدماء التي أريقت عندنا ، والملايين التي تشردت أو جاعت أو عانت برد الشتاء القارس بلا جذوة نار تدفئهم ، لهو كسب رائع وكبير ، وما هو إلا جيل

واحد وتتحقق لهم أكثر أحلامهم إن شاء الله. اذكروا دوماً دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم لنا إلى الرفق في كل أمورنا ، وتنفيره لنا من العنف في كل صوره.. روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ. وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ. وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».

إهدار الدم حكم قضائي

ويبقى موضوع مُهْدَر الدم الذي على أساسه يستبيح بعضهم قتل من يعتبره مرتدًا أو مشركاً. صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دماء ستة من المشركين عندما فتح مكة ، وأمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة ، لكن هناك اعتباران ضد التصور الشائع ، أن من يرتكب ما يستحق عليه القتل يحل لأي مسلم أن يقتله ، ولا لوم عليه إلا من حيث كونه متعدياً على صلاحيات السلطان ، ما لم يكن مكلفاً من قبله بقتله:

الأول: أن هؤلاء الستة كانوا من قوم عدو ، كما لو كانوا إسرائيليين في زماننا ، وهُزموا ، فعفى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كل أهل مكة إلا ستة رجال ، كانوا شديدي الإيذاء للمسلمين.

والثاني: أن ذلك لم يكن من الرسول صلى الله عليه وسلم فتوى دينية ، إنما كان حكماً قضائياً ، بوصفه صلى الله عليه وسلم الحاكم الأعلى ، وبوصف هؤلاء الستة رعايا تحت سلطته ، بعد أن فُتحت مكة وصارت جزءاً من دولة المسلمين. الجرائم التي استحق أولئك أن تهدر دماؤهم بسببها جرائم قديمة وسابقة على فتح مكة ، ومع ذلك لم يصدر النبي صلى الله عليه وسلم حكمه عليهم إلا عندما صاروا من رعايا دولته وضمن سلطته كحاكم ، لا كمُشرّعٍ ومُفْتٍ ، لذا يجب أن لا يُهْدَرَ دم أحد من الناس ، إلا بحكم قضائي يستوفي شروط القضاء العادل النزيه ، فمن المعروف لكل متفقه أن المسلم مأمور إن هو رأى مسلماً آخر يزني أن يستر عليه وأن ينصحه ، لا أن يقتله ، مع أن الحكم الذي عليه الفقهاء ، هو قتل الثيب الزاني . هؤلاء الفقهاء أنفسهم ، لا يرون استحقاق الثيب الزاني للقتل بمجرد الزنا ، بل لا بد له من المجاهرة والإقرار المتكرر ، أو أن يرتكب الفاحشة أمام أربعة رجال يرون الفعل الجنسي بأعينهم ، ثم يشهدون عليه أمام القاضي. الدم البشري محرم ولا يهدر بفتوى عالم أو طالب علم ، إنما إهداره يعني حكماً بالإعدام لا يحق لأحد إصداره إلا القاضي المختص.

ولنتأمل ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: "قال سعدُ بنُ عبادةَ: يا رسولَ اللهِ! لو وجدتُ مع أهلي رجلًا، لم أمسُّه حتى آتيَ بأربعةِ شهداءَ؟ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم " نعم" قال: كلا، والذي بعثك بالحقِّ ! إن كنتُ لأُعاجِلُه بالسيفِ قبلَ ذلك. قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم "اسمعوا إلى ما يقولُ سيِّدكم. إنه لغيورٌ. وأنا أغيَرُ منه. واللهُ أغيَرُ مني"، وفي رواية عند أبي داود صححها الألباني يقول سعد: "يا رسولَ اللهِ، الرَّجلُ يجدُ معَ امرأتِه رجلًا أيقتلُه؟ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "لا"، قال سَعدٌ: بلَى! والَّذي أكرمَك بالحقِّ. قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: اسمَعوا إلى ما يقولُ سيِّدُكم".

الفصل العاشر

الحـدود

الإسلام هو الحل

يملأ الرعب من الحكم الإسلامي قلوب نسبة كبيرة من الناس في مجتمعاتنا ، ليسوا كلهم من غير المسلمين ، بل منهم طائفة كبيرة من المسلمين الذين ألفوا الحياة على النمط الغربي ، ومنهم من كفر بالله والرسول فبقي ملحداً ، أو تبنى الماركسية أو الليبرالية أو العلمانية وآمن بها إيمان المؤمن بدينه ، فملأت الفراغ الذي خلّفه الإسلام في نفسه ، وشرح بالكفر صدراً. الرعب شديد من أن يحكم بلادنا أناس ملتزمون بالإسلام التزاماً يفرض عليهم تطبيق الشريعة ، ومن قلة الفقه ، يتصور أكثر الناس أن تطبيق الشريعة ليس أكثر من قطع يد السارق ، وجلد الزاني ، وقتل المرتد ، وبقية العقوبات التي نص عليها القرآن أو الحديث.

عندما يطرح شعار الإسلام هو الحل يتبادر إلى الذهن لدى أغلب الناس ، بما فيهم نسبة كبيرة جداً من الإسلاميين ، تطبيق الحدود الشرعية.

لما خضعت بلداننا للاستعمار الأوربي الذي عطل الحكم بالشريعة الإسلامية ، ألغى الحدود ، وفرض عقوبات وضعية عوضاً عنها ، لكنه في الغالب لم يجرؤ على تعطيل الشريعة في الأحوال الشخصية ، أي الزواج والطلاق والميراث. وهكذا كانت الحدود أبرز الغائبين ، وكان الناس يعتبرون مجرد تعطيلها تعطيلاً للشريعة الإسلامية.

ومما زاد الأمر تعقيداً ، تعرّض الأحكام الإسلامية المسماة الحدود للهجوم الذي يصل إلى الهزء والسخرية ، والهجوم يستثير الدفاع ، والعائدون لدينهم يدافعون عن كل ما فيه ، لذا أخذت الحدود اهتماماً كبيراً على حساب باقي جوانب الشريعة.

ولكن أليس الإسلام هو الحل ؟

ألا يزع الله بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن كما قال عثمان رضي الله عنه ؟

ألن تنصلح أحوالنا عندما نقطع يد السارق ، فنرهب كل من تسول له نفسه أن يسرق ، فيصبح المجتمع آمناً ؟

ألن تنصلح عندما نرجم الزاني الذي سبق له الزواج ، ونجلد الزاني الذي لم يتزوج ، فيخاف الباقون من هاتين العقوبتين القاسيتين ، ويمتنع الناس عن الزنى ، ويصبح المجتمع طاهراً عفيفاً ؟

ألن تنصلح عندما نقتل المرتد الذي يصر على الردة ، أو الذي يقول في الإسلام قولاً يراه علماء الدين كفراً ولا يتراجع عنه ، وبذلك يكبت كل جاحد أو حاقد على الإسلام ، فلا يجرؤ على المجاهرة بأي رأي كُفري ، ناهيك عن المجاهرة بالإلحاد الكامل ؟ ألن يحمي ذلك عقائد الناس من المضللين والمفسدين ؟

ألن تنصلح أحوالنا عندما نمنع الخمور والمخدرات ونجلد كل من يشربها ، فيتخلص المجتمع من الإدمان ، ويسلم من كثير من الخطايا ، طالما منعنا أم الخبائث أن تصل إلى أيدي الناس ، ومنعناهم أن يقتربوا منها ؟

يتخيل الإسلامي هذه الحدود وقد طبقت تطبيقاً جاداً ، ويتخيل كيف سيصبح المجتمع آمناً وعفيفاً ومؤمناً بالعقيدة الصحيحة التي تنجيه في الدنيا والآخرة. ويعلن الإسلامي بأعلى صوته: (الإسلام هو الحل) ، ويجاهد بالسياسة أو القتال ليعجل تحقق هذا الحلم ، ويزداد خوف الناس من أن يحكمهم إسلاميون ، يرون الإسلام مختصراً بالحدود الشرعية ، حلاً لكل مشكلاتنا. فترى الإسلاميين مكروهين في مجتمعاتهم ، حتى من كثير ممن يصلون ويصومون ويحجون ويتصدقون ، والمثال مصر التي تسنّم فيها الإسلاميون وظائف في الدولة بإذن الجيش ولم يتمتعوا بأية سلطة حقيقية ، وكانت الخطة الجاهزة للتطبيق في كل المجتمعات الإسلامية ، هي ترك الإسلاميين يحكمون ظاهرياً وهم مكبلون بعوامل وقوى كثيرة ، وبذل أقصى جهد لإعاقتهم ، فيكون إخفاقهم مؤكداً ، وينفض الناس عنهم ، ويفقدون الأصوات الكثيرة التي كانوا يحصلون عليها.

يتوهم الإسلاميون أن كل من أعطاهم صوته في الانتخابات ، إنما صوت لهم كي يطبقوا الشريعة في البلاد ، وليتحقق حلمهم الذي يظنونه حلم كل من يصوت لهم. شعوبنا ملت من الحكام والموظفين الذين ينهبون مال الأمة ، ويستأثرون بأغلب خيراتها ، فيحرمون الشعوب

منها ، فتبقى فقيرة ومتخلفة في كثير من النواحي.. ملوا ويئسوا من كل السياسيين ، ولم يبق لديهم أمل إلا أن يحكمهم الملتزمون دينياً ، الذين يخافون الله ويحافظون على مال الأمة ، وينصحون الأمة ، ولا يغشونها ، ولا يخونونها ، ولا يسخرون مقدراتها لأنفسهم ، ولا يؤثرون أقرباءهم وجماعتهم بالوظائف والفرص. الشعوب المسلمة عندما تعطي أصواتها للإسلاميين تريد منهم أن يصلحوا لها دنياها قبل آخرتها. أن يخلصوها من الفقر والتخلف والمحسوبية والفساد والرشوة وظلم القوي للضعيف والمتنفذ لمن لا نفوذ له ، فيشعرون بالأمان في ظل حكام أمناء مخلصين عادلين. بعد إصلاح الدنيا قد يأتي هدف إصلاح الآخرة ، بفرض الحجاب على النساء والصلاة على الجميع وقتل المرتد وقطع يد السارق.

الذين يحلمون بتطبيق الحدود هم الإسلاميون وقليل ممن حولهم. لذا عندما يتورط الإسلاميون بحكم البلاد دون أن تكون بأيديهم سلطة حقيقية ، وبوجود من يحاربهم ويشوه صورتهم فإن الإخفاق حتمي ، وبذلك يزول ما يراه الآخرون وهماً عند عامة الناس ، أن الإسلاميين هم الأمل وعندهم الحل ، وعندها يعود الإسلاميون إلى حجمهم الحقيقي الذي يستحقونه برأي أعدائهم ، ولا يبقى لهم في الانتخابات الحرة النزيهة إلا أصواتهم وأصوات زوجاتهم وأقربائهم.. هذا ما وقع فيه إسلاميو مصر عندما رضوا أن يحملوا مسؤولية حكم البلاد دون أن يمتلكوا السلطة الحقيقية التي تجعلهم قادرين على إدارة البلاد بالطريقة التي يرونها ، وكان من غير الصعب على أعدائهم السياسيين أن يقودوهم إلى إخفاق محتم ، يكون فيه تحصينٌ للمجتمع من داء الثقة والأمل بالإسلاميين ، كما يتحصن الجسم الحي بالتطعيم ضد الأمراض.

الشعوب تفهم المعنى الحقيقي لشعار "الإسلام هو الحل" ربما أفضل مما يفهمه كثير من الإسلاميين الذين ينادون به. ليس الحل في تطبيق الحدود وحده ، وما تطبيق الحدود إلا جزئية من الحل ، لا تغني شيئاً إن غابت الجزئيات الباقية. الإسلاميون يرون إقامة الدولة الإسلامية فريضة دينية لا يكمل إيمانهم وإسلامهم ما لم يجاهدوا في سبيلها. أي أصبحت إسلامية الدولة هي الغاية والهدف الذي إن تحقق ، نكون قد أنجزنا ما علينا إنجازه ، وفعلنا ما يريد ربنا منا أن نفعله ، وتوارت أي خطط وبرامج لإصلاح دنيا الناس إلى المرتبة الثانية ، هذا إن فكروا بها أصلاً. لم يُعدّوا أنفسهم الإعداد اللازم للقيام بشؤون الأمة الدنيوية إذا ما حكموا ، ولم تتحقق لهم السلطة الحقيقية لتنفيذ أية برامج وخطط لديهم للنهوض بالأمة معاشياً.

وتبقى إيران استثناء حيث كانت ثورتهم على الشاه ثورة جذرية وكان التغيير في نظام الحكم عميقاً وحقيقياً ، وهذا لا يعني الإعجاب بما فعلوه بعد أن آلت السلطة كلها إليهم.

الاستثناء الثاني هي المملكة العربية السعودية ، التي تأسست على ثورة قبل مئتي عام ، مكنت القائمين بها من امتلاك السلطة الحقيقية ، ولم يعد أحد من الناس في البلاد قادراً على جرهم إلى الفشل والإخفاق.

الإسلام هو الحل ، لا بمعنى تطبيق الحدود ، بل بمعنى أن يتولى إدارة البلاد ، المخلصون للوطن ، الحريصون عليه ، والأمناء الذين لا يعتبرون الوصول إلى السلطة مغنماً ، يريدون الاستفادة منها سريعاً في تكوين الثروات من حلال أو حرام. أن يتولاها أناس لا يحاربون الإسلام ، ويعتقلون الناس ويحققون معهم ، لأنهم يحرصون على صلاة الفجر جماعة في المسجد ، ولا ينزعون الحجاب من فوق رؤوس المسلمات اللواتي رغبن بالستر والعفة. أناس لا يستغلون المناصب لإيصال أبنائهم وأقربائهم وأصحابهم إلى مناصب لا يستحقونها ، بينما هنالك في الأمة من هو أقدر منهم عليها. أناس لا يكون الحكم القضائي في ظلهم لصالح من يدفع للقاضي أكثر من خصمه. أناس لا ينزعون ملكية البيت من صاحبه ، ويملّكونه لمستأجره. أي أناس لا يظلم عندهم أحد. أناس لايسرقون ولا يخونون ولا يظلمون ، تتحول الدولة تحت حكمهم إلى جنة أرضية ، ويبقى لدى الشعوب الوقت والطاقة والحرية ، للسعي من أجل جنة الله في الحياة الآخرة. هذا ما تريده الشعوب من الإسلاميين ، ولا يهم كثيراً بعد ذلك إن قطعنا يد السارق أو سجناه بدل قطعها. الإسلام هو الحل بهذا المعنى الذي تفهمه الشعوب ، التي تعيش المشكلة ، وتعلم الحل الحقيقي لها ، وهو بالتأكيد ليس مجرد تطبيق الحدود.

حزب العدالة والتنمية في تركيا نجح لتمتعه بهذه الصفات ، في النهوض بالبلاد ومضاعفة الدخل القومي عدة أضعاف في أعوام قليلة ، فزادت شعبيتهم ، وزادت الأصوات التي يحصلون عليها بالانتخابات والاستفتاءات ، مع أنهم لم يطبقوا في القوانين شيئاً من الإسلام ، لا الحدود ، ولا حتى الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث ، ومازال عندهم للمومسات نقابة ، وعليهن دفع ضريبة من دخلهن للدولة ، مثل أي تاجر أو صانع. الخمر يباع ويشرب ، والإباحية الجنسية مصرح بها ، بل والتهجم على عقيدة الأمة كما هو الحال في أوربة. هذا لا يعني التقليل من أهمية تحكيم الشريعة في جميع نواحي الحياة ، إنما يساعدنا على إدراك أهميتها إلى جانب

غيرها من جوانب الإسلام بحيث لا تطغى على غيرها لا من حيث الأهمية ولا من حيث الآمال الموضوعة عليها.

في القرآن الكريم آيات تلفت الانتباه ، إنها قوله تعالى:

"أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ{39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ{40} الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{41}" الحج.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، طيلة وجودهم في مكة قبل هجرتهم إلى المدينة ، مأمورين بكفّ أيديهم عن المشركين أمر وجوب من حيث الامتناع عن الهجوم ، وأمر استحباب وترغيب بالصبر من حيث الامتناع عن ممارسة حقهم في الدفاع عن أنفسهم. ثم هاجروا إلى المدينة المنورة ومكن الله لهم ، فصارت لهم دولة ، وأذن الله لهم بالقتال بنوعيه الدفاعي والهجومي ، وربنا يذكرنا بمبررات القتال ، بأن هؤلاء الصحابة اضطرهم المشركون للخروج من ديارهم بغير حق ، لمجرد أنهم قالوا ربنا الله. ثم يبين لنا أهمية القتال ودفع الله الناس بعضهم ببعض ، للحفاظ على حرية الاعتقاد والتعبد ، ولحماية المساجد ، والصوامع ، والبِيَع ، والصلوات ، ليذكر فيها اسم الله حسب المنهج الإسلامي ، وبحسب المنهج المسيحي ، وبحسب المنهج اليهودي ، وليتحقق في الأرض مبدأ لا إكراه في الدين. لكن ربنا الذي بيّن أهمية الجهاد في سبيله ، أراد أن يبين لنا الأولويات ، إذ قد يظن المسلمون أن أهم واجباتهم بعد أن مكن الله لهم ، وصارت لهم دولة ، أن يقاتلوا في سبيل الله ، فقال:

"الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{41}" الحج.

أي الأولوية عندما يصير للمؤمنين دولة ، ويُمكّن لهم في الأرض ، هي لإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر.

ومع أن الحكم بما أنزل الله ، والجهاد في سبيله ، من أعظم فرائض الإسلام التي تجب بمجرد أن يُمَكّن الله للمؤمنين وتصبح لهم دولة ، إلا أنهما يأتيان في مرتبة متأخرة عن الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أي الأولوية هي لما يجعل الإسلام هو الحل ، ولكن من منظور شعوبنا المقهورة المظلومة ، ولما يربي النفوس على التقوى والأمانة والعدل والعفاف والتراحم والنصيحة لله وللرسول ولأئمة المسلمين وعامتهم ، تلك الأخلاق التي تجعل من حكم الإسلاميين لأي مجتمع حلاً لمشاكله ، حتى قبل أن تطبق الشريعة وتقام الحدود.

قبل الهجرة كان المفروض على المؤمنين في مكة هو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، أي التدين الفردي ، لكن بعد نشوء الدولة الإسلامية في المدينة ، فرض الله عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بما أنهم قد مكن الله لهم ، وصار بمقدورهم أن يقوموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خوف. قال تعالى عن الفترة ما قبل الهجرة:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً{77}" النساء.

العقوبات والحدود والإلزامات جزء من "الإسلام هو الحل"، لكنها الجزء الأصغر والثانوي ، وليست الجزء الأكبر والأولي. قطع يد السارق وحده لا يصنع مجتمعاً أميناً ، إلا إن تربى الناس على تقوى الله ، فأقاموا الصلاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وإلا إن تم القضاء على الفقر والبطالة ، وسادت العدالة الاجتماعية ، وبذلك يكون الناس أمناء أمانة نابعة من أنفسهم ، تجعلهم يتعففون عن ما ليس لهم ، ويبقى حد قطع يد السارق ، ليصيب بالعجز والإعاقة ، شخصاً لم ينتفع بكل التربويات الإيمانية ، ولم يشبعه الحلال الذي ضمن له الحد الأدنى للعيش بكرامة ، بل غلبت عليه شقوته واتباعه لشهوته.. فيكون قطع يده إضعافاً كبيراً لقدرته على أن يسرق من جديد ، كما يكون ترهيباً له كلما راودته نفسه أن يسرق مرة أخرى ، وترهيباً لغيره إن أصابه من الشيطان نزغ وفكر أن يسرق.. وهكذا يزع الله بالقرآن أغلب أفراد المجتمع ، ويزع بالسلطان القلة الشاذة ، التي لم تنفع فيها التربية الإيمانية وحدها ، فيصبح المجتمع أميناً حقاً.

وحد الزنا ليس هو الضمانة لعفة المجتمع وطهره ، إنما هو ضمان لنقاء هوائه ، بحيث لا يستعلن أحد بالفاحشة ، فيكون مثالاً وقدوة لغيره ، فيكثر الزنا. عفة المجتمع هي ثمرة إقام الصلاة ، التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وثمرة ذكر الله - وأهمه القرآن الكريم - الذي هو أكبر نهياً عن الفحشاء والمنكر..

"اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ{45}" العنكبوت.

وعفة المجتمع ثمرة إعانة الشباب على الزواج ، الذي هو أغض للبصر وأحصن للفرج. أما حد الزنا فيضمن طهر المجتمع من حيث هو بيئة تربوية للصغير والكبير ، فلا يجد المؤمن العفيف مشقة في التزامه بالعفة التي يريدها الله منا. ومرة أخرى يزع الله بالسلطان أولئك الذين لم تنجح التربية الإيمانية في جعلهم لا يقعون في الفاحشة ، ولم تنجح في جعلهم يستترون بمعاصيهم.

الحدود مهمة جداً ، وهي تكمل وتعوض ما عجزت التربية الإيمانية عن تحقيقه بمفردها ، لكنها بالتأكيد تأتي بالمرتبة الثانية بعد تربية الناس على تقوى الله ، وإعانتهم على الاستغناء عن ما حرم الله ، وعلى الاكتفاء بالحلال ، الذي إن توفر للناس ، لا يكونوا في حاجة حقيقية للوقوع في الحرام ، وهنا يكون الدور للزكاة وما ترمز إليه من جميع أنواع العمل التطوعي ، الموجه للصالح العام في المجتمع ، لوجه الله تعالى ، لا لهدف تجاري أو مالي ، بل هي المتاجرة مع الخالق الرازق الكريم سبحانه وتعالى.

والآن لابد لنا من أن نتكلم على الحدود حداً حداً.

حـد الـردة

سبق الكلام عنه بالتفصيل في الفصل الرابع المعنون: "حرية الاعتقاد في النظام السياسي الإسلامي" ، وخلاصة القول فيه: إن الأصل في الإسلام هو اللا إكراه في الدين على كل المستويات ، وليس هنالك حد للردة مفروض في القرآن الكريم مثل حد السرقة والزنا والقذف والحرابة ، إنما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم لأسباب محدودة ، في زمان ومكان معينين. أمر به ليحمي المؤمنين من التشكيك الذي يسببه دخول بعض الكفار في الإسلام ثم

الخروج منه بقصد فتنة المؤمنين ، وأمر به ليطبق على المشركين العرب في جزيرة العرب حصراً ، لأن الله أمر أن يقاتلهم المسلمون حتى يؤمنوا أو يرحلوا ، وأن لا تقبل منهم الجزية ، بل يكرهون على الإسلام إكراهاً ، إن هم أبَوا دخوله اختياراً ، وذلك كي يكون للإسلام دولة قوية نقية في حدود جزيرة العرب ، تحميه من التحريف الذي أصاب الأديان التي لم يكن لها دولة تحميها كالنصرانية مثلاً. المشركون العرب يُقتلون إن أبَوا الدخول في الإسلام ، ويقتلون إن ارتدوا عنه ، لأنهم لم يكن لهم خيار إلا أن يرحلوا عن جزيرة العرب إن أرادوا البقاء على شركهم. أي قتل المرتد ليس حكماً يطبق على كل مرتد عن الإسلام في كل زمان ومكان ، بل كان حكماً خاصاً بظروف معينة وبقوم معينين في أرض معينة ، أما الآن فلا حد للردة ولا إكراه في الدين أبداً.

حـد الحـرابة

هو العقوبات التي فرضها الله بحق من يقطع الطريق ، وينهب ويعتدي على الأعراض ، ويزهق الأرواح بقوة السلاح. أي الذين يتمردون على المجتمع ، ويشكلون مافيات وعصابات إجرامية مسلحة. قال تعالى:

"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ{32} إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{33} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{34}" المائدة.

هؤلاء المفسدون في الأرض ، الخارجون على الأمة بالسلاح فساداً وإجراماً ، وليس لأسباب سياسية ، جزاء من نقدر عليه منهم ونعتقله ، أن يُقتل ، أو يُصلب ، أو تُقطّع يده ورجله من خلاف ، أي اليد اليمنى مع الرجل اليسرى ، وبالعكس ، أو يُنفى من البلاد ، والحبس نوع من النفي. أما من يُعلن التوبة منهم ، ويكف يده عن الناس ، قبل أن تتمكن الدولة من

اعتقاله، فتسقط في حقه كل ملاحقة، وكل عقوبة دنيوية، على ما سرق أو قتل أو انتهك من أعراض، ويبقى حسابه على الله. وإسقاط الملاحقة والمطالبة عن هؤلاء يهدف إلى تشجيعهم على التوبة من محاربتهم للمجتمع بالسلاح، لأن القضاء على العصبات المسلحة من أصعب التحديات التي تواجهها الدول، فكان لابد من إغرائهم كي ينتهوا عما وقعوا فيه، ويعودوا إلى المجتمع يعيشون كما يعيش الصالحون. وقد فصلت في هذا الموضوع في الفصل التاسع: "الإصلاح وتغيير منكر الحاكمين"، أرجو الرجوع إليه تلافياً للتكرار.

حد السرقة

قال تعالى: "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{38} فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{39}" المائدة.

إن وجوب قطع يد السارق من الأحكام الثابتة في القرآن الكريم، ومن الأحكام التي حاول كثير من المفكرين إيجاد المبررات لتعطيلها في هذا العصر، بسبب الاستحياء بها أمام الشعوب المتطورة، التي تعتبر قطع يد السارق عملاً لا إنسانياً، وينادون بإصلاح السارق وتأهيله ليعود مواطناً صالحاً. لا مجال للتراجع عن هذا الحد من أجل رضا أحد واستحسانه. مع التنبيه أنه لا يطبق في حالة الغُلول، أي السرقة من المال العام. نحن متعبدون بهذا الحد وعلى يقين أن الخير فيه، لأنه شرع أحكم الحاكمين.

حد الزنا والجرائم الجنسية الأخرى

جلد لا رجم

بُعث محمد صلى الله عليه وسلم في قومه، لكنه كان مرسلاً إلى البشرية كلها، بآخر الكتب المنزلة من رب العالمين، وكانت حكمة الله أن يتنزل القرآن عليه منجماً، لما يتيحه ذلك من تدرج في التشريع، يراعي طبيعة البشر وما يعتادون عليه أو يدمنون عليه، كما كان في نزول بضع آيات كل حين، تثبيت لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم حيث تَواصُلُه مع السماء لا ينقطع. وعندما صار للإسلام دولة في المدينة المنورة، وترأسها النبي صلى الله عليه وسلم،

نشأت الحاجة إلى الحكم بين الناس فيما يختصمون فيه ، والحكم عليهم فيما يقعون فيه من جرائم.

ولما كانت دعوة الرسل كلهم واحدة ، والإسلام دين الله منذ أن خلق آدم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أوحي إليه القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، - والمُهَيْمِنُ الشاهدُ على الشيء ، القائمُ عليه - أي القرآن الكريم جاء مصدقاً للتوراة والإنجيل الذين بين يديه ، وقائماً عليهما ، يصحح ما شاء الله أن يصحح ، مما طرأ عليهما من تحريف ، وله سلطة نسخ بعض ما جاء فيهما من أحكام ، بينما جاء الإنجيل مصدقاً للتوراة وما قبلها من الكتاب ، لكنه لم يكن مهيمناً عليها ، لذا لم ينسخ الإنجيل شيئاً مما فيها من أحكام. وقد شهد ربنا للتوراة التي كانت عند يهود المدينة المنورة ، زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنها فيها حكم الله ، وأمر أهل الكتاب أن يحكّموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم على محمد صلى الله عليه وسلم من آيات تخاطبهم ، وتصحح لهم أخطاءهم ، وتنسخ بعض أحكامهم ، وتحل لهم بعض الأشياء ، مثل طعام المؤمنين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم:

"الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ{5}" المائدة.

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{68} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{69}" المائدة.

لذلك كله ، كان محمد صلى الله عليه وسلم يحكم بحكم الله في التوراة ، فيما لم ينزل عليه شيء يخالفه أو ينسخه ، ومما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن عمته الرُّبَيِّع ، أخت أنس بن النضر رضي الله عنه ، كَسَرت ثَنِيّة جارية ، أي فتاة من أهل المدينة ، أي كسرت لها أحد أسنانها التي تكون في مقدم الفم اثنان في الأعلى وإثنان

في الأسفل ، فأصر أهلها على القصاص ، وحكم لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالقصاص ، أي أن تُكسر ثنية الرُّبَيّع كما كسرت ثنية الفتاة ، لأن الله كتب على بني إسرائيل في التوراة ، إن العين بالعين والسن بالسن. لكن أخاها أنس بن النضر ، أقسم أن لا تكسر ثنية أخته الرُّبَيّع ، فألهم الله أهل الفتاة أن يقبلوا التعويض ويتنازلوا عن القصاص.

قال البخاري في صحيحه: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ الرُّبَيّعَ عمَّتَه كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جاريةٍ ، فطلَبوا إليها العفوَ فأبَوا ، فعرَضوا الأَرْشَ فأبَوا ، فأتَوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأبَوا إلا القِصاصَ ، فأمَر رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالقِصاصِ ، فقال أنسُ بنُ النَّضرِ: يا رسولَ اللهِ ، أتُكسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيّعِ ؟ لا والذي بعَثك بالحقِّ لا تُكسَرُ ثَنِيَّتُها ، فقال رسولُ صلى الله عليه وسلم: "يا أنسُ ، كتابُ اللهِ القِصاصُ" فرضي القومُ فعفَوا ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ من عبادِ اللهِ مَن لو أقسَم على اللهِ لأبَرَّه". والرسول صلى الله عليه وسلم يشير إلى قوله تعالى:

"وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{43} إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ{44} وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{45}" المائدة.

وفي السنين الأولى من دولة المدينة المنورة ، لم يكن قد نزل شيء في حكم الزانية والزاني ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بحكم الله الذي في التوراة ، أي رجم الزانية والزاني إن كانا محصنين بالزواج ، وقتل من عمل عمل قوم لوط ، وقتل من جامع بهيمة.

جاء في الكتاب المقدس - العهد القديم سفر التثنية / الإصحاح العشرين: (9 كل انسان سبّ أباه او أمه فإنه يقتل. قد سبّ أباه أو أمه. دمه عليه. 10 وإذا زنى رجل

مع امرأة فإذا زنى مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزاني والزانية. 11 وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه. إنهما يقتلان كلاهما. دمهما عليهما. 12 وإذا اضطجع رجل مع كنّته فإنهما يقتلان كلاهما. قد فعلا فاحشة. دمهما عليهما. 13 وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجسا. إنهما يقتلان. دمهما عليهما. 14 وإذا اتخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة. بالنار يحرقونه وإياهما لكي لا يكون رذيلة بينكم. 15 وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة ، فانه يقتل والبهيمة تميتونها. 16 وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة. إنهما يقتلان. دمهما عليهما. 17 وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت امه ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار. يقطعان أمام أعين بني شعبهما. قد كشف عورة أخته. يحمل ذنبه. 18 وإذا اضطجع رجل مع امرأة طامث وكشف عورتها عرّى ينبوعها وكشفت هي ينبوع دمها يقطعان كلاهما من شعبهما. 19 عورة أخت أمك أو أخت أبيك لا تكشف إنه قد عرّى قريبته. يحملان ذنبهما. 20 وإذا اضطجع رجل مع امرأة عمه فقد كشف عورة عمه. يحملان ذنبهما. يموتان عقيمين. 21 وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة. قد كشف عورة أخيه. يكونان عقيمين. 22 فتحفظون جميع فرائضي وجميع أحكامي وتعملونها لكي لا تقذفكم الأرض التي أنا آت بكم إليها لتسكنوا فيها. 23 ولا تسلكون في رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم. لأنهم قد فعلوا كل هذه فكرهتهم. 24 وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها أرضا تفيض لبناً وعسلاً. أنا الرب إلهكم الذي ميّزكم من الشعوب..... 27 وإذا كان في رجل أو امرأة جانّ أو تابعة فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه. دمه عليه).

وفي الإصحاح الثاني والعشرين: (13 إذا اتخذ رجل امرأة وحين دخل عليها أبغضها ، 14 ونسب إليها أسباب كلام ، وأشاع عنها اسما ردياً ، وقال: هذه المرأة اتخذتها ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة ، 15 يأخذ الفتاة أبوها وأمها ويخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة إلى الباب ، 16 ويقول أبو الفتاة للشيوخ: أعطيت هذا الرجل

ابنتي زوجة فأبغضها ، 17 وها هو قد جعل أسباب كلام قائلاً: لم أجد لبنتك عذرة. وهذه علامة عذرة ابنتي. ويبسطان الثوب أمام شيوخ المدينة ، 18 فيأخذ شيوخ تلك المدينة الرجل ويؤدبونه ، 19 ويغرمونه بمئة من الفضة ، ويعطونها لأبي الفتاة ، لأنه أشاع اسما ردياً عن عذراء من إسرائيل. فتكون له زوجة. لا يقدر أن يطلقها كل أيامه ، 20 ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً ، لم توجد عذرة للفتاة ، 21 يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت ، لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها. فتنزع الشر من وسطك ، 22 إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل ، يقتل الاثنان: الرجل المضطجع مع المرأة ، والمرأة. فتنزع الشر من إسرائيل ، 23 إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها ، 24 فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا. الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه. فتنزع الشر من وسطك ، 25 ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها ، يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده ، 26 وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئا. ليس على الفتاة خطية للموت ، بل كما يقوم رجل على صاحبه ويقتله قتلا. هكذا هذا الأمر ، 27 إنه في الحقل وجدها ، فصرخت الفتاة المخطوبة فلم يكن من يخلصها ، 28 إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة ، فأمسكها واضطجع معها ، فوجدا ، 29 يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة ، وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلها. لا يقدر أن يطلقها كل أيامه).

لكن الله تعالى أخبرنا عن الصالحين من بني إسرائيل أنهم قالوا لله:

"وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ{156} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{157} قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{158} وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ{159}" الأعراف.

كانت الأحكام المفروضة في التوراة قاسية، ولعلها كانت الأنسب لبني إسرائيل الذين قست قلوبهم، فكانت كالحجارة أو أشد قسوة. لكن رحمة الله وسعت كل شيء، وعندما صارت الأحكام عامة على الناس كافة، خفف الله من صرامتها، ونسخها بأحكام قرآنية أرحم منها.

يبدو أن نسخ الأحكام التوراتية الخاصة بالزنا بدأ بتعليقها بما يخص النساء، إذ أمر الله بحبس من يثبت عليها الزنى بأربعة شهداء، حتى يتوفاها الموت، أو يجعل الله لها سبيلاً، قال تعالى: "وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً{15}" النساء.

كما نسخ الحكم التوراتي بقتل مرتكب اللواط، وخففه إلى عقوبة تعزيرية، يقدرها المجتمع، سماها إيذاءً، ليكون حدها الأدنى التوبيخ والتثريب، وأعلاها ما لا يصل حد الزنى من العذاب. قال تعالى مباشرة بعد أمره بإمساك اللواتي تثبت عليهن جريمة الزنا في البيوت:

"وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً{16}" النساء.

ومال كثيرون لتفسير كلمة "اللذان" أنها تعني الرجل والمرأة اللذين يقعان في الزنا، وهذا لا يستقيم مع الحكم المبين في الآية الأولى، إنما أصاب الذين فهموا "اللذان" أنها تعني الذكرين اللذين يمارسان اللواط.

والنقلة كبيرة بين قتل الفاعل والمفعول به، ومجرد الإيذاء بالكلام أو باليد أو غير ذلك. وهذا ما ينسجم مع تعريف الفقه الإسلامي للزنا الذي يوجب الحد إن ثبت، بأنه إيلاج ذكر الرجل في فرج المرأة، أي مهبلها بلغة الطب، حيث يُبتغى الولد، وكل شيء سوى ذلك محرم، يستوجب العقوبة التعزيرية إن ثبت، ولا يستوجب الحد الشرعي. أي كما هو الحكم عند أبي

حنيفة ، لو أتى رجل امرأة لا تحل له في دبرها ، فإنه يعاقب ، لكن بما دون حد الزنا ، لأن عمله ، وإن كان من الزنا المحرم ، لكنه ليس الزنا الموجب للحد الشرعي ، مثلما أن النظر وإدامته لعورة امرأة لا تحل له هو من الزنا ، لكنه زنا لا يستوجب الحد الشرعي. أي تكون عقوبة الزنا على أشدها إن كان في الموضع الذي فيه يمكن أن تختلط الأنساب ، إضافة إلى الفارق بين شعور المرأة بالانتهاك أو الحِمَّة في الاتصال ، عندما يكون الجماع في المهبل المخلوق لهذا الأمر والمزود بالنهايات العصبية الغزيرة المرتبطة بمراكز اللذة في المخ ، بخلاف ما يمكن أن تشعر به فيما لو كان الجماع في غير المهبل. إن قمة العدوان على المرأة في حال الإكراه تكون في اغتصابها مهبلياً ، وقمة العطاء من المرأة للرجل في حال الرضا تكون عندما تمكّنه من جماعها في المهبل. لذا لا تستغربوا أن تكون عقوبة الرجلين الشاذين اللذين يعملان عمل قوم لوط هي الإيذاء ، لدفعهما إلى التوبة والتوقف عن فعل ذلك ، أما المرأتان الشاذتان اللتان تمارسان الجنس المثلي ، فليس لهما ذكر مفرد في القرآن الكريم ، وهذا لا يعني إباحة ما تفعلانه ، بل يمكن إيذاؤهما كما يؤذى الرجلان الشاذان ، حتى تتوبا عن فعلهما ، ويمكن عندها فهم "اللذان" في الآية السابقة أنها تعني من يفعلان الفاحشة ، وهما من الجنس نفسه ، سواء كانا رجلين أو كانتا امرأتين ، مثلما أتى الكثير من الفرائض والتحريمات على الرجال والنساء ، والأمر فيها بصيغة المذكر ، دون تكراره بصيغة المؤنث ، وهذا من بلاغة القرآن الكريم وإيجازه ، وتركه الكثير من التفصيلات لنا ، لنجتهد في فهمها ونستنبطها.

ثم نزلت سورة النور ، ونزل الحكم القرآني للزنا ، وأمر ربنا بجلد الزانية والزاني مئة جلدة ، على مرأى ومسمع المؤمنين ، وأن لا تأخذنا بهما رأفة ، ونحن أمة التراحم والتذلل فيما بيننا ، وعزتنا وشدتنا لا تكون إلا على أعدائنا من الكفار.

قال تعالى:"سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{1} الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ{2}" النور.

والملفت للنظر أنه سبحانه وتعالى مهد للآية الكريمة ، التي تأمر بجلد الزاني والزانية ، هكذا بإطلاق دون تخصيص بالمحصن وغير المحصن ، بقوله تعالى عن سورة النور: **"سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"**. حيث التأكيد على أن هذه

السورة ، وما فرضه الله علينا فيها ، إنما هي منزلة من عنده ، ومفروضة علينا منه ، وآياتها بينات ، علينا أن لا نختلف فيها ، وهي بينات بذاتها ، لا تحتاج لتوضيحها إلى ما ليس منها ، وهذا استباق من الحكيم الخبير لما وقعت فيه الأمة ، من قصر حكم الجلد على الزانيين غير المحصنين بالزواج قبل الزنا.

لو رجعنا إلى آيات التوراة التي أوردتها قبل قليل ، نجد فيها اختلاف العقوبة بين الزاني والزانية المحصنين والزاني أو الزانية غير المحصنين بالزواج ، لكن آية سورة النور تساوي في عقوبة الزنا بين من أحصن ومن لم يحصن ، لأنها تقول الزانية والزاني دون أي تخصيص.

ومن الناحية النفسية نقول ، إن الدافع الأهم للزنا ، وبخاصة الذي يتم برضا الطرفين ، إنما هي اللذة والشهوة ، فجعل الله العقوبة عذاباً ، أي إيلاماً لا رحمة فيه ، أي لا يكون جلداً شكلياً لمجرد تنفيذ الأمر ، كما ضرب أيوب عليه السلام زوجته التي سبق أن أقسم أن يضربها مئة عصاة ، فأذن له ربنا أن يضربها بمئة عود رفيع (ضغثاً) ، وكان ذلك كافياً لأن يَبَرّ بيمينه ولا يحنث ، لكن ربنا ينهانا عن الرحمة عندما نعذب الزناة ، كي لا نظن أن هنالك مخرج لهم بالجلد الشكلي.

العقوبة عذاب يقوم بما يسميه علم النفس التعزيز السلبيNegative Reinforcement لفعل الزنا ، أي خلق الدافع النفسي لعدم فعله مرة أخرى ، ولما كان المجتمع كله مستهدفاً بهذا التعزيز ، أمر ربنا ألا يكون التعذيب سراً ، بل يشهده عدد غير قليل من المؤمنين ، يحدثون من لم يشهده عنه وعن شدته ، ليكون بذلك تعزيزاً سلبياً لسلوك الزنا في نفوس باقي المومنين الذين لم يقعوا في الفاحشة ولم يمسهم العذاب ، وهو ما يسمى في علم النفس التعزيز بالإنابة Vicarious Reinforcement، وهذا تعزيز سلبي للاستقداء الممكن حدوثه عندما يشاع أن فلاناً أو فلانة قد زنيا.

إلى هنا قد تبدو الأمور منطقية ولا مشكلة فيها ، لكن للأسف حدثت المشكلة والتبست الأمور.

هنا أيضاً القطعي مقدم على الظني

وردت أحاديث صحيحة عند البخاري ومسلم وغيرهما ، تقول إنه كانت هناك آية في القرآن تأمر برجم الزاني والزانية المحصنين ، وأنها نسخت تلاوتها لكن حكمها باقٍ. فلنستعرض أهم هذه الروايات.

روى البخاري في صحيحه ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، صعد المنبر ذات مرة وقال: (أما بعدُ فإني قائلٌ لكم مَقالةً قد قُدِّرَ لي أن أقولها ، لا أدري لعلها بَينَ يَدَي أجَلي ، فمن عَقلَها ووَعاها فلْيُحدِّث بها حيثُ انتهتْ به راحِلَتُه ، ومن خَشيَ أن لا يَعقلها فلا أُحِلُّ أن يكذِبَ عليَّ ، إنَّ الله بَعَثَ محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزلَ عليه الكتاب ، فكان مما أنزلَ الله آية الرَّجم ، فقرأناها وعَقَلناها ووَعَيناها ، رَجَمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورَجَمنا بعدَه ، فأخْشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقولَ قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتابِ الله ، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله ، والرّجم في كتاب الله حق على من زَنى إذا أُحصِنَ من الرجال والنساءِ ، إذا قامتِ البيّنة ، أو كان الحبلُ ، أو الاعتراف).

كما روى البخاري أيضاً في صحيحه ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ ، أنه قَالَ: (كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْمُرُ بِالْمُتْعَةِ. وَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَنْهَى عَنْهَا. قَالَ: فَذَكَرْتُ ذلِكَ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ. فَقَالَ: عَلَى يَدَيَّ دَارَ الْحَدِيثُ. تَمَتَّعْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم . فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ قَالَ: إِنَّ اللّهَ كَانَ يُحِلُّ لِرَسُولِهِ مَا شَاءَ بِمَا شَاءَ. وَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ مَنَازِلَهُ. فَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ. كَمَا أَمَرَكُمُ اللّهُ. وَأَبِتُّوا نِكَاحَ هذِهِ النِّسَاءِ. فَلَنْ أُوتَى بِرَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ ، إِلاَّ رَجَمْتُهُ بِالْحِجَارَةِ).

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما ، عن الشَّيباني أنه قال: (سَأَلْتُ عَبْدَ اللّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى: هَلْ رَجَمَ رَسُولُ اللّهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ قُلْتُ: بَعْدَ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةُ النُّورِ أَمْ قَبْلَهَا ؟ قَالَ: لاَ أَدْرِي).

وروى مسلم في صحيحه ، أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: إنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ. قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا ، فَرَجَمَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى ، إنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ ، أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللّهِ ، فَيَضِلُّوا فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللّهُ ، وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إذَا أَحْصَنَ ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، إذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ ، أَوْ الاعْتِرَافُ).

وروى أحمد في مسنده ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زر قال: (قال لي أبي بن كعب: كائن تقرأ سورة الأحزاب أو كائن تعدها ؟ قال: قلت له: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: "قط ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ، والله عليم حكيم") وروى أيضاً عن كثير بن الصلت قال: كان ابن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف ، فمروا على هذه الآية فقال زيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة» فقال عمر: «لما أنزلت هذه أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أكتبنيها» قال شعبة: «فكأنه كره ذلك ، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد ، وإن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم». كما روى عن زيدِ بنِ ثابتٍ ، قالَ: أشهدُ لسمعتُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: «الشيخُ والشيخةُ إذ زنَيا فارجموهُمَا البتةَ».

وروى مالك في موطّئه: (عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيدٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيّبِ ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: لَمَّا صَدَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ مِنًى ، أَنَاخَ بِالأَبْطَحِ ثُمَّ كَوَّمَ كَوْمَةً بَطْحَاءَ. ثُمَّ طَرَحَ عَلَيْهَا رِدَاءَهُ وَاسْتَلْقَى. ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاء فَقَالَ: اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي. وَضَعُفَتْ قُوَّتِي. وَانْتَشَرَتْ رَعِيَّتِي. فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيّعٍ وَلاَ مُفَرِّطٍ. ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَخَطَبَ النَّاسَ ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ سُنَّتْ لَكُمُ السُّنَنُ. وَفُرِضَتْ لَكُمُ الْفَرَائِضُ. وَتُرِكْتُمْ

عَلَى الْوَاضِحَةِ. إلاَّ أَنْ تَضِلُّوا بِالنَّاسِ يَمِيناً وَشِمَالاً. وَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى. ثُمَّ قَالَ: إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلِكُوا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ. أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ لاَ نَجِدُ حَدَّيْنِ فِي كِتَابِ الله. فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ الله ، وَرَجَمْنَا. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى ، لَكَتَبْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ) فَإِنَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا. قَالَ مَالِكٌ: قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: قَالَ سَعِيدُ بْن الْمُسَيّبِ: فَمَا انْسَلَخَ ذُو الْحِجَّةِ حَتَّى قُتِل عُمَرَ. رَحِمَهُ الله. قَالَ يَحْيَى: سَمِعْتُ مَالِكاً يَقُولُ: قَوْلُهُ الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ ، يَعْنِي الثَّيِّبَ وَالثَّيِّبَةَ. فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ).

وروى ابن حبان في صحيحه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: (قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ ، حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: مَا أَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ. أَلاَ وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ إِذَا أُحْصِنَ الرَّجُلُ وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ ، أَوْ كَانَ حَمْلٌ أَوِ اعْتِرَافٌ. وَقَدْ قَرَأْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ) رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ).

إذن هنالك تعارض بين الآية الكريمة من سورة النور التي تأمر بجلد الزانية والزاني دون تخصيص ، بل بعبارة تشمل كل زانٍ وكل زانية ، والأحاديث التي لا خلاف على صحة أغلبها. وكان منهج أغلب الفقهاء في مثل هذه الحالة أن يجمعوا في الأخذ بين الآية والأحاديث ، ويفترضوا أن الأحاديث نسخت صفة العموم التي في الآية ، واستثنت الزانية والزاني المحصنين من حكم الجلد ، وبقي حكم الزناة المحصنين كما كان في التوراة ، وكما كان في الإسلام قبل سورة النور.

إن ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في مستوى القرآن الكريم من حيث حجيته على الفرائض والمحرمات ، لأنه كان صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، وكان مسدداً بالوحي. هذا على الأقل رأي الكثير من الفقهاء ، لذا كان من المنطقي ، أن يتبنوا المخرج من هذا التعارض ، الذي يتم فيه الأخذ بالآية الكريمة والأحاديث الصحيحة معاً.

في القرون السابقة ، وفي عصر عزة المسلمين ، لم يكد يعترض على رجم الزاني والزانية المحصنين أحد من المسلمين ، باستثناء الخوارج والمعتزلة. وقد سجل التاريخ رجم الزناة في

حالات قليلة العدد ، ذلك أن الزنا لا يثبت إلا بالإصرار على الاعتراف أمام القاضي ، أو بشهادة أربعة رجال مسلمين عدول ، يشهدون أنهم رأوا واقعة الزنا ، وتيقنوا من وقوع الزنا برؤيتهم عضو الرجل داخل عضو المرأة.

في عصرنا الحالي ، وفي حال الذل التي نعيشها ، تجرأ الكثيرون على وصف الإسلام بأنه دين لا إنساني ، لأنه يرجم الزاني والزانية ، حتى لو زنيا بالتراضي ، وحتى لو لم يكونا متزوجين عندما زنيا ، طالما سبق لهما الزواج. وفي عصر الحرية الفردية ، يكفي أن يكون فعل الزنا غير ضار بالآخرين ، وليس فيه إكراه ، ولم يقع مع قاصر لا يعتد بموافقته ، ليكون قانونياً ، لا يستحق من فعله أية عقوبة. واستغل أعداء الشريعة الإسلامية حكم الرجم لتنفير الناس ، وتخويفهم من تحكيم الشريعة ، وبخاصة ، بوجود أفلام لعمليات رجم لزناة ، تمت على يد إسلاميين سيطروا على مناطق معينة ، وأرادوا تطبيق الشريعة فيها ، أو أفلام درامية ، تصور ما يحدث في إيران مثلاً ، تصويراً يحرك المشاعر ، ويستثير الرحمة تجاه المرجومين ، والكراهية لمن يرجمونهم دون رحمة.

وكما للإسلام أعداء ، فإنه له أولياء وأصدقاء ومحبون ، وقد انبرى هؤلاء للدفاع عنه ، ونفي الأوصاف المجحفة بحقه ، فتعددت طرق دفاعهم عنه وتنوعت. منهم من لا تأخذه في دين الله لومة لائم ، أعلنها بلا مجاملة لأحد: إن شرع الله واجب التطبيق ، سواء أعجبنا أم لم يعجبنا ، طالما فرضه رب العالمين ، الذي يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ، ولا مكان لرأي أو اجتهاد ، يهدفان إلى نيل استحسان ورضى من لا يؤمنون بهذا الدين ، ويستكبرون عن طاعة رب العالمين. ومنهم من قلل من أهمية رجم الزاني المحصن ، وبرر قسوة هذا الحكم بأنها من أجل تطهير المجتمع المسلم من جريمة الزنا ، وبأن الإسلام اشترط لرجم الزاني المحصن شروطاً ، لم تكد تتوافر في يوم من الأيام ، وهي أن يشهد أربعة رجال مسلمين عدول ، أي محترمين ، أنهم رأوا مجتمعين ، عملية الاتصال الجنسي الذي كان بين المتزانيين ، وكل من استتر وأنكر تهمة الزنا لن تناله عقوبة الرجم ولا ما هو أقل منها. ومنهم من بحث عما يثبت به أن أحاديث الرجم ليست صحيحة ، وشكك بها حتى لو كانت في صحيح البخاري ، وذلك حرصاً منه على دين الله أن ينفر البشر منه ويفتنوا عنه ، لكن هنالك من كان أكثر جرأة وجذرية ، فشكك في كل الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتهم رواة حديثه بوضع

الأحاديث على لسانه ، لتحقيق مآربهم ، وإدخال قناعاتهم في دين الله ، فلم يعترف هذا الفريق أن شيئاً مما وصلنا صحيح يقيناً إلا القرآن الكريم ، لذا تَسَمّى هؤلاء بالقرآنيين.

بإنكار أية مصداقية للأحاديث الشريفة ، توفرت لهم مساحة واسعة للمناورة وللاجتهاد واستنتاج أحكام فقهية لم يُسبقوا إليها. وبالمقابل تعرضوا للهجوم الذي اعتدنا عليه كلما اختلفنا ، وهو التشكيك بالنوايا ، واتهام إيمان بعضنا بعضاً. ومع ذلك ، كان الرافضون لمنهج القرآنيين ودعوتهم إلى الاقتصار على القرآن الكريم باعتباره المرجع الوحيد الذي نحن على يقين من صحته ووصوله إلينا غير محرف ، كانوا على حق عندما قالوا: إن القرآنيين بدعواهم تلك ، يحرمون الأمة من الانتفاع بسنة رسول الله ، التي هي على أقل اعتبار مُبيّنة وشارحة ومفسرة للقرآن الكريم. وبما أن القرآن حمال أوجه كما قال علي كرم الله وجهه ، فإن دعوى القرآنيين ، تفتح المجال للأهواء والاختلاف ، أكثر مما تقضي على الاختلاف وتخلص الدين من أهواء الأقدمين التي ينسبون إليها كل ما لا يعجبهم في دين الأمة الحالي ، أي فهمها للإسلام وطريقة التزامها به.

لكن ما الحل لهذه المشكلة؟ هل ربنا يريد منا رجم الزناة المحصنين ونحن الذين ضعفنا أمام إنكار غير المسلمين وغير المؤمنين له وملنا إلى مداهنتهم استرضاء لهم ، وطمعاً في اعترافهم لشريعتنا أنها فعلاً صالحة لكل زمان ومكان؟. أم هل فعلاً خفف ربنا حكمه على الزناة جميعهم المحصن وغير المحصن ، وقصره على الجلد مئة جلدة حقيقية ، بحضور طائفة من المؤمنين؟.

نحن لا نريد أن يُكَذَّب الله ورسوله ، ولا أن يُفتن الناس عن دين الله ، لكننا في الوقت ذاته لن نقبل أي تغيير في دين الله مهما كانت النية وراءه حسنة. نقبل التغيير والتجديد في دين الأمة بمعنى مراجعة فهمنا لدين الله وتصحيح ما أسأنا الفهم فيه ، وبمعنى أخذنا من الإسلام الأوجه التي تنسجم مع عصرنا دون أن نحيد عن الثوابت.

المبادىء

ولابد لنا كي نحل هذا الإشكال الحل السليم من أن نقرر المبادىء التالية:

أولاً: لن يستقيم لنا أمر ديننا إن قصرنا استمدادنا الأحكام الشرعية على القرآن الكريم من دون السنة الصحيحة ، فالقرآن الكريم كتاب موجز يجمع عقائد الإسلام ، ومنهاجه ، وشرائعه ، بعبارة جميلة رائعة ، ميسرة للذكر والحفظ ، والتلاوة ، والتجويد ، والتغني ، لكن لا يمكن فهم كل ما فيه فهماً يهدي إلى العمل الصائب بكل ما أمر به الله ونهى عنه فيه ، ما لم ننتفع بالكم الرائع ، والثروة العظيمة ، من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره ، التي جمعها علماء الحديث ، وأنفقوا أعمارهم كي يميزوا الصحيح منها عن الضعيف والموضوع.

قال تعالى مخاطباً محمداً صلى الله عليه وسلم:

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{44} أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ{45}" النحل.

الذكر منزل من عند الله على قلب رسوله ليبينه للناس ، لا لمجرد إبلاغه لهم وإيصاله إليهم ، بل البلاغ المبين الذي يزيل كل غموض والتباس:

"قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{54}" النور.

صحيح أن رسالة ربنا إلينا يجمعها كتابه الكريم ، الذي تكفل هو بحفظه من أي تحريف أو اندثار ، فوصلنا كما نزل حرفاً بحرف ، لكننا ما لم نستفد مما علمنا إياه محمد صلى الله عليه وسلم من تبيين لما جاء فيه ، فسوف نفقد كثيراً من التفصيلات المهمة ، وقد نقع في استنتاجات غير سليمة ، إن اعتمدنا على الفهم اللغوي لآياته وحده.

ثانياً: القرآن الكريم قطعي الثبوت ، أي نحن على يقين ، أن ما فيه ، هو حقاً منزل من رب العالمين ، ومنقول لنا بدقة ، والأحاديث الشريفة الصحيحة ظنية الثبوت ، أي من المحتمل أن فيها رغم أنها صحيحة حسب معايير علماء الحديث ، ما هو غير صحيح ، أو غير دقيق ، أو حتى موضوع.

وربنا يريد منا مجموعة من الأساسيات ، نؤمن بها ، ونعملها بدقة ، ونجتهد في معرفة تفصيلات كثيرة مطلوبة منا ، لكنها تأتي في المرتبة الثانية بعد الأساسيات.

فالله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به ، لمن مات على الشرك ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، رغم أنه مات على معصية ، فمغفرتها تبقى محتملة ومرجوة منه ، رغم أن العبد مات قبل أن يتوب منها. قال تعالى:

"إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً{48}" النساء.

وقال أيضاً: "إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً{31}" النساء.

وهو جل في علاه ، عندما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ، المصدق لما بين يديه من الكتاب ، والمهيمن عليه ، ما يصحح به كبائر انحرافات أهل الكتاب ، ترك الكثير منها دون تصحيح ، لأنه عفا عنها ، بمعنى أنه لم يذكرها ، وعفا عنها بمعنى ، أنه لن يؤاخذهم بها ، إن هم أطاعوه في الأساسيات. قال تعالى:

"وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ{14}" المائدة.

لقد كان التوحيد الخالص ، أهم ما تَحرّف عند النصارى ، فجاء القرآن الكريم ليعيدهم إليه ، ويعفو عن كثير من الجزئيات ، فيتركها كما هي دون تبيين ، ويقبل منهم عبادتهم له بها ، رغم ما فيها من أخطاء ، طالما هم أطاعوه في توحيدهم له ، وكانت هذه الأخطاء نتيجة اختلاف اجتهاداتهم ورواياتهم ، لذلك أمرنا ربنا أن نركز معهم على لا إله إلا الله ، ندعوهم إلى العودة إليها ، دون اهتمام بالتفصيلات والجزئيات. قال تعالى:

"إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{62} فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ{63} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{64}" آل عمران.

وبنفس المنطق والمنهجية ، نحن متعبدون بما بينه الله في كتابه ، وبما ورد عن محمد صلى الله عليه وسلم وروداً شبه يقيني ، في ما يسميه العلماء الحديث المتَواتَر ، كما نحن متعبدون بما وصلنا من أحاديث صحيحة ، رغم وجود احتمال ضئيل للخطأ فيها ، فالعبرة بالأغلب ، ونحن متعبدون بما فيه صلاحنا في الدنيا ، وبما تتجلى فيه طاعتنا لله ، وإسلامنا القياد له ، ووجود نسبة ضئيلة من الخطأ ، فيما وصلنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقلل من الفائدة الدنيوية للتشريعات المستمدة منه ، دون أن يؤثر في تحقق طاعتنا وإسلامنا لله ، طالما أننا نعتقد أن هذا ما يريده الله منا. أي حتى عندما نصل إلى حكم شرعي غير صحيح ، إما لخطأ في الفهم والاستنباط ، أو لأننا أخذنا بحديث غلب على ظننا أنه صحيح ، وكان في الحقيقة غير دقيق أو موضوعاً ومختلقاً ، فإن ربنا يثيبنا على التزامنا بهذا الحكم الشرعي غير الصحيح ، لأن تقوانا له تظهر في التزامنا ، لا في حقيقة الحكم الشرعي. قال تعالى بعد أن بين أحكاماً تتعلق بالذبائح المطلوبة في الحج:

"لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ{37}" الحج.

وقال محمد صلى الله عليه وسلم: "سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عملُه". قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: "ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة". رواه البخاري في صحيحه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لن ينجي أحداً منكم عمله". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة ، سددوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا". رواه البخاري في صحيحه.

ثالثاً: إن القبول باحتمال قليل للخطأ لابد منه حتى في العلوم الطبية ، وأغلب العلوم ، سواء منها الإنسانية أو الطبيعية. إننا عندما نجري دراسة علمية لنحدد سبب مرض ما ، أو فائدة علاج مكتشف ، من خلال الاستقراء ، يبقى لدينا احتمال أن تكون النتائج التي وصلنا إليها ليست بسبب وجود علاقة حقيقية بين العوامل التي ندرسها ، بل كانت بسبب المصادفة البحتة ، وهذا الاحتمال لا يمكن نفيه نفياً قاطعاً ، في الغالبية العظمى من الدراسات والتجارب

العلمية ، لذلك تواضع العلماء على قبول أية نتيجة يقل احتمال خطئها ، واحتمال كونها مجرد مصادفة ، عن خمسة بالمئة. وكذلك الحديث الشريف الصحيح ، نقبله ونتعامل معه ، على أنه صحيح ، ونتقرب إلى الله بالعمل به ، ونحن نعلم أن هنالك احتمال ضئيل ، أن لا يكون صحيحاً ، ولكن هذا ما نستطيعه من سبل التأكد والتوثق ، وهذا هو السبيل الوحيد كي لا يضيع تراث النبي صلى الله عليه وسلم دون أن ننتفع به ، فنحن مثلاً إذا طبقنا مئة حديث صحيح قد يكون بينها واحد أو أكثر غير صحيح من حيث دقة النقل ، وربما من حيث كون الكلام كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو كلام غيره. نحن هنا نشك في يقينية الأحاديث الشريفة الصحيحة ككل ، فهي كلها صحيحة ، ونتعامل معها على أنها صحيحة ، لكننا لا نستبعد أن يكون منها ما هو غير صحيح. وهذا أمر تميزت به أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أعجبت كثيراً بأجدادنا ، عندما وصفوا الحديث الصحيح غير المتواتر بالظني الثبوت ، بينما آيات القرآن الكريم قطعية الثبوت. هم تماماً كالعلماء المعاصرين الذين لا يجزمون بشيء توصلوا إليه بالاستقراء ، الذي هو أداة العلم المنطقية الأولى.

منهج أمتنا علمي ، سواء في إيمانها بعقيدة الإسلام ، أو استنباطها الأحكام الشرعية من النصوص ، لكننا في هذا العصر نشأنا ونحن نقول: إن صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، أصح كتابين بعد كتاب الله ، ونتفاجأ كثيراً إن سمعنا أحدهم يقول: ليس كل ما في الصحيح صحيحاً. هذا ليس أمراً مبتدعاً ففقهاؤنا وعلماء الحديث القدامى ، لم يقل أحد منهم إن كل ما في الصحيح صحيح صحة قطعية كصحة القرآن الكريم ، لكنهم قلما أعادوا تقييم حديث جاء في الصحيحين ، بل في معظم الأحيان يتقبلون أحاديث صحيحي البخاري ومسلم بالتسليم أنها صحيحة ، دون أن يعتبروها قطعية الثبوت ، إلا ما هو متواتر منها ، وهو قليل جداً على كل حال. كل ما في الصحيح أغلب الظن أنه صحيح ، لكن من الممكن ألا يكون صحيحاً أو لا يكون دقيقاً.

البديل عن أخذنا بغلبة الظن واعتبار ما غلب على ظننا أنه صحيح صحيحاً ، فنتقبله دون تشكك ، البديل هو ما اختاره الإخوة القرآنيون ، الذين تشككوا في الأحاديث كلها ، واكتفوا بكتاب الله تعالى يستنبطون منه أحكام الحلال والحرام ، وهو منهج غير موفق ، يتعارض مع الحقيقة القرآنية البيّنة ، وهي أن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم ، هي أن يبين للناس ما أنزل إليهم ، لا مجرد أن يبلغهم ما أنزل إليهم ، مع أن ربنا وصف آياته التي أنزلها على

جميع رسله بالبينات ، لكنه بيان لا يستغني عن تبيين الرسل لها ، وذلك لاختلاف العقول ، وتأثرها بالأهواء ، وتجنباً لسوء الفهم.

رابعاً: عندما تتعارض النصوص كيف نعمل؟ الجواب بالنسبة لآيات القرآن الكريم بسيط ، إن كان هنالك تعارض حقيقي وغير ناتج عن سوء فهمنا لها ، هو أن نعتبر التي نزلت لاحقة ، ناسخة للسابقة لها من حيث النزول ، أو مخصصة لها دون أن تنسخها ، أي أنها تحدد استثناء معيناً للمبدأ أو الحكم العام الذي جاء في الأولى ، تماماً كما بينت آية السيف استثناء المشركين في جزيرة العرب في عصر الرسالة من مبدأ لا إكراه في الدين.

الخلاف بين الفقهاء هو حول تعارض حديث صحيح دلالته قطعية واضحة مع آية كريمة محكمة دلالتها قطعية واضحة ، هل ينسخ الحديث الآية أو يخصصها ؟ أي هل صحيح ما رآه أكثر علمائنا السابقين أن الأحاديث الصحيحة التي تصر على رجم الزانية المحصنة ورجم الزاني المحصن حتى بعد نزول سورة النور بالحكم المطلق بجلد الزناة مئة جلدة لا غير ؟ الإجابة تكمن في أمرين اثنين ، أولهما أن آية كريمة لا تنسخها إلا آية كريمة مثلها أو خير منها كما قال تعالى:

"مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{106}" البقرة.

واضح أنه لا ينسخ ربنا آية إلا بآية ، وبالتالي لا يمكن أن ينسخ حديث مهما بلغت صحته آية كريمة محكمة.

والثاني أننا عندما تتعارض آية قرآنية محكمة ، دلالتها لا تلتبس على أحد ، مع حديث صحيح نقدم الآية على الحديث ، لا لأننا نقلل من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن شأن تعاليمه ، التي غطت جوانب من الإسلام لم ترد في القرآن ، نعم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم له قوة القرآن الكريم نفسها ، إن كان ثبوته ودقته كثبوت الآية ودقتها. لو كان صلى الله عليه وسلم بيننا وقال شيئاً ، فهو عندنا لا يقل ثبوتاً وإلزاماً عما جاء في القرآن الكريم ، لكننا لا نسمع منه مباشرة ، بل نحن نقرأ أحاديثه التي تناقلتها الأجيال مشافهة ، قبل أن تجمع في كتب ، وبالتالي لا يمكن أن نعتبرها في درجة ثبوت القرآن الكريم. نعم نعمل بها كما نعمل بالقرآن الكريم ، إلا إن تعارضت معه ، فالاعتبار يكون للقرآن ، الذي نحن متأكدون من ثبوته

ودقته، أكثر مما نحن متأكدون من ثبوت الأحاديث الصحيحة ودقتها، حتى لو كانت في البخاري ومسلم.

قد ينطوي هذا الأخذ بالآية الكريمة، وترك الحديث الصحيح الذي يعارضها، على مخاطرة أن نكون مخطئين، لكن هذه المخاطرة موجودة بدرجة أكبر، عندما نعمل بالحديث الصحيح على أنه ناسخ للآية، مع أنه دليل ظني الثبوت، إلا ما تواتر منه فصار أقرب إلى القطعي الثبوت. عندما نعمل بالسنة الصحيحة، نضمن أننا نعمل بأغلب ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، مما ليس بيناً ومحكماً في كتاب الله، ونتحمل نسبة ضئيلة من الخطأ، ونحن مطمئنون إلى أن ربنا يتقبل منا، مع وجود نسبة الخطأ الضئيلة، لأنه يكافؤنا على التقوى، التي تتجلى في طاعتنا له في كل ما غلب على ظننا أنه أمره.

الحديث الصحيح هو أغلب الظن صحيح، إلا إن هو عارض آية محكمة، فيعامل عندها كما لو كان غير صحيح، لا لأننا اكتشفنا فيه عيباً في سنده، بل عيبه الكبير أنه متناقض مع صريح القرآن، وهذه قرينة كافية تماماً لعدم الأخذ به، ونحن على ثقة أن ربنا سيتقبل منا أخذنا بالآية المحكمة، وتركنا لحديث صحيح تعارض معها، فهذا مبلغ علمنا البشري، ونحن نتقي الله ونطيعه بما توصلنا إليه من معرفة أوامره ونواهيه، ونحن على يقين، أنه بيّن كل شيء أرادنا أن نعمله أو نمتنع عنه بالكيفية التي أرادها، وما تركه لاستنباطنا، فسيحاسبنا بمقتضى ما وصل إليه اجتهادنا المخلص، للوصول إلى أوامره ونواهيه.

إن تركنا لرجم الزناة المحصنين، واكتفاءنا بجلدهم مئة جلدة بحضور طائفة من المؤمنين، ليس استرضاء للغرب أو الشرق أو لأعداء شريعتنا، إنما هو طاعة لله، وتقوى له، باتباع ما جاءنا منه واستنبطناه وفق منهج سليم، ولا يهم هنا أن يكون هنالك احتمال ضئيل أن نكون مخطئين في هذا الاجتهاد، بل الخطير، هو احتمال الخطأ الآخر، وهو أن نرجم الزاني المحصن والزانية المحصنة، مع أن ربنا خفف عنهما حكمه وعقوبته. الدماء والأعراض الأصل فيها أنها كلها حرام، إلا ما ثبت أنه حلال بالدليل القاطع، أو ما هو في حكم القاطع. الاحتياط يكون بأن نأخذ بالحكم الأخف، خشية أن نظلم، عندما نأخذ بالحكم الأشد ونحن مخطئون.

خامساً: هنالك قرائن قوية على أن الله خفف حكمه على الزناة المحصنين من الرجم إلى الجلد ، ومنها ما يلي:

في سورة النور وفي آية الجلد ، سمى الله هذا الجلد عذاباً: "... وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ{2}" النور.

وقد وردت الإشارة إلى هذا العذاب بحق المحصنات والمحصنين من المسلمين إن فعلوا فاحشة ثبت عليهم ارتكابها ، وذكر فيها نصف العذاب وضعف العذاب ودرء العذاب ، والموت حداً في الإسلام ليس عذاباً بل المسلم مأمور ، إذا قتل أن يحسن القتلة ، وأن لا يعذب ذبيحته. والموت لا يُنَصّف ولا يضاعف. قال تعالى مخاطباً أمهات المؤمنين:

"يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً{30}" الأحزاب.

وربنا هنا هدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه لو زنت إحداهن وتبين زناها ، فسيكون عليها من العذاب ضعفا ما على المؤمنات الأخريات ، لا لأنه كان المتوقع منهن الزنا فأراد الله إرهابهن كي لا يقعن فيه ، بل لأنه وعدهن بمضاعفة ثوابهن على كل عمل صالح يعملنه ، ومقتضى عدله أن يكون الغُنْم بالغُرْم ، وطالما ثوابهن مضاعف ، فكذلك عقابهن مضاعف. قال تعالى في الآية التالية لآية التهديد:

"وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً{31}" الأحزاب.

وما يخص موضوعنا هو أن الموت لا يضاعف ، فمن رُجم حتى الموت مرة ، استحال رجمه حتى الموت مرة أخرى.

وقال تعالى عن الإماء المؤمنات إن هن كن محصنات وزنين وتبين زناهن بالشهود الأربعة أو الإقرار المتكرر:

"وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ

بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{25}" النساء.

والسؤال إن كان على المحصنات الحرائر الرجم حتى الموت إن هن أتين بفاحشة مبيّنة ، كيف سنحدد نصف الموت ، لنوقعه بالأمَة المحصنة التي زنت ؟

ربنا هنا يقول من العذاب ، أي العذاب الذي حكم به في سورة النور.

وهنالك المرأة المحصنة التي يراها زوجها تزني ، ولم يتسنَّ له إحضار من يشهد على زناها ، فإنه يشهد عليها أربع شهادات منفصلات أنها زنت ، فإن هي ردت شهادته بأربع شهادات ، أنه كاذب وأنها لم تزن ، نجت من العذاب ، وإلا فيُقام عليها الحد بشهادات الزوج الأربع. قال تعالى:

"وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ{6} وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ{7} وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ{8} وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ{9}" النور.

ولو كان حكمها الرجم حتى الموت لقال ربنا ويدرأ عنها الموت أن تشهد... إلخ بل قال ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات.. إلخ. فربنا لم يُسَمِّ الموت عذاباً في القرآن أبداً ، بل ذكر الرجم معطوفاً على العذاب مما يفيد المغايرة ، قال تعالى في سورة يس:

"قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{18}" يس.

ونجد المغايرة بين الموت والعذاب واضحة في قوله تعالى:

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ{36} وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي

كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ{37}" فاطر.

صحيح أن الرجم حتى الموت يجمع ما بين العذاب والموت ، لكن كلمة العذاب لا تعبر عنهما مجتمعين ، بل العذاب هو ألم الرجم والموت هو الوفاة التي تنجم عن الرجم ، هما إذن شيئان مختلفان تماماً ، حيث الموت بحد ذاته لحظة ينتقل فيها الكائن من الحياة ، أما العذاب فلابد فيه من مرور الوقت وامتداده ، قال تعالى:

"يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{69}" الفرقان.

فالكافر هنا يخلد في العذاب خلوداً ، أي إن العذاب شيء مغاير للموت ولا يتعارض مع الخُلد.

قال تعالى مبيناً حرمة أن يَعْضِل الزوج زوجته ، أي يكارهها كي تفتدي نفسها منه ، بالتنازل عن بعض ما أعطاها من مهر ونحوه ، واستثنى ربنا الزوجة التي يثبت عليها الزنى ، فقد أباح الله للزوج أن يعضلها ، ولو كان حكمها الرجم حتى الموت ، لما كان لعضلها ومنعها من الزواج بغيره معنى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً{19}" النساء.

وقد ذكر العَضْل في آية أخرى واضح فيها أنه يعني المنع من الزواج ، قال تعالى:

"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{232}" البقرة.

قال ابن منظور في لسان العرب: "وعَضَلَ المرأَةَ عن الزوج: حَبَسها. وعَضَلَ الرَّجُلُ أَيِّمَه يَعْضُلها ويَعْضِلُها عَضْلاً وعضَّلها: مَنَعها الزَّوْج ظُلْماً ؛ قال الله تعالى: "فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن

يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ" نزلت في مَعْقِل بن يَسارٍ المُزَني وكان زَوَّج أُخْتَه قد طَلَّقها ، فلما انقضت عِدَّتُها خَطَبها ، فآلى أن لا يُزَوِّجه إياها ، ورَغِبتْ فيه أُخته فنزلت الآية" . وأما قوله تعالى:

"وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ"

فإن العَضْلَ في هذه الآية من الزوج لامرأته ، وهو أن يُضارَّها ولا يُحْسِن عِشْرَتها ليضْطَرَّها بذلك إلى الافتداء منه بمهرها الذي أمهرها ، سَمَّاه اللهُ تعالى عَضْلاً ،لأنه يَمْنعها حَقَّها من النفقة وحُسْن العِشْرة ، كما أن الولي إذا مَنع حُرْمته من التزويج ، فقد مَنعها الحَقَّ الذي أُبيح لها من النِّكاح إذا دَعَتْ إلى كُفْءٍ لها ، وقد قيل في الرجل يَطَّلِع من امرأته على فاحشة قال: لا بأْس أَن يُضارَّها حتى تَخْتَلِع منه ، قال الأزهري: فجعل الله سبحانه وتعالى اللَّواتي يأْتِين الفاحشة مُسْتَثْنَياتٍ من جملة النساء اللَّواتي نَهى الله أَزواجهن عن عَضْلِهِن ليَذْهبوا ببعض ما آتَوْهن من الصَّدَاق".

ومن القرائن على أن الزاني يعطى فرصة التوبة والإصلاح ويبدل الله سيئاته حسنات ، وهذا لا يكون لمن يرجم حتى الموت ، قوله تعالى:

"وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{68} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{69} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{70} وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً{71}" الفرقان.

والآية هنا لم تستثن الزاني المحصن أو الزانية المحصنة ، بل هي مطلقة عامة.

ومن القرائن التي تضعف موقف أحاديث آية الرجم المزعومة ، أنها تقول الشيخ والشيخة ، ولا تقول المحصن والمحصنة ، والقرآن الكريم نزل قرآناً عربياً ، لعلكم تعقلون ، وليس هنالك من ترادف معروف عند العرب بين كلمتي الشيخ والشيخة ، وكلمتي المحصن والمحصنة.

الجلد نسخ الرجم

إن الإصرار على العمل بأحاديث الرجم رغم آية الجلد نابع من الخوف من تطرق الشك في صحة الأحاديث المصنفة على أنها صحيحة ، وهو خوف مشروع لو كنا نرفض هذه المجموعة من الأحاديث لمجرد أنها لم تعجبنا ، نحن هنا نرفض العمل بها استناداً على أدلة وقرائن قوية. ثم من يجرؤ أن يرجم زانياً بحجر ليقتله بعد كل هذه الأدلة والقرائن ؟ ألا تصلح على الأقل شبهاً تدرأ القتل عن الزاني والزانية المحصنين ؟ لو كانت مشيئة الله أن نرجمهما ما كان سيبخل علينا بكلمة أو عبارة في كتابه الكريم ، تبين ذلك ولا تتركنا في حيرة من أمرنا ، وقد فصلت الآيات الكريمة في أمور كثيرة أقل خطورة من رجم نفس بشرية حتى الموت.

صحيح أن رجم الزاني المحصن كانت عقوبة من الله في التوراة ، لكن ربنا شاء أن يقدم لنا نفسه بوصفه الرحمن ، ومن رحمته أن أخذ ضعفنا البشري في الاعتبار ، فخفف عنا ، وإنه بعد أن بين بعض أحكام الجرائم الجنسية في الآيات 15 حتى 27 من سورة النساء ، ختم بالآية الثامنة والعشرين قائلاً:

"يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{28}" النساء.

روى البخاري في صحيحه ، عن ابنِ عمرَ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لنا لما رجَعَ منَ الأحزاب: "لا يُصَلِّينَّ أَحدٌ العصرَ إلاَّ في بني قُرَيظةَ. فأَدركَ بعضَهمُ العصرُ في الطريقِ ، فقال بعضُهم: لا نُصلِّي حتى نأْتِيَها ، وقال بعضُهم: بل نُصلِّي ، لم يُرَدْ منا ذلكَ. فذُكِرَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فلم يُعَنِّفْ واحداً منهم".

لا يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد قصد الأمرين معاً ، أي أن يؤخروا صلاة العصر حتى يصلوا بني قريظة ، وأن يصلوا العصر في وقتها لكن يسرعوا ليبلغوا بني قريظة بأعجل ما يكون. ومع ذلك قبل النبي من صحابته كلا الفهمين ، ولم يُخَطّيء أحدهما ، مع أن أحدهما على الأقل كان فهمه خاطئاً. إذن نحن مُتَعَبّدون بما تستنبطه عقولنا من أحكام حتى لو كان هنالك احتمال أن تكون خاطئة ، بل ربنا عاب على النصارى الذين ابتدعوا رهبانية لم يكتبها عليهم ، أنهم ما رعَوها حق رعايتها ، أي لامهم على عدم التزامهم بها ، رغم أنه لم

يكتبها عليهم ، لكنهم كانوا يعتقدون أنه هو الذي كتبها عليهم ، وكان عليهم أن يرعوها حق رعايتها ، ليرضى الله عنهم. قال تعالى:

"ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{27}" الحديد.

إن كنا اجتهدنا بإخلاص كي نصل إلى حكم الله في الزاني والزانية المحصنين ، وتوصلنا إلى أنهما يُجلدان مئة جلدة لكل منهما ، كما يجلد الزاني غير المحصن ، فإن ربنا سيحاسبنا على أساس أن هذا هو حكمه فيهم حقاً.

سنحاسب بمقتضى ما أوصلنا إليه اجتهادنا ، إلا في واحدة لا يغفرها أبداً ، وهي الشرك بالله ، سواء كان ذلك عن اجتهاد خاطىء أو عن فسق وعصيان متعمدين. الشرك الذي يموت الإنسان قبل أن يتوب منه ، سيعاقب عليه يقيناً ، حتى لو كان شركه ضلالاً وجهلاً.

لو كنت قاضياً فلن أحكم برجم زانٍ محصن أبداً ، حتى لو كان هنالك من مذاهب المسلمين من يقول بذلك ، لأني أن أخطىء بالعفو ، خير ألف مرة من أن أخطىء بالعقوبة ، أي خير لي أن أجلد زانياً كان يستحق الرجم ، من أن أرجم زانياً لا يستحق إلا الجلد. نتقي الله ما استطعنا ، ووفق ما قادنا إليه اجتهادنا ، ولا نكون بذلك مفرّطين أو مضيّعين لحدود الله. إنه لم يفرضها إلا لتطهيرنا وحمايتنا من أن تنتشر الفحشاء بيننا ، وليس بينه وبين الزاني المحصن عداوة وثأر بحيث نخشى غضبه لو قصرنا في الانتقام له من الزاني المحصن. ربنا مربٍّ لنا ، يريد بنا اليسر ، ولا يريد بنا العسر ، فلِمَ نشدد على أنفسنا ، وقد نهانا هو عن ذلك ؟.

يبقى أن نذكر حد القذف ، وهو لا خلاف عليه ، ثمانون جلدة ، وأن لا تقبل للقاذف شهادة أبداً بعد ذلك ، إلا إن تأكدنا أنه تاب من بعد ذلك وأصلح:

"وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{4} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5}" النور.

والخلاصة أن الجرائم الجنسية -عدا الاغتصاب وما في حكمه من الزنا بقاصر- هي:

1- الزنا بين رجل وامرأة وعقوبته مئة جلدة، محصناً كان أو غير محصن.

2- اللواط بين ذكرين، والسحاق بين أنثيين، وعقوبته الإيذاء حتى تتم التوبة والإقلاع عن فاحشة الجنس المثلي.

3- قذف الناس واتهامهم بالزنا دون قدرة على إثبات التهمة عليهم بأربعة شهداء، وعقوبته ثمانون جلدة، وعدم قبول شهادته حتى يتوب ويصلح.

ومع ذلك لن ترضى عنا اليهود ولا النصارى في الأمم الغربية ولا الليبراليون ولا الماركسيون، فكلهم لا يرى الزنا بالتراضي بين اثنين، رجلاً وامرأة، أو رجلاً ورجلاً، أو امرأة وامرأة، جريمة تستحق العقوبة، بشرط أن لا يكون أي منهما قاصراً، ودون السن التي تخوله الموافقة على المعاشرة الجنسية، وهي في أغلب دول العالم المتحضر دون السن القانونية التي يحق له فيها التصرف بأملاكه، ويحمل فيها مسؤولية أفعاله كأي كبير آخر. عندهم الفتاة التي بلغت السادسة عشرة إذا وافقت على الزنا اعتبرت راضية، وليست قاصرة من هذه الناحية. ثم إنهم كلهم لا يقرون الجلد كعقوبة، ويرون السجن أليق بكرامة الإنسان. أقول هذا ليعلم القارىء الكريم أننا لم نتخل عن رجم الزاني المحصن من أجل استرضاء هؤلاء ونيل استحسانهم، إنما هو البحث عن الحق، والتحرج من سفك الدماء دون حق.

حد الخمر.. فاجتنبوه

في دماغ الإنسان مراكز دقيقة جداً، إذا نبهها منبه كيماوي أو كهربائي، شعر الإنسان بلذة وبهجة، لا سبب نفسياً أو اجتماعياً لهما.. دماغنا يصنع مشاعر الفرح والحزن وما سواها من مشاعر إنسانية، ويتم ذلك في الجزء الآلي من الدماغ، الذي يقوم بربط ما تتالى عليه من خبرات حسية بعضها ببعض، وكأن الأولى سبب للثانية، مع أنه قد لا يكون بينهما أية علاقة سوى، تتابع حدوثهما زمنياً دون أن يفصلهما عن بعضهما زمن طويل، وبذلك يصبح هذان الإحساسان مرتبطين في الدماغ، فلا يشعر بأحدهما إلا ويحس بالثاني الذي ارتبط به.

والناس يمرون في حياتهم اليومية بعواطف ومشاعر متنوعة من لحظة إلى لحظة، بعضها ممتع مريح، وبعضها مؤلم مزعج للنفس.. النفس تتعب عندما تشتد العواطف فيها، سلبية كانت تلك العواطف أو إيجابية، وتشعر بالشدة stress التي تزيد التنبه واليقظة، فلا يستقر

الإنسان ولا يهدأ باله ، فقد يصيبه الأرق إن هو فقد غالياً ، فحزن عليه ، أو إن هو كسب خيراً كثيراً دفعة واحدة ، ففرح به.

يعتبر علماء النفس موت الزوجة أو الزوج أشد كرب أو ضغط نفسي تتعرض له النفس البشرية المعاصرة في سياق الحياة اليومية ، وقد أعطوه درجة مئة ، وصاروا يقيسون الشدة التي تمر بها النفس في المواقف المختلفة ، ويعطونها درجة ، مقارنة بالمئة من مئة التي يسببها فقد شريك العمر المحبوب. وقد وجدوا أن الزواج الذي يقع برغبة الإنسان ، ويحصل فيه على ما كان يتمناه ، يسبب للنفس شدة ، تعادل نصف الشدة التي يسببها فقد الزوج الحبيب ، أي درجتها خمسون. ومثلها ربح جائزة ، أو ترفيع في وظيفة ، أو تلقي أخبار مفرحة ، كلها تضغط على النفس البشرية ، وأحياناً تحرض الاكتئاب لديه ، مع أنها أشياء إيجابية تفرح الإنسان وتسعده.

تعوّد البشر في جميع حالات الشدة النفسية ، الإيجابية منها والسلبية على السواء ، أن يقوموا بأفعال ، تساعدهم على تحمل هذه الشدة ، ريثما تهدأ النفس ، ويعود إليها استقرارها... قد يتناول بعضهم وجبة لذيذة مشبعة ، وقد يدخن آخرون السجائر ، وقد يشرب آخرون الخمر ، أو يمارسون الجنس ، أو يرقصون في حالات الفرح ، أو يبكون في حالات الحزن. وبتكرار الفعل المعين ، ولنقل شرب الخمر مثلاً ، وحصول النفس على اللذة والنشوة ، التي تنسيها حزنها ، أو تعينها على تحمل الفرحة التي هي فيها ، يترسخ في الجزء الآلي اللاشعوري من الدماغ ، ارتباط الخمر بالسعادة ، وبالراحة من المعاناة بكافة أشكالها ، فيلح هذا اللاشعور على صاحبه ، يحثه على شربها ، كلما تعرضت النفس لشدة ، بفعل ما يسبب الحزن أو الخوف أو الغضب ، أو أي شعور سلبي آخر ، أو ما يسبب الفرح والإثارة بكافة أنواعها ، ويكون بالنسبة للاشعور هذا هو وقت شرب الخمر.

ترسّخ الارتباط بين الخمر والمتعة أو الراحة مما يضايق ، وإلحاح اللاشعور ، المتمثل بالرغبة الملحة ، والتوق الشديد ، لشرب الخمر ، هو ما يسمى "الإدمان" على الخمر ، ومثله الإدمانات الأخرى. في هذا العصر ، وبفعل تغلب الأوربيين على البشرية ، وتأثرها بقيمهم وعاداتهم السلوكية ، عاد الإدمان الذي نجح الإسلام في عصر النبوة في التغلب عليه ، وشفاء المؤمنين منه. كثير من المسلمين في هذا الزمان يشربون الخمر ، لأنه يشعرهم أنهم متحضرون كالأوربيين ، أو من الطبقة العليا في المجتمع ، وأكثر هؤلاء ليسوا مدمنين على الخمر ،

ويستطيعون الامتناع عنها دون معاناة.. لكن هنالك نسبة منهم مدمنون عليها ، ويشق عليهم الامتناع عنها ، حتى بعد أن تظهر لهم أضرارها النفسية والبدنية والاجتماعية الشديدة. هم كلما امتنعوا ألح اللاشعور لديهم عليهم ليشربوها ، فيشعرون بالرغبة والشوق والشهوة لشربها ، فإن لم يستجيبوا لهذه الأحاسيس ، تحولت إلى عذابات وتوتر ، يشبه ما يعاني منه مريض القُهار (الوسواس القهري) عندما يمتنع عن القيام بالأفعال القهرية ، التي تلح عليه نفسه ليفعلها.

بما أن اللاشعور عند الإنسان يتعلم بالإشراط ، ولا يعمل وفق المنطق العقلي ، بل يربط بين الأمور المتعاقبة على الحواس ، تعاقباً تكرر مرات كثيرة ، بحيث تكّون هذا الربط بين أي إحساس ، من صوت أو صورة أو رائحة أو طعم أو ملمس ، وشعور نفسي آخر ، كاللذة ، أو النشوة ، أو السكينة النفسية ، أو الراحة من الألم الجسدي ، أو من القلق ، أو الخوف ، أو الغضب ، أو التوتر النفسي المتولد عن إلحاح الغريزة الجنسية ، أو الجوع ، أو العطش ، أو غير ذلك ، فإن علم النفس السلوكي ، الذي يعتبره العلماء علماً بحق ، لأنه مما يمكن قياسه ، والتأكد منه بالتجارب العلمية ، يسمى تتالي الشعور بإحساس مرغوب للنفس البشرية ، وأي إدراك لمنبه يقع عليها ، "التعزيز" ، أي هو شيء يقوي القناعة الآلية في لاشعور الإنسان ، أن هذا الإدراك يقود إلى ذلك الإحساس. فإن كان الإدراك المتعلق يولد في النفس إحساساً ترغبه ، يقع "التعزيز الإيجابي" ، أي تتولد في النفس رغبة في الاستزادة من هذا الإدراك ، الذي يسمى "المنبّه" ويسمى الشعور المتولد عنه ، أو المرتبط به ، "الاستجابة" ، وإن كان الإحساس المرتبط بهذا المنبه مما يؤلم النفس ، تسبب ذلك بنفورها من هذا الشيء ، وسُمّي التعزيز الحاصل ، "التعزيز السلبي".

قد يكون المنبه صوتاً ، يسمعه الكائن الحي ، عند إحساسه بإحساس معين ، كالخوف أو اللذة مثلاً ، وقد يكون إدراكاً ، تدركه حاسة أخرى غير الأذن ، كأن يكون شيئاً تراه العين ، أو ملمساً يحس به الجلد ، أو رائحة أو طعماً. وهنا يتم الربط بين الإحساس ، وبين منعكس حيوي مما بُرمج الجسم الحي عليه ، كالاشتهاء وسيلان اللعاب ، أو الشهوة الجنسية وما يرافقها من احتقان العضو التناسلي ، أو خفقان القلب الذي يحس به الإنسان عند الخوف ، أو الإثارة ، أو غير ذلك ، ويسمى هذا الربط لأي شيء بمنعكس نفسي أو بدني "الاشراط الكلاسيكي" ، الذي تضرب المراجع له مثالاً ، تجربة بافلوف وكلبه ، الذي صار يسيل لعابه كلما سمع صوتاً معيناً ،

مع أن الحيوان بالأصل غير مبرمج على أن يسيل لعابه عند سماعه الأصوات ، بل عند تذوقه طعاماً يحس به في فمه.

هنالك نوع ثانٍ من الإشراط يسمى "الإشراط الفعلي" operant conditioning لأنه يربط بين فعل أو عمل يقوم به- لا مجرد إدراك بسيط- وبين الإحساس الذي يحدث معه ، أو بعده مباشرة ، فتتولد رغبة لاشعورية لدى الكائن ، إنساناً كان أو حيواناً ، أن يستزيد من هذا الفعل أو السلوك ، بأن يكرر فعله كي يحصل على الإحساس المرتبط به ، أو يتجنب فعله إن كان الإحساس المرتبط به سلبياً مؤلماً. إنه بواسطة هذا النوع من الربط بين متعة أو إشباع معين ، وبين سلوك يقوم به الكائن ، تمكّن الإنسان من تعليم الحيوانات العجماء ، التي لا تواصل بينه وبينها ، أموراً مفيدة للإنسان ، ليس الحيوان مبرمجاً عليها ، كأن ينبح الكلب البوليسي ، كلما شم رائحة معينة تم تدريبه على تتبعها ، كرائحة جسم بشري ، أو عقار مخدر ، أو غير ذلك مما لم يُفْطَر الكلب على الاهتمام برائحته ، ومثله ما تفعله حيوانات السيرك مما ليست مبرمجة عليه ، فالأسد الذي يلقمه مدربه قطعة لحم ، كلماً قفز عبر حلقة نار مشتعلة ، تتكون لديه غريزة مكتسبة ، تدفعه إلى تكرار هذا السلوك ، لأن المخ لديه ، يتوقع إشباعاً مرغوباً عندما يقوم به ، مع أن الحيوان لا يدرك في وعيه ، معنىً أو علاقة منطقية ، بين لقمة اللحم وسلوكه المكتسب ، إنما هو ربط تكوّن في لاشعوره ، بين القفز عبر الحلقة المشتعلة ، والشبع الذي يحصل عليه من قطع اللحم اللذيذة ، التي يضعها مدربه في فمه. عندها يكون لدى الأسد المدرب ميل غريزي لأن يقفز عبر الحلقة كلما رآها ، وتلقى من مدربه صوتاً أو إشارة معينة ، فيندفع قافزاً عبرها ، ليدهش المشاهدين ، دون أن يدري ، ولينال قطعة اللحم المشتهاة.

هكذا هو الإدمان ، لأن اللاشعور عند الإنسان ، هو الجزء من دماغه ، الذي يشبه دماغ الحيوان ، والذي يعمل بالربط بين الأشياء ، لا بالمنطق العقلي. فكلما أخرج أحدهم سيجارة من علبته وأشعلها ، ووضع طرفها في فمه ومصها ، ليستنشق دخانها ، وليحس بما يرغب به من لذة يسعى إليها ، ارتبطت اللذة لديه بالسلوك الذي سبقها مباشرة ، فانتقلت الرغبة باللذة ، المفطور عليها الإنسان ، إلى الرغبة بالسلوك الذي ارتبط بها ، أي استخراج السيجارة وإشعالها ومصها واستنشاق دخانها. فتتكون في النفس شهوة مكتسبة ، فتشتهي دخان السيكارة ورائحته ، كما يشتهي الجائع اللحم المشوي عندما يشم رائحته.

لذا تثور الرغبة في تعاطي أو فعل ما أدمن عليه الإنسان، كلما صادف شيئاً نبّه في اللاشعور لديه، ذكرى ذلك المُدمَن، فيشتهيه، كما لو كان المدخن قد امتنع عن التدخين، ثم رأى رجلاً آخر يدخن، أو وصلت لأنفه رائحة الدخان، فتثور في نفسه شهوة للتدخين، تشبه الشهوة الجنسية التي نحن مفطورون على الإحساس بها كلما شاهدنا أو سمعنا أو شممنا أو تخيلنا مثيراً جنسياً، والفارق هنا أن الشهوة الجنسية شهوة فطرية برمجنا عليها خالقنا لغاية ومنفعة، أما شهوة المدخن لدخان التبغ، فشهوة مكتسبة، تكونت في لاشعوره، نتيجة تكرار شعوره باللذة كلما دخن سيكارة. ولهذا لم يقل ربنا عن الخمر: "لا تشربوه" بل قال: "فاجتنبوه". لأن من أدمن الخمر وأراد الامتناع عنها، يجد صعوبة كبيرة في البقاء ممتنعاً عنها، إن هو بقي يجلس مجالس شربها، أو يقترب منها فيشم رائحتها، ويرى لونها وزجاجاتها وكؤوسها، فيكون ذلك كله مُذَكِّرات cues للاشعور لديه بالغريزة، التي اكتسبها عند تعاطيه المتكرر للخمر، على مر السنين، فيثور لديه الشوق لتعاطيها من جديد، وتلح عليه نفسه ليشربها، وقد تسول له ذلك، بأن تقول له اشربها هذه المرة فقط، ثم ترجع إلى الامتناع عنها، فيشربها، وينتكس إلى الإدمان، ومثلها الغريزة الجنسية التي هي فطرية، توقظها في النفس مُذكّرات بصرية وشمية وسمعية، فيأخذ اللاشعور لدى الإنسان بالإلحاح عليه كي يمارس الجنس، وهذا اللاشعور، هو تماماً كالحيوانات، آلة عجيبة لا تدرك الأفكار ولا القيم ولا تميز بين حلال وحرام.. لذلك أمرنا ربنا أن نغض من أبصارنا رجالاً ونساء، وأمر النساء أن يستترن، ما عدا الوجوه والأيدي، كما نهاهن عن الخروج متعطرات، أو بخلاخل، تصدر صوتاً كلما مشين، ونهاهن عن الخضوع بالقول، الذي يثير الرجال ويطمعهم بهن. هنا أيضاً نحن مأمورون، لا بمجرد أن لا نزني، بل بأن نجتنب الزنا باجتناب كل ما يثير الشهوة الجنسية، إلا عند توافر الإشباع الحلال لها.

إذن، يخطىء من يظن أن الخمر غير محرمة لأن الخالق قال: "فاجتنبوه" ولم يقل: "لا تشربوه"، بل هو العليم الخبير أراد بكلمة واحدة أن يحرم شرب الخمر، وأن يحمينا مما يثير شوقنا إليها، إن كنا مدمنين عليها، فقال: "فاجتنبوه".. لو كان الأمر الإلهي، موجهاً فقط إلى من لم يسبق له شرب الخمر والإدمان عليها، لاكتفى بالنهي عن شربها، فكل من لم يدمن عليها، وأراد البقاء ممتنعاً عنها، لا يتأثر لا برؤيتها ولا برائحتها، ولا بكل ما كان في مجالس

شربها ، فهو لم يدمن ، ولم يكتسب غريزة شرب الخمر ، وهذه المذكّرات ليس لها أهمية بالنسبة للاشعوره. إن الأمر باجتناب الخمر ، أبلغ من مجرد النهي عن شربها.

تفوّق الإسـلام

بعث محمد صلى الله عليه وسلم وقومه العرب يكثر فيهم الإدمان على الخمر ، حتى تغزل بها الشعراء كما تغزلوا بالنساء الحسان المعشوقات ، وتعددت أسماؤها ، وصارت مرجعاً يشبهون بها غيرها ، مما تتعلق به النفوس ، بل جاء بعد ذلك ، من شبّه الأحوال الإيمانية الصوفية ، بالنشوة والسّكْر الذي يجدهما شارب الخمر. ومع ذلك ، نجح الإسلام في علاج إدمان هؤلاء العرب على الخمر ، لحد أنهم أراقوها في السكك ، عندما نزلت الآية التي تحرمها ، ولم ينتكس إليها إلا أفراد قلائل من أمة كبيرة.

تقدمت البشرية في العلوم ، وازدادت حكمة ، فأرادت ذات يوم أن تحرم الخمر على نفسها من نفسها ، دون أن تكون محرمة عليها في دينها ، بل هو الحرص على ما ينفع ، والبعد عما يضر. حدث ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية ، عندما صدر عام 1919 قانون يصبح نافذاً بعد سنة من صدوره ، يحظر بيع وتصنيع ونقل الخمور ، كي يقل تعاطيها والإدمان عليها. ومع أن القانون نجح في خفض استهلاك الخمور في البلاد إلى النصف ، إلا أنه أخفق في جعل المدمنين عليها يمتنعون عنها ، فصار للخمر سوق سوداء سرية ، وعصابات إجرامية تؤمنها بأسعار أعلى من أسعارها الحقيقية ، إلى أن تراجعت الحكومة الأمريكية عن الحظر عام 1933.

ثم تقدم الطب الباطني والنفسي ، وصارت أضرار الخمر معلومة للجميع ، فاجتهد الأطباء والنفسانيون في ابتكار أساليب لعلاج الإدمان عليها ، ولما كان الإدمان عليها يتم ، من خلال الارتباط الشرطي ، والعلم وجد أن أي ارتباط شرطي عند الإنسان أو الحيوان يخمد وينعدم إن منعنا حصول الاستجابة كل مرة يحصل فيها المنبه ، والمنبه هنا هو شرب الخمر ، والاستجابة هي النشوة والسّكْر ، التي يحس بها شارب الخمر ، فتتعزز الغريزة المكتسبة التي تدفعه إلى شرب الخمر ، فتقرر في الطب النفسي أنه لن يكون هنالك شفاء من الإدمان ، ما لم يتم الامتناع التام عن تعاطيها ، واعتبر الإقلال التدريجي لتعاطيها ، هدفاً غير ممكن التحقيق ، عند المدمنين عليها ، حيث لا يتوقف التعزيز لسلوك التعاطي الذي يتم كلما تناول الشخص الخمر وأحس بالسكر والنشوة.

وقامت برامج العلاج من الإدمان على الخمر على إدخال المدمن إلى المستشفى حيث يمتنع مرة واحدة عن تعاطي الخمر كي ينعدم الارتباط القائم في دماغه بين التعاطي واللذة والراحة والنشوة ، فتضعف الشهوة المكتسبة لشرب الخمر ومع الأيام تموت هذه الرغبة ويكون الشفاء من الإدمان. بالطبع نشأت مشكلة الأعراض الانسحابية ، التي يعانيها المدمن على الكحول عندما يتوقف عن تناولها توقفاً فجائياً غير متدرج. وقد أنقذتهم الأدوية النفسية الحديثة من هذه الورطة ، وصار من الممكن أن يمتنع مدمن الخمر عنها دفعة واحدة ، دون أن يتعرض للخطورة على صحته ، ودون أن تكون معاناته شديدة ، وخلال أسابيع قليلة ، تزول جميع الأعراض الانسحابية البدنية ، ويبقى الشوق النفسي للخمر ، الذي تقوم المشاعر والمواقف المختلفة بدور المذكِّر للمخ بها ، والموقظ لشهوتها ، فقد ارتبطت الخمر في لاشعور المدمن ، بكل شعور مركّز لديه ، لأنه كان يشربها إذا فرح وابتهج ، ويشربها إذا حزن واكتأب ، ويشربها إن غضب أو خجل أو خاف أو تألم أو لها واستمع للعزف والغناء ، أو أراد الاستمتاع الجنسي أو أو أو... أحوال متنوعة ارتبط تعاطي الخمر بها في لاشعوره ، فصار تعاطيها يحضر في ذهنه كلما مر بأي من هذه الأحوال والمشاعر. كانت الخمر صديقه في وحشته ، ورفيقه في وحدته ، وملاذه عند تعرضه لكل ما يزعج ، وجائزته كلما فعل أمراً مهماً أو حقق نجاحاً أو ربحاً. كانت البلسم لكل المشاعر التي تضغط على النفس فتتعبها ، سواء كانت مشاعر إيجابية أو مشاعر سالبية.

وهل يمكن للإنسان أن يعيش دون أن تنتابه تلك المشاعر والأحوال ، كي لا تتيقظ غريزته المكتسبة واشتهاؤه الخمر ، مع أنه يعلم يقيناً أنها تضره ؟ طبعاً لا حياة للإنسان بلا هذه المشاعر والأحوال ، التي تبقى أمداً طويلاً تذكر اللاشعور لديه باشتهاء الخمر والتوق إلى شربها ، ويبقى المدمن معرضاً للانتكاس والعودة إلى الإدمان ، طالما استمر في لاشعوره ارتباط تعاطي الخمر بهذه المشاعر والأحوال ، لكن حسب اعتقاد الأطباء يضعف هذا الارتباط إن بقي المدمن ممتنعاً مدة سنة كاملة ، لكنه أبداً لا يموت. ويبقى المدمن طيلة حياته على خطر ، إذ قد يغلبه اللاشعور لديه ذات يوم ، فينتكس إلى تعاطي الخمر ، وخير حماية للمدمن السابق من الانتكاس ، هي أن يجتنب الخمر ويجتنب كل ما يذكر دماغه بها ، كي لا تنبعث الغريزة التي اكتسبها عندما أدمن على الخمر من رقادها ، لتعود إلى الضغط والإلحاح عليه ، كي يُشْبعها بتعاطيه للخمر.

لم يكتف الأطباء في علاج الإدمان بجعل المدمن يمتنع عن الخمر كي ينعدم لديه ارتباطها بمشاعر كثيرة لديه وأحوال لا بد له أن يمر بها في حياته ، وعلاج الأعراض الانسحابية التي تظهر عندما ينتهي المدمن عن شربها ، فقد بلغت نسبة انتكاس من عولجوا في أكثر المشافي تطوراً في أمريكا تسعين بالمئة ممن عولجوا ، وذلك خلال الشهور الستة الأولى بعد خروجهم من المستشفى ، والله وحده يعلم كم من العشرة بالمئة الذين لم ينتكسوا خلال هذه الشهور الستة سينتكس في الشهور التي تليها. كل ذلك جعل الأطباء النفسيين لا يرون علاج الإدمان كاملاً ، ما لم يتم إعادة تأهيل المدمن نفسياً واجتماعياً ، بحيث تقل أو تنتفي حاجته النفسية لشرب الخمر التي اعتمد عليها طيلة السنين السابقة ، كوسيلة للتعامل مع المشاعر المختلفة والأحوال المتنوعة. وإعادة التأهيل أو التأهيل اختصاراً هو إعادة صياغة لشخصية المدمن ، لتخليصها من ضعفها الذي يجعلها قابلة للإدمان والاستسلام للغريزة المكتسبة ، وهذا يتطلب علاجاً نفسياً فردياً وجماعياً ، يعززه كل أنواع العلاج الأخرى ، من تثقيف نفسي ، ورياضة بدنية ، ومهارات مهنية وفنية ، وتشجيع على العمل والزواج ، وحتى اللجوء للدين والروحانيات.

في مجتمعات تعتبر كل شيء ديني غير علمي. نجحت مراكز علاج المدمنين وتأهيلهم بعلاج بعضهم ، وأخفقت في علاج الباقين ، فاضطرت إلى الاستعانة بالمدمنين السابقين ، المنضوين في منظمات عالمية ،هي منظمات الكحوليين مجهولي الهوية في كل بلد ، حيث تحتضن مدمني الخمر الراغبين في الامتناع ، وتؤمن لهم الدعم النفسي والاجتماعي بشكل يومي في البداية ، ثم أقل من ذلك ، لكنه دعم دائم مدى الحياة ، لأن هشاشة المدمن أمام إدمانه ، تستمر طيلة عمره. هذه المنظمات تحركها روح دينية ، وإن كانت لا تدعو إلى أي دين من الأديان. المهم نجحت هذه المنظمات فيما أخفقت فيه المشافي ومراكز العلاج المتطورة المدعمة بالأدوية وطرق العلاج النفسي والتأهيل المتقدمة. في الغرب لا يخجل الأطباء النفسيين من دفع مريضهم للانضمام إلى الكحوليين مجهولي الهوية ، على أمل أن يبقى ممتنعاً عن الخمر ، مع أنها جماعات غير مؤهلة طبياً أو نفسياً ، إذ المهم عندهم أن يستفيد المريض ويتعافى.

من النادر أن يأتي مدمن الخمر إلى المستشفى أو مركز علاج الإدمان ويطلب العلاج من نفسه وبمحض إرادته ، لذا أغلب من يتقدم للعلاج من الإدمان يأتي ، إما خشية أن تهجره زوجته

التي لم تعد تتحمل إدمانه، أو خشية أن يفقد عمله الذي أنذره ربه أنه لن يتحمل إهماله وتقصيره وتغيبه الناتج عن إدمانه، أو يأتي للعلاج تنفيذاً لأمر القاضي، بعد أن وقع في مخالفة للقانون، أو عدوان على أفراد أسرته بسبب إدمانه.

بعد أن يدخل المدمن المستشفى، ويُجبر على الامتناع عن الخمر، ويعطى الأدوية لمعالجة الأعراض الانسحابية، ويبدأ الأطباء والمختصون والممرضون بترغيبه في ترك الخمر والتعافي من الإدمان عليها، تتكون لدى مدمن الخمر رغبة صادقة في الامتناع عن شرب الخمر، لكن هذه الرغبة لا تكفي رغم صدقها، كي تبقيه ممتنعاً عن الخمر، لأنه مايزال لديه احتياج نفسي واعتماد عليها، ولا يحرره من هذا الاحتياج إلا التأهيل النفسي الاجتماعي، الذي يحتاج إلى عدة سنوات، يلتزم خلالها بعدم الشرب، وبالحضور شبه اليومي إلى مركز التأهيل، فإن فعل، وإن توفر التأهيل، تخلص المدمن من احتياجه لشرب الخمر وتحرر منها إلى حد لا بأس به.

يلخصون علاج مدمن الخمر وتأهيله بمراحل ثلاث، يكون لسان حاله في أولاها يقول: "لا أستطيع أن أشرب الخمر" "I cannot drink"، وذلك عندما يتعرض للضغوط كي يطلب العلاج ويدخل المشفى حيث لا خمر على الإطلاق.. وفي ثانيها يقول لسان حاله: "لا أريد أن أشرب الخمر" "I do not want to drink" وذلك عندما ينجح المعالجون في إقناعه بفائدة الامتناع عن الخمر، وفي ثالثها يقول: "لا أحتاج أن أشرب الخمر" "I do not need to drink" وذلك يكون بعد اكتمال تأهيله النفسي الاجتماعي الذي يتطلب عدة سنين عادة.

إلى هنا تبدو الأمور على ما يرام لولا أمر واحد، هو انتكاس الغالبية العظمى إلى التعاطي بعد خروجهم من المستشفى، وعدم التزامهم ببرامج التأهيل. وهذا يدفعنا لمحاولة فهم سر نجاح الإسلام في علاج أمة مدمنة على الخمر، نجاحاً تحلم البشرية بمثله هذه الأيام.

لقد تفكرت بالأمر فوجدت أن علاج الإسلام لإدمان العرب على الخمر مر بالمراحل الثلاث كلها، لكن ترتيبها كان معكوساً، أي بدل أن يبدأ بمنعهم من الشرب وهم مايزالون مدمنين، ثم ينفرهم من الخمر، وبعدها يبدأ بتأهيلهم كي يحررهم من احتياجهم النفسي لشربها، فإن الإسلام بدأ بالمرحلة الثالثة أولاً، أي بدأ عملية التأهيل التي استغرقت سنين عدة، قبل أن

يحرّم الخمر عليهم ، ودمج المرحلة الثانية مرحلة التنفير بعملية التأهيل ، فكان التنفير جزءاً من التأهيل ، ثم جاء التحريم بآية كريمة واحدة جعلت مدمني الأمس يريقون مخزونهم من الخمر في الطرقات ويقولون "انتهينا".

بدأ تأهيل الصحابة لحياة بلا خمر منذ أن أسلموا ، حيث بث الإسلام فيهم تقديراً عالياً - لا مستعلياً - لأنفسهم ، فصارت أهدافهم في الحياة كبيرة ، تتجاوز المتعة الحسية الزائلة وضرورات الحياة اليومية ، صارت آمالهم وغاياتهم في الحياة عظائم الأمور ومكارمها ، إلى حد أن أحدهم كما روى التاريخ ، وهو الحطيئة العبسي أراد أن يهجو صحابياً آخر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، هو الزُّبْرِقان بن عمر ، فقال له:

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيَتِها *** واقعدْ فإنَّك أنتَ الطَّاعمُ الكاسي.

فاشتكى الرجل إلى عمر ، الذي لم يفطن للهجاء الذي في قول الحطيئة ، فسأل خبيراً هو شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت: هل هذا البيت هجاء للزبرقان أم لا؟ فقال حسان: ما هجاه يا أمير المؤمنين. قال فماذا صنع به؟ قال سلح عليه أو ذرق عليه (السلح هو الغائط) كناية عن شدة الهجاء!!

فقال عمر: عليّ بجرول (أي الحطيئة)، فلما جيئ به قال له: يا عدو نفسه ، تهجو المسلمين ، فأمر به ، فألقاه عمر رضي الله عنه في حفرة ، وغطاه بساتر من الجلد فأصبح مظلماً ، اتخذها أمير المؤمنين رضي الله عنه محبساً وسجناً في عهده ، ولم تكن السجون مبنية ، - فأول من بناها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بنى بالكوفة سجناً سماه مَخِيساً- ، وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا خبيث ، لأشغلنك عن أعراض المسلمين.

كان تأهيل الصحابة المدمنين على الخمر ، والمدمنين على الميسر ، وغير المدمنين ، يتم من خلال العملية التربوية الإيمانية ، التي سكبت السكينة في قلوبهم ، فقل فيها القلق أو الحزن أو الغضب ، أو عقد النقص والدونية ، أو حب التعاظم على الناس ، تلك المشاعر التي كانت تضغط على نفوسهم ، ليكون الخمر وغيره من المُدْمَنات ، وسيلتهم للتغلب عليها ، والتعامل معها. وبينما عملية التأهيل النفسي الاجتماعي الإسلامي جارية ، نزلت أول آية كريمة تلمح إلى أن الخمر ليست حسنة ، قال تعالى:

"وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{67}" النحل.

إذن يُتَّخَذُ من النخيل والأعناب سَكَراً أي ما يُسْكِر وهي الخمر ، ويتخذ منها أيضاً رزق حسن ، أي غذاء نافع ، والمفهوم من هذه الآية ، وإن لم يكن منطوقها ، إن الخمر ليست رزقاً حسناً. مثل هذا التلميح مهد الطريق لما هو أشد منه من إجراءات ، على طريق التحرر من الإدمان.

ثم بعد مدة طويلة ، نزلت آية تحرم عليهم أن يقربوا الصلاة وهم سكارى ، قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً{43}" النساء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الأيام على ما يبدو: "كلُّ ما أسكَر عنِ الصلاةِ فهو حرامٌ" وقال أيضاً: " أنهى عن كلِّ مسكرٍ أسكر عن الصلاةِ" (رواهما مسلم في صحيحه). وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كلُّ مُسكرٍ حرامٌ كلُّ ما أسكرَ عنِ الصلاةِ فهو حرامٌ أنهى عن كلِّ مسكرٍ أسكرَ عنِ الصلاة" (رواه ابن حزم في المحلى ووثق رواته) .. أي لم يكن شرب القليل من الخمر محرماً في تلك المرحلة.

وتحريم الاقتراب من الصلاة وهم في حالة سكر ، كان يعني أنه لم يكن مباحاً لهم إلا شرب مقادير من الخمر ، لا تبلغ بهم حالة السكر ، لأن الصلوات خمس ، والأوقات الفاصلة بينها لا تكفيهم ليسكروا ثم يفيقوا من سكرهم ، وبهذه الطريقة تحقق هدفان مما يهدف إليه الأطباء في عصرنا وهم يعالجون الإدمان ، أولهما عدم ظهور أعراض انسحابية مزعجة وقد تكون خطيرة ، وإيقاف تعزيز الراحة من الأعراض الإنسحابية ، حيث صاروا يشربون جرعات صغيرة متكررة تمنع ظهور الأعراض الإنسحابية ، وبذلك يتوقف التعزيز الذي يأتي من الراحة منها عندما يشرب الخمر ، وثانيهما إيقاف تعزيز التعلق النفسي بالخمر ، الذي يكون عندما يسكر الإنسان ويحس بالنشوة والعظمة الوهمية ، وهما الشعوران اللذان يسعى إليهما مدمن الخمر ، حيث الغالبية

العظمى ممن يشرب الخمر في المجتمعات التي تبيحها لا يشربها ليسكر، بل يكتفي منها بمقادير معتدلة، ويسمى "شارب خمر اجتماعي" Social drinker وهؤلاء لا يتحولون إلى مدمنين مهما طالت مدة تعاطيهم للخمر، طالماً أنهم لا يسكرون، ولا يعانون من أعراض إنسحابية تجعل شرب الخمر ولو دون سكر معززاً للإدمان.

ثم بعد حين، نزلت آية تنفر من الخمر ولا تحرمها، قال تعالى:

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ{219}" البقرة.

ومع أن الآية لم تحرم الخمر، إلا أن الكثيرين من الصحابة امتنعوا عنها، لأن ضررها أكبر من نفعها، ولأنهم لم يكونوا مدمنين عليها إدماناً.

ثم مرت الشهور والسنون، والصحابة المدمنون يشربون دون أن يسكروا، وهم ملتزمون ببرنامج التأهيل النفسي الاجتماعي دون أن يدروا، حتى قويت نفوسهم، وصارت قادرة على الاستغناء عن الخمر، لأنها صارت تملكه ولا يملكها، وتتحكم به ولا يتحكم بها، وعندها نزل التحريم، قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{90} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ{91} وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{92}" المائدة.

وعندها فقط وصلوا إلى مرحلة "لا أستطيع أن أشرب"، التي يبدأ بها الأطباء، فلا ينجحون في علاج الإدمان رغم تقدم الطب والعلوم النفسية.

أدعو الله أن يعينني كي أتفرغ يوماً ما، لوضع برنامج علاج وتأهيل للمدمنين، قائم على الأسس التي اتبعها الإسلام في علاج إدمان العرب على الخمر، ووفق أحدث مكتشفات العلم

والطب النفسيين ، ثم تطبيقه في بلداننا ، لنكون رادة العالم في التغلب على الإدمان ، عندما نتبع هداية ربنا لنا ، التي تتجسد فيما يصل إليه العلم من حقائق ، مستهدياً بما جاءنا به الوحي ، فننجح حيث أخفق غيرنا ، ونسعد حيث شقي الآخرون.

تعزير السكران

ربنا جل في علاه مربٍّ لنا من خلال شرعه ، الذي يهدف دائماً إلى صلاحنا الدنيوي قبل الأخروي ، ليس الانتقام من العصاة غاية شرعه ، فالله ليس في عجلة من أمره ، وقد أمهل بني آدم عليه السلام إلى ما بعد الموت ، ليقتص ممن جاءه الموت قبل أن يتوب ، أما في الدنيا ، فشرعه يهدف لحماية المجتمع من فساد الفاسدين وعدوانهم ، لذا نجد كل الحدود التي فرضها ربنا لا تعاقب الناس على كل معصية ، بل على المعاصي التي يتجاوز أثرها المفسد دائرة مرتكبها ، فيكون مرتكبها المجاهر قدوة لغيره ، أو يتعدى ضررها إلى الآخرين ، فتكون العقوبة انتصاراً للمجتمع المتضرر من معصيته ، ومع ذلك يحتسبها ربنا للمؤمن الذي عصى الله وأقيم عليه الحد ، كفارة تعفيه من العقوبة في الآخرة. وشرب الخمر ليس استثناء من هذه القاعدة.

إذا شرب مسلم الخمر في بيته ، ولم يخرج إلى المجتمع سكراناً ، يؤذي الناس بأقواله وأفعاله ، التي ما كان ليجرؤ عليها ، لولا فعل الخمر في رأسه ، فإن الإسلام لا يتجسس على الناس ، ولا يجري التحاليل الطبية ، للتأكد من أن أحد المسلمين قد شرب خمراً ، ومن ثم ليقيم عليه الحد. هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى ، ليس ضرب من شرب وسكر حداً ، مثلما هو جلد الزاني الذي هو حد ، أي عقوبة محددة ومفروضة من الله ، على من تثبت عليه الجريمة ، لا يحل للسلطان ولا لغيره ، أن يسقطها عنه ، أو أن يخفف منها. إنما كان نبينا صلى الله عليه وسلم ، عندما يُؤتى بسكران بيّن السكر ، يأمر أصحابه أن يضربوه ، ليؤدبوه ، ويكسروا نرجسيته الزائفة ، التي صنعها السُّكْر ، فجعله لا يحترم الآخرين ، بل يعيش عظمة وهمية بفعل السّكْر ، ويكون ضربه بما تيسر للصحابة ، إيقاظاً له من حالة الوهم والغرور والانفلات التي تتلبسه عند سكره. ولا بد من التفصيل لتبيان ما نؤمن به بخصوص عقوبة من يشرب الخمر فيسكر.

هنالك اختلاف وتباين بين النصوص الواردة في ما يسمى حد الخمر ، إذ لم يرد في القرآن أمر به ولا إشارة إليه ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تلفظ بها في مناسبات مختلفة ، وأزمان متباينة ، تغير فيها حكم الخمر ، فقد مرت الخمر بمرحلة طويلة موصوفة أنها

ليست شيئاً حسناً لكنها مباحة ، ثم نزل التنفير منها ومن الميسر حيث إثمهما أي ضررهما أكبر من نفعهما ، وبذلك صارت كراهتها واضحة ، لكنها بقيت مباحة ولم تحرم ، ثم كانت المرحلة الأولى من تحريمها حيث حرم الله على المسلم أن يسكر ، وبقي مباحاً له أن يشرب القليل مما لا يُسكر ، ثم أتت مرحلة التحريم القاطع والأمر باجتناب الخمر.

رويت الأحاديث التي تنقل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم أو أفعاله بما يخص شرب الخمر ، وقد لا يكون هنالك مؤشر أو قرينة ، نتبين منها في أية مرحلة كان ذلك الحديث. ومن جهة أخرى جاء الخلفاء الراشدون أولياء أمر للمؤمنين ، في مجتمع كان الأصل فيه أن للأب أو الحاكم حق أو عليه واجب أن يؤدب رعيته ، ويردعها عما حرمه الله ، فأمر أبو بكر بجلد شارب الخمر أربعين جلدة ، ثم زادها عمر إلى ثمانين اجتهاداً منه ، وتقنيناً لهذه العقوبة ، وجاء علي بن أبي طالب وتحرج من حد الخمر هذا ، ورأى وليَّ الأمر ضامناً لسلامة من يحده في الخمر ، فإن مات وجبت ديته في بيت المال ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحدد في عقوبة شرب الخمر عدداً أو صفة للضرب الذي كان يأمر به عندما يؤتى بسكران من المسلمين بعد أن حرمها الله.

للإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه نيل الأوطار فصل رائع بعنوان "حد شارب الخمر" أورد فيه جميع الأحاديث الصحيحة المتعلقة بشرب الخمر ، وعلق عليها ، ثم توصل إلى نتيجة مهمة جداً ، لم يكن هو أول من قال بها ، وهي أن جلد شارب الخمر ليس حداً من الحدود التي فرضها الله ويحرم علينا أن لا نوقعها على شارب الخمر ، أو أن نخفف منها أو نزيد عليها ، كما هو حال حد جلد الزاني ، أو الذي يقذف المحصنات والمحصنين.

الأصل أن لا يسمى حداً إلا ما فرضه ربنا بشكل بيّن ، وحدد له العقوبة التي على ولي الأمر أن يوقعها إن تبيّن وقوع المؤمن في معصية معينة ، ولا مجال له أن يجتهد فيها ، لا بالعفو ، ولا بالتخفيف ، ولا بالتغليظ ، والزيادة. هي عقوبات تطبق حرفياً ، ويقع الإثم على الحاكم إن تهاون فيها.

الشوكاني ، وبعض الفقهاء غيره ، لا يرون جلد شارب الخمر حداً موقوفاً من الله ، بل كان اجتهاداً من نبي الله ، صلى الله عليه وسلم بحكم منصبه كرئيس وولي أمر للأمة في زمانه ، أي إن جلد شارب الخمر عقوبة تعزيرية ، متروكة لولي الأمر ، أو الدولة في عصرنا ، أن يوجبها على

شارب الخمر أو لا يوجبها ، وإن كانت سنة رسول الله هي إيجابها على من يشرب الخمر من المسلمين ويسكر ، كما لولي الأمر أو الدولة الحق في اختيار العقوبة من حيث نوعها ، هل هي بدنية كالضرب والجلد ، أم مالية كالغرامة ، أو تقييداً للحرية بالحبس ، أو مجرد التوبيخ والإيذاء بالكلام. العقوبة التعزيرية متروكة لاجتهاد الأمة ، ممثلة بولي الأمر ، أو الدولة في هذا العصر ، أي فيها مرونة كاملة ، ويتقرر إيجابها من عدمه ، أو نوعها أو مقدارها ، بحسب ما ترى الأمة من مصلحة ومنفعة ودفع مضرة.

ولاعتبار جلد شارب الخمر حداً من الحدود ، أو عقوبة تعزيرية ، أبعاد هامة في عصرنا ، حيث نريد تطبيق شرع الله ، لكن دون أن ننفّر الناس من دين الله ، وبخاصة أنهم مختلفون عن الناس زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقرون الإسلام الأولى ، اختلافاً ثقافياً يجعل تقبلهم للأمر أو رفضهم له لا يماثل ما كان من الناس في العصور السابقة.

من الإسلاميين من هو متحمس لتطبيق الشريعة بالأسلوب نفسه الذي طبقه المسلمون الأوائل ، حرصاً منه على استعادة مكانة الإسلام وشرعه في حياة البشرية ، وقد لا يفطن إلى تغيّر عقلية الناس من عصر إلى آخر ، فتراه لا يبالي هل سيرضي هذا التطبيق أمتنا المعاصرة أم سيجعل كثيراً منا يكره شرع الله ، ويكره تطبيقه. والخمر في هذا العصر مما عمت به البلوى ، والإسلام عائد لواقع المسلمين بعد غيبة وغربة ، وعلينا الحذر من أن نفتن الناس عن دين الله ، بتطبيق حرفي لآراء فقهية معينة هنالك آراء أكثر منها مواءمة لزماننا ، وإن بدت متساهلة.

إن كان الحكم بيّناً فلا مجال فيه لأي تساهل ، كقطع يد السارق وجلد الزاني المجاهر وغيرهما ، مع أن من الناس من لن تعجبه هذه الحدود ، ويرى تطبيقها عودة إلى الماضي ، بدل التقدم والانطلاق نحو المستقبل. في هذه الحالة نرضي ربنا ولا نداهن أو نجامل ، لكن إن كان في الأمر بحبوحة واجتهاد فقهي معتبر وله أدلته ، يقلل من اصطدامنا مع الشعوب التي ندعو إلى تطبيق الشريعة عليها ، فالحكمة تقتضي الأخذ بهذا الاجتهاد ، الذي هو أكثر مواءمة لعصرنا ، وأكثر تقبلاً واستحساناً من شعوبنا المعاصرة.

إن الأخذ بالرأي الفقهي القائل إن عقوبة شرب الخمر تعزير وليست حداً مفروضاً من الله لا خيرة لنا في أن نوقعه أو لا نوقعه ، يقلل من الرعب الذي تعانيه فئات وشرائح عريضة من مجتمعاتنا المعاصرة من تطبيق الشريعة ، ومن أن يحكمهم إسلاميون. وهذا ييسر السبيل نحو

تطبيق ما لا خلاف عليه من الشريعة الإسلامية، سواء منها الحدود أو غير ذلك من أحكام. روى البخاري في صحيحه أن علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: "حَدِّثوا الناسَ، بما يَعْرِفونَ أتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسولُهُ" وما يعرفونه أي ما لا ينكرونه وينفرون منه. ويبقى السؤال الذي لا بد من الإجابة عليه: هل للذين يقولون إن عقوبة شرب الخمر تعزيرية وليست حداً أدلة قوية؟ والجواب بكل ثقة نعم وأدلتهم هي الأقوى، وإليكم التفصيل:

بداية لنقرأ ونتدبر الأحاديث الشريفة التالية:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبو بكر أربعين، وفي رواية عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي برجل قد شرب الخمر، فجلده بجريد نحو أربعين، قال: وفعله أبو بكر، فلما كان عمر استشار الناس، فقال عبد الرحمن: أخف الحدود ثمانين، فأمر به عمر. (والجريد سعف النخل).

وفي رواية ثانية عند البخاري، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَجَلَدَهُ بِجَرِيدَتَيْنِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ. قَالَ وَفَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ اسْتَشَارَ النَّاسَ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانِينَ، فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ.

وعن عقبة بن الحارث قال: جيء بالنعمان أو ابن النعمان - شارباً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان في البيت أن يضربوه، قال: فكنت أنا فيمن ضربه، فضربناه بالنعال والجريد.. وفي رواية وهيب عن أيوب أنه جيء به وهو سكران، فشق عليه، وأمر من في البيت أن يضربوه، فضربوه بالجريد والنعال، وكنت فيمن ضربه. (متفق عليه).

وروى البخاري في صحيحه عن السائب بن يزيد: كُنَّا نُؤْتَى بالشَّارِبِ علَى عَهدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وإمْرَةِ أبي بكرٍ وصَدرًا مِن خِلافَةِ عُمَرَ، فنقُومُ إليه بأيْدينا ونِعالِنا وأرْدِيَتِنا، حتى كان آخِرُ إمْرَةِ عُمَرَ، فجَلَدَ أرْبَعينَ، حتى إذا عَتَوْا وفسَقُوا جلَدَ ثَمانين.

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة: أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ ، قال: "اضْرِبوهُ". قال أبو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ ، فلما انصرفَ ، قال بعض القوم: أخزاك الله ، قال: "لا تقولوا هكذا ، لا تُعينوا عليه الشيطان"

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي ساسان حضين بن المنذر قال: "شهدت عثمان بن عفان أتي بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين ثم قال أزيدكم ، فشهد عليه رجلان ، أحدهما حمران ، أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها ، فقال: يا علي قم فاجلده ، فقال علي: قم يا حسن فاجلده ، فقال الحسن: ولِّ حارها من تولى قارها ، فكأنه وجد عليه ، فقال: يا عبد الله بن جعفر قم فاجلده ، فجلده وعلي يعد ، حتى بلغ أربعين ، فقال: أمسك ، ثم قال: جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ، وأبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وكلٌّ سنّة ، وهذا أحب إلي".

روى أبو داود في سننه عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوقت في الخمر حداً ، قال ابن عباس: فشرب رجل فسكر ، فلُقي يميل في الفج ، فانطُلق به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما حاذى بدار العباس ، انفلت فدخل على العباس فالتزمه ، فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فضحك ، وقال فعلها ؟ ثم لم يأمر فيه بشيء. (صححه الوادعي في الصحيح المسند ، وأحمد شاكر في مسند أحمد ، وقال عنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: إسناده قوي).

وروى الشيخان في صحيحيهما ، أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "ما كنت لأقيم حداً على أحد فيموت ، فأجد في نفسي ، إلا صاحب الخمر ، فإنه لو مات وَدَيْته ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنّه".

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال: "لا أشرب نبيذ الجر بعد إذ أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنشوان ، فقال: يا رسول الله ما شربت خمراً ، إنما شربت نبيذ زبيب

وتمر في دباءة، قال: فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم، "فنُهِز بالأيدي، وخُفِق بالنعال، قال: ونهى عن الزبيب والتمر وعن الدباء" (رواه البيهقي في سننه، كما رواه الوادعي في الصحيح المسند وصححه، ورواه أحمد في مسنده وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم) ورجل نشوان ونشيان، أي سكران بيّن النشوة، والدباء هو القرع.

الأدلة المستنبطة

والآن دعونا نستعرض الأدلة المستنبطة من هذه الأحاديث التي تثبت أن ضرب شارب الخمر هو تعزير وليس حداً. وهي ما يلي:

أولاً: ثبت منها أن أبا بكر كان يجلد شارب الخمر أربعين جلدة، ثم زادها عمر إلى ثمانين، ونحن على يقين أنه، لو كان عمر يرى جلد الزاني حداً لا تعزيراً، لما أقدم على زيادته، لأن الزيادة في حد من حدود الله محرمة، كما النقصان فيه. قال تعالى:

"الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{229}" البقرة.

ثانياً: في كل مرة أمر فيها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يضربوا سكراناً أُتِيَ به، كان يأمر بضربه مطلق ضرب، لا ضرباً بالسوط كما هو جلد الزاني، ولا تحديد لعدد الضربات، وإن كان راوي الحديث يقدر عدد الضربات تقديراً تقريبياً فيقول: "نحو أربعين"، لذا كان الصحابة يضربون السكران كل بما تيسر لهم، بعضهم بيده، وآخر بثوبه، وثالث بنعله، ورابع بسعفة نخل كانت في متناول يده، أي كان الضرب عشوائياً. ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يأمرهم أن يَعُدوا ضرباتهم الموجهة للسكران، بل المهم أن يتحقق ضرب السكران ضرباً موجعاً له في بدنه، وفي جنون عظمته الذي استجلبه بشرب الخمر، وموقظاً له من غفلته وسكره.

كان الضرب أقرب للعلاج منه للعقوبة ، فالضرب للسكران تنبيه ألمي ، يوقظ الجهاز العصبي الذي ثبطه الكحول ، والضرب يُشعر السكران بالخزي بدل الغرور والعظمة الوهمية التي يسببها السّكْر ، يقول شاعر الرسول حسان بن ثابت ، وقد كان جباناً يبقى في المدينة مع النساء في الغزوات لأنه لا يجرؤ على القتال ، قال عن الخمر التي كان مدمناً عليها قبل أن يعالجه الإسلام:

ونشربها فتتركنا ملوكاً *** وأسداً ما ينهنهنا اللقاءُ.

في السّكْر بأنواعه سواء ما ينتج عن شرب الخمر أو تعاطي المخدرات أو المنبهات التي تسبب الإدمان ، يكون الشعور الطاغي لدى السكران إضافة إلى النشوة وزوال القلق النفسي ، شعور بالعظمة مؤقت ، فترى الرجل يرى نفسه عنترة بن شداد ، والمرأة إن سكرت رأت نفسها أجمل النساء وأكثرهن إثارة لشهوة الرجال. هي ثقة بالنفس زائفة ومؤقتة ، ما تلبث أن تخبو مع تناقص الكحول في الدم ، ليعود السكران إلى ضعفه ودونيته.

والسُّكر كما عرفه ابن تيمية في كتاب الاستقامة هو: "اجتماع النشوة وزوال العقل" ، والعقل هو الربط والتقييد ، وليس مجرد الوعي واليقظة ، لذا يفقد المجنون عقله ، وهو متيقظ أشد ما تكون اليقظة ، وهكذا عند السّكْر تزول القيود الاجتماعية والنفسية التي كانت تمنع الإنسان من أفعال معينة ، أي يزول حياؤه Disinhibition وتزداد عدائيته Hostility التي تتجلى في أقواله وأفعاله ، وقد تتحول إلى سلوك عدواني خطير Aggression. لذا علل ربنا تحريمه للخمر بأنها تثير العداوة وما ينتج عنها من بغضاء بين المؤمنين ، وتصد عن ذكر الله وإقام الصلاة.

واضح لمن يتفكر ، أن الضرب العشوائي للسكران هو نوع من العلاج الممزوج بالعقوبة ، كي يرتدع السكران ، فلا يشرب الخمر حتى يسكر ، ثم يخرج بين الناس ، يؤذيهم بسفاهته وقلة حيائه وعدوانيته وتبجحه وغروره.

ثالثاً: واضح من الأحاديث الشريفة السابقة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحدد مقدار الضرب المطلوب إيقاعه على السكران ، بحيث أعلن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كحاكم ، لا يجد حرجاً لو مات شخص استحق حداً وأدى إيقاعه عليه ، كالجلد أو القطع إلى وفاته غير المقصودة ، لكن لو أدى ضرب السكران أو جلده لموته غير المقصود ، فإنه يكون قتلاً

خطأً، تجب فيه الدية لأولياء الدم كأي حالة قتل خطأً. وهذا لأن جلد أو ضرب شارب الخمر ليس حداً بل هو تعزير، "... إلا صاحب الخمر، فإنه لو مات وَدَيْته، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنّه" (متفق عليه).

رابعاً: حكاية السكران الذي اقتيد ليمثل أمام النبي صلى الله عليه وسلم واستطاع الإفلات منهم واللجوء لبيت العباس، وكيف ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعله ولم يأمر بملاحقته، ولو كان سارقاً أو زانياً تبينت سرقته أو تبين زناه وأفلت من أيدي الصحابة ما كان النبي ليدع إقامة الحد عليه، أما ضرب السكران فكان تعزيراً، للحاكم كامل الحرية في اتخاذ ما يراه مناسباً ومفيداً.

خامساً: الحلال بيّن والحرام بيّن، ولو كان ضرب السكران حداً من الحدود، لما احتاج عمر بن الخطاب أن يستشير الصحابة كي يقرر مقداره، لأن الحدود يقرر مقدارها رب العالمين في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم إن تجاوب الصحابة مع عمر، وتقديمهم المقترحات، يؤكد أنهم كانوا يعلمون أن ضرب السكران تعزير، ولا حرج في الاجتهاد، ووضع مقدار له يتفقون عليه فيما بينهم.

وأخيراً يبدو لي والله أعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر بضرب من شرب الخمر حتى سكر، ولم يكن يتقصى ليعلم من شرب الخمر دون أن يسكر كي يأمر بضربه، وهذا يعني أننا في هذا العصر يمكننا تحقيق سنة النبي صلى الله عليه وسلم في ضرب السكران، بأن تقرر في القانون عقوبة على الخروج بين الناس في حالة سكر، وكذلك على قيادة السيارة في حالة سكر، لما ينطوي عليه ذلك من خطورة على الآخرين. لاحظوا أن علة تحريم الخمر لم تكن أضراره الصحية التي تقتصر على من يشربها، إنما كان التحريم لحماية مجتمع المؤمنين، من انتشار العداوة والبغضاء فيه، ومن التقصير في الصلاة وذكر الله. وبالتالي، مع أن شرب القليل من الخمر هو من الكبائر، ليس مطلوباً من الدولة فحص دماء الناس أو أنفاسهم، لكشف من منهم قد شرب الخمر كي تضربه، إنما هي عقوبة تعزيرية، سنها النبي صلى الله عليه وسلم للمجاهر، الذي يسكر ولا يستتر، بل يخرج إلى الناس يؤذيهم بأفعاله وأقواله.

الفصل الحادي عشر

الإرهاب الإكراهي

في البداية

في البداية كانت القاعدة ، ثم جاءت الدولة الإسلامية التي أعلنها تنظيم داعش ، لتضع المنطقة ، بل وجميع دول العالم أمام تحدٍ خطير على أمنها. كان الظن أن بالإمكان القضاء على هذه التنظيمات الإسلامية الساعية إلى إكراه الناس على الإسلام وعلى تحكيم الشريعة ، لكن الأيام أثبتت أن القضاء على هذه الجماعات المسلحة - التي كان ظهورها ونشاطها مرغوباً من بعض القوى الإقليمية والعالمية- لن يكون سهلاً ميسراً ، وقد لا يكون ممكناً على الإطلاق.

نبتت داعش في الشام والعراق وتعهدتها استخبارات بعض دول المنطقة بالسقاية والتغذية بطرق غير مباشرة ، بحيث يظن الداعشيون أن المال يأتيهم هبات وتبرعات من أفراد مؤمنين مثلهم ، يريدون أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم ؛ فنمت هذه النبتة ، وضربت جذورها في أرض الشام والعراق ، وصار اجتثاثها عسيراً جداً. سيكون اجتثاث داعش مطلوباً بعد أن يتحقق الهدف الذي من أجله ساعدت القوى الإقليمية والعالمية على نشوئها وتمكنها. فداعش تحقق لهم - دون أن تدري - ما لا يستطيع أحد غيرها أن يحققه.

داعش وانقسام الأمة

تحلم إسرائيل والصهيونية العالمية أن تقسّم الشرق الأوسط إلى دويلات طائفية متناحرة وضعيفة ولا أمل في توحدها من جديد ، وأتت داعش والقاعدة وغيرهما من تنظيمات ، لتؤدي دورها المشؤوم ، المكمل لدور إيران في إثارة الطائفية بين السنة والشيعة ، على مستوى المنطقة كلها ، بل على مستوى العالم بأكمله. ليس كمثل هذه التنظيمات أحد يستطيع غرس الكراهية والأحقاد بين السنة والشيعة ، وبخاصة أن إيران أنشأت ورعت تنظيمات شيعية مقابلة ، لا يختلف تفكيرها عن داعش وأخواتها إلا في أنه من منظور شيعي. كلا الفريقين يكفّر من ليس معهم ، ومن ليس على عقيدتهم والولاء لهم ، ويستحلون قتله ونهبه واغتصاب نسائه.

يطلق الجهادي الإكراهي السني النار ليقتل شيعياً يبادله إطلاق النار، ويصرخ الجهادي "الله أكبر"، ويفرح بنصر الله كلما أردى مسلماً شيعياً أو أصابه إصابة بالغة. كما يهتف الشيعي الذي يصوب طلقاته إلى مسلم سني "الله أكبر" و"يا حسين"، ويشعر أنه كلما قتل سنياً نال أجراً عظيماً عند الله وارتفعت درجته في الجنة. فهل هنالك من هو أقدر من هذين الفريقين الضالين على تمزيق الأمة وخلق الأحقاد والثارات فيها؟ هذا هو الهدف الأول لمن يعبثون بمنطقتنا.

الأهداف خمسة

والهدف الثاني لهم هو تنفير المسلمين وغير المسلمين في منطقتنا وعلى مستوى العالم، من تحكيم الشريعة الإسلامية في حياتهم، على الرغم من إيمان أكثرهم وتقواه. إن ما تقوم به هذه المنظمات التكفيرية الإكراهية من تطبيق غبي للشريعة، هو بمثابة التطعيم أو اللقاح الذي يصيب البدن بالمرض مخففاً، كي لا يبقى للمرض سبيل للعودة إلى هذا الشخص. إن ما يرتكبونه من جرائم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ويتقربون إلى الله، يبث في نفوس الجميع الخوف وكراهية أن تحكّم الشريعة الإسلامية في أوطانهم، وبخاصة الطوائف غير المسلمة وغير السنّية.

ثم الهدف الثالث المرغوب، والذي من أجله تمت رعاية نبتات هذه التنظيمات، فهو ترسيخ تقسيم المنطقة على الأرض وجعل التقسيم أمراً واقعاً لابد للأمة من الاعتراف به وتقبله ولو بعد حين.

ورابع الأهداف الذي تسعى إليه إسرائيل والصهيونية العالمية هو تدمير بلادنا ومواردنا ليتحقق الحلم الصهيوني في تسخير العمالة العربية للعمل عند الرأسمالية الإسرائيلة والصهيونية، ليكون منهم المال والعلم ومنا السواعد التي تعمل بأقل الأجور.

والهدف الخامس هو تجميع الجهاديين من السنة والشيعة في منطقة واحدة يقتل بعضهم بعضاً حتى يفنون، وإن لم يفنهم القتال ما بينهم تكفلت أمريكا بإفناء الباقين.

رَعَوْهم ثم عادَوْهم

لقد أعانت القوى الإقليمية والدولية على قيام داعش وإعلانهم الدولة الإسلامية، ثم قالوا عنهم "إرهابيون" ونعتوهم بكل وصف قبيح، من مجرمين، إلى عملاء، إلى مرضى عقليين

ومتعاطي مخدرات إلى فاسدين مفسدين ، لا يتورعون عن الاعتداء على أعراض الناس وتبرير ذلك فقهياً. وكان ذلك مقدمة لإعلان الحرب عليهم ، وتشكيل تحالف دولي للقضاء عليهم ؛ لكن أمريكا التي تدعي حرصها على تخليص المنطقة من شرورهم ، إنها لا تريد سوى تحجيمهم وحصرهم في حدود جغرافية لا يتجاوزونها.

كتب كاتب أمريكي عن تقسيم العراق والشام إلى دويلات طائفية ، وكان ملفتاً للنظر أن الخارطة المقترحة للمنطقة في المقال ، فيها دولة سنية اسمها "سنّة-ستان" تضم الأنبار وأغلب شرق سورية. استغربت يومها هذا التقسيم ، فقد كنت قبلها أؤمن أنهم سيقسمون العراق إلى ثلاث دويلات ، ثم يقسمون سورية إلى دويلات أخرى ، لكن دون تداخل التقسيمين ؛ وزال استغرابي عندما أعلن داعش دولته الإسلامية على مناطق سنّستان التي حددتها خارطة التقسيم المقترحة من أمريكا.

قيام دولة سنية طائفية في هذه المناطق مطلب استراتيجي للذين يخافون من امتداد نفوذ إيران ، حيث تكسر هذه الدولة الهلال الشيعي ، وتحرم إيران وشيعة سورية ولبنان من التواصل عبر طرق برية ، يستطيع الطرفان بواسطتها نقل العتاد والسلاح.

كان بإمكان أمريكا والقوى الإقليمية السنيّة أن تنشىء دولة سنيّة موالية لهم ، بدل الدولة الداعشية المعادية ، وبذلك يتحقق كسر الهلال الشيعي. لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل أتاحوا لداعش أن تقيم دولة معادية لهم ومعادية لإيران ، لأنها رغم عداوتها لهم ستحقق لهم أهدافهم الخمسة التي ذكرتها أعلاه ، لذلك كثر حديثهم عن الحاجة إلى عشرات السنين كي نقضي على داعش ودولته ، أي إن نيتهم ترك داعش ودولته قائمة عشرات السنين قبل أن يسحقوها ، ليكون ذلك بعد تحقق الأهداف الخمسة كلها.

أما دول المنطقة التي أدركت خطورة داعش عليها فقد عملت بكل طاقاتها لمحاربته وتجفيف منابعه وموارده.. فصنفوه منظمة إرهابية ، وصنفوا كل من يقدم له شيئاً إرهابياً ، وبالتالي مجرماً يلاحقه القانون ، وتناله العقوبات القاسية.

الظن الخاطىء

ظنت هذه الدول - وكلها مسلمة -، أنها قادرة على تجفيف منابع هذه المنظمات الإكراهية عن طريق تصنيفها لداعش والقاعدة وأخواتهما كإرهابيين مطلوبين للعدالة ، وعن

طريق وصف ما يقومون به بأنه جرائم يرفضها الإسلام ، وأعلن كثير من علماء الدين فتاواهم بأن هؤلاء الإرهابيين خوارج ، يجب قتالهم وقتلهم ، ومنع ما يفعلونه من إكراه غير المسلمين على الإسلام ، حيث يخرجون من لا يُسلم منهم من ديارهم ، ويسبون نسائهم ليبيعوهن جوارٍ يستحل من يشتريهن أن يستمتع بهن متعة الزوج بزوجته. تعمل الآلة الإعلامية الموجهة ضد داعش والقاعدة والدولة الإسلامية - التي يرأسها من نصّب نفسه خليفة- ليل نهار ، والحكومات تحسب أنها بذلك وبفتاوى العلماء ستنتصر على داعش وتقنع الشباب المسلم بعدم الانضمام إليها.

كان من الممكن أن يصدق هذا الظن ، لولا أن داعش التي نزدريها ، والقاعدة التي نسعد كلما تلقت ضربة موجعة ، وبوكو حرام وغيرهم هم في عيون الكثيرين من المتدينين والإسلاميين شيء آخر مختلف ، كما إن هنالك حقائق أخرى هامة لم تأخذها هذه الحكومات في اعتبارها.

لابد من الأخذ بالاعتبار

أول هذه الحقائق التي على الحكومات أخذها في الاعتبار ، هي أن الداعشيين والقاعديين ومن على نهجهم ، يراهم الكثيرون من الذين يتمنون أن ترجع دولة الخلافة ، أبطالاً ومجاهدين مخلصين ، أخذوا الكتاب بقوة ، كما فعل يحيى عليه السلام ، لتصبح قسوة التكفيريين الإكراهيين مبررة ومظهراً لأخذ الكتاب بقوة ، لا تأخذهم في الله لومة لائم.

أما ما يُكال للإكراهيين من دواعش وغيرهم من أوصاف سيئة ، فإن من يراهم مجاهدين أبطالاً ، لن يبالي بها ، وسيعتبرها مجرد دعاية كاذبة تهدف إلى تشويه صورة هؤلاء الأبطال ، لتبرير القضاء عليهم وعلى مشروع دولتهم الإسلامية ، ولن يكون لهذه الدعاية رغم صدقها أية مصداقية لديهم ، وسيبقى متعاطفاً ومؤيداً لهذه التنظيمات الإكراهية ، ولن يتردد في دعمها بالدعاء لها ، وبالمال ، إن أمن على نفسه ، أو الانضمام إليها إن أراد أن يضحي بنفسه في سبيل جنة عرضها السماوات والأرض. ومما يرسخ اعجابهم بهؤلاء ، وعدم تصديق ما يقال عنهم ، أن التحالف الذي يحاربهم ، تحالف أمريكي - أوربي إضافة لدول إسلامية ، وكثير منهم يعتبرون الكراهية والعداء من هذه الدول - وبخاصة غير المسلمة منها- دليلاً على إخلاص هؤلاء الجهاديين الإكراهيين ، وعلى أنهم على الحق ، لذلك يحاربهم الجميع ، كي لا تقوم للمسلمين

دولة تطبق الشريعة وتعيد الخلافة وتفرض عزة المسلمين على الجميع. إنه منطق: عدو عدوك هو صديقك دائماً ، وهو منطق خاطىء إذ ما أكثر ما يكون عدو عدوك عدواً لدوداً لك أيضاً.

لن يزيد وجود دول مسلمة ضمن التحالف من مصداقية الدعاية المضادة للجهاديين الإكراهيين ، لأن للتيار الإسلامي تجارب مريرة مع كثير من أنظمة هذه الدول المسلمة التي لا تخفي عداءها لكل من يسعى إلى تطبيق الشريعة من جديد ، ولأن الاعتقاد أن حكومات الدول المسلمة هي إما عميلة ومتعاونة مع الغرب الصليبي أو خاضعة لإملاءاته ولا تجرؤ على مخالفتها.

دعاية مضادة غير مجدية

ومما يجعل الدعاية المضادة للمنظمات الجهادية الإكراهية غير فعالة ، أن ما يقال عن أعمالهم ، أنها مما يأباه الإسلام ولا يقره بحال من الأحوال ، إنما هو تصريحات لعلماء دين ، كثير منهم متهم في صدقه ، ظنّاً أنهم من علماء السلاطين ، الذين يفتون بما يريده الحاكم. وهذه التصريحات يطلقها المفتون دون تأصيل شرعي مقنع ، إنما هي شعارات سياسية ، على النقيض من الفقه الموروث ومن التاريخ ، الذي تباهي به الأمة الإسلامية. نعم وللأسف لم ينجح علماؤنا في إثبات أن الجهاديين الإكراهيين خاطئون من الناحية الشرعية ، ولم يقدموا أدلة قوية على فتاواهم وتصريحاتهم. وبالمقابل هنالك مفكرون - رغم قلة عددهم- يؤصلون تأصيلاً قوياً مدعما بالنصوص وأقوال العلماء الكبار السابقين ، يثبت لهؤلاء ، أن ما يقومون به هو الحق الذي يرضي ربنا ، ويجب من أجله التضحية بالنفس والمال ، دون أن تأخذنا في الله لومة لائم.

من يقرأ لأبي محمد المقدسي مثلاً سينبهر وسيظن أن هؤلاء الجهاديين الإكراهيين على الحق المبين ، حتى لو كفَّروا الشعوب المسلمة واستحلوا دماءها ، فإن ذلك جهاد قصرت فيه الأمة كثيراً ، وأحياه هؤلاء الرجال المخلصون.

هؤلاء الشباب المتحمسون لدين الله ، ولاستعادة عزة المسلمين ، ولتحكيم شرع الله ، والمتعجلون للوصول إلى الجنة من أقصر وأسرع طريق ، هم في الغالب زادهم من الفقه قليل وعلمهم الشرعي هزيل.. هم أناس يريدون أن يعملوا دون أن يفلسفوا الأمور ، حيث تبدو لهم الأشياء واضحة بسيطة ، لا تحتاج إلى تخريجات العلماء ، سواء منهم السابقون أو المعاصرون ، طالما هنالك آيات وأحاديث شريفة ظاهرها يؤيد ما يفعلونه. إنهم لا يريدون إضاعة الوقت

والجهد في التنظير ، بل هم يستجيبون لداعي الجهاد في سبيل الله ، ولا يهمهم من خالفهم أو خطّأهم.

أمور واجبة وحقائق غائبة

لن يمكننا مواجهة خطر هؤلاء الجهاديين التكفيريين الإكراهيين إلا عندما نأخذ في اعتبارنا الحقائق التالية:

1. الإنصاف

إنهم في غالبيتهم شباب مؤمن مخلص ، لا يريد غير الجنة ورضوان الله ، وإن كان من المؤكد أن فيهم عملاء استخبارات متعددة ، ابتداءً بالموساد الإسرائيلي ووكالة الاستخبارات الأمريكية ، وانتهاء باستخبارات دول الإقليم ، ومن المؤكد أن من هؤلاء المندسين بينهم والمخترقين لهم من وصل إلى مواقع قيادية في هذه التنظيمات ، ويبذل الجهد لتوجيهها ، لتقوم بما يخدم أعداء الأمة الإسلامية ، وذلك سهل عليهم ، لأن العلماء والفقهاء نادرون في هذه التنظيمات ، وكذلك الخبراء في السياسة ، السياسة التي تراعي المصلحة ، وتقدمها على الأهداف الإيديولوجية ، لتجعلهم يتصرفون بحكمة أكثر وبراغماتية ، على النقيض مما يقومون به حالياً من أعمال متهورة تشوه صورة الإسلام والجهاد والشريعة.

قد يبدو ما أقوله دفاعاً عن التكفيريين الإكراهيين وتبريراً لأخطائهم يضر قضيتنا للقضاء عليهم ، لكن العكس هو الصحيح. إن الإقرار بإخلاصهم وصدق نواياهم ودوافعهم ، يجعلنا أقدر على تقليل خطرهم ، وعلى القضاء على تنظيماتهم. إن الإقرار بما لديهم من الحق والإخلاص ، والتوقف عن الدعاية المضادة لهم التي تتهمهم بما ليس فيهم ، وبما لا يصدقه من يعرفهم عن قرب ، هذا الإقرار المرافق لبيان أنهم مخطئون فيما يتبعونه من اجتهادات فقهية تتنافى مع روح الإسلام ، هذا الدين الحق الذي كان أول دين يعلنها صريحة أن "لا إكراه في الدين" ، وأن رسولنا صلى الله عليه وسلم ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين ، أي لكل الشعوب والأمم على اختلاف أديانها ومعتقداتها.

إن هذا التوصيف المنصف لحالهم ، يجعل دعايتنا المضادة لهم تصل إلى قلوب كثيرين منهم ، ممن بهرهم إخلاصهم ولم يفطنوا إلى خطئهم ، وإلى الآثار المدمرة لجهادهم القائم على

إكراه الناس على دين "اللا إكراه". إننا بذلك نستطيع أن نؤثر على كثير منهم ، بحيث يمكن أن يتراجعوا عما تورطوا فيه من الشر وهم يحسبونه خيراً. لقد أقر قرآننا أن الكافرين لديهم من الحق مقادير تزيد أو تنقص ، وجاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب لكن مهيمناً عليه ، يصحح ما أصابه من تشويه وانحراف. إن من أكبر الأخطاء في محاولة إقناع الناس بأنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه ، أن لا نعترف بصدق نواياهم ، وأن لا نعترف بالحق الذي معهم ، المختلط بالباطل الناتج عن سوء الفهم لهذا الدين. إن ذلك يجعل من نخاطبهم دفاعيين لا يفكرون في أن ما نقوله لهم من آراء مخالفة لما هم عليه قد يكون محقاً وصائباً. أنت بخير ما دمت تؤمن أن اجتهادك صواب يحتمل الخطأ ، وأن اجتهاد مخالفيك خطأ يحتمل الصواب ، وإلا فإنك لن تُعْمِل عقلك في التفكر بما يطرح عليك من رأي يخالف ما أنت عليه.

إننا عندما ننكر ما لديهم من صدق وإخلاص ونقول لهم إن الإسلام لا يرضى بما تقومون به ، وما أنتم إلا مجرمين وضالين ومفسدين في الأرض ، فإننا بذلك نفقد كل مصداقيتنا لديهم ، ونكون في نظرهم أعداءً للحق ، نوايانا خبيثة ، وغايتنا خدمة الطواغيت في الأرض ، وليس الاهتداء إلى الصواب والحق.

يجب أن لا نستخف بهذه القضية ونقول: هؤلاء لا أمل فيهم ، فقد غُسلت أدمغتهم ، وغُيّب وعيهم ، وباعوا أنفسهم من أجل المال والجنس ، فنيأس منهم ولا نجد أمامنا إلا قتالهم وقتلهم. فتاريخنا يروي لنا أن ابن عباس رضي الله عنه ، استطاع خلال أيام قليلة ، أن يقنع آلاف الخوارج أنهم مخطئون ، فتركوا قتال علي رضي الله عنه. وهذا يعني أن من ينطبق عليه وصف أنه من الخوارج ، الأصل فيه أنه مخلص جانَبَ الصواب ، وأنه قابل لأن يهتدي إلى الحق ويرجع إليه.

لو تمكنا بحكمتنا وبرحمتنا لهم وباعتبارهم "إخواننا بغوا علينا" من جعل بعضهم يصغي إلينا ، ويستمع ما نقول ، فينسحب منهم ، فسيكون ذلك إنجازاً عظيماً ، لأن هؤلاء المنسحبين منهم سيكونون مقنعين لأعداد لا تحصى من الشباب المسلم المهيّأ للانضمام إليهم أن طريقهم خاطئة.

ثم إن اقرارنا بما لديهم من إخلاص ، يجعل دعايتنا تصل إلى قلوب الملايين ، الذين يرونهم أبطالاً ومجاهدين ، بحيث ننجح في تجفيف منابع هذه التنظيمات الجهادية الإكراهية إلى حد كبير.

2. الـوضـوح

لا بد أن يكون خلافنا معهم واضحاً لنا ولهم ، هل هو اختلاف حول تكفير من لا يحكم بشرع الله أم هو اختلاف على شيء آخر؟ إن حصر الخلاف معهم في أنهم تكفيريون وأنهم إرهابيون عنيفون لن ينجح ، لأن الله أمر المؤمنين بإعداد ما استطاعوا من قوة يرهبون بها عدو الله وعدوهم ، ووصف من لا يوحده توحيداً خالصاً أنه كافر. ألم يقل ربنا: "لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...." المائدة 17؟ ومع ذلك أحل لنا المحصنات من نسائهم نتزوجهن وننجب منهن.

في كل دين معتقدات أساسية من يؤمن بها فهو مؤمن ومن لا يؤمن بها فهو كافر. حتى المسلم الذي هو على هدي رسول الله رضي الله عنه كافر بالنسبة للذي يؤمن أنه لا نجاة ولا خلاص لمن لا يؤمن بألوهية المسيح. إن كنا نعيب عليهم أنهم يكفرون المخالف لهم فلن يستمعوا إلينا بل سيروننا ضعفاء مداهنين أو منافقين ، لا نكفر الكافر ، بل نمتنع عن تحديد موقفنا منه ومن كفره: "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2}" الكافرون.

وستضعف حجتنا لديهم لأن التكفير ، وبخاصة تكفير من لم يحكم بما أنزل الله ، يبدو هو الصواب لمن هو قليل الفقه ، لأنه ظاهر الآية الكريمة:

"...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{47}" المائدة.

وسيبدو الخلاف بيننا وبينهم اختلافاً فيما نأخذ به ويأخذون به من اجتهادات مختلفة لا يعني اختلافها أنهم على باطل.

أعتقد أن خلافنا معهم هو على قوله تعالى: "لا إكراه في الدين" وليس في أنهم جهاديون ، ولا حول من نكفره من الناس ومن لا نكفره. هؤلاء إن أردنا الإنصاف أناس يجاهدون في سبيل الله وفق ما وصلنا من فقه السابقين ، الذي يصر على أننا مأمورون أن نقاتل الناس ، كل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعندها فقط

تكون دماؤهم وأموالهم معصومة. لقد بينت فيما سبق من فصول هذا الكتاب أن الناس المقصودين في الحديث الشريف إنما هم مشركوا العرب في جزيرة العرب في زمن الرسالة ، لكن حسب الفقه الشائع لدينا في هذا العصر لم يتبنَّ أحد من أئمتنا لا الشافعي ولا غيره هذا الفهم ، بينما عمل الصحابة كان واضحاً ولم يختلفوا أبداً في أن دماء المشركين وأموالهم وأعراضهم معصومة ، باستثناء القبائل العربية التي كانت تسكن أرض العرب ، ولم يسجل التاريخ أن المسلمين خيروا أحداً خارج أرض العرب بين الإسلام والقتل ، على رغم شرك أقوام كثيرة تغلب عليها المسلمون وفتحوا بلدانها. هل منا من ينكر أن المجوس الذين يعبدون النار مشركون ، وأن الهندوس والبوذيين وعبدة الشيطان وغيرهم مشركون؟ هل أجمع صحابة رسول الله والتابعون على أن يخالفوا أمر رسول الله طمعاً في جزية يتقاضونها من الكافر المغلوب المصر على كفره ؟ هل يعقل هذا ؟ إن التاريخ يثبت أن كلمة الناس في هذا الحديث لا تعني البشرية كلها ، والاعتقاد أنها تعني كل البشر هو فهم خاطىء ، حتى لو أصر عليه الشافعي أو غيره من الأئمة.

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطبقوا آية السيف على أحد من غير المشركين العرب في أرض العرب ، ومن المستحيل أن يتواطؤوا كلهم على عدم تطبيق أوامر الله ورسوله من أجل جزية ضئيلة لا تؤخذ إلا من القادرين عليها.

خلافنا مع من نسميهم إرهابيين ، هو على جواز إكراه الناس في الدين ، أو وجوب ترك الحرية لهم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إن إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين مطلوب بنص القرآن لذلك لن يفيد وصفنا لهم بالإرهابيين شيئاً عندهم وعند كل من يراهم مجاهدين مخلصين يقدمون أرواحهم في سبيل الله.

إن التوصيف الصحيح الذي لا يلتبس ولن تختلف فيه التعريفات هو أن هؤلاء إكراهيون ، ننسبهم إلى الإكراه في الدين الذي ظنوا أن الله كلفهم به ليسوقوا الناس إلى الجنة سوقاً. ومع أن تراثنا الفقهي يحتوي اجتهادات فقهية كثيرة تفيد أن إكراه الناس أو إكراه المسلمين في الأمور الدينية شيء مرغوب بل مأمور به ، يجب أن لا ندفن رؤوسنا في الرمال وننكر جذور المشكلة وأسباب العلة التي أصابت أمتنا في السنين الأخيرة. إن هؤلاء الإكراهيين أناس مخلصون في غالبيتهم ، يقدمون أرواحهم في سبيل استعادة الحكم بما أنزل الله ، لكنهم ضحايا لاجتهادات عديدة في ديننا تحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر فيها ، لنتبين أن الإسلام دين الرحمة ودين

الحرية ودين اللا إكراه في الدين، ولولا ذلك لما بقي في العراق أمة تعبد الشيطان ولا تدعي الإسلام نفاقاً على الأقل، والعراق كان حاضرة الخلافة العباسية. لقد مكث المسلمون حكاماً ومستوطنين في الأندلس ثمانية قرون، وعندما سقطت الأندلس بيد الفرنجة، كان ما يزال حوالي نصف أهلها نصارى ويهود لم يتعرضوا لأي نوع من الإكراه في الدين، بل كان هنالك تقصير في دعوتهم وجذبهم إلى الإسلام.

علينا إن كنا فعلاً نريد تجاوز الإكراه في الدين، الذي تفوقت فيه تنظيمات داعش والقاعدة وبوكو حرام وغيرها من تنظيمات إسلامية تسيء إلى الإسلام، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، علينا إعطاء مصداقية لما جاء في هذا الكتاب من فهم للإسلام يحترم حرية الناس، ولا يكرههم في الدين على شيء. لا أقول أن تتبنى الأمة كل ما جاء فيه، فالاختلاف طبيعة البشر، ولن تتوحد الأمة على فهم واحد لهذا الدين إلى يوم الدين، إنما يمكن أن تقوم لجنة من العلماء بدراسته، ويكفي إن وجدوه مفيداً أن يعلنوا أن الاجتهادات الواردة فيه هي اجتهادات مستساغة، قد تكون صحيحة، ولا حرج على من يشاء أن يأخذ بها.

كتاب الميزان هذا يحتوي تأصيلات لفهومات للإسلام من الممكن أن تكون مقنعة، وتستطيع أن تواجه الإكراهيين، وتثبت أن ما هم عليه ليس هو اليقين في فهم الإسلام، وأن الإسلام يتسع لتدين قائم على اللا إكراه في الدين.

لن ننجح في تجفيف منابع الإرهاب الإكراهي، ما لم نهز قناعات الأمة بفهوم لبعض نصوص القرآن والحديث الشريف، يستخدمها الإكراهيون حججاً وأدلة على أن ما يرتكبونه هو الذي يرضي ربنا ويبرىء ذمتنا أمام خالقنا. لن تستطيع الحلول الأمنية والحروب أن تقضي على ما يسمى الإرهاب التكفيري، لأنك لن تخيف من يريد أن يموت، بل هو في عجلة من أمره، يريد الانتقال الفوري إلى الجنة ونعيمها، وحتى لو قضيتَ على أكبر عدد منهم، فإنك لن تقضي على المشكلة، لأن الأمة عائدة إلى دينها، وطالما اهتدى من المسلمين إلى الالتزام بهذا الدين أعداد كبيرة جديدة كل اليوم، وطالما تلقى هؤلاء العائدون إلى دينهم أو الداخلون الجدد فيه ما تراكم عندنا من تراث فقهي، يؤصل للإكراه في الدين ولاستباحة دماء وأموال وأعراض كل من نعتبره مشركاً أو مرتداً أو كتابياً، يأبى الدخول في الإسلام، ويرفض أن يعطي الجزية عن يدٍ وهو صاغر، طالما استمر الحال على ما هو عليه، فإن كل إكراهي، أي إرهابي يُقتل أو يُؤسر،

سيخلفه اثنان أو ثلاثة من المسلمين الذين يريدون اختصار الطريق إلى الجنة، وستكثر الضحايا منهم ومن الأمة ومن الأمم الأخرى.

أقولها ثانية: إنهم وضحاياهم، ضحايا الموروث الفقهي، الذي يقدم هؤلاء الشباب الإكراهيون - الذين يسمون الإرهابيين- أرواحهم رخيصة من أجل تحقيق بعضه في أرض الواقع، ومن يقتل على أيديهم أو يؤذى، هو ضحية جهاد نابع من هذا الفقه الموروث.

الأمة تشعر أن ما يرتكبه الإكراهيون من أفعال تحرج المسلمين، وتضر بقضاياهم وبسمعتهم، وتنفر الناس من الإسلام، تشعر أنه لا يمكن أن يكون ديننا يأمر بهذا... لكن الموروث الفقهي عندنا يأمر بما يرتكبونه. ومشكلتهم الكبرى من منظور هذا الفقه، أنهم يأخذون بأشد الأحكام، ويطبقونها بقسوة لا رحمة فيها، ويستسهلون قتل الناس بناء على اجتهادات موروثة، كانت محض اجتهادات، أي آراء للفقهاء القدامى تحتمل الخطأ كما تحتمل الصواب.

3. ليسوا مجانين ولا سايكوباثيين

لابد لنا أيضاً ان نعلم أن هؤلاء الإكراهيون ليس منهم مرضى نفسيون أكثر مما من باقي الأمة، وأنهم ليسوا مجرمين يرتكبون ما يرتكبونه بدوافع إجرامية، حتى لو كان منهم أصحاب سوابق جنائية لكنهم تابوا واهتدوا أو دخلوا في الإسلام وهم في السجون. نعم من كان طبعه على مدى سنين طويلة أن لا يشعر بمعاناة البشر الآخرين ولا يتعاطف مع آلامهم، فيكون بلا ضمير، ويكون ممن لا يستحيون، ولا يلومون أنفسهم أبداً مهما ارتكبوا، من كانت هذه حاله ثم اهتدى إلى الإسلام، أو تاب وأراد أن يصلح، لن يكون من خيار الأمة حتى لو انخرط في الجهاد في سبيل الله مضحياً بحياته، ذلك أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: "فعن معادنِ العربِ تسألونني؟ الناسُ معادنُ، خيارهم في الجاهليةِ خيارهم في الإسلامِ، إذا فَقِهُوا". (متفق عليه).وبالمقابل يغلب أن يبقى شرارنا في جاهليتهم، شرارنا بعد عودتهم للدين، وتكون لديهم الجرأة على العدوان على الناس بقسوة، إن ظنوا أن الجهاد في سبيل الله يستدعي منهم ذلك، فيبطشون إذا بطشوا جبارين، ويميلون إلى الأخذ بالفتاوى القاسية التي تبيح لهم دماء الناس بحجة الشرك أو الردة أو الفساد في الأرض. لكن في الأغلب لن يصل هؤلاء إلى موقع القيادة والريادة وتوجيه المسار، لأن طباعهم تجعلهم عاجزين عن القيادة والتخطيط المتروي، ويغلب أن تكون لديهم مشاعر إيمانية شديدة بلا فقه على الإطلاق أو بفقه

قليل ، وبطبعهم الأصيل الميال للعدوان فإنهم يكونون مجاهدين سيئين عندما يجاهدون. المهم هؤلاء ليسوا الأغلبية بل قد تضم أغلبية الإرهابيين الإكراهيين بعضاً من خيرة رجال ونساء هذه الأمة من حيث الإخلاص والرغبة في رضوان الله.

لن ننجح في القضاء على شرورهم ما لم نعرفهم ونفهمهم جيداً ، لنعرف كيف نتعامل معهم ، بحيث يكفون عن عدوانهم أو يُقتلون أو يؤسرون. ويجب أن لا يدفعنا كرهنا لهم إلى أن لا نكون منصفين ،لأن الإنصاف والواقعية والتعامل الإسلامي الحق معهم هو الذي يدفع خطرهم وضررهم عنا جميعاً حكاماً ومحكومين.

4. بُغاة لا مجرمين

علينا أن نعاملهم على أنهم بغاة ونطبق عليهم أحكام البغاة لا أحكام المجرمين الجنائيين ، وعلينا أن لا نعذب أحداً منهم أو نظن أنه منهم ، مهما بدا لنا أن المعلومات التي سننتزعها منه مهمة ومفيدة. لأن قسوة الجهات الأمنية في كثير من البلدان المسلمة ولدت حقداً في نفوس من تقع عليهم هذه القسوة ، وفي قلوب أهليهم وأصحابهم ومن لا يعلمون عنهم إلا خيراً ، باستثناء جهادهم الإكراهي الإرهابي. هذه الأحقاد تجعل الكثير من المسلمين يأخذون بالاجتهاد الذي يرى الحكام ورجال أمنهم ، الذين لا يتورعون عن البطش بلا رحمة وعن العدوان على المشتبه بهم ، وعلى الذين وقعوا في الأسر منهم ، يراهم كفاراً أو مرتدين أو منافقين ، فتفرخ هذه الأحقاد إرهابيين إكراهيين جدداً ، وتستمر السلسة لا انقطاع لها وتدوم معاناتنا وخسائرنا.

إن كانت هنالك شبهة كبيرة في أن واحداً من الناس هو منهم ويُخشى خطره ، فإن ديننا يحتم علينا إن ارتأينا أن نسجنه لنكف أذاه المحتمل ، أن نعامله برحمة ، إذ قد يكون بريئاً ، وحتى لو كان منهم ، فإنه باغ متأول يكفينا سجنه ولو مدى الحياة ، لكن دون أن نعتدي عليه بالتعذيب الجسدي أو النفسي أو حبسه في ظروف غير إنسانية ، كما لا داعي لاتقاء شره بإعدامه ، بل يمكن بناء سجون تكون الحياة فيها لائقة بالبشر ، وتكون فترة سجنهم فرصة لمحاولة إصلاحهم وإقناعهم بالاجتهادات التي يحتملها ديننا وتنهى عن الإكراه في الدين بإطلاق ، ولا تنسى دولنا زوجاتهم واطفالهم ، سواء كانوا إرهابيين إكراهيين ، أو كانوا مشتبهاً بهم فحسب ، فتنفق عليهم وترعاهم.

لن ينصلح الجميع بالتأكيد، لكن لو عاملناهم على أنهم إخواننا بغوا علينا، متأولين اجتهاداً فقهياً موجوداً في تراثنا، أو ابتدعه أحد من المعاصرين، فإننا سننجح أكثر في إصلاحهم، وسيتشجع من تصله رسائلنا الإصلاحية على أن يتركهم، ويعود إلى الصواب، لأنه يأمن على نفسه من أن يُقتل أو يُعذب، تماماً كما هو حكم المفسدين في الأرض، الذين يقطعون الطريق، ويشكلون عصابات مسلحة، تقتل وتسرق وتغتصب، فإنهم تسقط عنهم عقوبة الدنيا إن هم تابوا من قبل أن نأسرهم ونقدر عليهم. وما ذلك استهانة من ربنا بحقوق ضحاياهم، إنما هو إبقاء لخط رجعة لهم، يسهل توبة من يقرر التوبة منهم، بدل أن يدفعه خوفه من العقاب على ما ارتكب من جرائم إلى أن يستميت في الدفاع عن نفسه، كي لا نأسره، ويُفضِّل أن يقاتل المجتمع حتى يُقتل أو يموت، وهو في دفاعه المستميت عن نفسه، يقتل ويسرق ويغتصب أعداداً كبيرة من الأبرياء، الذين ما كانوا ليصيبهم الأذى لو كان قد تاب من قبل أن تجمعهم به الأقدار.

5. إكراهيون وإرهابيون

مفهوم الإرهاب فيه غموض وعدم تحديد، بحيث يراه بعض المتدينين، مجرد تسمية قبيحة للجهاد في سبيل الله، لا تضر من صدقَ النية وباع نفسه لله، يقاتل في سبيله، فيَقْتُل أو يُقتل. إننا عندما نقول عنهم إرهابيين، ونحاربهم نريد استئصالهم لأنهم إرهابيون، نكون قد أسدينا لهم خدمة عظيمة، لأن أغلبهم وأغلب المتدينين لا يميزون بين الجهاد والإرهاب.

والأنكى من ذلك أنهم يُحارَبون لأنهم جهاديون، وهم وباقي المؤمنين المتدينين يرون الجهاد أحب الأعمال إلى الله بعد الإيمان به. إن مهاجمتنا لهم بحجة أنهم جهاديون إرهابيون تكفيريون تجعلهم أكثر إصراراً على ضلالهم، وتُكسبهم تعاطفاً أكبر من المتدينين في أنحاء العالم كلها، بحيث لا تنقطع عنهم المعونات المالية، وبحيث ينضم إليهم كل يوم المزيد من شباب هذه الأمة.

بالمقابل عندما نعيب عليهم أنهم إكراهيون، ونبين لهم بالأدلة الشرعية القوية أن الأصل في الإسلام هو "اللاإكراه في الدين"، ونستفيد من كتابي هذا في تأصيل هذا المبدأ العظيم، ونروّج للاإكراه في الدين في وسائل الإعلام، وفي المناهج الدراسية، ليتسع أفق المسلم المعاصر، وليرى هؤلاء الإكراهيين مخطئين رغم صدق نياتهم ونبل أهدافهم، فإننا

سننجح بعون الله نجاحاً عظيماً في تجفيف منابعهم ، وفي جعلهم مجرد ظاهرة وموجة ، مرت بها أمة الإسلام وتجاوزتها ، ولن تقع فيها من جديد أبداً.

الجهاد عبادة عظيمة في الإسلام ، والمسلم المخلص لن يثبطه أن نسمي الجهاد في سبيل الله إرهاباً ، ولن تنفّر هذه التسمية ملايين الشباب المسلم العائد إلى دين الله ، فلا ينضم إليهم ولا يؤازرهم بالمال والجهد والخبرة.. بينما الإكراه في الدين شيء بغيض تستنكره الفطرة السوية للمسلم وغير المسلم ، وبخاصة إن أثبتنا للناس أن الظن أن الإكراه في الدين مرغوب ومطلوب في دين الله ظن خاطىء.

إن محاربة فكر الإكراه في الدين لا محاربة "الجهاد من أجل تطبيق الشريعة" لن تستثير غَيْرة الكثيرين ليدافعوا عنه. بل محاربة الإكراه في الدين بهذا الوضوح ، سينهض بالأمة إلى درجة أعلى وأرقى في فهم دين الله كما أراده الله. وسيجعل الأمة - ممثلة في متدينيها وإسلامييها- تتبنى إيديولوجية جديدة ، فتسعى لاستعادة عزة المسلمين ، ولتحكيم شرع الله ، لكن دون إكراه ، بل ستكون إيديولوجية قائمة على الإيمان بحرية الإنسان المستخلف في الأرض ، والمسؤول عن خياراته وأعماله.

لا يمكن أن نقضي على الضلال ما لم ننشر الهداية ، ولن نقضي على الزنا ما لم نيسر الزواج ، ولن نقضي على الربا ما لم نيسر التجارة والاستثمار الحلال. لا بد من ملء الفراغ الذي ينشأ ، عندما يزول الباطل ، فالباطل كالظلام ، لا يمكن طرده إلا بإحلال النور محله.

إن المصلحة تقتضي ترويج فكر اللاإكراه في الدين حتى لو كانت قناعتنا به لم تكتمل ولم تترسخ ، لأن خطر الإكراهيين علينا جميعاً خطر عظيم ، سيقضي علينا إن لم نقضِ عليه نحن أولاً. علينا أن نتجاوز تعصبنا لمذاهبنا المختلفة ، ونتخلص من فرح كل حزب منا بما لديهم ، أي اختيالهم وفخرهم بما عندهم وازدراؤهم للآراء المخالفة التي تقوم عليها المذاهب الأخرى ، فتعمى الأبصار وتُصَم الأسماع عن الحق الذي لا نجاة لهذه الأمة ، وللبشرية من ورائها إلا باتباعه.

6. الإسلام المعتدل

إن أعداء الأمة ومعهم أصدقاؤها المتضررون من جهاد الإكراهيين ، يدعونها إلى تطوير فهم معتدل للإسلام ، ليبرالياً أو غير ليبرالي ، بحيث يصبح إسلاماً مسالماً لا مخالب له ، وهم لا

يدركون أنه دين ، وأن ليّ أعناق نصوصه ، ونشر الفهوم المرجوحة لها ، عن قصد وتعمد ، إنما هو خروج من هذا الدين ، واختراع لدين وضعي بشري بدلاً عنه ، لا ينفعنا في آخرتنا ، ولن يقبله الله منا ، بل سيكون رداً علينا.

كتابي هذا يبين ان العودة إلى النصوص وفهمها فهما مباشراً لا تأويل فيه ، ولا يخرجها عن سياقها التاريخي ، ولا عن سياقها ضمن المنظومة الفكرية المتكاملة للإسلام ، هو الخلاص مما نحن فيه ، وهو العودة إلى الاعتدال الذي أفقدنا إياه ، سوء فهم أجدادنا لبعض النصوص ، عندما بنوا فقههم على أصول قائمة على الفلسفة والمنطق ، اللذين دخلا في صميم فهم المسلمين لدينهم ، وقامت علوم اللغة عليهما ، ليقوم الفقه على علوم اللغة ، وعلى أصول اجتهد فقهاء متأثرون بالمنطق وعلوم اللغة في وضعها ، فجُعلت العِبرة في "عموم اللفظ" ، لا في "خصوص السبب" ، منتزعة بذلك النصوص من سياقها ضمن منظومة الإسلام ككل ، ومن سياقها التاريخي الذي لا يمكن فهمها الفهم الصحيح دون اعتباره. وسيكون فهمنا لها مدعاة للغلو والتطرف عندما ننزع النص من سياقه ونستنتج منه مبادىء شاملة ومُطلقة ، ثم نأخذ بها ، ونؤوّل النصوص الباقية في ضوئها ، هذه المبادىء التي نظنها الحق وهي ليست منه.

إنها السلفية الإسلامية عندما تبلغ أعلى وأرقى درجاتها ، فتصبح "سلفية نَصِّيّة" تقرأ نصوص الإسلام من جديد ضمن سياقاتها الطبيعية ، فتدرك أن كلمة "الناس" مثلاً ، لا تعني البشرية كلها في كل نص جاءت ضمنه ، وأنها كانت بلغة الرسول صلى الله عليه وسلم تعني أهل قرية من القرى أو حي من الأحياء أو حتى أمة بعينها لا تتعداها إلى غيرها ، فنعلم أن الناس في القرآن والحديث الصحيح قد تعني العرب الذين فيهم بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أو حتى بعضهم "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .." آل عمران ، ونفقه ديننا كما فقهه الصحابة الذين تركوا لنا تاريخهم ، ولم يتركوا لنا كتباً ولا مراجع تفلسف فقههم وتضع له الأصول.. وبالتأكيد لن نختلف على أن الصحابة الذين فتحوا أصقاع العالم القديم ، ووصلوا إلى مشرقه ومغربه ، لم يُكرهوا مشركاً واحداً على الإسلام خارج أرض العرب ، ولم يخيّروا أحداً بين الإسلام والقتل سوى مشركي العرب في جزيرة العرب حصراً. لا نحتاج إلى أصول يجتهد العقل البشري في وضعها ليصبح أسيراً لها ، فلا يفهم نصاً قرآنياً أو نبوياً إلا وفقها ، حتى لو كانت البداهة الإنسانية common sense تنكر هذا الفهم وتتعارض معه.

إثراء لا إلغاء التعليم الديني

من أجل أن نجفف منابع الإرهاب الإكراهي، نحتاج إلى تعميق الثقافة الدينية المدرسية، بحيث نعلم طلبة المدارس كيف تُستنبط الأحكام الفقهية من النصوص، كي يتبين لهم لِمَ تختلف الأحكام المستنبطة من فقيه إلى آخر، فيتعلمون أن يَعْذروا المخالف في المذهب فلا يعادونه ولا يحقدون عليه. مخطىء من يظن أن الحل هو تقليل جرعة التعليم الديني، إنما الحل هو زيادة هذه الجرعة وتعميقها، بحيث تصبح دراسة أصول الفقه مقررة على طلبة المدارس، بدل أن يقتصر تدريسها على طلاب كليات الشريعة، وذلك لتصبح ثقافة عامة بدل حصرها في المتخصصين.

الفصل الثاني عشر

مقال الديمقراطية الإسلامية

الديمقراطية تعني "حكم الشعب بالشعب وللشعب" ، أي الأمة هي وليّة أمر نفسها ، أما رئيسها وباقي المسؤولين فهم موظفون عند الأمة ، لا يحق لهم أن يستبدوا بالقرارات الهامة ، بل يرجعون إلى الأمة يستأمرونها ، أي يطلبون أمرها ، هل توافق على ما يقترحون فعله ، أم لا توافق ، كما يأخذون في اعتبارهم رأي الأمة المسمى في هذا العصر "الرأي العام" ، فيعملون على الاستجابة له ، أو على تبصير الأمة بخطئه إن كان خاطئاً.

ورجوعهم إلى الأمة يكون إما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر. المباشر يكون عن طريق الاستفتاء الشعبي ، حيث لكل فرد راشد صوت يدلي به مع المشروع المقدم أو ضده ، وهذه الطريقة مكلفة في الجهد والمال ، لذلك يتم اللجوء إليها في القضايا المصيرية وما في حكمها. أما الطريقة الثانية للرجوع إلى الأمة واستئمارها ، فعن طريق طرح المشروع على مجلس منتخب من ممثلي الأمة ، يجتمعون تحت قبة واحدة ، جلسة أو جلسات عديدة ، يتحاورون ، ويدلي كل منهم برأيه ، بصفته وكيلاً عن الأمة التي اختارته ليمثلها.. وبعد النقاش والجدال ، تُطرح القضية للتصويت ، فإن نالت موافقة أغلبية أعضاء البرلمان ، تم إمضاؤها ، وأصبحت قراراً نافذاً ، لم ينفرد باتخاذه لا الرئيس ولا غيره ، بل اتخذته الأمة بنفسها ممثلة بنوّابها ، وبهذا تكون الأمة حاكمة نفسها ، وتتحقق الديمقراطية ، وينتفي الاستبداد ، فتكون القرارات أقرب للصواب ولتحقيق مصلحة الأمة أكثر بكثير ، مما لو اتخذها رئيس مستبد برأيه ، قد يدفعه هواه لما ليس في صالح الأمة.

يمكن للديمقراطية أن تكون علمانية لا تستمد القوانين من الشريعة ، لكنها أيضاً يمكن أن تكون إسلامية تقرر فيها الأمة تطبيق الشريعة على نفسها ، أي هي تحكم نفسها بالشريعة التي أنزلها الله ، وهذا يعني أن الديمقراطية ليست ضد الشرع ، إنما هي ضد الاستبداد والتفرد

بالرأي وفرضه على الأمة ، وما ينتج عن هذا الاستبداد من ظلم للكثيرين من أبناء الأمة ، ومن استئثار فئة قليلة بخيرات الأمة وحرمان باقي الأمة منها.

أما الشورى التي هي من مبادىء الإسلام الأساسية ، فإنها تختلف عن الديمقراطية ، وليست بديلاً عنها ، بل هي مكملة لها. الشورى هي استشارة الآخرين ، وجمع أفكارهم وآرائهم ، يستعين بها الإنسان على اتخاذ القرار الصائب في القضية التي يبحث فيها. هو يأخذ آراء الخبراء والحكماء والوجهاء ، لكنه ، وكما كان الحال في الخلافة الإسلامية ، يبقى هو من يقرر ، وهو من يختار من الآراء التي سمعها ما يريده. أي الشورى في الأصل ليست مُلزمة. أما إن جعلناها مُلزمة للرئيس ، بحيث عليه تقرير ما أشارت به الأكثرية ، ولا يحق له أن يخالف هذه الأكثرية ، فإن الشورى المُلْزِمة هي الديمقراطية ذاتها.

على مدى القرون الطويلة ، كان خليفة المسلمين هو ولي أمرهم ، كما يكون الأب ولي أمر أولاده ، أي هو صاحب الأمر والنهي ، فإن استشار غيره كان مهتدياً بهدي الإسلام حتى لو لم يلتزم برأي الأكثرية ، بل مال إلى رأي قال به واحد أو فئة قليلة ، أو إلى أمر لم يُشِر به عليه أحد ، فيقرره وعلى الأمة طاعته. لو كانت الشورى مُلزمة للحاكم لا يحق له أن يخالفها ، فإنه حينها لا يكون ولي الأمر ، فهو ليس صاحب الأمر ، بل يشاركه فيه أهل الحل والعقد ، أو زعماء الناس وحكماؤهم ، أو جميع أفراد الأمة.

الديمقراطية هي أن تكون الأمة وليّة أمر نفسها ، أي هي أمة راشدة ، لم تعد قاصرة تحتاج لولي أمر يقرر لها ، فقد بلغت سن الرشد ، وتمارس حقها في اتخاذ القرارات الهامة بنفسها ، وليس للرئيس إلا المشاركة في اتخاذ القرار باقتراحاته ، ثم التنفيذ ، وهذا سبب تسمية الرئيس والوزراء ومن يعمل معهم "السلطة التنفيذية". أما السلطة صاحبة الأمر والنهي ، فهي الأمة يمثلها البرلمان ، أو تشارك كلها من خلال الاستفتاء الشعبي. وبما أنه لا يُسَنّ قانون إلا من قبل البرلمان ، لذا يسمى نواب الأمة المنتخبون "السلطة التشريعية". هي تشريعية لا بمعنى أنها لا تأخذ بشرع الله وتستغني عنه ، بل بمعنى أنها تسن القوانين ، التي من خلالها ، يتم تطبيق الثابت من أحكام الشرع ، وتجتهد هي بسَنّ القوانين فيما عفا الله عنه وسكت ، رحمة بنا لا نسياناً ، وبقيت متروكة لحكمتنا نحن المستخلفين في الأرض من قبل خالق الأرض والسماء.

لا تقتصر الديمقراطية على مجرد حق الأمة في اختيار رئيسها كما اختار المسلمون الخلفاء الراشدين الأربعة ، وخامسهم الذي جاء بعد حقبة ، عمر بن عبد العزيز ، فهم الذين تولوا أمر الأمة برضاها ، فكانوا حكاماً شرعيين حقاً ، لكن الديمقراطية تمتد فتشمل وجوب رجوع الرئيس المنتخب ومن معه من حكومة إلى الأمة في كل قضية هامة لأخذ أمرها ، لا مجرد رأيها.

باختصار الديمقراطية هي **"الشورى اللازمة المُلزمة"**، هي الشورى الواجبة على الحاكم ، والواجب عليه الأخذ بها ، لا مجرد الاستئناس بها. هي شورى مفروضة على الحكومة وليست مجرد تواضع منها ، وهي مُلزمة لأن الأمة لا تعطي رأيها ومقترحاتها ، بل تُصدر أوامرها وقراراتها. لذا علينا أن لا نتحسس من الديمقراطية ، ظانّين أنها تناقض الإسلام ودخيلة عليه. ليس هنالك كلمة عربية أصيلة تترجم كلمة ديمقراطية الأجنبية ، فقام الناس بتعريب الكلمة الأجنبية ، وبقيت متنافرة لغوياً مع مصطلحات الشرع ، وإن كانت في حقيقتها ليست إلا من مبادىء الشرع ، فهي **"الشورى اللازمة المُلزمة"**، أليست الشورى من صميم ديننا الحنيف ؟

الخاتمة

لقد بينت في هذا الكتاب مدى ملاءمة ديننا لعصرنا ولكل عصر قادم ، فهو دين الكتاب والحكمة ، أي دين ودنيا ، حيث العلماء ورثة الأنبياء ، علماء الدين ورثوا النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما ينضوي تحت عنوان الكتاب من عقيدة وفرائض وتحريمات وأخلاق وعبادات... وعلماء الدنيا ورثوه في كل ما ينضوي تحت عنوان الحكمة يبحثون عن النافع لنعمله وعن الضار لننتهي عنه.

دين الله كامل من قبل أن يغادرنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل ما فيه من حلال بيّن وحرام بيّن يصلح لكل زمان ومكان ، وما سواه مسكوت عنه ومتروك لحكمة البشر ، يجتهدون فيه حرصاً منهم على دنياهم ، مع الالتزام بما أحل المولى وما حرم حرصاً منهم على آخرتهم.

كنت أتمنى أن يحتوي هذا الكتاب فصولاً عن قضايا المرأة وحقوق الإنسان ، لكن كان سيتأخر صدوره ، ريثما أتمكن من كتابتها ، لذا آثرت إصداره على أن أضيفها إليه قريباً إن شاء الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ملاحق كتاب الميزان

1. وثيقة المدينة

من كتاب "وثيقة المدينة المضمون والدلالة" تأليف: أحمد قائد الشعيبي

أطلق ابن إسحاق على هذا النص اسم «الكتاب» حينما وضع عنوانا له بقوله: «وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم» ، وهذه التسمية وردت مرتين ، الأولى في البند رقم (1):

« هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم » ، والثانية في البند رقم (47): «وأنه لا يحول هذا الكتاب...».

بينما نجد أن اسم «الصحيفة» ورد في المتن ثماني مرات (البنود: 22 ، 37 و39) ، وتكرر مرتين (البند:42) وثلاث مرات (البند:46) ، ورغم هذا التكرار لاسم «الصحيفة» في المتن إلا أن ابن إسحاق قد يكون فضل اسم «الكتاب» لأن مدلول «الصحيفة» يجعلها أقرب إلى كونها إعلانا من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر فيه الأمور التي يريد الالتزام بتنفيذها من جميع الأطراف داخل المدينة ، أما الكتاب فقد يدل على الأمر الواجب التنفيذ .

أما الرواة من المحدّثين والمؤرخين الذين جاءوا بعد ابن إسحاق ونقل بعضهم «النص» وبعضهم الآخر تناول نتفا منه أو أشار إليه إشارة فإننا نجدهم في مؤلفاتهم قد أطلقوا على «النص» اسم «الصحيفة» و«الكتاب» .

أما الباحثون المعاصرون من المسلمين والمستشرقين ، فقد أطلقوا عليه في كتاباتهم اسم «الوثيقة والدستور» وبعضهم أطلق عليه اسم «الوثيقة والصحيفة والدستور والكتاب» بدون تمييز بين اسم وآخر ، اعتبارا منهم ، حسب تقديري ، إلى أنه لا فرق بين هذه المسميات ، فجميعها يؤدي إلى نوع من العقد الاجتماعي.

نص الوثيقة

(كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود)

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

1- هذا كتاب من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

2- أنهم أمة واحدة من دون الناس.

3- المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

4- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

5- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

6- وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

7- وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

8- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

9- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

10- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

11- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

12- وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

13- وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثما، أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه، جميعا ولو كان ولد أحدهم.

14- ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن.

15- وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

16- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

17- وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

18- وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا.

19- وأن المؤمنين يبيئ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

20- وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه.

20ب- وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

21- وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

22- وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يئويه، وأن من نصره، أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

23- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

24- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

25- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

26- وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

27- وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

28- وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

29- وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

30- وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

31- وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وإثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

32- وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

33- وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البر دون الإثم.

34- وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

35- وأن بطانة يهود كأنفسهم.

36- وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم.

36ب- وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا.

37- وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

37ب- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم.

38- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

39- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

40- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

41- وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

42- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

43- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

44- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

45- وأنهم إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذ دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

45ب- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

46- وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

47- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2. نظرات نفسية في حجاب المرأة المسلمة

بقلم الدكتور محمد كمال الشريف

خلق الله البشر جنسين النساء والرجال ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، والمودة هي الحب المتبادل بينهما ، وهذا الحب يقتضي انجذاب الرجال إلى النساء وانجذاب النساء إلى الرجال..

وحتى يكون الانجذاب بين الجنسين نفسياً وليس غريزياً كما هو انجذاب الذكور والإناث في عالم الحيوان ، جعل الله في الرجال ما تتمناه النساء من صفات وميزات ، وجعل في النساء من الصفات والميزات ما يحبه ويتمناه الرجال ، وبذلك يعجب الرجال بالنساء وينجذبون إليهن ، وتعجب النساء بالرجال وينجذبن إليهم.. لقد أعطى الله الرجل من القوة العضلية وطول القامة ومن روح الاستقلالية والقدرات القيادية ومن حب الإنجاز وتحقيق المكانة ، أعطاه من هذه الصفات أكثر مما أعطى المرأة وإن كانت المرأة تمتلك منها ما يكفيها لأداء دورها في الحياة ، لكن الخالق العظيم أعطى المرأة بالمقابل من الجمال واللطف والرقة والمروءة التي تجعلها لا تتردد في رعاية من يحتاج رعايتها طفلاً كان أو كبيراً ، وأعطاها قدرة على التقبل للآخرين أكثر مما أعطى الرجل ، وخاصة أن الرجل مفطور على المنافسة والفردية.

وفي الحال الطبيعية يكون الرجل راضياً بذكورته ولا يقبل أن يتخلى عنها ، وتكون المرأة راضية بأنوثتها ولا تقبل أن تتخلى عنها. لذلك عندما ينظر الرجل إلى جمال المرأة وإلى أنوثتها المتجسدة في صفاتها وميزاتها النفسية إضافة إلى أنوثتها الجسدية ، عندما ينظر إليها ويعجب بها يرغب في أن ينظر أكثر وأن يرى من جمالها أكثر مما يرى ، ويرغب أن يلمس جسدها الجميل وأن يتحد به من خلال الاتصال الجنسي ، وحتى يحق له ذلك لابد له من أن يتزوجها ويضعها تحت جناحه حيث يشعر أنها له ، وأنها جوهرة عليه الحفاظ عليها وحمايتها حتى لو توجب عليه التضحية بنفسه ، فقد أصبحت عرضه ولا رجولة لمن لا يصون عرضه..

أما المرأة التي نالت الجمال والرقة فإنها تعجب بقوة الرجل التي تتجلى في قوته العضلية وفي قوة شخصيته ، وفي مكانته في المجتمع وفي قوته المالية أو العلمية أو الأدبية..

إنها تعجب بكل ذلك وتتمناه لنفسها ، لأنها إن ملكته كانت لها الحماية والكفاية وشعرت بالأمان وهي ترى الرجل القوي متعلقاً بها ومعجباً بجمالها وأنوثتها.

ولو تأملنا نمو الإنسان من الطفولة إلى الشباب لرأينا كيف يباهي الصبي الصغير بقوته ومهاراته الحركية منذ طفولته ، ويكبر ويبقى همه تنمية هذه القوة وتلك المهارات ، ومع البلوغ العقلي يدرك الصبي أن للقوة أشكالاً غير العضلات المفتولة والقدرة على القتال أو السباق في الرياضة فيكتسب هماً جديداً وهو تنمية قوته في المجالات التي تناسب ميوله ومواهبه.. أما البنت فإنها منذ طفولتها تشعر أن الجمال هو النعمة الكبرى التي تتميز بها النساء ، وتسعد البنت الصغيرة بما تسمعه من المديح لجمالها ، ويتكون القدر الأكبر من تقديرها لذاتها على أساس أنها كائن جميل ينال إعجاب الآخرين ويبهر أنظارهم. وتكبر الفتاة ويكبر معها اهتمامها بجمالها وكيف تعتني به أو تزيده بوسائل الزينة المختلفة. وعندما تبلغ الفتاة عقلياً تدرك أن هنالك جمالاً للنفس والروح يضاف إلى جمال الجسد ليجعل المرأة أكثر أنوثة وأشد جاذبية للرجل.

وحتى يفوز الرجل بإعجاب النساء يستعرض قوته بأشكالها المختلفة ، وبالمقابل تعرض المرأة جمالها وأنوثتها كي تفوز بإعجاب الرجال ، والقضية تتجاوز حدود الإعجاب والانجذاب إلى حد الاحتياج ، حيث يحتاج الرجل إلى امرأة تعينه في الحياة على تحقيق ما يطمح إليه ولهذا قالوا: "وراء كل عظيم امرأة" ، والمرأة تحتاج إلى الرجل كي تحقق واحدة من أهم مهامها وأحلامها ، أي الأمومة: ولادة الحياة و إخراج كائن بشري من بين أحشائها ثم تربيته حتى يكبر ويشتد عوده.. إن الميل الفطري للأمومة ميل عظيم ، ولا يشعر الرجل به إلاّ في سن متأخرة حين تتراكم نجاحاته ويتذكر أنه في حاجة إلى من يرثه ويكمل مشواره ، وإن كان بعض الرجال يرى الإنجاب وكثرة الأولاد إنجازاً بحد ذاته ويسعى إليه من سن الشباب لكن أغلب الرجال لا يحركهم دافع الأبوة للزواج.. والمرأة التي تتشوق للإنجاب والأمومة تحتاج إلى الرجل في البداية حتى تحمل ، ثم تحتاجه حتى يعينها في حملها وبعد ولادتها كي تتفرغ لتحقيق أمومتها ما استطاعت أو بقدر ما تحتاج هذه الأمومة من تفرغ. ولا بد لذلك من أن يلتزم الرجل بالمرأة وبولدها من خلال الزواج وتحمل المسؤولية الأبوية السنين الطويلة. وحتى يقع الرجل في الفخ جعل الله فيه رغبة جنسية حاضرة دائماً تجعله يرغب في التمتع الجنسي بأي امرأة تعجبه عندما يراها و يرى جمالها وحسنها ، فيشتهيها جنسياً ، ويحلم بامتلاكها جنسياً دون أن يحلم بالزواج

منها لأن النفس البشرية تفر من حمل المسؤولية. والحصول على امرأة اشتهاها يمثل للرجل فوزاً وانتصاراً عندما يتم دون زواج ودون الثمن المتوجب من الالتزام بهذه المرأة.. إن الامتلاك الجنسي لامرأة معينة يعطي الرجل متعتين ، المتعة الجنسية الحسية الآنية والمتعة المعنوية حيث الشعور بالفوز والانتصار على المرأة ذاتها لأنه نال منها دون مقابل ، والانتصار على العقبات والعوائق ، وهذا شيء تحبه نفس الرجل. ولذلك وصف الله الرجال الذين يزنون بقوله: "فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون" أي المعتدون ،لأن الزنا حتى لو كان معه حب فإنه عدوان على الأنثى.. والرجال يدركون ذلك بالفطرة ، لذلك يغار الأخ على أخته وقد يذبح الرجل الذي عاشرها جنسياً دون زواج ، أما بعد عقد الزواج فإنه يهنئهما ويبارك لهما. إذن النظر إلى جمال المرأة نظرة اشتهاء فيه رغبة في امتلاك ما ليس له ، ولا يخلو الاشتهاء من التخيل الذهني للامتلاك الجنسي ، أي يزني بها في خياله ، لذلك فإن الاشتهاء بحد ذاته عدوان ، والذي يقف في وجهه عادة مشاعر الرحمة ، حيث تساهم الرحمة بالجزء الأكبر من الناهي النفسي ، أي الدافع الذي يُبْعِد الأب عن اشتهاء ابنته ، والرحمة تمنع الابن من أن يشتهي أمه أو أخته.. ومشاعر الرحمة عندما تملأ نفس رجل ما تجعله يغض من بصره ، فلا ينظر إلى النساء نظرة الاشتهاء والتفحص لمواطن الفتنة والجمال في أجسادهن ، بل ينظر إليهن كبشر وكنفوس ذات مشاعر وآمال واحتياجات ، وليس كأجساد خلقت لمن يريد أن يلهو بها.. وفرق كبير بين نظرة الاشتهاء ونظرة الرحمة.. ففي نظرة الرحمة ينظر الرجل في وجه المرأة وبالذات في عينيها إن كان يخاطبها ويغض طرفه عما هو ظاهر من شعرها أو جسدها كي لا يشتهيها..

إن الرجل مبرمج على اشتهاء المرأة التي تعرض أمامه مفاتن جسدها ، والاشتهاء فعل لا إرادي يحتاج إلى الرحمة لتمنع حدوثه ، لكن المرأة التي تعرض مفاتنها تمتحن الرحمة التي عند الرجل ، وفي أغلب الأحيان تغلب الشهوة ما لدى هذا الرجل من رحمة في قلبه ، وتكون نظرته لها نظرة اشتهاء سماها صديق لي صحفي "رغبة في الافتراس" .

إن المرأة التي تتبرج وتتزين تشعر بالسعادة والثقة بالنفس وهي ترى نظرات الرجال تلاحقها لأنها لا تدري أن نظراتهم هذه نظرات اشتهاء جنسي.. أي نظرات إعجاب بجسدها وإهمال لها كإنسان. إنها تقيس الأمور على نفسها ، فهي إن أعجبت برجل ما لا تشتهيه جنسياً ، بل تمتلأ بمشاعر الحب والتقدير ، وإن تمنته لنفسها فإنها تريده زوجاً وليس ضجيع فراش تمتص ذكورته وفحولته ثم ترميه ، لأن المرأة بالفطرة تغلب عليها العواطف الرومانسية وتعجب

بالرجل كإنسان لا كجسد. والمرأة ببراءتها تظن أن الرجال الذين ينظرون إليها في الطريق ينظرون إليها نظرة الإعجاب والرحمة والرومانسية كما تفعل هي إن أعجبها أحدهم، ولكن الحقيقة أنه "وليس الذكر كالأنثى".. هنالك اختلاف في الطباع والميول بين الجنسين، وهذه الناحية من الاختلاف تجهلها أغلب النساء، ولو علمنها وتذكرنها لترددن كثيراً قبل عرض مفاتنهن على الرجال، لأن المرأة تكره أن تكون موضع اشتهاء كل من هب ودب، وتكره أن ينظر إليها أي رجل كجسد جميل لا كإنسان جميل حتى لو كان هذا الرجل زوجها.

وهذا لا يعني أن الرجال سيئون لأنهم يشتهون أي جميلة يرونها حتى لو كان لدى أحدهم زوجة جميلة، الرجال جميعهم المتزوج والأعزب الأصل عندهم اشتهاء الجمال الأنثوي المعروض، ولولا هذه العلة فيهم لما تزوج أغلبهم، ولولا البرود الظاهري للمرأة من حيث الجنس واحتياجها إلى الحب كي تتفجر رغبتها الجنسية لما سعى الرجل القوي وراء المرأة الضعيفة محاولاً كسب ودها ورضاها، إن هدوء الشهوة الجنسية لدى المرأة وشدتها لدى الرجل تجعل للنساء على الرجال سلطة وقوة توازن ضعفهن واحتياجهن. ولو كان الرجل مثل النساء من حيث الرغبة الجنسية لما تزوج أكثر الرجال، ولو كانت النساء في الشهوة الجنسية مثل الرجال لانتفت الحاجة لدى الرجال إلى الزواج، إذ ستسعى إليهم النساء مقدمات أنفسهن بالمجان، وكان في ذلك ذلهن وتحملهن مسؤولية الإنجاب والتربية وحدهن.

إن للخالق حكمته العظيمة فيما وضع في نفوس الرجال والنساء من مشاعر وميول مختلفة أحياناً ومتشابهة أحياناً أخرى.

وهنا يأتي دور الحجاب حيث لا يرى الرجل من المرأة إلاّ وجهها وكفيها وربما قدميها، وحيث ثيابها سميكة لا تَشِف، وفضفاضة لا تصف. ففي وجود الحجاب لا يبقى للرجل شيء ينظر إليه إلاّ وجهها حيث عيناها، وحيث الرجل مضطر إلى التذكر أن هذا الكائن الجميل الذي أمامه إنما هو إنسان ونفس بشرية ذات مشاعر وأفكار وأحلام وآمال واحتياجات، وإن هو وجدها جميلة نظر إليها نظرة مودة ورحمة، لأن الوجه وحده لا يثير شهوة الرجل الجنسية، إنما يجذبه إلى المرأة ذلك الانجذاب الودود الرحيم الذي تتمناه، والوجه موطن الجمال الأساسي عند المرأة الذي يدعو الرجل إلى الزواج منها، إلاّ إن كان في جسدها عيب كبير يجعله لا يرغب فيها، إن المرأة المحجبة تفوز بإعجاب الرجال و بلطفهم ورحمتهم، وتحمي نفسها من أن يشتهوها اشتهاء للجسد كله عداوة. والرجل يتأثر بالدرجة الأولى كما ذكرت بوجه المرأة ثم

بشخصيتها وأنوثتها المتجلية في سلوكها وطباعها ، أما الجسد فيجعله يتمناها لفراشه لا أكثر ، وليس رفيقة عمر وشريكة حياة. والتي لم تعجبه وهي في حجابها من خلال جمال وجهها وجمال نفسها لن تعجبه إن رأى مفاتن جسدها ، وحتى لو ظن الشهوة حباً وتزوجها لأنه تأثر بمفاتن جسدها فإنه سريعاً ما يمل الجسد وتبدو له غير جذابة. والجسد الجميل إن كان لامرأة يراها رجل ما قبيحة لا يثير فيه الرغبة فيها ، لأن عنصر الفوز والانتصار مفقود هنا ، لأنه حتى لو تمتع به فإنه لن يشعر أنه حقق شيئاً لأنها في عينيه ليست جميلة. هذه حقائق نفسية يجب أن تفهمها المرأة كي تعلم أن الحجاب لا يفوّت عليها فرص الإعجاب والاستلطاف من الرجال ، إنما يحميها من مشاعر الاشتهاء التي ترفض أن تكون محلاً لها.

ثم إن الحجاب حماية للرجال من مشاعر الإحباط التي يولدها فيهم النظر إلى أجساد النساء في الطرقات والتلفزيون ، مما يولد في نفوسهم الاشتهاء لهن دون أن يكون بمقدورهم الوصول إلى ما اشتهته أنفسهم ، ولا يكون نصيبهم من ذلك إلا نظرات الشهوة المؤلمة ، وقديماً قال ابن الجوزي رحمه الله: "من كثرت لحظاته - أي نظراته للنساء - دامت حسراته".

كما إن الحجاب يحمي النساء من آثار الإحباط الذي يولده التبرج والتعري في نفوس الرجال ، حيث بينت الدراسات النفسية أن الإحباط يولد العدوان نحو سبب الإحباط ، وهذا يعني أن المرأة التي تظهر مفاتنها للرجال وهي لن تمكنهم من نفسها ليتمتعوا بها تقوم بإثارة الإحباط في نفوسهم ، مما يجعل مشاعرهم نحوها فيها عدائية وعدوان ، وهذه مشاعر مضادة ومعاكسة للرحمة التي لابد منها مع المودة لتكون العلاقة بين الجنسين في أحسن أحوالها. إن مشاعر العداوة الناتجة عن الإحباط تقوي في الرجال الرغبة في الامتلاك الجسدي الجنسي للنساء ، ويصبح حتى الحب بين رجل وامرأة مختلطاً بهذه الرغبة وهذه العداوة مما يفسد صفاءه ونقاءه ، ويجعله غير الحب الذي تسعى إليه المرأة وتتمناه من الرجل ، لأنها دائماً تريده أن يحبها هي وأن لا يركز على جسدها ، تريده أن يحبها الحب الممزوج بالرحمة ، مما يجعله لا يرضى لها إلا ما يرضاه لأخته أو ابنته ، وهذا يعني أنه لا يرضى لها أن يتمتع بها بالحرام أبداً ، هذه هي المودة والرحمة التي يفسدها التعري وإبراز المفاتن.

والنساء يعتقدن أن الرجل المتزوج وخاصة إن كانت زوجته جميلة لن ينظر إليهن نظرة اشتهاء إن رأى جمالهن ومفاتنهن ، وهذا اعتقاد خاطئ ، لأن الرجل يشتهي ولو كان عنده مائة زوجة جميلة وحبيبة ، لأنه إن رأى جمالاً أنثوياً جديداً ومختلفاً عما لديه اشتهاه ، وفي

الحقيقة تبدو كل امرأة جميلة مختلفة وجديدة للرجل وتثير فيه الرغبة فيها ، ذلك أن الرجل مفطور على التعدد في الحب والمرأة مفطورة على الإفراد ، وليس الذكر كالأنثى.

وينعكس عري النساء وتبرجهن المبذول في كل مكان بشكل سلبي على الحياة الجنسية للزوجين ، لأن الرجل بفطرته يثيره جسد المرأة ويجعله راغباً في الاتصال الجنسي بصاحبته ، لكن رؤية النساء الكثيرات كل يوم وبعضهن فائقات الجمال ومنتقيات لهذا الغرض ، رؤيته لهن كاشفات عن كل مفاتنهن ، ولم يبق من جسد المرأة شيء لا يراه الإنسان خارج بيته إلا عورتها المغلظة ، ولو كانت هذه العورة المغلظة جميلة لكشفتها للناظرين لكن الخالق الذي سمّاها سوأة لحكمة عظيمة جعلها قليلة الجمال. الزوج يرى ذلك كل يوم ، فتحدث لديه ألفة لما يرى والألفة تضعف الحس والتأثر ، وهذا يعني أن الزوج بحاجة إلى شهية جنسية قوية وإلى علاقة مودة ورحمة حقيقية حتى يرغب في زوجته جنسياً ، الرغبة الحارة التي ترضي شعور المرأة بأنوثتها وشعورها أنها محبوبة من زوجها. ولو تخيلنا مجتمعاً لا يرى فيه الأزواج إلا نساء محجبات لبقيت للزوجات فتنتهن وأثرهن المثير لرغبة أزواجهن مهما كان جمالهن عادياً ، ولأصبحت الحياة الجنسية للزوجين حياة رائعة مشبعة للطرفين. ويبقى السؤال عما يمكن فعله في هذا الزمان ، والجواب هو أن يغض الرجال من أبصارهم فيكسبوا الراحة النفسية وتعود إلى نفوسهم مشاعر الرحمة نحو النساء ونحو الجميع وتعود زوجاتهم فاتنات في نظرهم.

إن السفور يضع جميع النساء في منافسة جمالية مستمرة ، لأن الجميلات جداً هن الأقلية ، وحتى هؤلاء لا تخلو من التشكك بجمالهن إلا بعضهن ، فكيف الباقيات ذوات الجمال العادي المتوسط ، لذلك تلجأ بعض النساء إلى وضع المساحيق بطريقة مثيرة للاستغراب ، ويلبسن الضيق والشفاف والقصير ليعوضن عن قلة جمالهن ، وإن كان ذلك كله لن يغير من الحقيقة شيئاً ، إن المرأة خلقت كائناً محباً يحرص على المودة والتآخي مع الآخرين ، وروح المنافسة لديها ضعيفة إن قورنت بالرجل المفطور على المنافسة والفردية ، والسفور يثير في النساء روح المنافسة ويشكل ضغطاً نفسياً شديداً عليهن كما يشكل ضغطاً مالياً أيضاً ، أما المتزوجات فيبقى السفور مصدر تهديد لهن كلما نظر أحد الأزواج إلى امرأة سافرة فيها من الجمال ما ليس في زوجته ، فتشعر تلك الزوجة بالخوف من أن تفقد حبه وإعجابه بها أو أن تأخذه تلك المرأة منها.

وقد يثير ذلك غيرتها ويوتر العلاقة بينها وبين زوجها.

وفي هذه المنافسة الجمالية التي يوجدها السفور لن تنعم فائقة الجمال بالتفوق إلا إلى حين ، لأن جمال المرأة كما قالوا عنه هو وردة ، والوردة دائماً تذبل بعد حين ، وتنضم فائقات الجمال إلى جماعة المحبطات عندما تظهر ورود جديدة تنبض بالشباب.

إن المتحجبات في راحة من هذه المنافسة ، ولو ساد الحجاب في المجتمع لاستراحت النساء كلهن ، الجميلات جداً ومتوسطات الجمال ، لأن من أصعب الأمور على النفس أن تكون في منافسة دائمة في شيء ليس في يديها ، إذ الجمال هبة من الخالق ولا فضل للجميلة فيه على العادية ، فهو شئ لم تحرزه بجهدها واجتهادها ، ثم إن المنافسة مزعجة جداً للنساء المفطورات على التآخي مع بعضهن بعضاً .

والحجاب مريح للأزواج ، لأنه يطمئن الرجل إلى أن الرجال الآخرين لن يستطيعوا رؤية مفاتن زوجته الجسدية ولن يقدروا على اشتهائها أو تخيل الاستمتاع بها طالما أنهم لم يروها.

والرجال الذين يعرفون بفطرتهم أن الزنا عدوان ، حتى لو كان بالنظر والخيال ، يزعجهم جداً أن يقع هذا العدوان على زوجاتهم ، ويرون فيه عدواناً عليهم أنفسهم وانتقاصاً من قدرهم. ويميزون بين المعاشرة الجنسية الحلال حيث بموجب عقد الزواج يحل للزوجين أن يستمتع كل منهما بالآخر ، وبين الزنا حيث فيه الفوز بما ليس له ، ولذلك استخدمت العملية الجنسية كعبارة إهانة وتحقير وسب للآخرين في أغلب اللغات. إن الحجاب نعمة على الزوجين وليس قيداً .

4-القيم في التربية

بقلم الدكتور محمد كمال الشريف

أ - وضوح القيم في التربية

تُعَرّف التربية بأنها نقل معارف ومهارات واتجاهات معينة من جيل إلى آخر، والمعارف والمهارات معروفة ونقلها يتم من خلال التربية البيتية والمناهج المدرسية والجامعات وغير ذلك من طرق التعليم، لكن الاتجاهات التي تشمل ما يحبه الإنسان وما يكرهه وما يقدره ويحترمه وما يزدريه ويحتقره، وما يعجب به وما يستنكره، هذه الاتجاهات هي أخطر ما في التربية وأعظمه أهمية، لأن الدين والقيم والأخلاق والتقاليد وغير ذلك من مفاهيم كلها تنتقل ضمن الاتجاهات من جيل إلى جيل، والقيم هي معايير السلوك، ولا يمكن لنا أن ننقل إلى أولادنا القيم التي نرغب بها ونرتضيها لهم إلا إن كانت هذه القيم واضحة لنا نحن الذين نربي، وواضحة لأولادنا الذين يتلقون عنا ويتربون على أيدينا.. لذا علينا أن لا نترك عملية نقل القيم إلى أولادنا تتم دون أن نتدخل فيها، لا لأن انتقال القيم بالطريقة العفوية التلقائية لا يكفي، بل لأن القيم التي تنتقل إلى أولادنا من خلال التربية العفوية التلقائية قيم مختلطة، دخل الضار فيها على النافع، وامتزج ما يجب تجاوزه مع ما يجب التمسك به أو ما يجب اقتباسه من القيم التي نحتاج إليها أشد الحاجة، وإننا في حياتنا اليومية التي نستمد فيها قيمنا من مصادر متنوعة قد تجمع النقائض والمتنافرات، إذ هنالك قيم نابعة من الدين والإيمان، وقيم آتية من العادات والتقاليد، حتى إن هنالك قيماً كانت سائدة لدى العرب الجاهليين تم بعثها فعادت إلى الوجود في النفوس في هذا الزمان، وهنالك قيم مقتبسة ومستوردة من الثقافة الغربية بأصولها المسيحية واليونانية الوثنية، قيم كثيرة تعيش في نفوسنا متجاورة رغم أنها في كثير من الأحيان متناقضة متنافرة، لذا نفتقد في كثير من الأحيان وضوح الرؤية، ونقوم بتربية أولادنا على خلطة القيم العجيبة التي تسود فينا في هذا العصر.

إن علينا أولاً أن نحدد القيم التي نرتضيها لأنفسنا ولأولادنا، بحيث نختار القيم الصالحة النافعة، إذ ليست كل القيم مفيدة أو صالحة، وبحيث نختار القيم التي تنبع من إيماننا ونهجر التي تتعارض معه، وبحيث نختار القيم التي تمكننا من جعل مجتمعاتنا مجتمعات يتحقق فيها دين الله أحسن تحقيق، وتكون في الوقت ذاته أرقى المجتمعات وأكثرها تقدماً في العلم والتكنولوجيا وأقواها في كل أنواع القوة اللازمة للعزة والمَنَعة.

إن التربية الناجحة تحتاج إلى وضوح القيم لدى المربي وتحتاج إلى نقل القيم الواضحة إلى الأجيال الجديدة نقلاً واعياً مخططاً له نستخدم فيه كل الأساليب والوسائل المتاحة لنضمن وصول هذه القيم إلى نفوس أطفالنا.

إن المجتمعات الأخرى في الغرب والشرق تفوقت علينا في الكثير من المجالات، لكن يبقى مجال تفوقنا الأصلي على الدنيا بأسرها من نصيبنا، إنه التفوق في القيم ومكارم الأخلاق والدين القويم، فلنحافظ على هذا التفوق ولنضف إليه المزيد من التفوق.

ب - القيم والاستخلاف في الأرض

تتردد كلمة "قيم" كثيراً على ألسنة المثقفين المعاصرين وأقلامهم، لكن معناها الدقيق ما زال غامضاً على الكثيرين، والقيم كثيراً ما تُعرَّف بوظيفتها على أنها "معايير السلوك" لكن معناها اللغوي يساعد كثيراً على فهمها، فما هو **"قيمة" "Value"** هو شيء له في نظر الإنسان قيمة عظيمة وقدر كبير، من أجله يكون الإنسان مستعداً لبذل الغالي من جهد ومال وربما نفس، وهذا الشيء ذو القيمة يضفي القدر والقيمة على من يتلبس به ويتحقق فيه.. وإذا أخذنا مثالاً العِرض وسلامته من الأذى، لوجدناه قيمة كبرى لدى المجتمعات العربية، حيث من أجل صيانته والحفاظ عليه يبذل الإنسان الجهد والمال، وربما مات في سبيل عرضه، وصاحب العرض المصون جدير بالاحترام والتقدير، حيث سلامة عرضه قيمة تضفي عليه هذه الجدارة بالتكريم. وسلامة العرض كقيمة تشكل معياراً لسلوك الناس، حيث يتجنبون كل سلوك يمكن أن يسيء إلى هذا العرض ويعرضه للأذى والانتهاك، وكل سلوك يصطدم مع قيمة صيانة العرض سلوك مستنكر.

إن القيم في كل مجتمع متعددة ، وهي تختلف من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى آخر ، ويبقى السؤال: ما هي القيم الإسلامية التي يجب أن نحققها في حياتنا وأن نربي أولادنا عليها ؟

لقد خلق الله الإنسان ليكون خليفة له في الأرض:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً... {30}" البقرة.

لذا خلقه على صورته سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث الصحيح ، وهذا يعني أن الإنسان فيه من الصفات الكثير من صفات الله تعالى لكن ضمن حدود البشرية التي خلقها الله من تراب وضعفها. فكما أن الله حي ويسمع ويرى فكذلك الإنسان ، وكما أن الله رحمن وغفار فكذلك يمكن للإنسان أن يغفر وأن يرحم ، وكما أن الله منتقم وجبار فكذلك الإنسان قادر على الانتقام وعلى التجبر ، إلى غير ذلك من صفات الخالق التي تضمها أسماؤه الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ، ولعل في هذا الذي نتحدث عنه سبب من أسباب أهمية إحصائها للمؤمن.

والإنسان على هذه الأرض إما مؤمن يقوم بدور الخلافة في الأرض ، فيحقق صفات الله في نفسه إلا ما حرمه الخالق علينا من صفات الكبر والعظمة والعلو ، أو هو فاسق متمرد على الخالق ، رافض أن يكون لله خليفة لأنه يرى نفسه نداً لا تابعاً ، وهذا الإنسان يحقق في نفسه من صفات الخالق ما حرمه الله عليه من صفات الكبر والعظمة والعلو.

ليس الاستخلاف محصوراً في العمران ، بل الإنسان خليفة لله حيث كان ومتى كان.. وتتحقق الخلافة بتحقق صفات الله في الإنسان ، وبالتالي تكون المعاني التي تحققها هذه الصفات هي القيم الإيمانية المطلوبة ، عندها يكون العدل والرحمة والعفو والقوة والقدرة والعزة والعلم والكرم والغنى والصبر والشكر... كلها قيم يسعى المؤمن إلى تحقيقها في حياته.

والمؤمن القائم بدور الخليفة في الأرض يقوم بدور فطره الله عليه وخلقه من أجله وبالتالي فهو يحمل من الدوافع النفسية ما يعينه على تحقيق قيم الاستخلاف الإيمانية.

ج - الخلافة في الأرض أصل كل القيم

قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ{20}" الروم. بشر تقفون على وجه الأرض ، كائنات خلقت على صورة الرحمن ، تفكر وتدبر ، وتشعر وتحس ، وتقسو وترحم ، وتعفو وتنتقم ، وتعدل وتظلم ، وتعلم وتجهل ، وتعطي وتمنع ، وتتبع الحق أو تستكبر عليه... إنهم خلفاء في الأرض شاءوا أم أبوا ، إذ هم الذين تتحقق فيهم صفات الخالق سبحانه وتعالى ضمن حدود ضعفهم البشري ، والصالح منهم من رضي بمكانة الخليفة لله في أرضه ، يطيعه ويُسلم له ويعبده ولا يستكبر عن عبادته ، ويرى أغلى ما في حياته وأهمه وأعظمه قيمة أن يحقق صفات الخالق في نفسه إلا ما حرم عليه من صفات الكبر والعظمة والتعالي. فتكون معاني صفات الله تعالى المباحة للإنسان المستخلف في الأرض هي القيم التي يعيش لها وتكون معياراً لسلوكه ، وعندها يكون العدل قيمة لذات العدل ، وتكون الرحمة قيمة لذات الرحمة ، وتكون القوة قيمة لذات القوة ، ويكون الصبر قيمة لذات الصبر ، ويكون الشكر قيمة لذات الشكر ، ويكون العلم قيمة لذات العلم... إلخ من قيم الاستخلاف في الأرض ، وتكون الخلافة في الأرض في جوهرها تحقيق هذه الصفات وهذه القيم في واقع البشر فيكونون تلك المخلوقات التي خلقها الله من تراب ، ثم إذا هي كائنات على صورته تحقق في نفسها صفاته وأخلاقه وتحاكي بعض أفعاله ضمن بشريتها الضعيفة ، وتكون سيدة في الكون من بعده ، لا نداً له ولا منافساً وبذلك تكون خليفة له في أرضه.

لكن من البشر من تستهويه في صفات الخالق تلك الصفات التي حرمها عليهم من الكبر والعلو والعظمة ، فيستكبرون على الخلق ، ويستكبرون على الخالق ، ويمنعهم كبرهم من الطاعة والاستسلام لرب العالمين ، فيتمردون ويفسقون ، حتى أنهم أحياناً يرفضون مجرد الإقرار بوجوده سبحانه وتعالى ، ولا يرون في الكون سيداً غير أنفسهم.. إنه التأله في الأرض بدل الخلافة ، وإنها المنافسة للخالق بدل الطاعة والاتباع ، وإنه العلو في الأرض والاستكبار والتجبر فيها ، بدل العدل والرحمة والإسلام فيها لمالكها وخالقها.. وعند هؤلاء لا قيمة لشيء إلا للعلو في الأرض والكبرياء والعظمة والتجبر ، وتكون هذه المعاني هي القيمة التي يعيشون من أجل تحقيقها ، وتصبح القيم الأخرى النابعة من حقيقة أنهم خلقوا على صورة الرحمن وخلقوا للخلافة في الأرض ، تصبح خادمة للقيمة الكبرى التي يعيشون لها ، فالعلم قيمة لديهم لا

لذاته ، بل لأنه وسيلتهم للعلو في الأرض ، والشعور بهذا العلو ، والقوة قيمة لديهم لا لذاتها ، بل لأنها وسيلة إلى العلو في الأرض ، والشعور بهذا العلو ، والرحمة قيمة لديهم لا لذاتها ، بل لأنهم يشعرون من خلالها بعظمتهم الموهومة لأنهم قادرون على الرحمة مثلما هم قادرون على الانتقام ، ثم هي مرغوبة لديهم لأنها تأتيهم بالسمعة والثناء والحمد من الناس وتكون أيضاً وسيلة لهم إلى العلو في الأرض ، وكذلك حال باقي القيم الكريمة ، إنها محمودة لديهم ومرغوبة ما دامت توصلهم إلى العلو في الأرض وإلى المزيد من الشعور بالعظمة والكبرياء.. ومع أنهم رفضوا التبعية والخلافة عن الله في الأرض ، وأرادوا أن لا تكون مكانة في الأرض إلا للإنسان ، وابتدعوا لاستكبارهم على خالقهم أسماء جذابة مثل وصفهم لأنفسهم ولأفكارهم بأنها "إنسانية" ، رغم كل مكرهم فإنهم لم يتعدوا قدرهم ، خلفاء في الأرض رغماً عنهم ، يحققون غاية خلقهم ، كائنات ترابية على صورة الرحمن تتمثل فيها صفات الخالق ، لكنهم اختاروا الصفات التي تحرمهم الجنة:

"تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}" القصص.

وقوله تعالى: ولا فساداً إشارة إلى صنف آخر من الذين رفضوا دور الخلافة في الأرض ، وفي الوقت ذاته لم يروا لأنفسهم قدراً ولا قيمة ، لذا لم يستهوهم السعي إلى العلو والكبرياء في الأرض ، فكان سعيهم إلى المتعة والمجون والبهيمية والخروج عن كل قيد أخلاقي أو ديني ، بل متعتهم هي في إتيان المحرم وارتكاب الممنوع ، نذروا أنفسهم للفساد في الأرض فحرم الله عليهم الجنة وجعلهم مع المستكبرين العالين.

وإذا تساءلنا عن القيم لدى هؤلاء الفاسدين وجدنا أن القيمة لديهم هي للتحرر من كل قيد ولفعل ما يريدون بلا ضوابط ، لا من حلال ولا من حرام ، ولا من ثناء الناس ولا من استنكارهم ، إنما هي البهيمية وما يرافقها من شعور بحرية وهمية ، إذ هم مع حريتهم هذه عبيد لغرائزهم ، لكنهم رغماً عنهم يحققون صفة من صفات الخالق وهي الحرية وأنه فعال لما يريد ، لكنهم يحققونها بطريقة طفولية فيها منتهى الضعف ، ضعف مع تمرد على الخالق ورفض لتكليفه لنا بعبادته والخلافة عنه في أرضه.

د - القيم والكرامة والحياء

قديماً قيل "إن لكل دين خُلُقاً ، وإن خُلُق الإسلام الحياء" إنه قول لخص أخلاق المسلم في كلمة واحدة.. الحياء.. ليس الحياء بمعنى خشية الناس وهيبتهم التي تجعل الإنسان ضعيفاً منكمشاً يتنازل عن حقه أو يجبن عن قولة الحق ، وليس الحياء بمعنى حَقْرِ النفس وازدرائها وعدم إدراك قيمتها ، فلا يرى نفسه أهلاً لأن يثبت ذاته بين الناس ، بل يبتعد دائماً إلى الظل وإلى الهامش يستتر فيه عن عيونهم التي يتوقع منها أن تنظر إليه بتعالٍ واستخفاف ، إنما الحياء الذي هو جُماع خلق المسلم عكس هذا وذاك ، إنه شعور مبعثه الجرأة في الحق وعدم خشية أحد إلاّ الله وحده ، ومبعثه إحساس بالكرامة والقدر واحترام الذات والنِّدّية للناس أجمعين بلا دونية ولا إحساس بالنقص لأي سبب من الأسباب ، وبلا كبر ولا استعلاء على خلق الله الذين جعلهم خالقهم سواسية كأسنان المشط ، والأكرم لديه أتقاهم له ، وأشقاهم لديه المستكبرون العالون في الأرض. وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه: "إنَّ ممَّا أدركَ النَّاسُ من كلامِ النبوَّة الأولى: إذا لم تستَحِ فاصنَعْ ما شئتَ" وقال: "إنَّ اللهَ تعالى حيِيٌّ كريمٌ ، يستَحي إذا رفَع الرَّجلُ إليه يدَيهِ أن يردَّهُما صِفرًا خائبتَينِ" (صححه الألباني).

والحياء فيه شبه بالخجل من حيث إنه يمنع صاحبه من ارتكاب بعض الأفعال ، لكن بينما الخجل يمنع صاحبه من فعل ما هو مقتنع به وراغب فيه ويرى فيه الخير والحق والمصلحة فإن الحياء يمنع صاحبه من الوقوع فيما يرى نفسه جديرة أن يصونها عن الوقوع فيه ، إنه يمنع صاحبه من مخالفة قيم الخلافة في الأرض ومكارم الأخلاق لأنه يرفض أن يهين نفسه ويربأ بها عن أن ترتكب ما لا يليق بخليفة الله في أرضه.

إن الحياء يمنع المسلم من أن يظلم أو أن يعتدي أو أن يبخل أو أن يجهل أو أن يزني أو أن يكذب.. لأن المسلم يرى نفسه خليفة لله في أرضه جديراً بأن تتحقق فيه صفات الله وأخلاقه إلاّ ما حرم عليه منها كالعظمة والكبرياء ، لذا كان احترام الذات لا بد منه للمسلم كي يتخلق بخلق الحياء ، وكان لا بد لنا من معاملة أطفالنا بكل الاحترام منذ سنواتهم الأولى حتى يتعلموا احترام أنفسهم وينغرس فيهم الإحساس بالكرامة والندية للناس جميعاً ثم نغرس فيهم قيم الاستخلاف في الأرض فيكون خلقهم الحياء يجمعون فيه بين قوة الشخصية والشعور بالقدر

والجرأة الأدبية وبين مانع من داخل أنفسهم ينهاهم عن فعل المنكرات ويدعوهم إلى فعل الخيرات.

5- مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر

من كتاب سكينة الإيمان للمؤلف

أ- النية والدافع النفسي

لا يمكن فهم سلوك إنسان ما فهماً صحيحاً ، ما لم نتعرف على الدافع النفسي الذي دعاه إلى فعل ما ، أو نهاه عن فعل آخر.

والإمام الغزالي رحمه الله يسمّي الدافع النفسي (الباعث)، وابن الجوزي رحمه الله يسميه (الداعي). وكلا المصطلحين يؤكدان على حرية الإنسان أكثر من مصطلح الدافع الذي صاغه العلماء الغربيون.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد أكّد على أهمية النية ، وهي وليدة الدافع النفسي ، والجزء الذي يكون في الشعور منه ، ويستطيع الإنسان بسهولة أن يتفحّصها ، وبالتالي أن يعدّل فيها بما يضمن له قبول أعماله عند المولى سبحانه وتعالى.

قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (متفق عليه).

إنّ المسلم المعاصر يواجه مشكلة في الدافعية ، حيث تتصارع في نفسه أنواع الدوافع الداعية والناهية ، وذلك بما يخصّ إقباله على الحياة بما فيها من سعي وعمل ، هدفه القريب جمع المال ، أو إمتاع النّفس.

فالتقيّ يقبل على جمع المال ، أو التمتع المباح وهو متردد يحسّ بالذنب ، ويرى نفسه مضطرا إلى شر لا بدّ منه ، ويبقى ميدان السعي هذا ينطلق فيه الغافلون ، الذين صنّفوا أنفسهم أنهم من أهل الدنيا ، فيندفعون في سعيهم وراء المال والمتعة ، وهم كالتقي يرونها معصية ، لكنهم قرروا اختيار طريقها ، لا يهمّهم ما يكون جزاؤهم إن صحّ أنّ ما يفعلونه معصية.

لكن الإسلام دين الفطرة ، وحب الخير- والمال أهمّ أشكال الخير- من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والإنسان مستخلف في الأرض ، وعمارة الأرض جزء هام من هذا الاستخلاف ، وكيف يبلغ الاستخلاف مداه إن كان المؤمن مترددا في إقباله على كسب المال ، ولم يركّز أقصى طاقاته وإمكاناته في سبيل ذلك ؟

لقد أثنى الله كثيرا على سليمان عليه السلام مع أنّه دعا الله ، وطلب منه ملكا لا ينبغي لأحد غيره من البشر ، ولنقرأ ما قصّه الله علينا في كتابه الكريم عن حبّ سليمان عليه السلام للمال ، بل عن حبّه لحبّ المال:

"وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ{30} إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ{31} فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ{32} رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ{33} وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ{34} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ{35} فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ{36} وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ{37} وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ{38} هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ{39} وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ{40}" ص.

إذاً لقد أحبّ سليمان عليه السلام من المؤمن أن يحبّ الخير ، وما يشمله من المال الحلال ، وكان حبّه عليه السلام لذلك نابعا وصادرا عن ذكر الله لا عن غفلة ونسيان..

وها هو بعد أن اختبره الله ، ثمّ أناب ، يطلب من ربّه المغفرة والملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده... وبعد أن يعطيه الله ما سأل ، يخبرنا أنّ لسليمان عليه السلام عنده لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ.

ليس المال والمتاع بحد ذاته شيئًا مذموماً يتنافى مع الإيمان والتقوى ، إنمّا الأعمال بالنيات ، والدافع النفسي وراء امتلاك المال والمتاع هو الذي يجعله دنيا على المؤمن اجتنابها ، أو يجعله (خيراً) يسعى إليه المؤمن دون شعور بالذنب .

والمؤمن التقي إذا ما تجنّب أن يكون دافعه إلى المال والمتاع إرادة العُلوّ في الأرض أو الفساد فيها ، فإنّ الجنة ستكون مأواه ، ذلك أنّه عندما يتجنب إرادة العلوّ في الأرض ، أو إرادة

الفساد من خلال ما يعمله في حياته ، فإنه يكون قد طهّر نفسه من الدافعين المحرمين ؛ اللذين يجعلان المال والمتاع حتى لو جاءا من حلال دنيا مرذولة محرّمة.

قال تعالى بعد أن قصّ علينا كيف خسف بقارون وبداره الأرض ، منبها لنا إلى أنّه لم يكن ذنب قارون أنه كان غنيا ، بل أنّه كان متعاليا في الأرض ومفسدا فيها ، قال:

"إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{78} فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{79} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ{80} فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ{81} وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{82} تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}" القصص.

ب- فهو في سبيل الله

كان النبي صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه ، فمرّ عليهم رجل ذاهب إلى عمله ، وكان الرجل قويّ البنية ، ويبدو عليه النشاط والجلد ، فخطر ببال الصحابة أن لو كان سعي هذا الرجل القويّ في الجهاد في سبيل الله ، وكانوا يظنون أنّ قوّة البدن والجلد والنشاط لا تكون في سبيل الله إلا في مواطن الجهاد ، وأنّ إنفاقها من أجل السعي والعمل اليومي في سبيل الرزق إضاعة لها ، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأوا ذلك الرجل القويّ

النشيط في طريقه إلى عمله اليومي قالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن كان خرج يسعى على وُلْده صغارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يَعُفُّها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان". (رواه الطبراني).

إذاً هما الدافع والنية اللذان يجعلان من العمل اليومي ، ومن السعي إلى الرزق عبادة أو معصية. إن كان الإنسان يقوم بما يقوم به تدفعه إلى ذلك إرادة العلوّ في الأرض ، أو إرادة الفساد فيها ، فإنّه في معصية. أما إن كان المؤمن يسعى وراء الرزق ، ويبذل ما يستطيع ليستزيد منه بالحلال ، ونفسه متحرّرة من شهوة التعالي ، أو من أيّة نزعة إلى الفساد في الأرض ، فإنّ ما يبقى في نفسه من دوافع وراء سعيه يكفي ليحيل عمله اليومي إلى عبادة والى سعي في سبيل الله... ويبقى المقياس قوله تعالى:

"تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}" القصص.

لقد قامت نهضة الغرب العلمية والتقنية على رجال أفنوا أعمارهم في العلم، أو الصناعة ، أو التجارة ، يحرمون أنفسهم من المتع وهم الأثرياء لا بخلا على أنفسهم ، إنمّا نسيانا لها في خضم استغراقهم في التّعلّم ، أو البحث العلمي ، أو توسيع تجارتهم وصناعتهم ، لكن الدافع النفسي لديهم كان في اغلب الأحيان إرادة العلوّ في الأرض... إنهم يريدون المجد العلمي ، أو بناء إمبراطورية شخصية من شركات ومصانع تشبع شهوتهم إلى العظمة والكبرياء.

ورغم الدافع الرديء وراء جهودهم ، وجلدهم ، ونشاطهم ، فإنّ ما حققوه صبّ وتجمّع في تيار قوي حققت أممهم من خلاله التفوق والغلبة على باقي الأمم. إنّ سعيهم إنمّا هو سعي في سبيل الشيطان: لأنه سعي قائم على الرياء ، والمفاخرة ، وحبّ الظهور. لكن المؤمن يستطيع أن يفعل مثلهم دون أن يسعى مثلهم إلى العلوّ في الأرض ، إنمّا له أن يعمل ليل نهار في سبيل الاستزادة من العلم ، ومن أجل البحث العلمي والاكتشاف ، أو أن يعمل ليل نهار حتى ينجح مشروعه التجاري ، أو الصناعي ، ويتوسع ويصبح مشروعا عملاقا قادرا على المنافسة الشريفة ، ويأتيه بالأرباح العظيمة..

وإذا ما نجح المؤمن في إبعاد إرادة العلوّ في الأرض ، أو إرادة الفساد فيها عن نفسه ، فإن سعيه هذا يكون في سبيل الله. فالنفس لا تخلو أبدا من الدافع والنية وراء أيّ عمل تقوم به ، وإن هو تجنّب الدافعين المحرمين ، فلا بدّ لدافع آخر أن يبقى في نفسه ، ويكون دافعا يرضى عنه المولى ، وبذلك يكون السعي وراء المال الكثير الحلال سعياً في سبيل الله ، ولا حاجة للمؤمن التقيّ إلى أن يتردّد في ذلك ، فنعم المال الصالح للعبد الصالح كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا المؤمن الثري ، حتى لو لم يعط من ماله الكثير سوى الزكاة ، فإنّه بمشاريعه يوجد فرص العمل الكثيرة لباقي المؤمنين ، وبجلده ونشاطه يساهم في الاستقلال ، والاكتفاء الذاتي لأمتّه وبلاده ، بحيث تستغني عن أعدائها في طعامها ولباسها وكلّ احتياجاتها ، فكيف إن كان هذا المؤمن الغنيّ ممن ينفقون مع الزكاة الكثير؟ إنه سيكون على طريق عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهما من أثرياء الصحابة ؛ الذين كانوا يمتلكون الثروات الواسعة ، وينفقون في سبيل الله منها المبالغ الطائلة.

لقد كانت ثرواتهم بمثابة مركب حملهم إلى الجنة ، وهم المبشّرون بها ، وما كانت هذه الثروات لتتكوّن لديهم بضربة حظ ، إنما هو الجهد والدّأب دون تردد ، أو إحساس بالذنب أو سوء فهم لدين الله ، أو ظنّ أنّ إقبالهم على جمع المال الكثير الحلال إنما هو انكباب على الدنيا ، وإعراض ، وغفلة عن الآخرة .

إنّ المال والعلم هما عصبا القوة في هذا العصر ، ولئن كان المؤمن القادر على طلب العلم والإبداع فيه كالمجاهد في سبيل الله إن هو أقبل على العلم متحررا من حبّ الظهور أو الفساد ، فإنّ المؤمن الماهر في التجارة والصناعة إن هو أقبل على تجارته وصناعته بأقصى اهتمام ونشاط واندفاع ، فإنّه سيكون في سبيل الله أيضا ما دام متواضعاً لله ، ساعياً إلى الصلاح في الأرض ، ولا يدفعه إلى ما يقوم به إرادة العلوّ أو الفساد.

ج- خلفاء الله في أرضه

عندما يسعى المؤمن إلى المال الكثير ، فإنّه لا يخرج عن سبيل الله إلا إن دفعه إلى ذلك إرادة العلوّ في الأرض ، أو إرادة الفساد فيها ، أو إن هو لجأ إلى ما حرّم الله من سبل كسب المال.

أما إن هو اجتنب النوايا المحرمة ، والوسائل المحرمة ، فإنّ عمله يكون في سبيل الله ، وما كان في سبيل الله فهو عبادة ، له أن يتوقّع عليها الأجر والمثوبة.

والإنسان مفطورٌ على حبّ الخير ، والخير عند العرب وفي القرآن الكريم يعني في بعض الآيات المال. وقد جعل المولى سبحانه وتعالى المال والبنين من ضمن ما رغّب به الناس كي يؤمنوا ، ويتّقوا ، مع أنّه وصف المال والبنين بأنّهما زينة الحياة الدنيا ، فلم يقتصر وعده للمؤمن على ثواب الآخرة ، بل جعل شيئاً معجّلاً مما ترغب به نفسه ، وذلك كي يزيد الدافعية لديه ، فالإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يعاكسها.

فها هو نوحٌ عليه السلام يروي ما وعد به قومه إن هم آمنوا... قال تعالى:

"ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً{8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً{9} فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً{10} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً{11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً{12}" نوح.

إذاً لو آمن قوم نوح عليه السلام واستغفروا الله لغفر لهم ، ولأرسل السماء عليهم مدراراً بمطرٍ يحيل أرضهم جناتٍ وأنهاراً ، ولأمدهم بأموالٍ وبنين... وبذلك يجتمع لهم الرّفاهية والقوّة في الحياة الدنيا.

ولو كان ذلك مما يكرهه الله لما وعد به الناس إن آمنوا واستغفروا.

وإن كان العطاء الواسع فتنةً واختباراً بحدَ ذاته ، فهو يستوجب الشُّكر لله تعالى ، كما يستوجب عدم التعالي به على الناس ، وعدم استخدامه في معصية الله ، والفساد في الأرض. قال تعالى:

"وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً{16} لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً{17}" الجن.

أمّا شكر النّعمة فقد جعل الله له مكافأةً فوريّةً وهي أن يزيدنا الله من نعمه. قال تعالى: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ{7}" إبراهيم.

بل لقد وعد الله المزيد من الرزق كجائزةٍ للتقوى ، قال تعالى:

"فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2}" الطلاق.

وذكر الحقُّ تبارك وتعالى عن المؤمنين الصالحين أنهّم يسألونه من خيري الدنيا والآخرة ، فلا يرون خير الدنيا شيئاً لا يليق بالمؤمن التقيّ الساعي إلى الآخرة. قال تعالى:

"فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ{200} وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{201} أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ{202}" البقرة.

إذن المؤمن يسأل الله من خيري الدنيا والآخرة ولا يقتصر همه على الدنيا وينسى الآخرة ، كما لا يقتصر همه على الآخرة وينسى الدنيا التي يعينه صلاحها على بلوغ غايته من الفوز بالآخرة ، فمطلبه ان يرزقه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

ومن مقوّمات الشُكر على النعمة أن يبتغي المؤمن بها الدار الآخرة فيستخدمها في البّر والطاعات ، ولكن دون أن ينسى نصيبه من الدنيا ، إنّه نصيبه المعترف له به ، والمقسوم له ، وإذا ما ابتعد المؤمن عن الرياء ، والمفاخرة ، واستخدام ثروته في التعّالي في الأرض ، أو في ارتكاب الفواحش ، وغيرها من المعاصي ، وصور الفساد في الأرض ، فإنّ نصيبه من الدنيا لن يستهلك ثروته كلّها إن كانت عظيمةً.. قال تعالى:

"وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77}" القصص.

إن الدنيا تنتظر الأتقياء أن يقبلوا عليها ، فيكون منهم التّاجر صاحب التجارات الواسعة أو الشركات العملاقة ، والحرفيُّ الماهر ، والعالم المخترع ، والفنان المصلح.

لقد ملّت الدنيا من إقبال الفجّار عليها وغيبة الصالحين ، إنّها تفتقد التاجر الأمين الذي لايغشُّ ولا يحتكر ، ولا يستغلُّ حاجةَ الناس إلى سِلْعة فيمتصُّ دماءَهُمْ ، وهي تفتقدُ الغنيَ الذي لا يفسد في الأرض بماله ولا يستعلي به على الخلقِ ، إنها تنتظرُ الإنسان الخليفةَ الذي يكونُ على أفضلِ مثالٍ ، فيكون قدوةً ونموذجاً للبشريةِ يقولُ لهم هكذا تكون الخلافة في الأرض ، إقبال على العمل والبناء لكن دون تعالٍ أو فسادٍ ، ودون غشٍّ أو أكلٍ لما حرم الله.

إنّ على الدعاةِ إلى الله أن يدركوا أهمّيةَ ذلك كي يحرّروا المؤمنين الأتقياء من صراعهم النفسي وتردُّدهم بين الإقبال على الدنيا والإحجام عنها ، وَليُحَرّرُوهُمْ من ظَنّهم أنّ المال والمتعة الحلال لا يليقان بالتقيّ ، مع أنَّ النفس تميل إليهما والحياة لا تستقيمُ إلا بهما ، بل هما مما رغَّبَ الله به الناس كي يؤمنوا ويتوبوا ويتقوا.

على الدعاةِ أن يُنبَهوا الناس إلى الخير الدنيوي الذي لهم أن يتوقعوه إن هُمْ آمنوا واستغفروا واتّقوا ، وهذا مما يزيد دافعيتهم للإيمان ، ومما يزيد دافعية من آمن منهم للعمل الصالح ، وتقوى الله .

إنّ مشكلة الدّافعية في حياة المسلم المعاصر تحتاج إلى الكثير من الانتباه كي ينطلق هذا المسلم متحرراً مما يكّبله ويعيقه عن أداء دوره كخليفةٍ في الأرض ، يحمل المودة والرحمة قي قلبه والخير في يديه ، ويأخذ نصيبه من الدنيا ، ويزداد قوة ، فيكون للناس نموذجاً تشتاق النفوس إلى تقليده.

د- بل عباد مكرمون

قال تعالى عن الذين ادعوا أن الملائكة بنات الله:

"وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{26}" الأنبياء.

بل عباد مكرمون.. أي الملائكة عباد لله مكرمون ، وهي عبارة تجمع الأضداد حيث تصف الملائكة أنهم عبيد أو عباد لله وتثبت لهم الكرامة والمكانة العالية فهم مكرمون مع أنهم عبيد ، وهكذا هي دوماً العبودية لله تعالى ترفع ولا تخفض ، وتعز ولا تذل ، قال تعالى:

"يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ{8}" المنافقون.

العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. وليس المؤمن ذليلاً إلا على والديه أو على باقي المؤمنين ذلاً من الرحمة لا ذلاً من المهانة وانخفاض القدر ، قال تعالى:

"وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً{24}" الإسراء.

وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{54}" المائدة.

وقال أيضاً: "لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{26}" يونس.

وقال عن الكافرين الرافضين لهدايته: "خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ{44}" المعارج.

وقال عن عصاة بني إسرائيل: "إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ{152}" الأعراف.

هكذا تكون الذلة عقوبة للمستكبرين الرافضين للهداية جزاء من جنس عملهم حيث الكبر دافعهم الأول للعصيان ، ولا تجد المؤمن مطالباً بالذلة أو مشجعاً عليها إلا ذلة الرحمة للوالدين وقد بلغا الكبر وتقدمت بهما العمر وأحنت ظهريهما ، أو ذلة المؤمن للمؤمن حيث المودة والرحمة هي العلاقة اللائقة بمجتمع المؤمنين.

ولا تجد فرضاً للذلة على المؤمن حتى لخالقه جل وعلى رغم أنه ربه ومالكه ، بل تجد العلاقة المثلى بين هذا الخالق الكريم وعباده الصالحين هي علاقة الحب المتبادل والطاعة من قبل العبد لمولاه ، طاعة تليق بعظمته وحكمته التي نؤمن بها ، يقابلها ربنا برضاه عنا وحمايته لنا ، وهذه قضية يجب أن تكون واضحة في أذهاننا حيث كثرت الدعوات من بعض المؤمنين إلى التذلل لله والتركيز على الذل أمام الله الذي يستحق منا ما هو أكثر من التذلل له ، لكنه الرحمن لم يطالبنا بالذلة له بل أكد على تكريمه لنا كبشر وأكد على أن أكرم الناس عنده أتقاهم ، قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}" الحجرات.

فالأتقى عند الله كريم مكرم لا ذليل مستذل ، وكلما زاد المؤمن تقىً زاد عند الله كرامة. ولعل الرجلين الذين حققا العبودية لله حق التحقيق هما إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم فاستحق كل منهما أن يكون لله خليلاً ، وكم في هذه المرتبة من تكريم!

نحن مخلوقات لله وملك له لكنه جعلنا مستخلفين في الأرض نحقق في أنفسنا صفاته وأخلاقه وإن كان حرم علينا أن نستكبر أو نستعلي لأن العظمة والكبرياء لا تنبغيان إلا له جل في علاه ، لكن الإنسان مكرم على سائر المخلوقات قال تعالى:

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً{70}" الإسراء.

وقد أمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم عندما خلقه ، سجود التحية ، مما استفز إبليس وأغضبه أن الله كرم آدم عليه السلام ، وهذا يؤكد لنا أن المطلوب من المؤمن هو الحب والطاعة لا الذلة والمهانة ، ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذي يحافظ على كرامة الإنسان حتى في علاقته مع ربه ومولاه.

والعلاقة بين المؤمن وربه في الإسلام علاقة حب متبادل ، وهي علاقة شخصية بين ذات إنسانية مخلوقة لتكون خليفة لله في أرضه وذات إلهية ليس كمثلها شيء لكنها موصوفة في القرآن الكريم والحديث الشريف بما يقربها إلى نفس الإنسان ويجعلها قابلة للحب

والمناجاة، بينما المبالغة في تنزيهه سبحانه وتعالى تجعل التوجه له بالحب، والشعور بالعلاقة الرائعة معه، أمراً عسيراً على النفس البشرية المحكومة بقدرتها على الإدراك والتعاطف، كل ذلك دون أن ينسى المؤمن أن الله ليس كمثله شيء كما قال هو عن نفسه:

"فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{11}" الشورى.

وهذا يعني أن أفضل منهج للاعتقاد بصفات الخالق سبحانه وتعالى هو منهج سلف هذه الأمة الذي كانوا عليه قبل أن يتأثر المسلمون بالفلسفات والثقافات التي اطلعوا عليها لدى الأمم الأخرى، أي الإيمان بصفاته التي وصف بها نفسه بلا تأويل ولا تعطيل، لأنها كما وردت تمكن قلب المؤمن من التفاعل الوجداني مع خالقه، حيث الحب هو الدافع الأكبر للإيمان ومنه تستمد حلاوة الإيمان بالخالق العظيم.

ولنتأمل ما يقوله ربنا سبحانه وتعالى في الحديث القدسي عن حبه للمؤمن الصالح، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته". (رواه البخاري).

حب ورحمة ومراعاة للمشاعر في أرقى صورها لا يليق غيرها بالودود الرحمن اللطيف الكريم جل في علاه.

هـ- بالتقوى يصير المباح عبادة

يتحرّج كثير من المؤمنين الأتقياء من إعطاء النفس حقّها من اللهو المباح، بما يشمله من ممارسة أنواع الرياضة البدنية المفيدة لبناء جسم قوي، وللحفاظ على العافية البدنية إلى آخر العمر.

والظّنّ لدى هؤلاء الأتقياء أنّ اللهو حتى لو كان بما أباحه الله إنما هو في أحسن الأحوال إضاعة للوقت فيما لا ثواب فيه ، لذا تراهم يحرمون أنفسهم ، ويحرمون أسرهم من كثير من المتع المباحة ، ومن الرياضات البدنية وأنواع الترويح الأخرى ، مما ينعكس على صحتهم البدنية وصحة أولادهم ترهلاً وضعفاً ، ويجعلهم عرضة للأمراض التي تصيب من لا يمارس الجهد البدني عادة ، ومما ينعكس على صحتهم النفسية ميلاً إلى الكآبة يقلل من إنتاجيتهم الفكرية ، بل وحتى التعبُدية لأن المزاج المتكدّر لا يعين على العبادة.

ولكن الإسلام دين الفطرة ، ولا يمكن أن يتعارض معها ، وقد اكتشف العلماء المعاصرون أجزاء من دماغ الإنسان وظيفتها أن تولّد الإحساس بالمتعة واللذة إذا ما نبّهها المنبّه المناسب ، ووجدوا أنها هامة جدا للعافية النفسية ، حيث يؤدي تنبيهها إلى إخراج الإنسان من اكتئاب نفسي لم ينفع في علاجه دواء ، وإلى بث روح الأمل والتفاؤل لديه ، وملئه بالحيوية والنشاط.

فالإنسان لا يمكنه أن يحيا طبيعياً معافى نفسياً دون شيء من المتعة والترويح... وطالما أن الله ركّب في أدمغتنا أجهزة للاستمتاع ، فلا يمكن أن يتعارض الاستمتاع مع دين الله.

قال تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ{31} قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{32} قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{33}" الأعراف.

إذاً الذي حرّمه الله ينحصر في الفواحش ، والإثم ، والبغي بغير الحق ، والشرك ، والتَّقَوُّل على الله ، وأحلّ ما وراء ذلك من متع وزينة أخرجها الله لعباده قاصداً بذلك أن تكون مصدر متعة وجمال لهم ، ولن يكون في استمتاعهم ، أو تزيّنهم بها خروج عن أمره.

لكن السؤال يبقى دائما: أوَليس في اللهو المباح إضاعة للوقت فيما لا ثواب عليه ؟.

لقد بين لنا النبيُ صلى الله عليه وسلم لنا في المتع المباحة ميزاناً بحيث اذا ما تحقّق فيها الشرط الأكبر ، وهو اجتناب ما حرّمه الله صار لنا في المتع أجر ومثوبة ، أي: صارت عبادة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه أنّ ناسا قالوا: "يا رسول الله! ذهب أهل الدُثور بالأجور" وأهل الدّثور هم أهل الأموال.. فالصحابة الفقراء هنا أحسوا أنّ الأثرياء من المؤمنين قد سبقوهم في الأجر حيث ينفقون من أموالهم في سبيل الله ، والفقراء لا يجدون ما ينفقونه مثلهم... قال هؤلاء الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم. فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: "أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون به ؟! إنّ بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة".

فدهش الصحابة لقوله صلى الله عليه وسلم: "وفي بضع أحدكم صدقة" فلم يكن يخطر ببالهم أنّ تمتّع الإنسان بمتعة ما يكون له به أجر ، فكيف بالمتعة الجنسية التي يعنيها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في بضع أحدكم ، هنا علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم كيف تقاس الأمور ، ويحكم عليها ، وبيّن لهم أن مجرد اجتناب المؤمن لما حرم الله ، وحرصه على الحلال يجعل استمتاعه عبادة مأجورة.

إن الاجتناب لما حرم الله هو جوهر التقوى ، وإذا ما أضيف إلى المباح حتى لو كان هذا المباح شهوة خالصة ، فإن المباح يصبح عبادة ، ولم يشترط النبي صلى الله عليه وسلم لحصول الأجر عند إتيان المؤمن لشهوته شيئًا إلا اجتناب الحرام ، فهو لم يشترط أن يغيّر المؤمن نيّته وقصده من الاستمتاع إلى ابتغاء ولد يجاهد في سبيل الله أو غير ذلك مما يظنه البعض شرطاً لتصبح المعاشرة الزوجية مأجورة ، فهذا تكلُّف إن كان ممكنا في بعض الأحيان فلا مجال له في غالب الأحيان.

ولنتأمّل تتمّة الحوار بين الصحابة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر".

فكما أن النية لا تشترط في المعصية ، اذ يكفي أن يقع الإنسان في الحرام وهو يعلم حتى يكون آثماً ، فإنّه يكفي للمؤمن أن يجتنب الحرام حتى يكون طائعاً مأجوراً ، ومن الحرام الذي عليه اجتنابه في أيَ فعل نيّة العلوّ في الأرض أو الفساد فيها.

فبالتقوى تغدو حياة المؤمن عبادة مستمرة... حتى أكله وشرابه. ومرة أخرى دون افتعال نيّة متكلّفة ، إنما يأكل ويشرب استجابة لحاجة نفسه ورغبتها. قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها" (رواه مسلم).

صحيح أن المباح بحد ذاته لا أجر عليه ولا عقوبة ، لكن اجتناب الحرام عند إتيانه ، أي: إتيان المباح بتقوى ، يجعل للمؤمن أجراً عظيماً ، وهو أجر التقوى التي تجلّت في هذا المباح ، إنه يضعها في الحلال ، ولا يضعها في الحرام ، فيكون له الأجر ، ويكون متعبداً حتى وهو يتمتع بما أباح الله له .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين